نفحات العبير

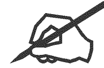
في مهمات التفسير

المؤلف

نفحاتُ العبير

في مُهِمّات التفسير

المؤلف



محمّد شعيب الله خان المفتاحي الهندي

المؤسس والمدير

للجامعة الإسلامية مسيح العلوم ، بنغلور، الهند

اسم الكتاب: نفحات العبير في مهمات التفسير
مولف الكتاب : محمد شعيب اللّٰه خان المفتاحي الهندي
صفحات   :   ٣٦٣

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تـقريظ

العلامة العالم الرّبّاني المُفَسِّر المُحَقِّق الشيخ محمّد علي الصّابُوني

أدامَ اللّٰه علينا ظِلَّهٗ و متعنا بفيوضه

(الأستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة سابقا، وصاحب التصانيف الجليلة)

ألـحـمـدُ لـلّٰه ربّ العالمين ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشرف الأنبياء سيدنا مـحـمّدٍ واله وصحبه أجمعين، وبعد: فقد اطّلعتُ على الكتاب الجميل الجديد، الـمـوسوم باسمِ " نفحات العبير في مُهِمّاتِ التفسير" لِمؤلّفه الأخ العالِم الجَلِيل الـفـاضِـل الشيـخ مُـحـمّد شُعيب اللّٰه خان المِفُتاحي، فألْفَيتُه كتاباً جامعاً مفيداً جَـمَـعَ فيه مؤلّفُه بين فنون علوم التفسير ، فأجَادَ فيها وأفَادَ، جَزاهُ اللّٰه خيرَ الجزاء، وقـد أخـرَجَ الـدُرَر، والـنَـفـائِـس مـن بُـحُـور عـلماء سَلَفِنَا الصالح في التفسير، والـحديث ، والقراءات، وسائر العلوم الشرعية ، المُتَعلّقة بالكتاب العزيز، في هذا السِّفر القيِّم الذي اطّلَعتُ عليه.

ولـلـحقّ أقُولُ : إنَّنِي لم أقرءُ جميعَ ماكَتَبَه في هذا المؤلَّف لكثرة أشُغالي التـي مَـنَـعَتُـنِـي مـن قراءته من أوَّلِه إلى آخرِه، ولكنَّنِي تَصَفَّحُتُ منه أبُحاثاً دَقيقةً عَـميـقةً ، حَـقَّـقَ فيهـا بـأسُـلوبه البَارِع وَجهَ الحقِّ الناصع، ووَجَّهَ بعدَ ذِكُر الأدلّةِ الـوجـهَ الأقوٰى والأصحَ فيها، كما فَعَلَ في بحث " أحاديث التفسير في الميزان " حيـث نَـقَـلَ عن الإمام الزَرُكَشِي قولَه : " يجب الحذرُ من الحديث الضعيف منه والـمـوضـوع، فـإنّـه كثيـر، وإنّ سِواد الأوراق سِوادُ القلب ، الخ " ثم قال أخونا الكريم مُحمّد شُعيب :

" كلمةُ الإنصاف في هذاالموضوع: أنّ أحاديثَ التفسير نوعان : مِنها ما هو صحيحٌ أو حَسَنٌ، ومِنها ماهو ضعيفٌ أو باطلٌ، فَمَا تَوَافَرَتِ الأدلّةُ على صِحّته وقُبوله، فهذا يُقْبَلُ ويُفسَّرُ القرآنُ على وَفقه، ولا يليقُ رَدُّه ، ولا إغفالُه وإهمالُه، وأمّا ما لم يصحّ فهذا يجبُ رَدُّه، ولايجوزُ قُبولُه ولا الاشتغالُ به".

وفي بحثٍ هامٍّ وهو: " هل في القرآن كلماتٌ غيرُ عربيةٍ مثل (القسطاس)، و(قسورة)، و(كفلين)" ذَكَرَ نظريةً يَطْمَئِنُّ إليها القَلبُ ، وتَتَّفِقُ مع ما جَاءَ في وصف القرآن ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنهُ قُرْاناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ** ﴾ ، فقالَ جزاهُ اللّٰه خيرَ الجزاء: إن الألفاظ التي تُنسَبُ إلى العجميةِ اسعملتُها العَرَبُ وعَرَّبَتُها، فهي عَرَبِيَّةٌ بهذا الوجه، أخذتُها فَغَيَّرَتُ بعضَها بالنقص من حروفها، وجرتُ إلى تخفيف ثقل العُجمة ، واستعملتُها في أشعارها، وفي مُحاوراتِها، حتّى جرتُ مَجرَى العربي الصحيح، ووقع بها البيان ، وبهذاالوصف نَزَلَ بها القرآن.

وبإيجازٍ فإنّه كتابٌ جامعٌ نافعٌ نَسْأَلُ اللّٰهَ تعالى أن يُثِيبَ مؤلِّفَه خيرَالجزاء على ما أسْدى للأمّة الإسلامية من نفعٍ علميٍ دقيقٍ ، وأنْ يُوفِّقَنَا لخدمة الإسلام والمسلمين.

محمد علي الصابوني
(خادم الكتاب والسنة، مكة المكرمة)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تـقـريـظ

العالم الجليل والأديب البارع المُفسِّر المُحدِّث العلامة

سلمان الحسني الندوي حفظه الله تعالى

(استاذ الحديث والتفسير بدار العلوم ندوة العلماء، لكهنؤ، الهند)

الـحـمـدُ لـلّٰه ربّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على سيّد المُرسَلين مُحمّدٍ وآله وصحبه أجعمين ، أمّا بعدُ :

فإنّ كتاب " نَفُحَات العَبِير في مُهِمّات التَفُسِير " الذي بين يديّ ، للعالم الـداعية الـنبيـه الـنبيـل المُفَسِّر المُحَدّث الفقيه فضيلة الشيخ محمد شُعيب اللّٰه خـان ، مـن أجُـمَـعِ مـا أُلِّفَ في أيّامنا هذه في علوم القرآن الكريم ، في أسلوب سهـل مُبَسَّط، يُراعى أذواق الطلاب للعلوم الشرعية، و عامة القرّاء المتوسّطين لـكُتُبِهـا، وقـد حَـاوَلَ الـمُـؤلِّف – و كـان التـوفيق حليفه و النجاح رفيقه – أنُ يَسُتَـوُعِـبَ الـمـواضيـع الـمتعلّقة من علوم القرآن الكريم، من التعريف بمعاني التـفسيـر والتـأويـل ، وحـاجة الـطـالـب الشـرعي إلى علم التفسير ، والتعريف بالمصادر والمراجع في التفسير وعلومه ، وموقف المُفَسِّر من الآيات التي تبدوُ مُتَـعَـارِضَةً فـي ظـاهرها ، والآيات المُتشَابهات، وبيان شروط و آداب المُفسِّر، وتـاريـخ التـفسير ، وطبقات المفسرين ، إلى غير ذلك من العناوين المُهِمّة التي تَـنَـاوَلَهـا قـلـمُ الـمُؤلّف الرَّصِين في بسط و تفصيل، وقد وفّٰى حقَّ الموضو ع ، وصَدَقَ إذُ قالَ في وصف كتابه هذا:

"إني جَمَعْتُ من الفرائد والفوائد ،ومن اللآلي والدُرَر ما كان أشتاتاً في كلام العلماء المتقدمين والفضلاء المتأخرين ، من مظانّها وغير مظانّها ".

وقد رأى الـمُؤلّفُ أنّ أكثر الكتب الموجودة في علوم التفسير لايُلبّي جميعَ حاجات الطلاب في الجامعات الشرعية، و في قسم التفسير ، وأنّ الحاجة ماسّةٌ إلى إفراد كتاب على نسق و ترتيب جديد ، وهو يقول: " قد ابتكرتُ في عملي هذا ترتيباً لطيفاً و منهاجاً جديداً " . فكان تأليفه هذا سدّاً لفراغ في الكتب الدراسية المقرّرة في مدارس شبه القارة الهندية .

ونحن إذْ نُبارِكُ له هذا العمل الجليل في خدمة كتاب اللّٰه عزّ و جلّ ، و نُهنّئُه على ذلك ، نَدعُو له بمزيد من التوفيق والإنتاج والابتكار ، و نُهيبُ بالمعنيّين بالتعليم ، والمناهج الدراسية في الجامعات الإسلامية ، أنْ يدرسوا هذا الكتاب لتقريره في المُقَرّرات الدراسية ، والعناية به ، وإعطائه حقَّهٗ من الاستفادة والاستنارة .

واللّٰهَ أسْأَلُ أنْ يَتَقَبَّلَهٗ ، و يَنْفَعَ به، و يُبارِك فيه ، إنّهٗ قريبٌ مجيبٌ .

كتبه:

سلمان الحسني الندوي

(استاذ الحديث بدار العلوم ندوة العلماء ، لكهنو)

بسم الله الرحمٰن الرحيم

تـقريظ

الأديب الشهير،العالم النحرير،الفاضل اللوذعي ، فضيلة الشيخ نور عالم خليل الأميني دامت فيوضهم

(رئيس تحرير "الداعي" وأستاذ الأدب العربي بالجامعة الإسلامية دار العلوم ، ديوبند ، الهند)

الـحـمد للّٰه رب العالمين،الذى أنزل آخر كتبه على نبيّه خاتم النبيين، والصلاة والسَّلام على عبده ورسُوله مُحمّدٍ سيّد المُرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبـعـد : فـإنّ علم التفسير أجلّ العلوم الشرعية الثلاثة : التفسير، والحديث، والـفـقـه ، كـمـا صَرَّح بذلك العالم الموسوعيّ العلامة جلال الدين السيوطي في كتـابـه : "الإتـقـان فـي عـلـوم القرآن " ، ومن هنا عَكَفَ عليه العلماء عبرَ التاريخ الإسـلامـيّ تـدويـنـاً وتـوصيلاً ،وكتـابةً وتـأليفاً ، ونشراً وتدريساً ، فَتَكَـوَّنَتْ في الـمـوضـوع مـكتبةٌ غـنيّةٌ ثَـرَّةً ، وكَثُرَت الكتبُ والمُؤَلَّفات ،وتَعَدَّدَتْ أساليبُ التـأويـل والتـفسيـر، واختلفت المذاهبُ ، وتنوَّعت طرقُ الطرح ومناهج التأليف حسـب الأغـراض التـي وضـعهـا الـمُؤَلِّفُون نُصُبَ أعْيُنِهِم لدى تأليفهم ؛ لكنّها جـميـعًـا دَلَّـت عـلـى عنايتهم بهذا العلم الشريف الذي يُمَاسُّ كتابَ اللّٰه عزَّ وجلَّ مباشرةً ، والذي بدونه لايمكن التوصّلُ إلى مرادات اللّٰه تعالى من ألفاظه في كتابه، وإلـى مـعـانيها المقصودة ، ومراميها القريبة والبعيدة ، وإلى تبيُّن وجوه الإعجاز ، ومـحـاسـن التـعبيـر الإلٰهـي ، وبـالتالي إلى السعادة العظمى الأبدية ، وإلى التذكّر والإعتبـار بما في كتاب اللّٰه من الآيات البيّنات والقصص التي تفيض درسًا وعبرةً

وعظةً ، وإلى معرفة هداية اللّٰه تعالى في كل من العبادات والمعاملات ، وفيما يتعلق بالدين والدنيا ، لكي يتحقّق الغرضُ بفهم مرادات اللّٰه، وهو العمل الصالح النابع من الفهم الصحيح لما فيه من التعليمات التي تهدف إلى بناء الإنسان بناءً يجعله رضياًّ لدى ربّه .

بين يديّ مُسَوَّدَةُ كتابٍ وَضَعَه الأخ الفاضل الشيخ محمّد شُعيب اللّٰه خان، مدير الجامعة الإسلامية "مسيح العلوم" بمدينة "بنغالور" عاصمة "كرناتكا" إحد ى الولايات الهندية ، باسم "نفحات العبير في مُهِمّات التفسير". والكتابُ – كما يدلُّ عنوانه – يتحدّث عن علم التفسير : معناه ومصطلحه ، ووجه تسميته بعلم التفسير ، وحُكمه وشرفه ، وموضوعه وغرضه وفوائده ، وسبب الحاجة إليه، والعلوم التي يحتاج إليه المفسِّر ، وأنواع علم التفسير ، ومصادر التفسير ، وأسباب نزول القرآن، والإختلاف في التفسير وأسبابه وأحكامه ، والإتجاهات المنحرفة في التفسير وأسبابها، ومعنى المُحُكَم والمُتَشَابِه ، ومعنى الناسخ والمنسوخ ، ومناسبة الآيات والسُّوَر ، ومعنىٰ كون السُّوَر مكيّةً أو مدنيّةً ، والتكرار في القرآن :حقيقته وفوائده ، والشروط التي يجب تَوَفُّرُها في المُفَسِّر ، وتدوين التفسير ومراحله، وطبقات المُفَسِّرين ، وأشهر وأوثق التفاسير من القديم إلى الحديث ، وغير ذالك من الموضوعات المُهِمّة الكثيرة المُفِيدَة التي لم نُشِرُ ههنا إلاّ إلى بعض منها.

وقد تصفّحتُ الكتابَ ، وقرأتُه من مواضع شتّى، وأمعنتُ النظر في بعض المباحث ، فوجدتُه كتاباً قداسُتَوُعَبَ بإيجاز ما انتشر ممّا يتّصل بالموضوع في أمّهات الكُتُب والمؤَلّفات الموثوق بها التي أُلِّفَتُ قديماً وحديثاً ، وشكرتُ الأخ المُؤَلِّفَ على ما بَذَلَه من وقتٍ وجهدٍ في دراسة كثير من الكتب التي مسَّتِ الموضوع من قريب أوبعيد – وقد أثُبَتَ فهرساً لبعض منها في آخر كتابه فبلغ عددها ١٣٤ – فجمع منها خلاصةً مصطفاةً بين دَفّتي كتابه الذي جاء شاملاً

لـجـميـع الـمـوادِّ التي يمكن أن يتطلَّع إليها دراسٌ حريصٌ أو طالبٌ مُجِدٌّ أو معلّمٌ مستـزيـدٌ ؛ فـلا يحتاج إلى التطواف على المكتباتِ، والتجوُّل في صفحات كثير من الكتب التي قد يسأم مـنها لكونها قدلا تقع على هواه من التنسيق ، وأسلوب العرض ، ومنهج التأليف، وسهولة اللغة ، وما إلى ذلك .

فـالـكتـاب – لحدّ علمي – أسهل وأجمع الكُتُب المُؤَلَّفَة باللغة العربيّة في هـذا الـمـوضـوع في العصر الحاضر، وإن كان لكلّ منها فضلٌ ومزيّةٌ يختلف بها عـن غيـره ، الأمـرالذي يُشَكِّلُ مُبَرِّراً لِمُؤَلِّفٍ لاحقٍ يضع كتاباً في موضوع سَبَقَه فيـه غيـرُه ، ولـمسـتُ فيـه مـن جـوانب الإفادة ونواحي النفع ما يجعلني أَتَأَكَّدُ أنَّه سيـدعـو كلَّ من يتسامع به لإقتنائه، وقراءته ، والإستفادة منه، والإحتفاظ بها لديه ليـرجع إليها كلّما مَسَّت به الحاجةُ إليها . وقد قلتُ – خلال أكثر من محاضرة ومـقـال – : إنّ الـكتـاب الـمُـفيد بذاته بما يحويه من الموادّ، ويمتاز به من سهولة الـعـرض، وعـذوبة الأسـلـوب، يـكـون ذاتـيَّ الإنتشـــار وعـفـويَّ الجذب للقراء ، ولايحتاج إلى مدحِ مادحٍ ، وتقريظِ عالمٍ، ومقدمةِ كاتبٍ.

وهـنيـئًا للشيخ خان أن وُفِّقَ للتأليف في هذا الموضوع المُشَرِّف الذي تُعْنٰى بـه المدارس والجامعات الإسلاميّة الأهلية في شبه القارة الهنديّة عنايةً لائقةً ،كما تُـعْـنَـىٰ بـغيـره مـن عـلـوم الـكتـاب والسـنّة عـنـايةً تفوقُ عنايةَ المسلمين بها في أقـطـارالـدنيـا الأخـرى ،كـما شَهِدَ بذلك عددٌ من أعلام العرب المعاصرين الذين زَارُوا بـلادَ الـلّـه وعـلـموا أحوالَ الشعوب والأمم . وكتابُه بمحتوياته كأنّه حاجةُ الوقت وَطِلْبَةُ الطلاب والمُعَلِّمِين ، فجزاهُ اللّٰه خيراً .

وجـديـرٌ بـالذكر أنّ الشيخ خان صدرتْ بقلمه باللغة الأردية عددٌ من الكُتُب فـي الموضوعات الإسلاميّة المُلِحَّة، و نالتْ قبولاً واستحساناً بالِغَينِ في الأوساط الإسـلامية والـمُـجتـمـعات المدرسيّة، وعَرَفَهُ القُرّاء من خلالها مؤَلِّفاً قديراً وكاتباً مُوَفَّقاً، وهذا كتابٌ با لعربيّة يُؤَكِّدُ أنّ قلمَه يسير على خطّ مُستقيمٍ، وأَهْلِيَّتَه التأليفِيَّةَ

تُـعَسِّـل بما ينفع الأمّة ، ويخدم الدين ، ويُحَقِّق نتائج سارّةً في موضوعات التعليم، ويسـدّ حـاجـاتٍ فـي علوم الكتاب والسنّة تمسّ الدارسين والباحثين والمُعَلِّمين والمُتَعَلِّمين، فجعله اللّٰه ذخراً في ميزان حسناته، وألهَمَه حسنَ العمل والإخلاص ، ووَفَّقَه لمزيدٍ من الأعمال التأليفيّة والتدريسيّة . والحمدُ لِلّٰه أوّلًا وآخراً .

تحريراً في الساعة ١٢/
من ضحى يوم الاثنين
٢٩/جمادى الأولى ١٤٢٧هـ
٢٦/يونيو ٢٠٠٦م

نور عالم خليل الأميني
رئيس تحرير " الداعي" و أستاذ الأدب العربي
الجامعة الإسلامية الأهلية الأم :دار العلوم
ديوبند / يوبي/ الهند

بسم الله الرحمن الرحيم

تـقديم

بقلم المُحدّث الجليل والفقيه النبيل المحقق الناقد العلامة المفتي سعيد أحمد البالنبوري حفظه الله تعالى

(استاذ الحديث بالجامعة الإسلامية دار العلوم، ديوبند، الهند)

الـحـمدُ للّٰه ربّ العالمين، وصلّى اللّٰه تعالىٰ على أك.رم رُسُلِه وأشْرَفِ خلقِهِ محمدٍ، وعلى آلِهِ وصحْبِهِ أجمعين، أمّابعد:

فـإنَّ الـقـرآن الـكـريـم هـوالـكتـاب الـمنزّل الأخير، البالغ ذروةَ الفصاحة والبلاغة، المُيَسَّرللحفظ وا لتذكّر والا تّعاظ، قال تعالىٰ: ﴿ **وَالْكِتَابِ الْمُبِيْنِ**﴾ [الـزخرف:٢]، وقال : ﴿ **قُـرآنًا عَرَبِيًّا**﴾ [طـه:١١٣]. قـال الراغب: "العربي الفصيح المبين من الكلام " . وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْاٰنَ لِلذِّكْرِ، فَهَلْ مِنْ مُّـدَّكِرٍ**﴾ [الـقـمـر:١٧]، وهـويـحـوي بيـنَ طيّــاتِــهِ مـن دُرَرِالمعـاني ، وجواهرالحكم، وغُرَرالأسرار، ما لايُدرِكه كلُّ واحدٍ من النّاس .

فتـكـفَّـلَ الـلّٰـه تـعـالـىٰ ببيانِ ما في كتابه من المعاني، والحِكَم، والأسرار، وكَشُفِ الـقـنـا ع عـنها؛ لأنَّ القرآن كتابُ اللّٰهِ، وهوأعلمُ وأدرٰى بما في دَفَّتَيه، حيث قال:﴿ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ [القيامة:١٩]

كما وسَّد اللّٰه تعالىٰ مَسُؤُولية بيان مرادكلامه، وتفسيره، إلى نبّينا مُحمّدٍ ا نائباً عنه ؛ لأنّ وزراءِ المَلِك ومُقَرّبيه أكثرُ معرفةً بأمورالمَمْلكة وشُؤُونها، حيثُ قـال تـعـالىٰ: ﴿ **وَأنْـزَلْـنَــا إِلَيْكَ الـذِّكْـرَ لِتُبَيِّـنَ لِـلـنَّـاسِ مَـانُــزِّلَ إِلَيْكُمْ**﴾ [النحل:٤٤]

ثـم آلَـتْ مسـؤوليةُ التبييـن والتـفسيـر إلـى أســاطين الأمّة من الصحـابة،

والتابعين، والعلماء الربّانيّين ؛ وذلك لأنّ نبيَّنا مُحمّداً ﷺ بُعِثَ بِعْثَتَين: إحداهما بِعْثتُه إلى النَّاس، وثانيهما بعْثَةُ أمّتِهِ إلى الأُمَم الأُخرىٰ ، حيثُ قال تعالىٰ: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُوْنَ بِالْمَعْرُوْفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال النّبي ﷺ: "**إنّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِيْنَ وَلَمْ تُبْعَثُوْا مُعَسِّرِيْنَ**"، وقال ا في آخر حديث معاذ رضي الله عنه: "**الحمدُ لِلّٰهِ الّذي وَفَّقَ رَسُوْلَ رَسُوْلِه لِمَا يرضَى اللّٰهُ ورسولُه**".

فإذا كانت الأمةُ مبعُوثةً إلى الأُمَم الأُخرىٰ كانتْ نائبةً عن رسولها في تفسير كلام اللّٰه، وأحاديث رَسُولِهِ، وأحكامِ الشّرع، حيثُ قالَ اللّٰهُ تعالىٰ ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ**﴾ [النحل: ٤٤]. وإنّما يُفيدُ التفكير إذا جَازَ لهم التفسيرُ والتبيين .

والتفسير: هو بيانُ مرادِ كلام اللّٰه تعالىٰ بالقطع . وقديماً كان التأويل والتفسير بمعنىً، ثم توسَّعَ استعمالهما؛ فأصْبَحَ التفسيرُ عبارةً عن بيان مراد كلام اللّٰهِ تعالىٰ بالقطع، كما صارَ التأويلُ عبارةً عن بيان مراد كلامه تعالىٰ بالاحتمال.

كان التفسير والتأويل كلاهما – بالمصطلح القديم – من اللّٰه تعالى ، حيث قال: ﴿ **وَلاَ يَأْتُوْنَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيْراً** ﴾ كَمَا أَنَّ الأَنْبِيَاءَ والرُّسُل كانوا يُفَسِّرُونَ كلامَ اللّٰهِ ؛ لأنّهم كانُوا يَعرِفُون مرضاةَ اللّٰه ومراده ، حيث قال: ﴿ **وَمَايَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُّوْحىٰ**﴾[النجم:٣ –٤]

فلمّا جاءَتْ مسؤليةُ التفسيروالتبيين إلى الأمّة ، وهي ليستْ كالأنبياء في التقرّب إلى اللّٰه والصلاح والتقوى ، مسّتِ الحاجة إلى وضع شروط وضوابط لتفسير كلام اللّٰه ، وتأويله تفادياً من الانحراف ، وصوناً عن الضلال . فمنْ تَوَافَرَتْ فيه شروطُ التفسيرفله أن يُفسِّرَ، ويُؤخَذ تفسيرُه ويؤثّقُ به، ومنُ لَمْ تتوافر فيه هذهِ الشروط لايجرأ على تفسير كلام اللّٰه ، فإن فَعَلَ يُرْفَضُ تفسيرُه ويُرَدُّ.

لقد اصطلح العلماء- سلفهم وخلفهم- على هذه الشروط والضوابط، وسَمّوها فنّ "أصول التفسير" وألّفوا فيه كُتُباً كثيرةً . وللشيخ الإمام الشاه ولي اللّٰه بن عبدالرّحيم الدهلويؒ كتابٌ في هذا الفنّ لم ينسج على منواله ، وهو" الفوزالكبيرفي أصول التفسير" الذي هو مدرج في المقرّرات الدراسية في الجامعات والمدارس الإسلامية في شبه القارة الهندية.

وأشبه شيءٍ بهذ الفنّ فنُّ "علوم القرآن" وهو يُعالِجُ ما جاءَ في القرآن من العلوم المُتَنوّعَة والمَعارف المُختَلِفَة . وقد ألّفَ العلماءُ في هذا الفنّ كُتُباً غالِيةً كذلك ، كـ "البُرهان في علوم القرآن" للزركشي ، و"الإتقان في علوم القرآن" للسيوطى ، و"مناهل العرفان في علوم القرآن" للزرقاني ، وغيرها من الكُتُب.

وهذا الكتاب: " نَفَحَاتُ العَبِير في مُهِمّاتِ التَفْسِير" لمؤلِّفه فضيلة المفتي محمد شعيب اللّٰه خان المِفْتاحي (مديرالجامعة الإسلامية مسيح العلوم، بنغالور، الهند) كتابٌ قيّمٌ حافلٌ بالمعلومات الغزيرة والمعارف الغالية، وهو يبحثُ عن كلا الفنّين : أصول التفسير، وعلوم القرآن.

ومباحثه كالتالي

الباب الأول : في معنى التفسير لغةً واصطلاحاً، والفرق بين التأويل والتفسير، وتحقيق المصطلحات ذات الصلة بالتفسير، وموضوع التفسيروغرضه ، والاحتياج إليه.

الباب الثاني : في علوم القرآن ،كعلم الأحكام، وعلم الجدل والمناظرة، وعلم التذكير بآلاء اللّٰه، وعلم التذكير بأيّام اللّٰه، وفي العلوم التي يحتاج إليها المُفَسِّر، و أقسام التفسير ومصادره.

الباب الثالث: في المُحكَم والمُتَشَابِه ، والناسخ والمنسوخ، ومعنى النسخ و أقسامه ، واختلاف اليهود فيه ، وفى فوائدَ مُهِمّةٍ أخرٰى .

الباب الرابع : في شروط المُفَسِّروآدابه ، ومنهج التفسير.

الخاتمة : فـي تـدويـن التفسير، وأدواره ، وطبقات المُفَسِّرين، والتعريف بأهمّ وأشهر كُتُب التفسيرالموثوق بها.

لـقد تَصفَّحْتُ هذا الكتابَ ، فوجدتُه مليئاً بالمعلومات والمعارف، مُقْنِعاً للعقول والقلوب ، وأرى أنّه إضافةٌ قيّمةٌ إلى المكتبة الإسلامية العامرة.

وأدْعُواللّٰهَ أنْ يَتقبَّلَه، وينفعَ به الأمةَ، ويجعلَه ذخراً لمؤلِّفِه. وما ذلك على اللّٰه بعزيز.

تحريراً في ١٤٢٧/٥/٤هـ
الموافق.٢٠٠٦/٥/٣م

كتبه
سعيدأحمد يوسف البالنبوري
مدرس الحديث الشريف
بدارالعلوم ديوبند(الهند)

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمدُ للّٰه كما ينبغي لجلال وجهه العظيم، وكمال وصفه القديم، حمدَ عبدٍ ضارعٍ أوّاهٍ لئيمٍ ، على ما أنعم به علينا من فضله العميم ، والصلاةُ والسلامُ على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدِنا محمدٍ رسولِ رب العالمين، وعلى آلهِ و صحابته أجمعين، وعلى من تَبِعَهُم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعدُ فإن أشرف الأشغال التي يعكف عليها الإنسان في حياته القصيرة هو- لا شك - خدمة كتاب اللّٰه ، و سُنّة رسوله، وما يتعلق بهما من العلوم والمعارف. وقدكانت لي أمنية من أحلى الأماني تَترَعْرَعُ في قلبي منذ سنين ، و هوأنْ أؤلّف كتاباً حافلاً ، أودعه ما يمسُّ طلاب علم التفسير من الحاجة المُلحَّة إلى القواعد، والأصول، التي لا بدّ منها في هذا المضمار، وإلى الآداب والفصول التي تلائمُ الموضوعَ. وهي الّتي أوجزها فيما يلي :

١ - تعريف التفسيروالتأويل، وما يتّصل بهما من ألفاظ، لغةً واصطلاحاً.

٢ - بيان وجه الحاجة إلى التفسير ، وبيان العلوم التي يحتاج إليها المفسِّر، وبيان القواعد المُهمّة في هذا الصدد.

٣ - بيان المآخذ المعتبرة في التفسير، والمآخذ التي لا عبرة لها في هذا الخصوص، عند الأئمة من أهل التفسير.

٤ - موقف المفسِّر عند التعارض بين الآيات ، وعند الآيات المتشابهات ، و في صورة النسخ، و غير ذلك .

٥ - بيان آداب المفسّر ، و منهاج التفسير ، وأسباب الانحراف في التفسير

بشرح و بسط، وبكل دقّة و تحقيق .

٦- تدوين التفسير، ومراحله، وميزات التفسير في تلك المراحل ، وطبقات المُفسِّرين من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم، والتعريفُ بالتفاسير المعروفة ومكانتها لدى العلماء، و ما إلى ذلك من المهمّات .

ولكنّهُ لم تتيسر لي الأسباب لتحقيق تلك الأمنية لصوارف صَرَفَتْنِيْ، و شواغِلَ شَغَلَتْنِيْ ، وكانت السنون والشهور تَمرُّ، وأنا في غمرة الشواغل والصوارف؛ حتّى وفّقني اللّٰه تعالى لتدريس مادّة " أصول التفسير" بالجامعة الإسلامية مسيح العلوم / بنغلور / الهند . وكان من المقرّر الدراسي كتاب "الفوز الكبير في أصول التفسير" للشيخ المحدّث الشاه ولي اللّٰه الدهلويّ. وهو وإن كان عديمَ النظير نظراً إلى ما يحتوي عليه من الأبحاث اللطيفة، والمعارف البديعة، والنكات الغريبة ، ونظراً إلى ما يشمله من غزارة موادّه ، و دقائق أسراره، إلّا أنّه – كما لمستُ خلال تدريسه – لا يكفي لسدِّ حاجة الطلاب، التي أشرتُ إليها آنفاً .

فهُناك تحرّكتُ تلك الأمنيةُ مرةً أخرى ، فعزمتُ على تحقيقها مع قصور باعي، و قلة بضاعتي في هذا الميدان مُستعِيناً باللّٰه تعالى، فجعمتُ الأشتَاتِ من التُراث العلمي الّذي تركه العلماء الفحول ، ثم هذّبتُها ورتّبتُها بترتيب خاص يُفيد – كما أرىٰ – لسدِّ حاجة الطلاب، و يوافق هدفَهم ومرماهم على الأغلب، إن شاء اللّٰه تعالى.

والّذي أهدف إليه في عملي هذا أن أضع في صورة الكتاب بين أيدي الطلاب والباحثين ما يُيَسِّرُ عليهم فهمَ ما يُطالعون و يدرسون من التفاسير القديمة والجديدة ، و يُميّز لهم منها ما هو الصحيحُ من الفاسد، والحقُ من الباطل ؛ لكي يتعرّفوا على طريق مضبوط صحيح ، ومنهج مستند مقبول يُرْشِدُهُم

إلـى تـفهيـم وتـفسيـر الـقـرآن الكريم، على وجهٍ يأخذ مأخذَ الثقة والاعتبار لدى الـعـلـمـاء والأئـمة، ولـكـي يتـجنّبُوا الاتّجاهات المُنحرفة في التفسير، و يجتنبُوا الخلطَ بين الرطب واليابس، وبين الحابل والنابل، والغث والسمين .

هذا، ومن الجدير بالذكر أنّ قُصارى ما عملتُ في هذا الخصوص هو أني جـمـعتُ من الفرائد والفوائد، ومن اللآلي والدُرر ما كان أشتاتاً في كلام العلماء المتقدمين، والفضلاء المتأخرين، من مظانها وغير مظانها، بكل جهدٍ وكفاح، ثم شرحتُ بعض كلامهم إذا احتاج إليه، أو لخّصتُه إذا دعت الحاجة إليه . والفضلُ – لا شكَّ – فـي ذلك لهـؤلاء العلماء الّذين تركوا لنا ثَرْوَةً علميةً حتى ارتوينا من مناهلهم العذبة التي تمّ نبوغها.

نـعـم ! إنـي ابتـكـرتُ في عملي هذا ترتيباً لطيفاً ، ومنهاجاً جديداً ، مع ما أضفت إلى ذلك من الأبحاث التي لاينبغي الإعراض عنها في هذا الصدد.

ولا يـفوتُني أن أذكر أني لستُ من فرسان هذا الميدان، ولا من خيّالة هذا الـمضمار، ولكني دفعني لتأليف ذلك أوّلًا: ما رأيتُ من الحاجة الملحّة الشديدة إلـى مثل هذا الكتاب لسدّ حاجة طلاب التفسير في المدارس و الجامعات، وثانياً: ما كـان من أمنيةٍ في قلبي من خدمة العلوم الإسلامية لا سيما الكتاب والسنة لأنال من نورهما و بركتهما.

وإنـي إذ أقدّم هذا الجهد المتواضع لإخواننا الباحثين، ولأبنائنا الطالبين أعتـرف بـقـصـور عـلـمي، و قلّة بضاعتي في إعطاء هذا العلم حقَّهُ ، وبناءً على ذلك لا عـجـبَ فـي وجـود ما يحتاج إلى التعديل، أوالزيادة ،أو الترميم،أوغير ذلك فيـه . لـذلك فأرجو من أساتذتي وإخواني المشتغلين بالتفسير وعلومه أن يُـفيـدُوُنـي بتـوجيهـاتهم وملاحظاتهم إن رأوا ما يحتاج إليها في كتابي هذا ، لعلي أتداركه في الطبعات القادمة .

ومن الكفران للجميل أن لا أذكر وأشكر في هذا الخصوص إخواني الأفاضل الذين أعطوني من جميل أوقاتهم فرصةً للمراجعة وإعادة النظر في مسودة الكتاب ، وأكرموني بتوجيهاتهم المُفيدة وآرائهم الغالية ، وبذلوا في ذلك مجهوداتهم القَيِّمة ومحاولاتهم الجادّة . منهم محبي المكرّم صاحب الفضيلة فهيم الدين القاسمي حفظه الله تعالى/ المدرس بالجامعة الإسلامية مسيح العلوم، فإنّه أعاد النظر في مسودة الكتاب عن تبصر عميق، وتفكر دقيق، وأكرمني بإبداء ملاحظاته و توجيهاته . ومنهم محبي المولوي محمد زبير أحمد القاسمي، و محبي المولوي محمد ياسين القاسمي حفظهما الله تعالى. فإنهما أيضاً أطلقا وبذلا محاولاتهما في تبييض المسودة، ثم في تخريج النصوص ومراجعة الكتب. فأدعو الله تعالى لهم أن يجزيهم بأحسن ما عملوا ، كما أدعو أن يوفقنا وإياهم للإيمان الكامل ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، والفوز بالجنة، والنجاة من النار .

وأخيراً أسأله تعالى أن أكون قد وُفِّقتُ بما يَسدّ حاجةَ الطلاب، والباحثين في هذا الخصوص، وأن ينفع به أبناءَ نا الطالبين، وإخوانَنا المشتغلين بالتفسير وعلومه ، وأن يجعله نافعاً للمسلمين ، و خالصاً لوجهه الكريم ، وذخراً لي في يوم الدين ، ولله الحمد أوّلاً و آخراً ، والصلاة والسلام على محمدٍ خاتم الأنبياء .

محمد شعيب الله خان المفتاحي

(مديرالجامعة الإسلامية مسيح العلوم/ بنغلور/ الهند)

١٥/صفر/١٤٢٧هـ

١٤/ مارس/٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأوّل فى المبا د ىء

فصل

التفسير فى اللغة و الاصطلاح

مـا هـو التـفسير من حيث اللغة والاصطلاح ؟ ومن أي مادّة اشتقاقُه؟ وما هو معنى التأويل في اللغة والاصطلاح ؟ وما هو مادّته؟ وهل بينهما من فرق؟وإن كـان فـمـا هـو الـفرق ؟ هذه أسئلة ذات خطورة تقتضي أن يبحث عنها، لاسيما حينما نحن بصدد البحث عمّا لابدّ منه للتفسير والمُفسِّر .

لأجـل ذلك فـإنّـي أرىٰ من الواجب – باديء ذي بدء– أن أسترعيَ انتباه القارئ إلى الخوض فيها و البحث عنها لكي نكون على بصيرة، فأقول :

التفسير فى اللغة

التـفسير من باب التفعيل ، ماخوذ من الفَسْر ، و هو لغةً: البيان و الكشف، و قيـل : هـو ماخوذ من السَفْر ، و هو بمعنے الظهور و الوضوح ،كما يقال :"أَسْفَرَ الصبح " إذا ظَهَرَ و أَضَاءَ ، ويقال : "سَفَرَتِ المرأ ةُ " إذا ألقتُ خِمارها عن وجهها وهي سافرة (١).

قـلـتُ : عـلـى هـذا فهو مشتق منه اشتقاقاً كبيراً، والاشتقاق الكبير هو أن يـكون بين اللفظين مناسبة في اللفظ و المعنے فقط دون ملاحظة الترتيب، وقيل : هو ماخوذ من التفسِرة ، و هي آلة الطبيب يَعْرِفُ بها الأمراضَ .(٢)

(١) البرهان للزركشي :٢/ ١٤٨، الإتقان : للسيوطي:٢/٢٢١

(٢) ذكره في الإتقان: ٢/٢٢١، والبرهان :٢/ ١٤٧

و في لسان العرب : الفسر نظر الطبيب إلى الماء، و كذلك التفسرة. قال الجوهري : أظنّه مولّداً، وقيل : التفسرة البول الّذي يُستَدَلُّ به على المرض و ينظر فيه الأطباء ، يستدلّون بلونه على علّة العليل، وكل شيء يُعْرَفُ به تفسيرُ الشيء و معناه فهو تفسرته (١).

التفسير فى الاصطلاح

وأما التفسير اصطلاحاً فقد اختلفت التعبيرات في تعريفه ، فقال الإمام العلامة أبو حيان :

" التفسير علم يُبْحَثُ فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن و مد لولاتها، وأحكامها الإفرادية و التركيبية ، و معانيها التي تُحمَلُ عليها حالة التركيب، و تتمّات لذلك ".

ثم بيّن فوائدَ القيود في هذا التعريف، فقال:

" فقولنا: "علم" جنس ، وقولنا : "يُبْحَثُ فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن" هو علم القراء ة ، وقولنا: "ومدلولاتها" أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا متن علم اللغة الذي يُحْتَاجُ إليه في هذا العلم ، وقولنا : "وأحكامها الإفرادية والتركيبية " هذا يشمل علم التصريف والبيان والبديع ، وقولنا: "ومعانيها التي تُحمَلُ عليها حالةَ التركيب " يشمل ما دلالته بالحقيقة وما دلالته بالمجاز ؛ فإن التركيب قد يقتضي بظاهره شيئاً ويصدّ عن الحمل عليه صادّ، فيحمل على غيره وهو المجاز ، وقولنا : "وتتمّات لذلك" هو مثل معرفة النسخ و سبب النزول وقصة تُوضِحُ بعضَ ما أُبْهِمَ في القرآن و نحو ذلك" (٢).

وقال الزركشيّ في البرهان :

" التفسير علم يُعْرَفُ به فهمُ كتاب اللّٰه المنزَّل علىٰ نبيِّه مُحمّد صلى اللّٰه عليه وسلم، و بيان معانيه، و استخراج أحكامه و حِكَمه، و استمداد ذلك من علم اللغة والنحووالتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراء ات، و يُحْتَاجُ لمعرفة أسباب النزول والناسخ و المنسوخ "(٣).

---

(١) لسان العرب : ٥/ ٥٥ (٢)الإتقان:٢/٢٢٢،و أبجد العلوم : ٢/ ١٤٧(٣) البرهان :١/ ١٣

وقال في كشّاف اصطلاحات الفنون :

" علـم التـفسير علم يُعْرَفُ به نزولُ الآيات، وشؤونها، و أقاصيصها، والأسباب النـازلة فيهـا ، ثـم تـرتيـب مـكيهـا و مـدنيها، و محكمها و متشـابههـا، و نـاسـخهـا و مـنسـوخها، و خاصها و عامها، و مطلقها و مـقيـدهـا، و مـجـمـلهـا و مـفسـرهـا، و حلالها و حرامها، و وعد ها و وعيدها، و أمرها و نهيها، و عِبَرها وأمثالها، و غيرها "(١).

قلتُ: وهـذا الـخـلاف فـي تعريف التفسير يمكن أن يُجْعَلَ خلافاً لفظياً ؛ لأنـه ليـس في الحقيقة خلاف فيه، وإنما هو اختلاف تعبير و أسلوب. فمنهم من ذهـب طـريـق التـفـصيل والتوضيح، ففصّل ما أجْمَلَهُ الآخرون؛ و بعضُهم سَلَكُوا سبيلَ الاختصار والإيجاز، فأجْمَلوا ما فَصّلَه غيرُهم.

معنى التأويل

و قـد يُسْتَعْمَلُ في هٰذا الباب لفظُ التأويل ، و أصله من" الأَوْل" و هو لغةً : الـرجـوع ،كما يقال : آلَ الأمر إلىٰ كذا أي صار إليه ، وقيل: هو من الإيالة بمعنى السيـاسة . أمـا عـلـىٰ كونه مأخوذاً من الأَول، فكأنّه صرف الآية إلىٰ معانيها التي تحتملها. و أما علىٰ كونه من الإيالة فكأنّ المؤوّل للكلام يسوس الكلام، و يضع المعنى فيه موضعَهُ (٢).

وقـال الـجُـرجـانـي في " التعريفات": التأويل في الأصل الترجيع، و في الشرع صـرف الـلـفظ عن معناه الظاهر إلىٰ معنىً يحتملُه ، إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً للكتاب و السُنّة ، مثل قوله تعالىٰ :﴿ **يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ** ﴾ [الأنعام:٩٦] إن أراد به المؤمن من الكافر، أو العالِم من الجاهل كان تأويلاً "(٣).

(١) نـقـلـه العلامة صديق حسن خان القنوجي في أبجد العلوم :١٤٧/٢ و كذا ذكره الزركشي في البرهان:١٤٨/٢، و السيوطي في الإتقان : ٢٢١/٢

(٢) البرهان :٢/ ١٤٨و ١٤٩،الإتقان:٢/ ٢٢١

(٣) التعريفات للجرجاني: ٧٢/١

الفرق بين التفسير و التأويل

و تشعّبتُ آراءُ أهل العلم في التفسير و التأويل ، هل هما مترادفان أو متبائنان أوغيرهما ؟ على أقوال عديدة:

يرى بعض العلماء أن التفسير والتأويل مترادفان، وهذا ما يظهر من صنيع المفسرين القدامىٰ ، كما يقول ابن جرير الطبري في تفسيره :" القول في تأويل قوله تعالى كذا . . .." و "اختلف أهل التأويل في معنى الآية ...." يريد بذلك التفسير و أهل التفسير، ومنه قول مجاهد :" إن العلماء يعلمون تأويلَه" يعني القرآن ، وهو قول أبي عبيد، كما في الإتقان .

وأما الذين فرّقوا بينهما فمنهم:

١ - من قال: التفسير أعم من التأويل، و أكثر استعمال التفسير في الألفاظ و مفرداتها، و أكثر استعمال التأويل في المعاني و الجُمَل ، قاله الإمام الراغب .

٢ - ومنهم من قال: التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والتأويل توجيه لفظ يحتمل معانيَ مُختلفةً ، و وجوهاً متعدّدةً إلى واحد منها بحسب الدليل.

٣ - وقال الماتريدي: التفسير القطع علىٰ أن المراد من اللفظ هذا ، والتأويل ترجيحُ أحد المحتملات بدون القطع .

٤ - وقيل: التفسير يتعلق بالرواية، والتأويل يتعلق بالدراية.

٥ - و قيل : التفسير ما وقع مُبَيَّناً في كتاب اللّٰه، أو مُعَيَّناً في صحيح السُّنّة ، و التأويل ما استنبطه العلماء و الفضلاء .

٦ - وقيل : التفسير بيان المعاني التي تُستَفَادُ من وضع العبارة، والتأويل بيان المعاني التي تُستَفَادُ من وضع الإشارة، وقيل غير ذلك (١).

و الأخير هو اصطلاح مشهور عند المتأخرين ، وإليه جنح العلامة الآلوسي البغدادي حيث قال في مقدمة تفسيره:

---

(١) انظر لهذا المبحث:الإتقان للسيوطي :٢٢١/٢، و البرهان للزركشي : ١٤٩/٢،و مناهل العرفان للشيخ عبد العظيم الزرقاني: ٦/٢

" قد تعارف من غير نكير أنّ التأويل إشارةٌ قُدسيةٌ، و معارفُ سُبحانيةٌ تَنْكَشِفُ من سَجف العبارات للسالكين، و تَنْهَلُّ من سحب الغيب على قلوب العارفين ، والتفسير غير ذلك"(١).

وجه التسمية

أما وجه تسمية هذا العلم بالتفسيرعلى كونه مأخوذاً من السفر أو الفسر؛ فلأن التفسير يكشف القناعَ عن وجه المراد بآيات الله تعالىٰ حتى يظهر ما أراد ربُّنا بهٰذه الآيات، و أما علىٰ كونه من التفسِرة ؛ فلأن التفسير هي آلة تُعْرَفُ بها أحوالُ القلوب صحةً و فساداً ، و تُعْرَفُ بها طُرُقُ إصلاحها، و التدبير لإزالة فسادها و أمراضها .

وأما اختصاص هذا العلم بهذا الاسم دون بقية العلوم، مع أنها كلها مشتملة على الكشف والإيضاح والبيان والإفصاح ؛ فلأنه لجلالة قدره ولشدّة حاجته، كان كأنه هو التفسيردون ما عداه من العلوم .

تحقيق ألفاظ ذات صلة

لابدّ لمن يطالع التفاسيرَ من العلم بمعاني ألفاظ تُسْتَعْمَلُ في التفاسير، ونحن نذكر منها ما لا بدّ منه.

القرآن

اُخْتُلِفَ في لفظ القرآن على أقوال :

١ - فقال جماعة : هو اسم عَلَم غير مشتق، خاص بكلام الله تعالى، كالتوراة والإنجيل، وهو غير مهموز . قال السيوطيؒ: و به قرأ ابن كثير، وهو مروي عن الشافعيؒ ، وقال : وهو المختار عندي.

٢ - وقال الأشعري وغيره: هو مشتق من " قرنتُ الشيءَ بالشيء " إذاضممتَ أحدَهُمَا إلى الآخر ، وسُمِّيَ القرآن به لقِران السُوَر والآيات والحروف فيه .

(١) روح المعاني: ٥/١

٣ – وقال الفراء: هو مشتق من القرائن، وإنّما سُمّيَ به ؛ لأن آياته يصدق بعضها بعضاً ويشبه بعضها بعضاً فهي قرائن .

٤ – وقال جماعة منهم اللحياني وإليه يشير كلام ابن عباس رضي الله عنه: القرآن مصدر "لقرأتُ "، ونظيره من الأسماء: الخُسران من خسرت، و الغُفران من غفرالله لك، والكفران من كفرتك ، فالقرآن هنا بمعنى المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر، وسُمِّيَ به لأنه ليس في العالم كتاب يُقْرَأُ أكثر من القرآن الكريم ، وهذا القول هو مختار ابن جرير الطبري.

٥ – وقال الزجاج وآخرون : هو مشتق من القرء الذي هو بمعنى الجمع ،كما يقال: "قرأتُ الماءَ في الحوض " أي جمعتُه . على هذا فهو وصف على وزن فُعلان . وفي وجه تسميته بهذا أقوال : قال أبو عبيد : سُمِّيَ بذلك لأنه جمع السُّوَر بعضها إلى بعض. وقال الراغب : قال بعض العلماء : تسمية هذا الكتاب قرآناً لكونه جامعاً لثمرة كتبه ؛ بل لجمعه ثمرةَ جميع العلوم (١).

وأما القرآن اصطلاحاً فهو كلام اللّٰه المُنزَّل على مُحَمّد ﷺ ، المنقول إلينا نقلاً متواتراً بلا شبهة ، (وزاد بعضُهم) المكتوب في المصاحف،المحفوظ في القلوب، المقروء بالألسنة، المسموع بالآذان (٢).

السُورة

إن لفظ السُّورة قَرَأَها بعضُ الأئمة بالهمزة ، و بعض آخر بلا همزة . فمن قرأها بالهمزة جعلها مشتقةً من" أسأرت " أي أفضلت من السؤر بمعنى ما بقي من الشراب في الإناء ، وإنّما سُمِّيَتُ بهذا الاسم ؛ لأن السورة أيضاً قطعة من القرآن . ومن قرأها بلا همزة فمنهم من قال : إنها بمعنى المَنْزِلَة ، و خصّ بعضُهم بالمَنْزِلَة الرفيعة ، كما قال النابغة :

---

(١) انظر لهذا المبحث: روح المعاني: ٨/١، و الإتقان : ٦٨/١ وتفسير الطبري: ٦٧/١ومابعده ، ومفردات القرآن للراغب: ٤٠٠

(٢) إرشاد الفحول : ٦٢/١ ، وشرح الفقه الأكبر: ٢٩ ، والإحكام للآمدي : ١/ ٢١٢

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ أَعْطَاكَ سُوْرَةً ۞ تَرٰى كُلَّ مَلِكٍ دُوْنَهَا يَتَذَبْذَبُ

أراد بـالسُورة "المنزلةَ الرفيعة والدرجة العالية"، وسُمِّيَتُ السورة بها لارتفاعها وشرفها لكونها من كلام اللّٰه تعالى. وقيل: إنها مأخوذة من سور البلد، وسُمِّيَتُ بذلك لإحاطتها بآياتها. وقيل: من التسوّر بمعنى التصاعُد والتركيب، كما في القرآن: ﴿ **إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ** ﴾ [صٓ:٢١] فعلى هذا سُمِّيَتُ بها لتركيب بعضها على بعض(١).

وفي الاصطلاح هي طائفة متميزة من آيات القرآن ذات مطلع وخاتمة، وأقلُّها ثلاث آيات (٢).

الآية

اختلفت النحاة في أصل الآية ووزنها على أقوال: فقال سيبويه والخليل: أصلها "أَيَيَة" بفتحات على وزن فَعَلَة مثل أَكَمَة و شَجَرَة، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت الياء ألفاً، فصارت آيةً على خلاف القياس كرايةٍ و غايةٍ إذ المطّرد عند اجتماع حرفي علّة إعلالُ الآخِر؛ لأنه محل التغير. وقال الكسائي: أصلها "آيِيَة" على وزن فاعلة مثل آمِنَة، وكان القياس أن تُدْغَمَ كدابّة إلا أنه تُرِكَ ذلك تخفيفاً، فحذفوا عينها. وقال الفراء: أصلها "أيّية" بتشديد الياء الأولى، فقلبت ألفاً كراهةً للتشديد، فصارت آيةً، و جمعها آي و آيات و آياء (٣).

ثم إنهم اختلفوا في معناها، فقال بعضهم: معنى الآية علامة، و سُمِّيَت بها لأنها علامة على انقطاع الكلام السابق من الكلام اللاحق. وقال ابن

---

(١) تفسير القرطبي: ٦٥/١،الإتقان: ٦٩/١، مفردات القرآن: ٢٥٤

(٢) الإتقان: ٦٩/١، الموسوعة الفقهية: ٢٨٧/٢٥

(٣) روح المعاني: ٣٨٢/١، تفسير القرطبي: ٦٦/١ لسان العرب: ٦١/١٤-٦٢

حمزة : سُـمِّيَـتُ بهـا لأنهـا الـعـلامة التـي يفضي منها إلى غيرها كأعلام الطريق الـمنصوبة للهداية ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ءايَةَ مُلْكِهِ الخ﴾ [البقرة : ٢٤٨] ومنه قول النابغة:

تَـوَهَّـمْـتُ آيَـاتٍ لَهَـا فَـعَرَفْتُهَا ❁ لِسِتَّةِ أعْـوَامٍ وَ ذَا الـعَـامُ سَـابِعُ

وقيـل: الآية بـمـعـنـى الـجـمـاعة، كـما يقال: خر ج القوم بآيتهم أي بجماعتهم، ومنه قول برج بن مسهر الطائي:

خَرَجْنَا مِنَ النَّقْبَيْنِ لَا حَيٌّ مِثْلُنَا ❁ بِـآيَـتِـنَا نُزْجِي اللِّقَاحَ المَطَافِلَا

وسُـمِّيَـتُ بـذاك لأنهـا جـمـاعة مـن حروف القرآن. وقيل: الآية عجيب معجز، وسُمِّيَتُ بها لأن كلام اللّٰه تعالى يعجز البشر عن التكلم بمثله(١).

وأمـا مـعـنـاه الاصـطلاحي فقال الجرجاني : هي طائفة من القرآن يتّصل بـعـضُهـا ببعض إلى انقطاعها، طويلةً كانت أو قصيرةً. وقال الإمام المناوي: قيل لـكُـلِّ جُـملةٍ من القرآن دالّةٍ على حكمٍ ،آيةٌ، سورةً كانت أو فصولاً أو فصلاً من سورةٍ، ويقال لكلِّ كلامٍ منه منفصلٍ بفصلٍ لفظيٍ ،آيةٌ(٢).

ا لطوال والمئون والمثانى وا لمفصل :

قسّـم الـعـلـمـاء سُـوَر الـقـرآن الكريم إلى أربعة أقسام : الطوال، والمئين، والمثاني، والمفصل:

أمـا الـطـوال فهـي سبـع سُـوَر : البـقـرة ، وال عمران، والنساء، والمائدة، والأنـعام، والأعراف ، فهذه ستة . واختلفوا في السابعة ، فقال بعضهم : والسابعة هـي الأنـفال والتوبة، وكلتاهما تُعَدَّانِ واحدةً لعدم الفصل بينهما بالبسملة. وقال البعض: والسابعة هي سورة يونس.

وأمـا الـمـئـون فهـي السُوَر التي تزيد آياتُها على مائة أو تُقَارِبُهَا، وسُمِّيَتُ

(١) روح المعاني: ٣٨٢/١، تفسير القرطبي : ١/ ٦٦ لسان العرب : ١٤/ ٦١-٦٢

(٢)انظر تعريفات الجرجاني: ٥٨/١، والتوقيف في مهمات التعاريف للمناوي : ١٠٧/١

بالمئين؛ لأنها تشتمل على مائة آية فصاعداً .

وأما الـمَثَـانـي فهي السُّوَر تلي المئين في عدد الآيات ، وقال الفراء : هي السُّـوَر التـي آيهـا أقـلّ من مائة آية، وسُمِّيَتُ به لأنها تُثَنَّى أي تُكَرَّرُ أكثر مما يُثَنَّى غيرها من الطوال والمئين . وقيل: المثاني هي السبع الطوال، وقيل على اصطلاح آخر : القرآن كلُّه مثاني، وقيل: هي سورة الفاتحة .

وأما الـمفـصل فهي أواخر القرآن ، وأجمعوا على أن آخره سورة الناس، واختـلـفـوا في تعيين أوّله على اثنى عشر قولاً ، كما ذكرها السيوطي في الإتقان، قيـل أوّلـه سـورة قٓ ، وقيل: الحجرات ، وهو الصحيح عند النووي ، قيل : سورة مـحـمـد، وقيـل وقيـل وقيـل........ إلى غير ذلك من الأقوال، وسُمِّيَ به لكثرة الفصل بين هذه السُوَر بالبسملة، وقيل : سُمِّيَ به لقلّة المنسوخ منه ، ولهٰذا يُسَمّىٰ بالمُحُكَم.

ثـم المفصل على ثلاثة أقسام: طوال، وأوساط، وقصار. فالطوال من قٓ أوالـحـجـرات أو مـحمد على اختلاف الأقوال إلى سورة عمّ، والأوساط منها إلى الضحىٰ، والقصار منها إلى الناس (١).

فصل
حكم التفسير، و شرفه، وموضوعه، وغرضه، و فوائده

حكم علم التفسير

إن عـلـم التفسير فرض من فروض الكفايات على حسب ما تقتضيه ناحية فـقهية، وعـلـى ذلك انـعـقد إجماع العلماء. قال العلامة الجلال السيوطيؒ: وقد أجـمـع الـعـلـماء: أن التفسير من فروض الكفايات، وأجلُّ العلوم الثلاثة الشرعية (أي التفسير و الحديث و الفقه) (٢).

(١) انـظـر تـفسيـر الثـعالبي : ٢٩٩/٢ والبغوي: ٥٧/٣ وزاد المسير : ٤٥٢/٧، ومناهل العرفان : ٢٤٣/١، والإتقان :٨٤/١ (٣) الإتقان: ٢/ ٢٢٤

وقال ابن جرير الطبري بعد سرد الآيات والأحاديث والآثار في الحث على تحصيل التفسير ما نصه: وفي حث الله عز وجل عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبينات ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آية (١).

وقال ابن كثيربعد إيراد الآيات في صدد التفسير: فالواجب على العلماء الكشفُ عن معاني كلام اللّه، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلّم ذلك وتعليمه (٢).

و يمكن أن يُستَدَلَّ على وجوبه بوجوه:

الأول: بقوله تعالىٰ: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُوْنَ الْقُرْاٰنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوْبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ [محمد: ٢٤] حيث أن فيه إنكاراً شديداً على ترك التَّدَبُّر في القرآن الكريم، وهذا يدلُّ على وجوب التدبُّر في القرآن. فإنّه لو لم يجب التدبُّر لما أنكر علىٰ تركه، ومن المعلوم أنه لا يمكن التدبر في القرآن إلّا بالاستمداد من التفسير.

والثاني: بحديث النبي ﷺ أنه قال: إن هٰذا القرآن مأدبة اللّٰه، فتعلَّمُوا من مأدبته ما استطعتم. (الحديث)(٣).

هٰذا الحديث يُرشِدُنا إلى أن التعليم القرآني وهو التفسير من الواجب علينا؛ فإن الأمر–على ما هو أصله– للوجوب.

والثالث: بإجماع الأمّة كما مرّ في عبارة السيوطي.

---

(١) تفسير الطبري: ٦١/١

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/١

(٣) قلتُ: روي هٰذا الحديث عن ابن مسعودؓ موقوفاً و مرفوعاً، فقد رواه عنه مرفوعاً البيهقي في السنن الصغرىٰ: ٥٤١/١، و ابن أبي شيبة في مصنفه: ١٢٥/٦، والبيهقي في شعب الإيمان: ٣٢٤/٢، و رواه موقوفاً عليه الدارمي: ٥٢٣/٢، و الحاكم: ٧٤١/١، والطبراني في المعجم الكبير: ١٢٩/٩، و ١٣٠/١، و عبد الرزاق في مصنفه: ٣٧٥/٣، و ابن المبارك في الزهد ٢٧٢/١

۞ **والرابع** : بالقياس فإن القرآن أنزِلَ على نبيِّنَا ﷺ هُدًى لحياتنا، و شفاءً لما في صدورنا، و دواءً لأدوائنا، و إصلاحاً لما فسد من أوضاعنا . إذاً فعلينا أن نتعلَّمَهُ تلاوةً و تفسيراً ، و أن نعمل به حسبةً للّٰه تعالے؛ فإنه هو السبيل القويم للصلاح والفلاح في الدنيا، و الطريق الوحيد للنجاة والفوز في الآخرة . و لذا قال العلماء : إن التفسير هوأساس العلوم الشرعية، و يُحتَاجُ إليه لكل كمال ديني و دنيوي، عاجلي و آجلي . فعُلِمَ بطريق القياس والمعقول أنّ على المسلمين أن يتعلّمُوا تفسيرالقرآن ، فهو واجب و لازم عليهم إلا أنه من قبيل طلب الكفايات بمعنے أنه إذا قام به بعضُهم سقط عن الباقين .

شرف التفسير

و شرف هٰذا العلم لا يخفىٰ، وهو واضح كضوء الشمس في رائعة النهار، و قد ذكروا في الباب وجوهاً كثيرةً تدُلُّ علىٰ فضل هذا العلم، بعضُها سمعية، و بعضها عقلية، و نحن نشير إلى طرف منها بإيجاز و اختصار:

أما من ناحية السمع، فهي كالتالي :

۞ قال اللّٰه تعالے: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَّشَاءُ وَ مَنْ يُّؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوْتِيَ خَيْراً كَثِيْراً** ﴾ [البقرة:٢٦٩]

قال ابن عباس في تفسير الحكمة: هي معرفة القرآن، وناسخه ، و منسوخه، و محكمه، و متشابهه، و مقدمه، ومؤخره، و حلاله، و حرامه، و أمثاله (١).

وقال أبوالدرداء ﷺ : الحكمة قراءة القرآن و الفكرة فيه، وكذا قال قتادة ومجاهد : الحكمة القرآن، والفقه في القرآن. و عن أبي العالية : الحكمة القرآنُ والفهم به (٢).

۞ وقال النبي ﷺ : **وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللّٰه يقرءُون ويتعلّمون كتاب اللّٰه، و يتدارسونه بينهم إلا نزلتْ عليهم السكينة، وغَشِيَتْهُمُ الرحمة،**

(١)تفسير الطبري: ٨٩/٣، البغوي: ٢٥٦/١، القرطبي: ٣٣٠/٣، الدر المنثور: ٦٦/٢

(٢)تفسير الطبري: ٨٩/٣، البغوي: ٢٥٦/١، القرطبي: ٣٣٠/٣، الدر المنثور: ٦٦/٢

و حَفَّتْهم الملائكة، و ذكر هم اللّٰه فيمن عنده الخ (١).

۞ وقال النبي ﷺ : **الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة الخ** (٢).

۞ وقال أيضاً : **أهل القرآن أهلُ اللّٰه و خاصّتُه** (٣).

قـلتُ : والمراد بالماهر بالقرآن وأهله مَن يحسن قراءته، ويعلم تفسيره، و يعمل به .

وأما من ناحية العقل فما قاله الأصبهاني: أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن ، وبيان ذلك: أن شرف الصناعة إما بشرف موضوعها مثل الصياغة، فإنها أشرف من الدباغة ؛ لأن موضوع الصياغة الذهب والفضة، وهما أشرف من موضوع الدباغة الذي هو جلد الميتة . وإما بشرف غرضها مثل صناعة الطب، فإنها أشرف من صناعة الكناسة ؛ لأن غرض الطب إفادة الصحة، وغرض الكناسة تنظيف المستراح. وإما بشدة الحاجة إليها كالفقه؛ فإن الحاجة إليه أشدّ من الحاجة إلى الطب . إذا عُرِفَ ذلك فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث: أما من جهة الموضوع فلأن موضوعه كلام اللّٰه تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة . وأما من جهة الغرض فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوُثقٰى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفنٰى. وأما من جهة شدة الحاجة فلأن كل كمال ديني أو دنيوي عاجل أوآجل مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية ، وهي متوقفة على العلم بكتاب اللّٰه تعالى(٤).

فهٰذه الأدلّة السمعية والعقلية تدلّ دلالةً واضحةً على فضل هذا العلم و شرفه .كيف لا وهوكتاب نزل من عند اللّٰه تعالى لبناءالإنسان المنشود الكامل

(١) رواه أحمد: ٨٩٠٦ و اللفظ له، و مسلم:٤٨٦٨،والترمذي:٢٨٦٩، وأبو داوُد : ١٢٤٣، وابن ماجه: ٢٢١

(٢) رواه مسلم: ١٣٢٩، وابن ماجه : ٣٧٦٩، و أحمد: ٢٣٥٢٦

(٣) الجامع الصغير للسيوطي،حديث رقم: ٢٧٦٨

(٤) الإتقان:٤٢٢/٢

المتكامل، ولتهيئة المجتمع الصالح، المستجمع للمعاني الإنسانية الكاملة، المستشرف للقيم العليا المباركة .

موضوع علم التفسير

كلام اللّٰه تعالى الذي هو مَعْدنُ العلوم و المعارف، و مَخزن الأسرار و الحقائق، ومَنْجمُ اللطائف والدقائق، هو موضوع علم التفسير من حيث أنه يهدي الإنسانَ إلى صراط مستقيم .

غرض علم التفسير

وأمّا الغرض من هٰذا العلم فهو الاعتصام بالعُرْوَة الوُثْقىٰ، و الوصول إلى السعادة الحقيقية، والاجتناب عن الشقاوة كلياً. قال تعالى: ﴿**كِتٰبٌ اَنْزَلْنٰهُ اِلَيْكَ مُبٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوْا اٰيٰتِهٖ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [سورة صٓ:٢٩] وقال تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْاٰنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَّرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ وَلَا يَزِيْدُ الظّٰلِمِيْنَ إِلَّا خَسَارًا**﴾[الاسراء:٨٢]

فوائد علم التفسير

و فوائد هٰذا العلم كثيرة، و نذكر منها البعض :

الأولى: التَذَكُّر، وهو الهدف المنشود المطلوب بإنزال الكتاب، قال اللّٰه تعالى: ﴿**سُوْرَةٌ اَنْزَلْنٰهَا وَفَرَضْنٰهَا وَاَنْزَلْنَا فِيْهَا اٰيٰتٍ بَيِّنٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ**﴾ [سورة النور:١]، وقال تعالى: ﴿**وَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُوْنَ**﴾ [سورة إبراهيم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿**كِتٰبٌ اَنْزَلْنٰهُ اِلَيْكَ مُبٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوْٓا اٰيٰتِهٖ وَ لِيَتَذَكَّرَ اُولُوا الْأَلْبَابِ**﴾ [سورة صٓ:٢٩]، وقال: ﴿**وَيُبَيِّنُ اٰيٰتِهٖ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُوْنَ**﴾ [البقرة: ٢٢١]، وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِيْ هٰذَا الْقُرْاٰنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُوْنَ**﴾ [الزمر: ٢٧] وقال تعالى: ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُوْنَ** ﴾ [الدخان: ٥٨] وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِيْ هٰذَا الْقُرْاٰنِ لِيَذَّكَّرُوْا**﴾ [الإسراء: ٤١]

والآيات في ذلك كثيرةٌ ، و فيما ذكرناه كفايةٌ ، ومن البديهي أن هذا التَّدَبُّر إنما يحصل كما هو حقُّه باستمداد علم التفسير؛ لأن القرآن الكريم معدن العلوم و الحقائق، و مخزن الحكم و المعارف . فليس من المستطاع أن يُفتح باب هذه الخزائن إلا بمفتاح التفسير .

الثانية : الاعتبار، قال اللّٰه تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِيْ قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[يوسف:١١١]

والعبرة هو الاتعاظ، و هي من العبور بمعنى التجاوز، ومنه عبرتُ النهرَ، وسُمِّيَ الاتِّعاظ عبرةً لأن المُتَّعِظ يعبر الجهلَ إلى العلم، و من الهلاك إلى النجاة، قاله الآلوسيُّ في روح المعاني (١).

وقال الراغب الأصفهاني: الاعتبار العبرة بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد (٢) .

الثالثة : معرفة هداية اللّٰه تعالى في مختلف مجالات الحياة البشرية من العقائد، والعبادات، والمعاملات، والأخلاق، والشؤون الاقتصادية، و السياسية، و العلاقات الدولية، و غير ذلك . و هذه الفائدة أهم وأعظم من السابقتين؛ بل هي المقصودة من نزول القرآن الكريم . قال اللّٰه تبارك وتعالى : ﴿**الٓمٓ، ذٰلِكَ الْكِتٰبُ لَا رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ**﴾ [البقرة: ١-٢] وقال: ﴿ **قَدْ جَاءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُوْرِ** ﴾[يونس : ٥٧] وقال: ﴿ **كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ اٰيٰتِهٖ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ**﴾[ال عمران: ١٠٣] وقال:﴿ **هٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَ هُدًى وَّ مَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِيْنَ**﴾ [ال عمران: ١٣٨] وقال:﴿ **هٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَّبِّكُمْ وَ هُدًى وَّ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُّؤْمِنُوْنَ**﴾[الأعراف : ٢٠٢] وقال: ﴿ **وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتٰبَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَّ هُدًى وَّ رَحْمَةً وَّ بُشْرٰى لِلْمُسْلِمِيْنَ**﴾ [النحل: ٨٩]

و هذه الآيات كلها تدلّ دلالةً واضحةً على أن القرآن الكريم إنما أُنْزِلَ لهداية الخلق إلى ما فيه صلاح لهم في كافة نواحي حياتهم من الفردية

---

(١) **روح المعاني:** ٣/ ٩٨

(٢) **مفردات القرآن:** ٣٢٣

والجماعية ، ثم من الثقافية ، والتعليمية ، والتشريعية، والأخلاقية، وغير ذلك . و من الواضح أن من أهم العوامل التي يستمدّ منها لتحقيق هذه الفائدة هو التفسير، وأنها لا تكاد تحصل إلا به،كما لا يخفى.

الرابعة : ومن فوائد التفسير كشف الأستار عن وجه معاني القرآن الغامضة ، وشرح ما فيه من الألفاظ الغريبة ؛ لكي يتوصل الإنسان إلى مغزاه و مرماه ، وليتمكن من فهم المراد بتلك الآيات الغامضة والغريبة، ثم من العمل بها على وجه صحيح، ولا يخفى على أرباب البصائر أن هذه لا يمكن حصولها إلا بالتفسير .

الخامسة: و من الفوائد للتفسير إبراز محاسنه الرائعة، و إظهار وجوهه الإعجازية، التي أعجزت العرب العرباء عن الإتيان بمثل القرآن، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. و هذا أيضاً لا يتأتى إلا بعلم التفسير الذي وقعت على كواهله المسئوليةُ بإبراز هذه الوجوه الإعجازية .

وما إلى ذلك من الفوائد الكثيرة العظيمة التي لا يمكن ولا يجوز لأحد صرف النظر عنها.

فصل

ما هى الحاجة الىٰ علم التفسير ؟

لا يخفى على من له أدنى إلمام بالعلم أن كل علم وفنّ يحتاج غالباً إلى شرح و تفصيل، لا سيما إذا كان مشتملاً على أصول و قوانين، و على أسرار و حقائق. و بالأخص إذا كان حاوياً على الفروع المختلفة و جامعاً للفصول العديدة . و هذا أمر لا يشكّ فيه عاقل، و لا يختلف فيه اثنان . و مع ذلك فقد ظهر في عصرنا الراهن قوم جهّالون يدّعون أنه لا حاجة إلى تفسير القرآن أصلاً، ولا إلى تفهيمه قطعاً ؛ لأنهم يزعمون أن الله تعالى إنما خاطب بهذا القرآن بما

يفهمونه. و لذلك أرسل كل رسول بلسان قومه، و أنزل كتبه بلغتهم. فليس لفهم القرآن حاجة إلى التفسير ولا إلى مُفسِّرٍ يفسِّرُه .

قلتُ : و هذا ظنّ باطل، بل خرق للإجماع ؛ لأن الأمة من أولها إلى آخرها، و من سَلفها إلى خَلفها مجمعةٌ على أن فهم القرآن لابدّ له من التفسير و علومه. و لذا فسّره النبي ﷺ و احتاج إليه أصحابه الذين هم من فصحاء العرب و بلغائهم. فإذا كان الصحابة يحتاجون إلى التفسير و التفهيم لفهم المراد بآيات اللّه، فما ظنّك بأمثال هؤلاء الذين لا يعلمون لغة العرب ولا أسرارها . وإنما مبلغ علمهم هو بعض تراجم القرآن فقط؟

فمسَّتِ الحاجةُ إلى بيان وجه الحاجة إلى التفسير، فأقول: إن القرآن نزل لهداية الإنسان في جميع شُعَبه و أبوابه؛ وفي مختلف مجالات حياته، وبديهيٌ أن هذه الشعب و الأبواب، و مجالات الحياة متنوّعة وكثيرة . ومع ذلك فإن القرآن الكريم مشتمل عليها طباقاً كلياً، بحيث لا يفوته شيء منها، و السرُّ فيه هو أن القرآن جاء بأسلوب بديع رائع لطيف، يذكر أشياء بالتفصيل و التوضيح و الصراحة ؛ ويتناولُ أشياء بالإجمال والإشارة و الكناية، ولا يهتدي إلى مراداته ولا يصل إلى حقائقه كلُ أحد على السواء ، فليس النبي ﷺ الذي أُنْزِلَ عليه القرآنُ كغيره ، و ليس الصحابي الذي شاهد التنزيل وأخذ العلمَ عن صاحب القرآن كغيره ، وكذا لا يستوي فيه العامي و العالم، فمَسّتِ الحاجة لفهم القرآن إلى التفسير من النبي ﷺ ومن الصحابة الذين شاهدوا الأوضاع و الظروف، التي أُنْزِلَ فيها القرآن، و أخذوا العلمَ عن النبي ﷺ مباشرةً .

ولقد أجاد العلامة عبد العظيم الزرقاني في "مناهل العرفان" حيث قال:

"نهضة الأفراد و الأمم لا يمكن أن تكون صحيحةً عن تجربة، ولا سهلةً متيسرةً ولا رائعةً مُدهشةً إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن، و نظمه الحكيمة التي رُوُعِيَتُ فيها جميع عناصر السعادة للنوع البشري على ما أحاط به علم خالقه الحكيم ، و بدهي أن العمل بهذه التعاليم لا

يـكـون إلا بعد فهم القرآن و تدبره ، والوقوف على ما حوى من نصح و رشد ، والإلمام بمباد ئه عن طريق تلك القوة الهائلة، التي يحملها أسلوبه البـارع الـمعجز . وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان لما تدل عـليـه ألـفـاظ الـقرآن، وهو نُسمّيه " بعلم التفسير " ، فالتفسير هو مفتاح هـذه الـكنوز والذخائر التي احتواها هذا الكتاب المجيد النازل لإصلاح البشـر و إنـقـاذ الـناس و إعزاز العالم، و بدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر " (١).

ثم ليعلم : أن التفسير و الشرح إنما يُحتَاجُ إليه لأمور ثلاثة :

الأول : كـمـال الـمصنف فإنه لقوته العلمية، وقابليته الفائقة، يجمع المعاني الدقيقة، و الـنفائس البديعة، في ألـفـاظ وجيـزـة . فربما عسُر على القارئ فهم مراده ، فيحتاج إلى التفسير والشرح ، لإظهار تلك المعاني الخفية.

والثاني : إهـمـالـه بـعـض تتمات المسئلة أو شروط لها اعتماداً على وضوحها، أو لـكـونـهـا مـن عـلـم آخـر ، فيـحتاج إلى التفسير والشرح لبيان ما أهمله من تتمات المسئلة أو شروطها ليكون القارئ على بصيرة .

والثالث : احتـمـال الـلـفـظ لـمعان، كما يكون في المجاز ، و المشترك، ودلالة الالتـزام ، فيـقـصـد إلـى الشـرح والتـفسير لبيان غرض المصنف، أو لترجيح أحد المعاني المحتملة (٢).

فـإذا تـقـرّر هـذا فأقول : إن القرآن كلام اللّٰه تعالى ، وهو مصداق ما قيل : كلام الملوك ملوك الكلام ، وهو يجمع المعاني الدقيقة في ألفاظ وجيزة فصيحة، وبـأسـلوب رائع معجز ، ثم هو يستعمل من الألفاظ ما هو محتمل لمعان، وأيضاً يستـخـدم الـمجازات ، و الاستعارات، و التشبيهات ، والكنايات. وأيضاً هو من البـلاغة فـي غـاية ليس ورائها غاية ؛ ومن المعارف والعلوم بمنزلةٍ قاصيةٍ لا يصل إليهـا إلا مَـن رسـخ قـدمـه فـي الـكـمـال، و سَبَـح فهمه في بحار العلم بالتفصيل والإجـمــال؛ ومـن الأحـكــام، و نـواميــسِ الـنظـام، و تربيةِ النفوس، و تهذيبِ

(١) مناهل العرفان: ٨/٢(٢) هذه خلاصة ما في كشف الظنون : ١/ ٢٦-٢٧

الأخلاق، و تزكيةِ القلوب في مدى كمالٍ لا يبلغ إليه إلا من له بصيرةٌ تامةٌ في العلوم الشرعية ، و رسوخٌ كاملٌ في الفنون الأدبية. وأيضاً هو من علوِّ الشأن، وسُموِّ المكان ، ونهاية الغموض والإعضال، وصعوبة المأخذ، وعزة المنال في غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية، فالقرآن الكريم يحتاج إلى شرحه و تفسيره من هذه الناحية .

وقد احتاج الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين إلى التفسير لفهم القرآن، كما هو مروي في الأحاديث و الأخبار:

۞ منه ماجاء في الأخبار أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ **وَلَمْ يَلْبِسُوْٓا إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ الخ**﴾[الأنعام:٨٣] سأل الصحابة رضي الله عنهم النبيَّ ﷺ ، فقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ ففسّره النبي ﷺ بالشرك ، واستدل عليه بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ** ﴾ [لقمان :١٣] (١).

۞ ومنه ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : **من نُوُقِشَ الحسابَ عُذِّبَ**، قلتُ : أليس يقول الله تعالى: ﴿ **فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَّسِيْرًا** ﴾ [الانشقاق:٨] قال: **ليس ذلك بالحساب، ولكن ذلك العرض** . وفي رواية: **ولكن من نوقش الحساب يهلك** (٢).

۞ ومنه ما جاء أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ **كُلُوْا وَاشْرَبُوْا حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**﴾ [البقرة:١٨٧] قال عدي بن حاتم : يا رسول الله ! إني أجعل تحت وسادتي عقالين : عقالًا أبيضَ، و عقالًا أسودَ ، أعرف الليل من النهار ، فقال رسول الله ﷺ :**إن وسادتك لعريض، إنما هو سواد الليل، و بياض النهار** (٣).

(١) رواه البخاري : ٣١١٠ ، و مسلم : ١٧٨، و الترمذي: ٢٩٩٣، و أحمد : ٣٤٠٨

(٢)رواه البخاري : ١٠٠، و مسلم : ٥١٢٢ ، و الترمذي: ٢٣٥، و أحمد : ٢٣٠٦٩ ،وأبو داوٗد : ٢٦٨٩ (٣)رواه البخاري : ١٧٨٣، و مسلم : ١٨٢٤ واللفظ له ، و الترمذي: ٢٨٩٨ ، و أحمد : ١٨٥٦١، وأبوداوٗد : ٢٠٠٢، والنسائي : ٢١٤٠، والدارمي: ١٦٣٣

والأمثلة في الباب أكثر من أن تستقصى، والمقصود هنا الإشارة إليها فقط لا الاستقصاء، وفي المذكور دلالةٌ كافيةٌ على أن الصحابة كانوا يحتاجون إلى التفسير، مع أن لسانهم هو لسان القرآن، وهم أعرف بأساليب كلام العرب من غيرهم . فإذا كان الصحابة يحتاجون إليه، فنحن أشد احتياجاً إليه منهم لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة، وأساليب كلام العرب .

ثم يجدر بنا أن نذكر ما قال الشيخ الشاه ولي الله الدهلوي في بيان وجوه الخفاء في معاني نظم القرآن، فقال في كتابه " الفوز الكبير في أصول التفسير " :

" إن عدم الوصول إلى المراد من اللفظ يكون :

- أحياناً بسبب استعمال لفظ غريب ، وعلاجه نقل معنى اللفظ عن الصحابة، والتابعين، وسائرأهل المعاني.
- وأحياناً لقلة الاطلاع على الناسخ والمنسوخ .
- وأحياناً للغفلة عن أسباب النزول.
- وأحياناً بسبب حذف المضاف ، أو الموصوف ، أو غيرهما .
- وأحياناً لإبدال شيء بشيء، أو إبدال حرف بحرف، أو اسم باسم، أو فعل بفعل، أو لذكر الجمع مكان المفرد، أو بالعكس، أو للالتفات من الخطاب إلى الغيبة.
- وأحياناً لتقديم ما حقه التأخير،أو بالعكس .
- وأحياناً بسبب انتشار الضمائر ، أو تعدد المراد من اللفظة الواحدة .
- وأحياناً بسبب التكرار، والإطناب .
- وأحياناً بسبب الاختصار، والإيجاز .
- وأحياناً بسبب استعمال الكناية، والتعريض، والمتشابه، والمجاز العقلي (١).

(١) الفوز الكبيرفي أصول التفسير: ٤٩

الباب الثانى فى المقاصد
فصل
علوم القرآن

ومِمّا لا شكَّ فيه أن اللّٰه تعالى أنزل كتابه العظيم على نبيِّه الكريم ﷺ ليكون هدايةً للخلق، و دستوراً للمسلمين، و منهاجاً للمتقين؛ وبالتالي كان القرآن الكريم منبعَ الحضارة الإنسانية الكاملة، و منهجَ الحياة الشامل، وجاء يُمَثِّل القصدَ والاتّزان في جميع الأحكام من العقيدة، والسلوك، والعبادات، والمعاملات، بحيث لا مغالاة في جانب، ولا إخلال في جانب آخر، ويدعو إلى حياة جامعة بين العقل والقلب، وبين الجسد والروح، و بين الدين والدنيا؛ لكي يخرج الناس من الظلمات إلى أنواره، و يستضيئوا بأضوائه، و يهتدوا بهداياته، و يقتبسوا بتعاليمه وأحكامه؛ ولكي يصبغوا أحوالهم المتباينة بصبغته الثابتة ؛ ولكي يظلّ هو معهم في صحواتهم و غفواتهم، في بيعهم و شرائهم، في صداقتهم و خصومتهم، في ترحِهم و فرحِهم، و في وحدتهم و عشرتهم.

فالقرآن بتلك الخصائص والميزات يعالج ما تواجهه الإنسانيةُ من المشكلات في شتّى مرافق الحياة : الروحية ، والبدنية ، والعقلية ، والعلمية ، و الفردية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية علاجاً حكيماً تاماً ، فهو نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً ؛ و برنامج كامل يضمّ في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ؛ وهو رسالة خالدة تضمن من القواعد والأحكام ما لا حاجة للناس بعده إلى إضافة أخرىٰ تصلح بها النفوس أو المجتمعات أو الدول.

ففيه التشريع المتعلق تارةً بالعقائد، و تارةً بالعبادات، وتارةً بالمواريث، وتارةً بالمعاملات، وتارةً بالحروب، وتارةً بالآداب العامة ؛ وفيه الوعظ الزاجر، والمثل السائر ، والبيان العالي ، والإقناع العلمي ؛ وفيه القصص المتحدثة عما مضىٰ

عن الأولين؛ كي يعتبر بها أولوا الأبصار ؛ وفيه الكلام الوصّاف لما يأتي من الحوادث، فأودع من العلوم و الحقائق ما لا يحصٰى، ومن الحكم والمعارف ما لا ينتهي ؛ حتّٰى قال القاضي أبوبكر بن العربي في كتابه "قانون التأويل" على ما حكاه السيوطي : علوم القرآن خمسون علماً ، وأربع مائة علم، و سبعة آلاف علم، و سبعون ألف علم ، على عدد كلم القرآن مضروبةً في أربعة ، إذ لكل كلمة ظهر و بطن و حدّ و مطلع (١).

وعن عبد اللّٰه بن مسعود رضي الله عنه قال: من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين و الآخرين(٢) .قال البيهقي: يعني أصول العلم، كما حكاه عنه السيوطي في الإتقان (٣) .

ولذا فإنا نرٰى ونلحظ في وضوح وجلاء أن العلماء من الطبقات المختلفة قام كل طبقة منهم بفنّ من فنونه، وعلم من علومه. فالمحدثون قاموا بتحقيق الأحاديث، و الأخبار، و الآثار المروية في تفسير الآيات ؛ و الفقهاء المجتهدون دخلوا في غمار الاستنباط، و استخراج الأحكام من الحلال و الحرام، و المندوب و المكروه، و غير ذلك، و أسّسُوا قواعده وأصوله، و فرّعوا عليها أحكامه و فروعه ؛ والقُرّاء المجوّدون أولعوا بمعرفة مخارجه، ورعاية أوقافه ؛ و النحويون غاصوا في وجوه إعرابه، وطرق تراكيبه، وتركيب أساليبه ؛ والبيانيون سبحوا في بحار إعجازه، فأبرزوا من دُ رَرِ محاسنه في مقاطعه، و مطالعه، وانتخبوا من لآلي بدائعه وروائعه ؛ والمتكلّمون الأصوليون جالوا فيما فيه من أصول الدين من وحدانية اللّٰه، ووجوده، و بقائه، و قِدمه، و قدرته، و علمه، و تنزيهه عما لا يليق بشانه مع إقامة الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية علىٰ ذلك؛ و الأخباريون ضبطوا ما ذكر فيه من قصص القرون السالفة، والأمم الماضية، و فصّلوا ما أبهم منها بالأحاديث، و الآثار، والأخبار؛ و العارفون الصوفية استنبطوا.

(١) الإتقان : ٢/ ١٦٤

(٢) السنن لسعيد بن منصور : ٧/١ ، و شعب الإيمان للبيهقي : ٣٣٢/٢

(٣) الإتقان : ١٦٠/٢

مـا فيـه مـن أصـول فـضائل الأخلاق من الإخلاص، و الشكر، و الصبر، والرضا، والـخـوف، والـرجـاء، والتـواضـع، والتـوكل، و التفويض، و التسليم ، و المحبة ، والـمـعرفة ، وغير ذلك ،كما نبّهُوا على أصول رذائل الأخلاق التي هي أضداد ما ذُكِـرَ؛ والـخـطبـاء والـوعـاظ تأملوا في حِكَمه، وأمثاله ، التي تُرَقِّقُ القلوبَ، وفي مـواعـظـه التي توقظ النفوس، و في نصائحه التي تروق العقول؛ والمناطقة أخذوا مـنـه مـا فيـه مـن الـعـلـوم الـعـقلية و أصولها ؛ وعلماء الفرائض دوّنوا منه أحكام المواريث والفرائض وما يتعلق بها.

فالحاصل أن كل طائفة من العلماء المهرة قامت بفن من فنونه، وبعلم من علومه، و خاضت كل منهم فيما شُغِفَ به فوادُه، وأُغْرِمَ به خاطرُه .

ولـقد صد ق فيما وصف به نَبِيُّنا محمدٌ ﷺ هـذا الكتاب المجيد الخالد حيث قال :

" كتـاب الـلّه فيه نبأ مَنْ قبلَكم، و خبر ما بعدكم ،وحكم ما بينكم . هـو الـفـصـل ليس بالهزل .... وهو حبل اللّٰه المتين، وهو الذكر الـحكيم، هو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلبس بـه الألسـنة، ولا يشبـع به العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه الخ"(١).

ومن الجد ير بالذكر أنه اختلفت عبارات العلماء في تحليل علوم القرآن:

فقال بعضهم : إن علوم القرآن ثلاثة : التوحيد ، والتذكير، والأحكام، فالتوحيد يشـمـل مـعـرفة الـمـخـلـوقـات، و مـعـرفة الخالق بأسمائه، و صفاته، وأفعاله؛ والتـذكيـر مـنـه الـوَعْـد ، والـوَعِيْـد، والجنة، والنار، و تصفية الظاهر، والباطن؛ والأحـكـام مـنهـا التـكـاليفُ كلها، و تبيينُ المنافع، والمضار، والأمر، والنهى، والندب .

وقال ابن جرير : القرآن يشتمل على ثلاثة أشياء : التوحيد والأخبار والديانات.

(١) رواه الترمذي :٢٨٣١، والحديث ضعيف كما قال الإمام الترمذي

وقال علي بن عيسى : القرآن يشتمل على ثلاثين شيئاً: الإعلام، والتشبيه، والأمر، والنهي، والوعد، والوعيد، ووصف الجنة والنار، وتعليم الإقرار باسم اللّٰه وصفاته وأفعاله، وتعليم الاعتراف بإنعامه، والاحتجاج على المخالفين، والرد على الملحدين، والبيان عن الرغبة والرهبة، والخير والشر، والحسن والقبح، ونعت الحكمة، وفضل المعرفة، و مدح الأبرار، وذم الفجار، والتسليم، والتحسين، والتوكيد، والتقريع، والبيان عن ذم الأخلاق، وشرف الآداب (١).

وما قاله علي بن عيسى هو على التحقيق داخل في الثلاثة الّتي ذكرها ابنُ جرير ،كما لا يخفى.

قلتُ: وأحسنُ ما وقفْتُ عليه في تحليل علوم القرآن ما قاله الشيخ الأجل المحدث الكبير الشاه ولي اللّٰه الدهلويؒ في كتابه " الفوز الكبير في أصول التفسير " وحاصل ما قاله : إن معاني القرآن المنصوصة لا تخرج عن خمسة علوم :

- علم الأحكام .
- علم الجدل .
- علم التذكير بآلاء اللّٰه .
- علم التذكير بأيّام اللّٰه .
- علم التذكير بالموت وما بعد الموت (٢) .

وها أنا أتحدث عن هٰذه العلوم الخمسة بإيجاز واختصار، وأذكر نبذةً من الفوائد والفرائد، في هذا الخصوص ملتقطاً ممّا ذكره العلماء الفحول، لكي نكون على بصيرةٍ.

---

(١)ذكر هٰذه الأقوال السيوطي في الإتقان : ٢/ ١٦٣-١٦٤

(٢) الفوز الكبيرفي أصول التفسير:١٩

۞ علم الأحكام

علـم الأحـكـام عـلـمٌ يبحث عن الأحكام الواردة في كلام اللّٰه تعالـى من الـحـلال، و الـحرام، والفرض، والواجب، والمندوب، والمكروه، وغير ذلك، في شُعَـبٍ مُـخُتِـلـفةٍ من حياة البشر، وحقول شتّى من الإيمان والعقيدة ، والأعمال والـعبـادـة ، والأخـلاق والسـلـوك ، وشـؤون الاجتماع و الاقتصاد ، والحكومة والسيـاسة، والتـعـليم والتربية ، والسِلم والحرب، و الجدل والمناظرة، وغير ذلك مـن حـقـول الـحـيـاة. وهـٰذا العـلـم هـو أساس الشريـعـة والـدين، وعـلـيه يبتني الصلاح والفلاح في الدنيا، وعليه مدار الفوز والنجاة في الآخرة .

والـمشهـور بين العلماء: أنه يشتمل خمس ما ئة آية على الأحكام. قال الإمـام الـغـزالـي وغيـره، كـمـا حـكـاه السيوطي في الإتقان، والمُلّا جِيُوَن في "التفسيرات الأحمد ية ": آيات الأحكام خمس مائة آية (١).

وعـنـد البـعـض آيـات الأحـكـام مـا ئة و خـمسون آيةً فقط ، كما ذكره السيوطي أيضاً .

قـلتُ : والأحرى أن يُرَادَ في هذا الكلام بالأحكام هي الأحكام الصريحة، وأمـا الأحـكـام التـي تُسْتَنْبَطُ من الآيات فغير مقصورةٍ على ما ئة و خمسين آيةً ، و كـذا مـا قـالـه الإمـام الـغـزالـي وغيره من " أن آيات الأحكام خمس مائة آية " فيكون المراد بها الآيات التي ذُكِرَتُ فيها الاحكام صراحةً ، أوالتي ذُكِرَتُ إشارةً واضـحةً. وأمـا الأحكام التي تُسْتَنْبَطُ بإشارات لطيفة فهي لا تتوقف على خمس مـا ئة آية ، فـإن كثيراً من آيات القصص، والأمثال، و غير ذلك يُسْتَنْبَطُ منها كثيرٌ من الأحكام . ولذا قال الإمام عز الدين بن عبد السلام : معظم آي القرآن لا تخلو عن أحكام مشتملة على آداب حسنة، وأخلاق جميلة (٢).

---

(١)الإتقان :٢/ ١٦٥، والبرهان :٣/٢-٤ ، والتفسيرات الأحمدية :ص: ٤

(٢) الإمام لأدلة الأحكام : ١/ ٢٨٤

نـعـم لا ينكر أن من الآيات ما صرح فيه بالأحكام، ومنها ما يؤخذ بطريق الاستنباط،كما هو غير خافٍ على أحد.

۞ علم الجدل و المناظرة

عـلـم الـجـدل والـمـنـاظـرة علم باحث عن طرق إيراد البراهين والأدلة، بـمقابلة الخصم . وقيل : هو العلم الباحث عن طرق إيراد الكلام بين المناظرين . وقـال ابـن خـلـدون في " المقدمة " : وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية، وغيرهم (١) .

ويـراد بـعـلـم الجدل في القرآن المُحاجّة الواقعة مع الفِرَق الضالّة المُضِلّة، وهم : اليهود، و النصارىٰ، و المشركون، و المنافقون .

قـال الإمـام السيوطي في الإتقان : قال العلماء : قد اشتمل القرآن الكريم عـلـى جميع أنواع البراهين، و الأدلّة. وما من برهان، و دلالة، و تقسيم، و تحذير تُبْنَى من كليات المعلومات العقلية، والسمعية إلا وكتاب اللّٰه قد نطق به ، ولكن أورده على عادات العرب دون دقائق طرق المتكلمين:

لأمـريـن : أحدهما : بسبب ما قاله : ﴿ **وَمَـا أَرْسَـلْـنَا مِنْ رَّسُوْلٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهٖ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ [إبـراهيـم:٤]، والثـانـي: أن المائل إلى دقيق المُحاجّة هوالعاجزعن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ؛ فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الّذي يفهمه الأكثـرون لـم يـنـحـط إلـى الأغـمـض الذي لا يعرفه إلا الأقلّون، ولـم يكن ملغزاً، فـأخـرج تعالے مخاطباته في مُحاجّة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليّها ما يقنعهم و تلزمهم الحجة، و تفهم الخواص من أنبائها ما يَرُبى (٢) على ما أدركه فهم الخطباء (٣).

وقـال الشيـخ الـمـحـدث الـدهـلوي : قد وقعت المحاجة في القرآن مع الـفِـرَق الأربـع الضالّة، و هٰذه المخاصمة على طريقين : الأول : أن يذكر سبحانه

---

(١)انظر المقدمة لابن خلدون : ٤٥٧ ، و أبجد العلوم لصديق حسن : ٢/ ١٧٧

(٢) ربأ يربىٰ من باب فتح ، بمعنے : علا و ارتفع

(٣)الإتقان: ٢/ ١٧٢

و تعالى العقيدة الباطلة، مع التنصيص على شناعتها، و يذكر استنكارها فحسبُ، والثاني: أن يبين شبهاتهم الواهية، و يذكر حَلَّها بالأدلّة البرهانية، و الخطابية (١).

قال الراقم: والمُحَاجّةُ في القرآن ليست بمقصورة على المسائل الاعتقادية، كما توهم عبارة الشيخ هذه ؛ بل المحاجة معهم واقعة في أعمالهم الشنيعة، و أخلاقهم القبيحة أيضاً، كالمحاجة مع قوم لوط في اللواطة ، و مع قوم عاد، و ثمود ، في إترافهم بتعمير المساكن ، و نحت الجبال بيوتاً ، ومع قوم شعيب في تطفيف المكيال، و إخسار الميزان، وغير ذلك، كما يظهر لمن يتدبر في القرآن .

ثم ليعلم أن الشيخ الد هلويؒ أطال ههنا البحث في المحاجة الواقعة في القرآن مع الفِرَق الأربع الضالّة وهو بحث نفيس .

۞ علم التذكير بآلاء الله

علم التذكير بآلاء الله، هو علم يُذَكَرُ فيه من آلاء الله الشاملة، و نعمائه الكاملة على خلقه و عباده، ومن عجائب قدرته، و بدائع صنعته، كخلق السمٰوات والأرض وما فيهما و ما بينهما ، و اختلاف الليل و النهار ، وإنزال الأمطار، و تفجير العيون والبحار، وإخراج النباتات والأثمار ، وتصريف الرياح، و إزجاء السحاب، وتسخير الشمس و القمر والنجوم ، وغير ذلك من نعمائه التي تقصر الألباب البشرية عن إحصائها والآلات الدنيوية عن استقصائها ،كما قال تعالى: ﴿ **وَإِنْ تَعُدُّوْا نِعْمَةَ اللّٰهِ لَا تُحْصُوْهَا**﴾[سورة إبراهيم : ٣٤]

ومن هذا العلم ما ذُكِرَ في بعض الآيات من الإشارات الدقيقة اللطيفة إلى بعض العلوم الكونية التي اكتشفها العلم الحديث من الحقائق الطبيعية، والطبية، والجغرافية، إلى غير ذلك . وإليك من أمثلته:

۞ قال الله تعالى: ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِيْ بُطُوْنِ اُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِيْ ظُلُمٰتٍ ثَلٰثٍ** ﴾[الزمر : ٦]

(١) الفوز الكبير : ١٩

فقد أخبر تعالى أن الجنين يُخلَقُ في بطن أمّه في ظلمات ثلاث. ففيه إشارة إلى ما أثبته علماء الطب الحديث من أن الجنين في بطن أمّه محاط بثلاثة أغشية.

۞ قال اللّٰه تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِيْ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ، هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَ هٰذَا مِلْحٌ اُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَّحِجْرًا مَّحْجُوْرًا** ﴾ [سورة الفرقان: ٥٣] وقال: ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيٰنِ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيٰنِ** ﴾ [سورة الرحمٰن :١٩-٢٠]

فأخبر اللّٰه تعالى أنه مرج البحرين بحيث يلتقيان، أحدهما عذب فرات، والآخر ملح اُجاج، وجعل بين هٰذين البحرين حاجزاً و برزخاً بحيث لا يبغيان، ولا يختلطان. وهٰذا المرج و الالتقاء مع عدم البغي و الاختلاط من عظيم مظاهر قدرته عز و جل. وقد انكشف هٰذا كله من تحرّيات عصرية، فإن كيستو الفرنسي شاهده عند ملتقى البحر الأحمر { RED-SEA } و بُحَيرة الروم {MEDITERRANEAN-SEA} ، وهٰذا وقع في عام ١٩٨٦م ، ثم قرأ هو الآية المذكورة ، و أسلم بعده قائلاً : إن القرآن هو كتاب ليس من تصنيف البشر؛ لأنه أَظْهَرَ حقيقةً علميةً قبل قرون كثيرة، حيث لم تكن علوم ولا معارف، فهٰذا واللّٰه كتاب اللّٰه .

۞ قال اللّٰه تبارك وتعالى: ﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيْرَ لِتَرْكَبُوْهَا وَ زِيْنَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ** ﴾ [سورة النحل:٨]

فأخبر اللّٰه تعالى أنه خلق الخيل، والبغال، والحمير، للركوب والزينة، ثم أخبر أنه يخلق فيما يأتي من الزمان ما لا يعلم الإنسان. ففيه إشارةٌ إلى ما ظهر في العصر الحاضر بمجهودات العلوم الطبيعية من المخترعات البد يعة المفيدة: مثل السيارات، والطائرات، والقطارات، وغير ذلك . وكذا فيه إشارة إلى ما لم يظهر بعدُ ، وسيظهر فيما يأتي من الزمان .

والآيات الكثيرة تشتمل على مثل هٰذه الإشارات، بينما العلوم الكونية، والمعارف العصرية، لم تكن معلومةً في عهد نزول القرآن الكريم ، وإنما

اكتشفها العلم الحديث منذ زمن قريب . وهذا العلم (أي علم التذكير بآلاء الله تعالى) منتشر في أكثر سور القرآن الكريم؛ بل يكاد يوجد في جميع سُوَرِه .

والمقصود من هذا العلم أمور :

١- معرفة اللّه تعالى شأنه، ومعرفته أن يُعْلَمَ وجودُهُ، و وحدانيتُه في ذاته و صفاته وأفعاله، بمعنى أنه تعالى واحد في ذاته وفي صفاته، من الخلق ، و التدبير، والقدرة، و العلم، والحياة، والسمع، والبصر. فآلاءُ اللّه تعالى تُوَرِثُ في القلب معرفتَه ، وهذه المشاهد تُوحي إليه أن لها خالقاً و ربّاً لا شريك له في خلقه وتدبيره . وهذا هوتوحيد الربوبية، ويقال له : التوحيد الخبري والعلمي .

٢- العبودية للّه، والخضوع له. وهذا الخضوع، والعبودية من نتائج معرفة اللّه. فإن من يعرف ذات اللّه وصفاته ، يخشع له قلبه و تخضع له أعضائه . وهو توحيد الألوهية، ويسمّى أيضاً بالتوحيد الطلبي والقصدي .و هذا هو السِرُّ في أن اللّه تعالى استدل في كتابه المجيد على توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية .

قال تعالى مجدُه: ﴿ **وَلَئِنْ سَاَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَ الْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُوْلُنَّ اللّٰهُ ۚ فَأَنّٰى يُؤْ فَكُوْنَ** ﴾[العنكبوت : ٦١]

و قال تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ سَأَ لْتَهُمْ مَّنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُوْلُنَّ اللّٰهُ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُوْنَ** ﴾ [العنكبوت:٦٣]

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة ، فالمعرفة باللّه، و صفاته، يجلب قلب الإنسان إلى الخضوع له .

٣- الإيمان به . وهو مسبّب عما سبق من المعرفة والخضوع ؛ لأن من يخضع لأحد ويخشع له – فبالضرورة – يؤمن به ويصدقه. والإيمانُ هو التصديق لغةً و شرعاً، وهو مشتمل على الإيمان باللّه، ورُسُله، و كُتُبه، و ملائكته، والبعث بعد الموت، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من اللّه تعالى .

٤- الإطاعة له ، وهي ثمرة الإيمان واليقين .

فالحاصل أن اللّٰه تعالى ذكّر عبادَه بآلائه، و نعمائه عليهم ؛ لتحصل لهم المعرفة به، و تنتج هذه المعرفةُ الخضوعَ، والعبوديةَ له، وهذا يورث الإيمانَ به، وهو يُثمِر الإطاعةَ له حسبَ ما يقتضيه تشريعه .

علم التذكير بأيام اللّٰه:

وأما علم التذكير بأيّام اللّٰه تعالى فالمراد به علم تُعْرَفُ به أحوالُ القرون الماضية، والأيام السالفة، وما وقع فيها من الحوادث، والوقائع، وما جرٰى فيها من الأقاصيص، والحقائق ، سواء كانت قصصَ الأنبياء والأبرار، والمؤمنين الأخيار، أو كانت قصص المشركين، والكفار، والمنافقين الأشرار، والفساق والفجار.

والغرض منه العبرة بتلك الأحوال، والكوائف، والتنصّح بتلك الوقائع، و الحوادث ؛ ليحترز الإنسان عمّا عَلِمَ من أعمال الكَفَرة، والفَسَقَة، والفَجَرة، كالكفر، والشرك، والعصيان، والتهالك في الدنيا، والإعراض عن الآخرة، و الإستهزاء باللّٰه تعالى، وبأنبيائه، وكتبه، ودينه، وتشريعه، وغير ذالك من الأعمال القبيحة، والأخلاق الرذيلة ، وليختارَ ما عَلِمَ من أحوال الأنبياء، والأولياء، و الصديقين، والشهداء ، والصالحين ،كالإيمان، والأعمال الصالحة، والأخلاق الحميدة، والإستعداد للموت، والإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، وغير ذلك.

ومما لا بدّ من العلم به أن اللّٰه تعالى يذكر في القرآن من القصص لا على طريقة الأخباريين ، هم يسردون كل ما وقع من الحوادث، سواء كان ذكره ضرورياً أو لا ، وكذا يوردون القصص حسبَ ترتيب وقوعها ، وبالعكس من ذلك نجد في القرآن أن اللّٰه تعالى يسرد من القصص، والواقعات، مايحتاج إليه الإنسان، وما دعت إليه الحاجة، وما هومفيد له. وكذا هو لا يهتم في سرد القصص بترتيب وقوعها ، فإن الهدف المنشود من ذكر القصص هي العبرة بها لا العلم بها فقط، كما هو هدف الأخباري .

۞ علم التذكير بالموت وما بعد الموت :

وهو علم يبحث عن أمورالآخرة، ومقدماتها، من الموت، وأحوال البرزخ، والبعث بعد الموت، والحشر والنشر، والحساب والجزاء، والجنة وما أُعِدَّ فيها من النعيم، والنار وما أُعِدَّ فيها من العذاب، وغير ذلك .

وهذا العلم من العلوم التي تُحدِث الثورةَ الإصلاحية التوجيهية في حياة الإنسان، وتَستحِثُّه على تنشئة شخصيته، وتزكية أعماله، وتجلية أخلاقه، و تشفية قلبه ، كما أن هذا العلم يوفّرله وقفةَ تأمل، أو نظرةَ تعديل في حياته التي شُحِنَتُ بالشهوات، والتمنّيات ؛ وفي مجتمعه الذي مُلِئً بالجرائم والموبقات ؛ و في بيئته التي سُلِبَتُ جميعَ قِيَمِها الخلقية، ثم هو يقوده إلى التحول من هذه الحياة الشهوانية إلى الحياة العفيفة ، ومن هذا المجتمع الحيواني إلى المجتمع الإنساني، ومن هذه البيئة الجاهلية إلى البيئة الإيمانية .

وهذا هو المطلوب بهذا العلم،كما أمر به تعالى في مواضع من كتابه العزيز قال :
﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوْا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّايَجْزِيْ وَالِدٌ عَنْ وَّلَدِهٖ وَلا مَوْلُوْدٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَّالِدِهٖ شَيْئًا﴾ [سورة لقمان:٣٣] وقال تعالى :**﴿ وَاتَّقُوْا يَوْمًا لَّاتَجْزِيْ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَّلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَّلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَّلا هُمْ يُنْصَرُوْنَ ﴾** [البقرة: ٤٨] وقال في شأن أوليائه:**﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيْهِمْ تِجَارَةٌ وَّلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ وَإِقَامِ الصَّلٰوةِ وَإِيْتَاءِ الزَّكٰوةِ، يَخَافُوْنَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيْهِ الْقُلُوْبُ وَالْأَبْصَارُ﴾** [النور: ٣٧]

وجاء في الحديث : أن أبابكرص قال: يا رسول اللّٰه ! قد شبتَ، قال: شَيَّبَتْنِي هود،والمرسلات،والواقعة، وعمّ يتساءلون، وإذا الشمس كورت (١).

فثمرة هذا العلم هي الخشية، والخوف، ثم الاستعداد للموت، ومابعد الموت من أحوال الآخرة ، وهذا العلم أيضاً منتشر في جميع سور القرآن .

---

(١) رواه الترمذي: ٣٢١٩

فصل
العُلومُ الّتي يحتاج إليها المُفسِّر

ومن الملاحظ في صدد دراسة التفسير أن المقصد الأعلى، والهدف الأسمٰى، بإنزال القرآن الكريم هو هداية العباد إلى سبيل الرشاد، عن طريق التذكّر، والتدبّر. ولهذا الهدف يَسّرَ اللّٰه تعالى كلامه، وسهّله، بحيث يفهمه الإنسان، و ينتفع به، ويتذكر به تذكراً يهتدي به إلى الحق والصواب، في مجالات الحياة، و مجاري العيش. قال اللّٰه تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْاٰنَ لِلذِّكْرِ، فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ** ﴾ [القمر:١٧] ولٰكن هذا التسهيل، والتيسير، إنما يكون في معانيه العامة من التوحيد، والرسالة، والآخرة، وأحوالها، ومن دلائلها الجلية، وبراهينها الواضحة، التي يستشعر منها الإنسان معرفة ربه، وعظمة شأنه، و جلالة قدره، والتي تحمله على الإعراض عن الدار الفانية، والإنابة إلى الدار الباقية. وأما المعاني الخفية، والحقائق الدقيقة، والأسرارالغريبة، التي أُوْدِعَتْ فيه بأسلوب مُعُجِز مُدُهِش، فلا خلاق لعوام الناس منه إلا بواسطة العلماء المهرة، والمحققين البررة. ومن هنا قال العلماء: المفسر يحتاج إلى أنواع من العلوم، والمعارف، فيجب أن تتوفّر فيه تلك العلوم حتٰى يكون أهلاً للتفسير، وهذه المعاني والأسرارهي التي إليها إشارةٌ في هذه الآية :﴿ **وَمَا يَعْقِلُهَا اِلَّا الْعالِمُوْنَ**﴾ [العنكبوت:٤٣]

و العلوم التي يحتاج إليها المُفسِّر، التي أشرنا إليها آنفاً، أوصلها بعض العلماءِ إلى خمسة عشر علماً، وهي ما تلي:

(١) علم اللغة (٢) علم النحو (٣)علم التصريف (٤)علم الاشتقاق (٥)علم البيان (٦) المعاني (٧) البديع (٨) القراءة (٩)أصول الدين (١٠) أصول الفقه (١١) الفقه (١٢) أسباب النزول (١٣) الناسخ والمنسوخ (١٤) الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم (١٥) علم الموهبة .

قلتُ : إن اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم الاشتقاق، والبيان، والمعاني، والبديع، كلها من العلوم العربية، والباقية من العلوم الشرعية . وتُلَخَّصُ من ذلك : أن على المفسّر أن يَتَمَهَّر في العلوم العربية في جانب ، وفي العلوم الشرعية في جانب آخر، كما يقول المفسِّر البيضاوي في مقدمة تفسيره :" لا يليق لتعاطيه، والتصدي للتكلم فيه، إلا مَن بَرَعَ في العلوم الدينية كلها، أصولها، و فروعها، و فاقَ في الصناعات العربية، والفنون الأدبية بأنواعها(١) .وتفصيله ما نذكر فيما يلي :

العلو م العربية

تقدّم أن العلوم العربية من اللغة، والنحو، والتصريف، والاشتقاق، لابد منها للمفسر.

۞ أما ضرورة اللغة العربية، فإنها ظاهرة ؛ لأن بدون معرفة المعاني اللغوية لا يمكن فهم الآية . قال الإمام مالكؒ : لا أوتي برجل غير عالم بلغات العرب يفسّر ذلك إلا جعلتُه نكالاً (٢).

وقال مجاهد : لا يحلّ لأحد يؤمن بالله، واليوم الآخر أن يتكلّم في كتاب الله ، إذا لم يكن عالماً بلغات العرب(٣).

وقال الزركشي : " وليس لغير العالم بحقائق اللغة، و مفهوماتها، تفسيرُ شيءٍ من الكتاب العزيز، ولا يكفي في حقّه تعلّم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركاً ، وهو يعلم أحد المعنيين، والمراد الآخر" (٤) .

وقبل أن ننتهي من البحث نذكر فى هذا الصدد قصةً تكاد تُعَدُّ من الفُكاهة، وتدعو للضحك ، وهو أن رجلاً يدّعي العلمَ جاء في حفلة انعقدت في مدرسة للبنات، وكنتُ أيضاً حاضراً في الاحتفال ، فخطب على موضوع "الصفات المختارة للبنات" ، وقرأ آيةً من القرآن، و هي: ﴿ **فَالصّٰلِحٰتُ**

(١) تفسير البيضاوي:١٠/١

(٢)شعب الايمان للبيهقى:٤٢٥/٢

(٣)كذا في البرهان: ٢٩٢/١، و الإتقان: ٢٣١/٢

(٤) البرهان : ١٦٥/٢

قٰنِتٰتٌ حٰفِظٰتٌ لِّلْغَيْبِ إلخ ﴾[النساء:٣٤]، فقال وهو يشرح الآية : إن القانتات مَن كـانـت فيهـن الـقـنـاعة ، ثـم ذكـر فضائل القناعة في الإسلام . وهذا – كما هو واضـح– خطأ فاحش أوجبته الجهالة باللغة العربية، فإن " القانتات " من القنوت، وليست من القناعة، ولا يمكن أن تكون منها ، كيف؟ وهي من مادة " ق ن ت " بيـنـمـا الـقـنـاعة من مادّة " ق ن ع "، فالخطأ الواقع إنما جاء منه نابعاً من جهله باللغة العربية .

۞ أمـا النحو فلأن معرفة التراكيب النحوية لازمة، فمثلاً : جاء في القرآن : ﴿ **وَاِذِ ابْتَلىٰٓ إِبْرٰهٖمَ رَبُّهٗ بِكَلِمٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** ﴾ [البقرة :١٢٤] بنصب " إبراهيم " و رفـع " ربُّـه " فـلـو عـكـس، و قرئ " وَاِذِ ابْتَلىٰٓ إِبْرٰهٖمُ رَبَّهٗ " يلزم منه الفساد من ناحية المعنى كما لا يخفى .

وقـد ذكـر الإمـام الـقرطبيؒ في مقدمة تفسيره قصةً طريفةً في هذا الشأن، وهـو أنـه قَدِمَ أعرابي في زمان عمر بن الخطاب ﷺ فـقـال : من يقرئني مما أنزل على محمدﷺ ؟ فأقرأه رجل " سورة براءة " فقال: "أَنَّ اللّٰهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَ رَسُوْلِهٖ" بـالـجـر ، فـقـال الأعرابي: أ وَ قد برئ اللّٰه من رسولهٖ ؟ فإن يكن اللّٰه من رسـولـهٖ بـرىء فـأنـا أبرأ منه . فبلغ عمر مقالة الأعرابي ، فدعاه ، فقال: يا أعرابي! أتبرأ من رسول اللّٰه ﷺ ؟ فـقـال : يا أمير المؤ منين ! إني قدمت المدينة ، ولا علم لـي بـالقرآن، فسألتُ : من يقرئني؟ فأقرأني هذا سورةَ براءة، فقال: "أَنَّ اللّٰهَ بَرِيٓءٌ مِّـنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَ رَسُوْلِهٖ ؟فقلت: إن يكن اللّٰه بريء من رسوله، فأنا أبرأ منه . فقال عـمـر: ليـس هـذا يا أعرابي؛ قال: فكيف هي يا أمير المومنين ؟ قال:"أَنَّ اللّٰهَ بَرِيٓءٌ مِّـنَ الْمُشْرِكِيْنَ وَ رَسُوْلُهٗ"(أي بالرفع) ، فقال الأعرابي: وأنا واللّٰه أبرأ ممّا برئ اللّٰهُ ورسـولُـهٗ منه ، فأمر عمر بن الخطاب ﷺ: أَلّا يُـقْرِئُ الناسَ إلا عالمٌ باللغة. وأمر أبا الأسود، فوضع النحو(١).

۞ أمـا عـلـم التـصـريف فـلأنـه تُعْرَفُ به أبنيةُ الأسماء، والأفعال، وصِيغهما الـواردـة على الألفاظ المفردة الدالة على المعاني المختلفة، وبدون معرفته يخبط

---

(١) القرطبي: ١/ ٢٤

الإنسان خبط عشواء، كما حكى الزمخشري قول من قال في قوله تعالىٰ : ﴿ **يَوْمَ نَـدْعُـوْا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ** ﴾ [الإسـراء: ٧١] : إن الإمـام جمع " أُمّ " وأن الناس يـدعـون يـوم الـقيامة بأسماء أمهاتهم، لا بأسماء آبائهم . قال الزمخشري: وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف فإن" أمّا "لا تجمع على إمام (١).

۞ أمـا عـلـم الاشتـقـاق فـإنه أصل لمعرفة الأصول للفروع المأخوذة منها، وبـدون معرفته قد يكون المفسر فريسةً للحيرة، وشاردَ الفكرة في معنى الآية، لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين اختلف معناه باختلافهما ، كالمسيح مثلاً يكون من السياحة، ويكون من المسح .

۞ وأمـا الـعـلـوم البـلاغية مـن الـمعاني، والبيان، والبد يع، فلأنه يُعْرَفُ بعلم الـمـعـانـي خـواص تـراكيـب الكلام من جهة إفادتها ما يلازم أصل المعنى الذي يختلف باختلاف مقتضى الحال في تراكيب البلغاء .

فإنك إذا تأملتَ في كلام البلغاء وجدتَّه على أصناف ، وصنف يختلف صنفاً آخر ، مثلاً قد يكون الكلام مؤكّداً بأدوات التوكيد، وقد لا يكون كذلك، إذا بـحثت عن السرِّ في ذلك لم تجد لذلك سبباً سوى اختلاف حال المخاطب؛ لأن الـمـخـاطـب إن كـان شـاكـاً ، أو مـنكراً ، يقع الكلام مؤكّداً، ومتضمناً من وسـائـل التقوية ما يدفع إنكار و شك المخاطب، ويجب أن يكون ذلك التوكيد بـقـدر التــردد والإنـكــار قـوـةً و ضـعـفــاً، وإن كــان المخـاطـب غيـر متـردد وغيرمنكر،لايُؤَكَّدُ الكلامُ .

وكـذلك قـد يـكون الكلام إيجازاً، وقد يكون إطناباً ، ولكل من الإيجاز والإطـنـاب مـواطـن، فـالـذكي اللبيب الذي تكفيه اللَمحة لايحسن له الإطناب، والغبي والمكابر لايَجمُل عند خطابه الإيجاز.

۞ وتُـعْـرَفُ بـعـلـم البيـان طـرقُ تـأدية المقصود بحسب وضوح الدلالة، و خـفــائهــا، وبــاعتبــار الـحـقيـقة، والمجـازات، و التشبيهـات، والاستعـارات،

---

(١)الإتقان: ٢/ ٢٣١

والكنايات،لأن الكلام يستطاع أداؤه بأساليب عِدّة ، و طرائق مختلفة ، و إليك بأمثلة :

١- قال اللّه تعالى :﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة:١٨٧] وليس المراد حقيقة اللباس ، وإنما هو تشبيه ، فشُبِّهَ كلٌّ واحد من الزوجين باللباس ؛ لأن كلّ واحد منهما يسترُ عيبَ الآخر ، كما يستر اللباس عيبَ الإنسان ، أو لأن كل واحد منهما يُزَيِّنُ صَاحِبَه، و يُجَمِّلُه ، أو لأنهما يتعانقان ، و يشتمل كل منهما على صاحبه كاللباس .

٢- و كذا قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوْبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤] فشبّه القلوب، أو قسوة القلوب بالحجارة ، أو بقسوة الحجارة .

٣- وقال تعالى: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنٰهُ مَنَازِلَ حَتّٰى عَادَ كَالْعُرْجُوْنِ الْقَدِيْمِ ﴾ [يٰسٓ:٣٩] شبّه القمر في أواخر سيره بالعرجون العتيق، والعرجون أصل العِذق الذي يعوج، وتقطع منه الشماريخ، فيبقى على النخل يابساً ، إلى غير ذلك من الأمثلة.

وكذا قد يقع المجاز في الكلام ، قا ل اللّٰه تعالى: ﴿ وَاِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ اٰيٰتُهٗ زَادَتْهُمْ إِيْمَانًا ﴾ [الأنفال:٢] فيه نسبة الزيادة في الإيمان إلى الآيات، وليست هي على الحقيقة، فإن زيادة الإيمان فعل اللّٰه، لا فعل الآيات . وقال اللّٰه تعالى: ﴿يَوْمًا يَّجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيْبًا ﴾ [المزمل:١٧] نسب الفعل إلى اليوم، وهو يوم القيامة، بينما هو فعل اللّٰه ، واليوم هوظرفه، وقال: ﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف:٨٢] أي أهل القرية ،جعل مفعول" اسئل" القرية، وهو غير مراد به، وإنما المراد" اسئل أهل القرية" وقال: ﴿ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف:٢٦] أي مطراً يتسبب في الرزق، واللباس، فأطلق المسبب على السبب .

والآيات في هذا المعنى كثيرة لاتعد ولا تحصٰى، وإنما اجتزئنا هنا بأمثلة، وإشارات .

۞ ويعرف بالبد يع محاسن الكلام، والقرآن هو منجم المحاسن اللفظية، والمعنوية، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَقُوْمُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُوْنَ مَا لَبِثُوْا غَيْرَ

سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥] هذه الآية مشتملةٌ على صنعة الجناس التام، والجناس هو أن يتشابه اللفظان في النطق، و يختلفان في المعنى، فإن اتفق اللفظان في الحروف، وشكلها، وعددها، و ترتيبها، فهو تام، وإلا فهو غير تام . فالمراد بالساعة الأولى هي القيامة، وبالساعة الثانية هو الوقت القليل، ومثال غير التام قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ ﴾ [الأنعام:٢٦] ففي النهي والنأي جناس غير تام، وقال: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَّهُمْ رُقُوْدٌ ﴾ [الكهف:١٨] هذه الآية تشتمل على صنعة الطباق، وهو الجمع بين الشيء وضده ، ففي الأيقاظ و الرقود صنعة الطباق، وقال: ﴿ لاَ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيْفُ الْخَبِيْرُ ﴾ [الأنعام:١٠٤] فيه تشابه الأطراف ؛ فاللطيف يناسب له " لا تدركه الأبصار" بينما " الخبير " يناسب له " يدركه الأبصار" .

إلى غير ذلك من الآيات التي فيها من المحاسن اللفظية، والمعنوية، ما يدل على بلاغة هذا الكلام وإعجازه.

فقصارىٰ الكلام: أن العلوم البلاغية يظهر بمعرفتها ما في النظم القرآني من المحاسن، و وجوه الإعجاز، وما في المعاني من الأسرار، و المعارف . ولاشك أن هذه لا تُدْرَكُ إلا بالعلوم البلاغية . فهذه العلوم من أعظم أدوات المفسر، و مفتاح كنوز القرآن .

العلوم الشرعية

وقد تقدّم منا أن العلوم الشرعية من أصول الدين، و أصول الفقه، والفقه، والحديث، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ كلها لابد منها لفهم القرآن ، و لتفسيره.

وهنا نقف هنيهةً لنتساءل: لماذا يجب على المفسر أن يكون خبيراً بالعلوم الشرعية؟ فالجواب يحصل لك فيما يلي :

۞ أما أصول الدين فهو علم يُقْتَدَرُ به على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها. و موضوعه: ذات اللّٰه تعالى، وصفاته عند المتقدمين، وأما المتأخرون فقد وَسَّعُوا دائرته، وأدخلوا فيه كل ما يتعلق به من إثبات العقائد

الدينية تعلقاً قريباً أو بعيداً (١).

وفائدة معرفته أنه يُعْلَمُ به ما يستحيل في الشرع وما لا يستحيل، وما يجب وما يجوز، فتُفَسَّرُ الآياتُ الكريمةُ في ضوء ما أفاده هذا العلم. ومن البدهي أنه لا يمكن لأحد أن يفهم القرآن الكريم، ولا يستطيع أن يفسره على وجه صحيح، إن لم يكن عنده علم بأصول الدين. فمثلاً قوله تعالى: ﴿ **الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ** ﴾ [طه:٥] فيه إثبات صفة الاستواء لله تعالى، ولكن الاستواء بمعناه الظاهر لا يجوز إطلاقه على الله تعالى لأنا عرفنا بمقتضى العقل، والشرع، أن الله تعالى ليس كمثله شيء، فلا يشبه المخلوقات، ولا يشبهه شيء منها، وقطعنا بذلك، إلا أنا نُثْبِتُ له تعالى ما أَثْبَتَهُ هو في كلامه. وهذا هو مذهب السلف الصالح في صفاته عز وجل.

وأما المعتزلة الضالَّة المُضِلَّة فأنكروا صفاته تعالى أصلاً، ولذا يُسَمُّوْن باسم المُعَطِّلَةِ، وكذا الجهمية قالوا: إنه لا يجوز أن يُوْصَفَ الباري تعالى بصفةٍ يُوْصَفُ بها خَلقُه؛ لأن ذلك يقتضي تشبيهاً، وأما المشبهة فقالوا: إن الله تعالى جسم من الأجسام، وله أعضاء، وأبعاض، وأجروا ما ورد في التنزيل من الاستواء، والوجه، واليد، والجنب، والساق، والعين، وغير ذلك على ظاهرها. وهذا كله انحراف عما ثبت في الشرع.

فثبت مما أسلفنا أن العلم بأصول الدين لازم لمن يفسِّر القرآن الكريم، لكي ينتهج منهاجاً سليماً صحيحاً.

۞ وأما أصول الفقه فلأنه تُعْرَفُ بها طرقُ الاستنباط من الكلام، ووجوهُ الاستدلال على الأحكام، وبدون معرفتها لاينتهي أحد إلى مغزى الكلام، فإنّ من الآيات ما صرح فيها بالأحكام، ومنها ما يؤخذ بطريق الاستنباط.

قال الإمام الزركشي: ولا بد من معرفة قواعد أصول الفقه، فإنه من أعظم الطرق في استثمار الأحكام من الآيات. ثم أطال الكلام في تحقيقه(٢).

(١) أبجد العلوم: ٢/ ٣٦٣

(٢) انظر البرهان: ٦/٢

ومما يفيد في هذا المقام ما فصله الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام رحمه الله في كتابه " الإمام في أدلة الأحكام ". و خلاصة ما قاله: إن الاستدلال على الأحكام على صور مختلفة:

١- تارةً يكون بصيغة وهو ظاهر.

٢- تارةً يكون بالإخبار مثل قوله تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ الخ**﴾ [البقرة:١٨٣] و ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ إلخ** ﴾ [المائدة: ٣]

٣- تارةً يكون بما رُتِّبَ عليها في العاجل أو الآجل من خير، وشر، أو نفع، أو ضرّ.

وقد جعل الشارع في ذلك أنواعاً كثيرةً ، ترغيباً لعباده، وترهيباً لهم ، وتقريباً إلى أفهامهم:

فيُسْتَدَلُّ على مشروعية الفعل جوازاً ،أو وجوباً بأمور

وهي أن يُعَظِّمَ الشارعُ الفعلَ، أو يمْدَحَه، أو يَمدَحَ فاعِلَه، أو يُحِبَّه، أو يُحِبَّ فاعلَه، أو يرضى بهِ، أو يرضى عن فاعلِه، أو يَصِفَه بالاستقامة، أو البركة، أو يُقْسمَ به، أو بفاعلِه، أو ينصَبَه سبباً لذكره لعبده، أو لمحبّتِهِ، أو لثواب عاجل أو آجل، أو شكره له، أو لهدايته إياه، أو لمغفرة ذنبه، أو تكفير سيئاته، أو يَصِفَ الفِعلَ بكونه معروفاً، أو قربةً، أو ينفي الحُزنَ والخوفَ عن فاعلِه، أو يَعِدَهُ بالأمن، أو يَنصَبَه سبباً لولايته.

ويُسْتَدَلُّ على ممنوعيته بأمور

وهي أن يَطْلُبَ الشارعُ تركَه، أو يذُمَّهُ، أو يذُمَّ فاعلَه، أو يَعتبَ عليه، أو يَمقتَ فاعلَه، أو يلعَنَه، أو ينفي محبّتَه، أو محبةَ فاعلِه، أو الرضىَ به، أو عن فاعلِه، أو يُشَبِّهَ فاعلَه بالبهائم أو بالشياطين، أو يَجعَلَه مانعاً من الهُدٰى أو من القبول، أو يَصِفَه بسوءٍ أو كراهةٍ، أو يَجعَلَ سبباً لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لذمٍّ أو لومٍ أو ضلالةٍ أو معصيةٍ، أو يَصِفَه بخبثٍ أو رجسٍ أو نجسٍ، أو بكونه فسقاً أو إثماً أو سبباً لغضبٍ أو لعنٍ، أو زوال نعمةٍ، أو حلول نقمةٍ، أو حدٍّ من الحدود، أو لقسوةٍ، أو عداوة اللّٰه و محاربته ، أو لاستهزائهِ ، أو لبغض أنبيائه إلى غير ذلك.

۞ ويُستَفَادُ الإباحة والجواز بأمور

من لفظ الإحلال، و نفي الجُناح، والحرج ، والإثم، والمواخذة، ومن الإذن فيه، والعفو عنه، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، ومن السكوت عن التحريم، ومن الإنكار على من حَرَّمَ الشيء، ومن الإخبار بأنه خُلِقَ، أو جُعِلَ لنا، والإخبار عن فعلِ مَنْ قبلنا غير ذامٍّ لهم عليه (١).

۞ وأما الأحاديث المبينة للمجمل والمبهم، فضرورتها واضحةٌ ، فإنّه لا يغيب عنكم أن من الآيات ما هي مجملة، ومنها ما هي مبهمة، ومنها ما هي مختصرة، والنبي عليه السلام هو شارح للقرآن، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ** ﴾ [النحل: ٤٤]

فإذا كان القرآن الكريم متضمناً للقواعد العامة في التشريع، وللأحكام الكلية في الغالب، فالسنة النبوية عُنِيَتْ بشرح هذه القواعد، وتثبيتِ تلك الأحكام، وتفريعِ الجزئيات على الكليات.

فالسنة النبوية في الواقع هو أساسٌ لشرح ما أُجمل من الآيات، وما أُبهِمَ منها، إما بحسب كيفياتِ العمل، أو أسبابِه، أو شرائطِه، أو موانعِه، أو لواحقِه، و ما أشبه ذلك. فهي تفصيلٌ لمجملِه، و بيانٌ لمشكلِه، و بسطٌ لمختصرِه.

قال العلامة يوسف البنوري في مقدمته على "مشكلات القرآن" للإمام العلامة أنور شاه الكشميريؒ:

"إن الأعنى والأهمّ هو تفسير القرآن في استبصار من حياة نبينا ا، و هديه، و هداه، قولاً و فعلاً و إشارةً و دلالةً، فان حياته الطيبة، و سيرته المباركة الزكية، شرحٌ بديعٌ لكتاب اللّٰه العزيز مما يُشَاهَدُ بالأبصار، وتكفي في إبداء الغرض المقصود من كثير من معاناة الأفكار. وقد أوُضَحَهٗ قولُ صديقة الأمة بنت الصديق سيدتنا عائشة ص حيث قالت: كان خُلُقُه القرآن، وكان يقول شيخُنا إمامُ العصر (العلامة أنور شاه الكشميري) رحمه اللّٰه : إذا تأمّلَ المرأُ بالبصيرة النافذة في حديث

(١) انظر للتفصيل الإمام لأدلة الأحكام: ٧٩ و بعده

رسول اللّه ﷺ كشف له في كثير من الأحاديث، كأن القرآن عين ثرثارة تنبع منها هذه الأحاديث؛ حتى في كثير منها إشاراتٌ لطيفةٌ إلى تعبير القرآن(١).

ورُوي عن عمران بن الحصين رضي الله عنه أنه قال لرجل: إنك امرؤ أحمق، أ تجد في كتاب اللّٰه الظهر أربعاً لا يجهر فيها بالقرا ءة، ثم عدّد إليه الصلٰوة، والزكوٰة، ونحو هذا، ثم قال: أتجد هذا في كتاب اللّٰه مفسراً؟ إن كتاب اللّٰه أبْهَمَ هذا، وأن السنة تُفسِّرُ ذلك (٢).

فوضح – بما قلنا– أن معرفة السنة لازمةٌ لفهم القرآن، وتفسيره، وليس من المستطاع أن تفسَّر الآيات المجملة، والمبهمة، والمختصرة، بدون معرفته.

۞ وأما معرفة أسباب النزول فلوجهين: **الأول** : أن معنى معرفة الأسباب هو معنى معرفة الأحوال، والأوضاع، والظروف، التي نزلت الآية فيها، وهي من المُهمّات في فهم المراد ، إذ بدونها قدُ يَفُوُتُ بعضُ القرائن الدالّة على المراد، وبفوتِهِ يَفُوُتُ فهمُ الكلام، أو شيءٌ منها، قاله الشاطبي(٣).

والثاني: أن الجهل بأسباب النزول يوقع في الغلط، و الاشتباه، والإشكال، وسيأتي البحث في الموضوع في فصله المختص به.

۞ وأما معرفة الناسخ والمنسوخ، فهونبراس لفهم القرآن؛ لأن به يُعْرَفُ المحكم من غيره. ولقد قال الأئمة: إنه لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن الكريم إلا بعد أن يعرف الناسخ والمنسوخ من الآيات، وأنّ من تكلم في شيء من الكتاب الكريم، ولم يعلم الناسخ والمنسوخ كان علمه ناقصاً ؛ لأنه يخلط الأمر بالنهي، والإباحة بالحظر، ولهذا البحث فصل مفرد يأتي في الكتاب.

۞ وأما علم القراءات فهو أيضاً من أدوات المفسر، وينكشف ذلك مما يلي من نواحي البحث العديدة:

---

(١) يتيمة البيان مقدمة مشكلات القرآن:٢٢

(٢) الموافقات للشاطبي: ١٥/٤، مفتاح الجنة للسيوطي: ٢٤

(٣) انظر الموافقات: ٢٠١/٣

١ - قال الإمام الزَّرْكَشِي: إن باختلاف القراءات يظهر الاختلاف في الأحكام، ولهذا بنى الفقهاء نقض وضوء الملموس، وعدمه على اختلاف القراءة في "لَمَسْتُم و لامَسْتُمْ" أي في قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضٰى أَوْ عَلٰى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لٰمَسْتُمُ النِّسَاءَ إلخ** ﴾ [المائدة:٦]. و جواز وطي الحائض قبل الغسل وعدمه على الاختلاف في " يطهرن "، أي في قوله تعالى: ﴿**فَاعْتَزِلُوْا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيْضِ حَتّٰى يَطْهُرْنَ**﴾[البقرة:٢٢٢] وكذلك آية السجدة في سورة النمل مبنية على القراءتين. قال الفراء: من خفف" ألا" أي في قوله تعالى: ﴿ **أَلَّا يَسْجُدُوْا لِلّٰهِ الَّذِيْ يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ إلخ**﴾ [النمل:٢٥] كان الأمر بالسجود، ومن شدَّد لم يكن فيها أمر به (١).

قلتُ: إن الأول مثال الاختلاف في الحكم باختلاف القراءة، والثاني مثال التنوع في الحكم باختلاف القراءة، فالإمام أبو حنيفةؒ أخذ من قوله تعالى:"حتىٰ يطهرن " نوعين من الحكم في الحائض، وقال: إن لزوج الحائض أن يقربها بعد انقطاع الدم على أكثر مدة الحيض، وإن لم تغتسل أخذاً من قراءة " يَطْهُرْنَ" بالتخفيف، ومعناه: "حتىٰ ينقطع دمهن "، وقال: لا يجوز له أن يقربها في صورة انقطاع الحيض لأقل مدته، حتىٰ تغتسل بمقتضىٰ قراءة "يَطَّهَّرْنَ" بالتشديد، فإن معناه: حتىٰ يغتسلن (٢) .

٢ - وكذا بمعرفة الأوقاف قد تظهر معاني القرآن أيضاً، وبدونها قد يخاف الوقوع في الغلط في تفسيره، فمثلاً: إذا وقف على " **وَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً** " كان المعنى " إنها مُحرَّمةٌ عليهم مدةَ أربعين سنةً "، وإذا وقف على " إنها محرَّمةٌ عليهم " كان المعنى" إنها محرَّمةٌ عليهم أبداً " وهو غير مراد. وكذا يظهر الاختلاف في الأحكام باختلاف الوقف،ومثاله قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهٗ اِلَّا اللّٰهُ وَالرّٰسِخُوْنَ فِيْ الْعِلْمِ يَقُوْلُوْنَ اٰمَنَّا بِهٖ**﴾ إلخ فإذا وقف على " إلَّا اللّٰه" يُسْتَفادُ منه أن المتشابه لايعلم تاويله إلا اللّٰه، وإذا وقف على " والراسخون في العلم" يُستَفَادُ منه أن المتشابه يعلم تأويله " الراسخون في العلم " كما يعلمه اللّٰه تعالى. فاختلف حكم المتشابه باختلاف الوقف.

(١)البرهان: ٣٢٦/١
(٢) انظر البناية: ١٩٤/١

فنهاية القول: أن علم القراءات أيضاً من الأدوات المحتاج إليها في التفسير، ولذا قال ابن الأنباري: من تمام معرفة القرآن معرفة الوقف والابتداء، وقال النكراوي: باب الوقف عظيم القدر جليل الخطر؛ لأنه لا يتأتّى لأحد معرفة معاني القرآن، ولا استنباط الأدلّة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل(١).

۞ وأما العلم الوهبي فهو روح الكل، وبه يهتدي الإنسان إلى معارف كلام اللّٰه الدقيقة، وأسراره الخفيّة، ولطائفه الغريبة، وهذا العلم يورثه اللّٰه تعالى لمن عمل بما علم، ورُزِق قلبه الخشية في السر والعلن، وخلا قلبه عن شوائب الرذائل. ولا ينال هذا العلم من كان في قلبه ميل إلى بدعة، أو كبر، أو معصية.

قال الزَّرْكَشِي: اعلم أنه لا يحصل للناظر فهمُ معاني الوحي، ولا يظهر له أسرارُه، وفي قلبه بدعةٌ، أو كبرٌ، أو هوى، أو حبُ الدنيا، أو هو مصرٌ على ذنب، أو غيرُ متحقق بالإيمان، أو ضعيفُ التحقيق، أو يَعْتَمِدُ على قول مفسرٍ ليس عنده علمٌ، أو راجع إلى معقوله، وهذه كلها حجبٌ وموانعُ، بعضها آكدُ من بعض(٢).

وقد رُوي عن عبد اللّٰه بن مسعودٍ ﵁: ليس العلم عن كثرة الحديث، إنما العلمُ خشيةُ اللّٰه، وعن الإمام مالك:إن العلم ليس بكثرة الرواية؛ ولكنه نورٌ جعله اللّٰه في القلوب، وقال: العلم والحكمة نورٌ يهدي به اللّٰه من يشاء، وليس بكثرة المسائل (٣).

وهذا هو العلم الذي دعا به الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم لابن عباس، وقال: **اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التاويل**(٤).

وهو الذي أشار إليه أمير المومنين عليٌ ﵁ حين سأله أبو جحيفة : هل

(١)ذكره في الإتقان: ١١٠/١

(٢)البرهان :١٨٠/٢

(٣) جامع العلم والعلماء: ٣١/٢-٣٢

(٤) رواه ابن حِبّان في صحيحه :٥٣١/٥١،والحاكم :٦١٥/٣، والضياء في المختارة:٢٢٢/١٠، واسحاق بن راهويه في مسنده: ٢٣٠/١، والطبراني في الأوسط :١١٣/٢، وأحمد ٣٣٥/١، وروى شطره الأول البخاري :١٤٠، ومسلم:٤٥٢٦

عـنـدكـم كتـابٌ؟ فـقال: لا، إلا كتابُ اللّٰه أو فهمٌ أُعطِيَه رجل مسلم (١). وقال أيـضـاً: والـلّٰه ما نزلت آية إلا وقد علمتُ فِيْمَ نزلتْ، وأينَ نزلتْ، وعلى من نزلتْ، إن ربِّي وَهَبَ لي قلباً عقولاً، ولساناً صادقاً ناطقاً(٢).

وربـمـا يتـوجّـهُ على اشتراط العلم الوهبي إشكال، ولأحد أن يتساءل: هذا شـيء ليـس فـي وُسعِ الإنسان وقدرته، فكيف يصح أن يشترط للتفسير مالم يدخل تحت اختيار العبد، ولا يكلف اللّٰه نفساً إلا وسعها؟

فـأقـول في جوابه أخذاً مما قاله السيوطي: نعم هو علم ليس يدخل تحت اختيـار الـعبـد؛ ولٰكـن الـطـريق المُوصِل إليه تحت قدرته واختياره، والطريق في تـحـصيـلـه اختيارُ الأسباب الموجبة له من العلم، والزهد، والإخلاص، والتقوى، والـخشية، والإنـابة، والـخشـوع، وغيـر ذلك مـن الأعـمال الصالحة، والصفات الحميدة. فمن سلك هذا الطريق بلغ المنزل(٣).

واشتـراط العلم الوهبي للتفسير هو ما ذهب إليه عامة المفسرين؛ ولكن نـازعهـم في ذلك الآلوسي البغدادي وقال: و فيه أن علم الموهبة بعد تسليم أنه كسبـيٌّ، إنـمـا يُـحُتَـاجُ إليـه فـي الاطـلاع على الأسرار، لا في أصل فهم معاني الـقـرآن، كـمـا يـفـهمه كلام البرهان، و كثير من المفسرين بصدد الثاني (وهو أصـل الـمعنى) والواقفون على الأسرار –وقليل ما هم– لا يستطيعون التعبير عن كثيـر مـمـا أفيـض عـليهم، فضلاً عن تحريره وإقامة البرهان عليه، على أن ذلك تأويل لا تفسير(٤).

قـال الـراقـم: فـحـصـل مما قدمنا أنه لا سبيل إلى فهم القرآن وتفسيره إلا باستمداد الأدوات العلمية، وهي ما سبق من العلوم العربية والشرعية.

---

(١)رواه البـخـاري والـلـفـظ لـه:١٠٨، والترمذي: ١٣٣٢، والنسائي: ٤٦٦٣،وابن ماجه: ٢٦٤٨، وأحمد:٥٦٥، والدارمي: ٢٢٥٠

(٢)تاريخ الخلفاء: ١٨٣

(٣)انظر الإتقان:٢٣٢/٢

(٤) روح المعاني:٦/١

الانتباه الأول

ويُهِمُّنَا بعد الذي أسْلَفْنَا إليكم أن نلفت الأنظار إلى فتنةٍ حديثةٍ، ظهرتُ وانتشرتُ في طبقةٍ مُثَقَّفَةٍ نحوَ تفسير القرآن الكريم حيث يزعمون: أن تفسير كتاب اللّٰه تعالى لا يحتاج إلى شيء من هذه العلوم، ولذا فإنّهم يجترءون على تفسيرالقرآن بغير علم و هُدى، فيَضلّون ويُضِلُّون، وهذا أمر خطير جدا، وهؤلاء هم أهل الأهواء المُتَنَوِّرُوْن الذين أظلم عليهم سبيلُ الحق المبين، والأسف كل الأسف على من يتبعهم من الطبقة المثقفة، ويدّعُون لأولئك علماً وفضلاً، ويجعلونهم قدوةً لهم ، ومع هذا الجهل المركب يُسيئون الظن بالعلماء المهرة؛ حتى سمعتُ بعضهم يقول : إن العلماء لا يعرفون التفسير والحديث، ولا يستطيعون أن يفسروا القرآن على وفق العقول الحاضرة،و هذا كله –كما ترى – جهلٌ بالدين، وانحرافٌ عن الطريق السوي، و عصبيةٌ محضةٌ نحوَ العلماء .

والحق ما قاله الأئمة من أولهم إلى آخرهم، وإليك بعض كلامهم في هذا الصدد، فقال الإمام النووي في"التبيان في آداب حملة القرآن":

" ويحرم تفسيره بغير علم، والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها، والأحاديث في ذلك كثيرة، والإجماع منعقد عليه، وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن والإجماع منعقد عليه، فمن كان أهلاً للتفسير جامعاً للأدوات التي يُعْرَفُ بها معناه، وغلب على ظنه المراد فسّره، إن كان مما يدرك بالاجتهاد كالمعاني، والأحكام الجلية والخفية، والعموم والخصوص، والإعراب و غير ذلك، وإن كان مما لا يدرك بالاجتهاد، كالأمور التي طريقها النقل، وتفسير الألفاظ اللغوية، فلا يجوز الكلام فيه إلا بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله، وأما إن كان ليس من أهله، لكونه غيرَ جامع لأدواته، فحرامٌ عليه التفسيرُ، لكن له أن ينقل التفسير من المعتمدين من أهله" (١).

(١)التبيان في آداب حملة القرآن:٨٥-٨٦

وقال العلامة الشاطبيّ رحمه الله:

" إن النـاس في العلم بالأدوات المحتاج إليها في التفسير على ثلاثِ طبـقاتٍ: أحدها من بلغ في ذلك مبلغ الراسخين، كالصحابة، والتابعين، ومـن يـليهـم، وهـؤلاء قـالوا مع التوقي والتحفظ، والهيبة، والخوف من الهـجـوم، فـنحن أولى بذلك منهم، إن ظننا بأنفسنا أنا في العلم، والفهم مثـلهـم ،وهيهـات، والثـانية: مـن عـلم من نفسه أنه لـم يبلغ مبالغهم، ولا دانـاهم، فهذا طرف لا إشكال في تحريم ذلك عليه،والثالثة: من شكّ في بلوغه مبلغ أهل الاجتهاد، أو ظن ذلك في بعض علومه دون بعض، فهذا أيـضاً داخل تحت حكم المنع من القول فيه؛لأن الاصل عدم العلم، فعند مـا يبـقـى لـه شكٌّ، أو تـردّدٌ، فـي الـدخـول مـدخـل العلماء الراسخين، فـانسحاب الحكم الأول عليه باقٍ بلا إشكال، وكلُّ أحدٍ فقيهٌ بنفسه في هذا المجال، وربما تعدّى بعض أصحاب هذه الطبقة طَورَه، فحَسُنَ ظنُّه بـنـفسـه، فـد خـل فـي الكلام فيه مع الراسخين، ومن هنا افترقتِ الفرقُ، وتَبَايَنَتِ النحلُ، وظَهَرَ في تفسير القرآن الخللُ " (١).

الانتباه الثاني

وقد مضى بك الكلام فيما شرطه العلماء للمفسّر من العلوم، ولم يذكروا في تـلـك الـعـلـومِ "الـعـلـومَ الكونيةَ" التي ظهرتُ في هذه العصور التطورية، و في عدم اشتراطهم "العلومَ الكونيةَ" للتفسير دليلٌ واضحٌ على أن هذه العلوم ليست من شرط المفسر في شيء، وأن هذه العلوم لا يَتَوَقَّفُ فهمُ القرآن عليها أصلاً، فلو كان القرآن يتـوقف فهـمه على هذه العلوم، لم يُهْمِلُوا ذكرَها، ولم يَجُزُ لهم إهمالُها قطعا، ومن الـمـؤسف أن بعض المعاصرين من العلماء– وقليل ما هم – زَعَمُوا أن العلوم الكونية، والمعارف الطبيعية، لازمة لتفسير القرآن؛ لأن القرآن الكريم –على ما زعموا – كتاب يبحث عن هذه العلوم بحثاً د قيقاً، ولا يهتدي إلى مغزاه من لا يعلم هذه العلوم، وقالوا : إن إعجازالقرآن العلمي إنما يَتَنَوّرُ، ويَتجَلّى بهذه العلوم الكونية .

---

(١)الموافقات: ٣/ ٢٥٦ - ٢٥٧

ولكن هذا الزعم لا أساس له من الصحة؛ لأنه من المعلوم أن القرآن الكريم هو كتاب هدايةٍ نزل بما للناس فيه أدوات الهداية الربانية، وأسبابُ الحياة الإيمانية، وموادُ الأدوية الروحية، ويكفي لهذا الهدف مايظهرُ لكل أحد في بادىء الأمر، إذا نَظَرَ إلى مظاهر الكون ؛ وفَتَحَ عينَه إلى ما خلق اللّٰه فيه من سماء وأرض، و بحر و برّ، و شمس و قمر، وإنسان وحيوان، ونبات و جماد، وغير ذلك من المخلوقات التي لا تعدُّ ولا تحصىٰ، وهذه الطريقة الساذجة، السهلة الواضحة، البعيدة عن التد قيقات الفلسفية ، والتعقيدات الفنّية ، هي ما يدعو القرآن إليها بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِيْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَاٰيٰتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[ال عمران: ١٩٠] وبقوله تعالى:﴿ **أَفَلَا يَنْظُرُوْنَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ** ﴾ [الغاشية: ١٧ -٢٠] وبقوله تعالى : ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا أَنَّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنٰهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ، أَفَلَا يُؤْمِنُوْنَ** ﴾[الأنبياء: ٣٠] إلى غير ذلك من الآيات، فإن الإسلام دين سمح ساذج ، وأنه لم يكلف الناس إلا ما هو ميسور لهم .

فهل هذا يتوقف على شيء من العلوم الكونية، والمعارف الطبيعية، مثل علم الكيمياء، والفيزياء، والطب، والهندسة، والحساب، والهيئة، والأفلاك، و الحيوانات، والنباتات، و غير ذلك مما جدّ و يجدّ في العالم ؟ لا، بل يكفي هذا القدرمن النظروالتكفرلاستحاشة الوجدان ، واستحياء القلب ، و تحرّك الروح، نحو الخالق المبدع لهذه المشاهد والخلائق ، وهو المطلوب، إضافةً إلى ذلك أقول: إنا نحن نعلم قطعاً أن القرآن الكريم نزل في زمان لا صلة له بهذه العلوم ؛ بل نحن نعلم بالجزم أن هذه العلوم لم تحدث إلا بعد عهد النبوة ، وعهد الصحابة بقُرُون وعُصُور، و مع ذلك كله فإنا نعتقد أن الصحابة هم أعلم الناس بتفسير القرآن ، فهل يبقى بعد ذلك شكٌ في أن فهم القرآن لا يتوقف على العلوم الكونية ؟ وفي أن من زَعَمَ وقَالَ: إن فهم القرآن لا بدّ له من هذه العلوم؛ فبِعَدم وعي وفكرٍ زَعَمَ هذا، وبعدم دراسةٍ و إمعانٍ قال به؟ وستأتي تكملة هذاالبحث في مقامه إن شاء اللّٰه تعالى.

فصل
أقسام التفسير

ومن الأمور التي يجدر ذكرها في هذا المقام، أن التفسير على أقسام، وله تقسيمات عديدة، أتناولها بالبيان والتفصيل في السطور التالية:

تفسير معنى و تفسير إعراب

قال الزَّرْكَشِي : قد يقع في كلامهم: هذا تفسير معنى، و هذا تفسير إعراب، والفرق بينهما أن تفسير الإعراب لا بد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية؛ وتفسير المعنى لا يضر مخالفة ذلك (١).

قلتُ: وحاصله أن تفسير الإعراب تفسير على جهة القواعد النحوية، وتفسير المعنى هو تحقيق حاصل المعنى.

التفسير على أربعة أنحاء

روى عبد الرزاق في مصنفه عن ابن عباس رضي الله عنه : التفسير أربعة: حلال وحرام لايُعْذَرُ أحدٌ بجهالته، وتفسيرٌ تُفَسِّرُهُ العربُ بألسنتها، وتفسيرٌ تُفَسِّرُه العلماء، وتفسير لايعلمه إلا اللّٰه.

وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنه: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا اللّٰه تعالى ذكرُه (٢).

وروى ابن جرير أيضاً حديثاً مرفوعاً في هذا المعنى بإسناد فيه نظر، كما قال هو وابن كثير، عن عبد اللّٰه بن عباس: أن رسول اللّٰه ﷺ قال : **أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام لا يُعْذَر أحد بالجهالة به، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا اللّٰه تعالى ذكرُه، ومن**

(١) البرهان : ١/ ٣٠٤

(٢)تفسير الطبري: ٥٧/١

ادعى علمه سوى اللّٰه فهو كاذب (١).

وقد أطال الكلام الزركشي (٢) في شرح قول ابن عباس، ولَخّصَ كلامَه الشيخُ الزرقاني في "مناهل العرفان" تلخيصاً حسناً، وهو فيما يلي:

" هـذا تقسيم صحيح، فأما الذي تعرفه العرب بألسنتها فهو ما يرجع إلى لسانهم من اللغة والإعراب، فأما اللغة فعلى المفسر معرفة معانيها، ومسمّيات أسمائها، ولا يلزم ذلك القارئ. ثم إن كان ما يتضمنه ألفاظها يوجب العمل دون العلم، يكفي فيه خبر الواحد والاثنين، والاستشهاد بالبيت والبيتين. وإن كان يوجب العلم -أي الاعتقاد- لم يكف ذلك؛ بل لابد أن يستفيض ذلك اللفظ، وتكثر شواهده من الشعر؛ وأما الإعراب فما كان اختلافه مُحيلاً للمعنى وجب على المفسر والقارئ تعلّمه، ليوصل المفسر إلى معرفة الحكم، ويسلِم القارئ من اللحن؛ وإن لم يكن مُحيلاً للمعنى وجب تعلّمه على القارئ ليسلم من اللحن، ولا يجب على المفسر لوصوله إلى المقصود بدونه.

وأما ما لايُعْذَرُ أحد بجهله، ما تبادر إلى الأفهام معرفة معناه من النصوص المتضنة شرائعَ الأحكام ودلائلَ التوحيد، وكل لفظ أفاد معنى واحداً جلياً، يعلم أنه مراد اللّٰه. فهذا القسم لا يلتبس تأويله، إذ كل أحد يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا اللّٰهُ** ﴾ [محمد :١٩] أنه لا شريكَ له في الألوهية، وإن لم يعلم أن " لا " موضوعةٌ في اللغة للنفي و "إلا" موضوعةٌ للإثبات، وأن مقتضىٰ هذه الكلمةِ الحصرُ، ويعلم كل أحد بالضرورة أن مقتضىٰ " أقيموا الصلوٰة وآتوا الزكوٰة " ونحوه طلبُ إيجاب المأمور به، وإن لم يعلم أن صيغة ' افعل ' للوجوب.

وأما مالا يعلمه إلا اللّٰه تعالى فهو ما يجري مجرى الغيوب، كالآيات التي تُذْكَرُ فيها الساعة، والروح، والحروف المقطعة، وكل متشابه في القرآن عند أهل الحق،

(١)الطبري: ٥٧/١،وابن كثير: ٧/١

(٢)انظر البرهان: ١٦٤/٢-١٦٧

فـلا مساغ للاجتهاد في تفسيره ، ولا طريق إلى ذلك إلابالتوقيف بنص من القرآن، أو الحديث، أو إجماع الأمة على تاويله.

وأمـا مـا يـعـلـمـه الـعلماء ويرجع إلى اجتهادهم، فهو الذي يغلب عليه إطـلاق التـاويـل، و ذلك استـنبـاط الأحكام، و بيان المجمل، وتخصيص الـعـموم. وكل لفظ احتمل معنيين فصاعداً فهو الذي لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه اعتماداً على الدلائل والشواهد ، دون مجرد الرأي(١).

التفسير على ثلاثة أنواع

وقسمه بعض العلماء باعتبار آخر إلى ثلاثة أنواع :

١- التـفسيـر بـالـرواية: وهـو ماجاء في القرآن أو السنة أوكلام الصحابة بياناً للمراد بآيات اللّٰه تعالى، ويُسَمّىٰ هذا التفسير بالمأثور أيضاً.

٢- التـفسيـر بـالـدراية: وهـو مـا استـنبـط من الاجتهاد مستنداً إلى ما يجب الاستـنـاد إليـه، فإن كان هذا الاجتهاد مستنداً إلى مايجب الاستناد إليه، فالتفسير محمود مقبول، وإلا فمذموم مردود، ويسمى بالتفسير بالرأي.

٣- التـفسيـر بالإشارة: وهو ما استنبط من القرآن من الدقائق والأسرار بإشارة خـفية، تنكشف على أرباب الحقائق، وأصحاب السلوك بواسطة الإلهام الرباني. وفـي جـواز التـفسير بالإشارة، وقبوله خلاف بين العلماء، وسيأتي البحث فيه في موضعه.

التأويل على قسمين

قال الزَّركَشِي : التأويل (أي التفسير) ينقسم إلى منقاد و مستكره، فالأول : مـا لا تعرض فيه بشاعة أو استقباح، وقد يقع فيه الخلاف بين الأئمة، إما لاشتراك فـي الـلفظ نحو قوله تعالى: ﴿**لاَ تُـدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾[الأنـعام:١٠٣] هل هو من

(١)مناهل العرفان: ٢/ ١١ - ١٢.

بـصـر العين أو القلب؟ وإما لأمر راجع إلى النظم كقوله تعالى: ﴿ **إِلَّا الَّذِيْنَ تَابُوْا مِنْ بَعْدِ ذَالِكَ وَأَصْلَحُوْا** ﴾[النور:٥] هل هذا الاستثناء مقصور على المعطوف، أو عـائـد إلـى الجميع؟ وإما لغموض المعنى ووجازة النظم، كقوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ عَزَمُوْا الطَّلاَقَ، فَإِنَّ اللّٰهَ سَمِيْعٌ عَلِيْمٌ** ﴾ [البقرة:٢٢٧] وإما لغير ذلك.

وأما المستكره فما يُسْتَبْشَعُ إذا عرض على الحجة، وذلك على أربعة أوجه:

الأول: أن يـكـون لـفـظــاً عــامّــاً، فيـختـصّ ببـعـض مــا يدخل تحتـه، كقولـه تعالى: ﴿**وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِيْنَ**﴾[التحريم:٤] فحمله بعضهم على علي رضي الله عنه فقط.

والثاني: أن يـلفق بين اثنين كقول من زعم تكليف الحيوانات في قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ اِلَّا خَلاَ فِيْهَا نَذِيْرٌ**﴾ [فـاطر:٢٤] مع قوله تعالى : ﴿**وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِيْ الْأَرْضِ وَلاَ طَئِرٍ يَّطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**﴾[الأنعام:٣٨] أنها مكلفة كما نحن.

والثالث: ما استعير فيه كقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ**﴾ [القلم: ٤٢] في حمله على الحقيقة.

والرابع: مـا أشعر باشتقاق بعيد، كما قال بعض الباطنية في البقرة: إنه إنسان يبقر عن أسرار العلوم، وفي الهدهد: أنه إنسان موصوف بجودة البحث والتنقيب.

قـال : الأول أكثر ما يروج على المتفقه الذي لم يتبحر في معرفة الأصول، والثـانـي عـلـى الـمتـكـلـم القاصر في معرفة شرائط النظم، والثالث على صاحب الـحـديث الذي لم يهذب في شرائط قبول الأخبار، والرابع على الأديب الذي لم يتهذب بشرائط الاستعارات، والاشتقاقات (١).

---

(١)البرهان: ١٧٨/٢-١٧٩

فصل

مآخذ التفسير

ومـمّـا يـجـب أن يرسخ في ذ اكرتنا أن للتفسير مآخذ، يأخذ منه المفسِّر مـوادّ التفسير، ويجب عليه أن يستند إليها؛ لكي يكون تفسيره محموداً و مقبولاً، نـعـم هـناك مآخذ أُخرى غيرمعتبرة لا يجوز الاعتماد والتعويل عليها في التفسير، إذنُ فعلينـا أن نَـذْكُرَ أوّلًا المآخذَ المعتبرةَ المستندةَ في التفسير، و ثانياً المآخذَ غيرَالمعتبرة التي لا تعويل عليها. و سنتحدّثُ حول كل منها تفصيلاً.

المآخذ المعتبرة فى التفسير

أوّلًا نبـحـث عن المآخذ التي في التفسير لها اعتبارٌ، قال الإمام الزركشي: لـلـنـاظـر فـي القرآن لطلب الـتفسير مآخذ كثيرة، أمّهاتها أربعة، الأول: النقل عن النبيﷺ ، وهـذا هو الطراز المعلم، الثاني:الأخذ بقول الصحابي، والثالث: الأخذ بـمـطـلـق اللغة، والرابع : التفسير بالمُقتضٰى من معنى الكلام، والمُقْتَضَب من قوة الشرع(١).

وذكـر بـعـضهـم أن مآخذ التفسير خمسة: القرآن الكريم، والسنة النبوية، وآثار الصحابة، و أقوال التابعين ، واللغة العربية.

المأخذ الأول : القرآن

الـمـأخـذ الأوّل هو القرآن الكريم،لأن القرآن هو كلام اللّٰه، الّذي هو وثيقةٌ فـذّةٌ جـامـعةٌ لـمـعـاقـد الـوحي الإلهي، وهو التبصير الأوحد الأصح لمرادات اللّٰه بـكـلامـه. فتـفسيـرالقرآن بالقرآن من قبيل تفسيرالكلام ببيان المتكلم، وهو أحسن الطُّرُق، ولاريب في قبوله؛لأن اللّٰه تعالى أعلم بمراد كلامه من غيره.

قال الإمام شيخ الإسلام ابن تيميةؒ:

(١) ملخصاً من البرهان :١٦٠/٢ - ١٦١

" إن أصح الطرق في ذلك أن يُفَسَّرَ القرآنُ بالقرآن ؛ فما أُجْمِلَ في مكان فإنه فُسِّرَ في موضع آخر، وما اخْتُصِرَ من مكان فقدبُسِطَ في موضع آخر(١).

القرآن يُفَسِّرُ القرآنَ

ومن المُهمّ أن يُعلَم أن تفسيرالقرآن بالقرآن على أنوا ع، وها أنا أسردُ منها طرفاً لنكون على بصيرة:

۞ قد يكون بيانه مضمراً فيه،كقوله تعالى :﴿ **حَتّىٰٓ إِذَا جَآءُوْهَا وَ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**﴾ [الزمر:٧٣] فهذا يحتاج إلى بيان ؛ لأن "حتى" لا بدّ لها من تمام ، وتاويله " حَتّٰى إذَا جَاءُوْهَا جَاءُوْهَا وَ فُتِحَتْ أبْوَابُهَا " ، وكقوله تعالى:﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْاٰنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ**﴾ [الرعد:٣١] أي ما كانوا ليؤمنوا.

۞ قد يكون بيانه بالإيماء إلى المحذوف، إمّا متأخّراً ،كقوله تعالى:﴿ **أَفَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهٗ لِلإِسْلَامِ**﴾[الزمر:٢٢] فإنه ما جاءَ له جواب في اللفظ، لكن أوْمَأَ إليه قولُه:﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوْبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللّٰهِ** ﴾ وتقديره " أفمن شرح اللّٰه صدره للإسلام كمن قسى قلبه ؟ " ، وإما متقدماً ،كقوله تعالى: ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ الَّيْلِ**﴾[الزمر:٩] فإنّه أَوْمَأَ إلى ما قبلَه، وهو قوله تعالى:﴿ **وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهٗ مُنِيْبًا إِلَيْهِ** ﴾[الزمر:٨] كأنّه قال : أهذا الّذي هو كذلك خيرٌ أم من هو قانت؟ فأُضْمِرَ المبتدأ.

۞ قد يُفسّر لفظ بلفظ آخر يدلّ على المراد بالصراحة والوضوح، وهو على ضربين: الأول: أن يكون متّصلاً ، كقوله تعالى ﴿ **وَمَا أَدْرٰكَ مَا الطَّارِقُ**﴾[الطارق:٢] جاء تفسيره متّصلاً بقوله تعالى : ﴿ **اَلنَّجْمُ الثَّاقِبُ** ﴾ [الطارق:٣] والثاني: أن يكون منفصلاً، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ **إِنَّآ أَنْزَلْنٰهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ**﴾ [الدخان:٣] فسّره قولُه تعالى في مقام آخر:﴿ **إِنَّآ أَنْزَلْنٰهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ [**القدر : ١**]

(١)فتاوىٰ ابن تيمية :٣٦٣/١٣

۞ قد يجيء التفسير مُخصِّصاً لما جاء عامّاً، ومن أمثلته :

١- قولُه تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلٰثَةَ قُرُوْٓءٍ﴾ [البقرة:٢٢٨] فهذا عامٌّ شامل لجميع أنواع المطلَّقات، وقد جاء تفسيره في الآيتين الأخريين مخصِّصاً لهذا العام؛ الأول: قوله تعالى: ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوْهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوْهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّوْنَهَا﴾ [الأحزاب:٤٩] فإنه خصّص من المطلَّقات من طُلِّقَتْ قبل المسيس والخلوة، فلا عدة عليها، والثاني قوله تعالى: ﴿وَأُولاَتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَّضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤] فإنه خصّص من المطلَّقات أولات الأحمال، فإن عدتهن أن يضعن حملهن، فجاء التفسير مخصصاً لما كان عاماً.

٢- قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ إلخ ﴾[المائدة:٣] فوقع الميتة والدم ههنا عامين، وجاء تفسيرهما في الآيتين الُأخريين مُخصِّصاً لهما؛ الأولى: قوله تعالى: ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦] ففسر الميتة بما عدا ميتة البحر، وهو السمك فهو حلال، والثانية: قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَّآ أَجِدُ فِيْ مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلٰى طَاعِمٍ يَّطْعَمُهٗٓ إِلَّآ أَنْ يَّكُوْنَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوْحًا إلخ﴾ [الأنعام:١٤٦] ففَسَّرَ الدم بالدم المسفوح فهو حرام، وأما غيرالمسفوح فلاحرمة فيه.

۞ قد يَرِدُ التفسير مُبَيِّناً للإجمال؛ وهو على نوعين: الأول: ما جاء مُتّصلاً في نفس الآية ،كما في قوله تعالى: ﴿ كُلُوْا وَاشْرَبُوْا حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾[البقرة:١٨٧] فقوله " من الفجر " بيان مُتّصِل لما في قوله تعالى:" الخيط الأبيض من الخيط الأسود " من الإجمال، والثاني: ما جاءَ منفصلاً في آية أخرىٰ ، وأمثلته كثيرة:

١- ومنها قوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيْرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهٖ إلخ﴾ [المائدة:٣] فإنه تفسيرلما أُجمل في قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيْمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلٰى عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة:١]

٢- ومنها قوله تعالى ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ ﴾ [الأعراف:٢٣] فإنه بيان لما كان في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقّٰى آدَمُ مِنْ رَّبِّهٖ كَلِمٰتٍ﴾[البقرة:٣٧] من الإجمال.

٣- ومنها قوله تعالى: ﴿ فَأُوْلٰئِكَ مَعَ الَّذِيْنَ أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّيْنَ وَالصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِيْنَ﴾ [النساء:٦٩] فهذا تفسير للإجمال الواقع في قوله تعالى:﴿صِرَاطَ الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة:٧]

۞ قد يُفَسِّرُالقرآنُ نفسَهٗ بتقييد ما أطلقه في موضع آخر، ومن أمثلته:

١- قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوْٓا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢] بإطلاق الإشهاد وجاء تفسيره بتقييد هذا الإطلاق في قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوْا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ [الطلاق:٢]

٢- قوله في التيمم: ﴿ فَتَيَمَّمُوْا صَعِيْدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوْا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيْكُمْ﴾[المائدة:٦] أطلق الأيدي، وورد تفسيرُه مُقيِّداً في باب الوضوء في قوله تعالى:﴿ فَاغْسِلُوْا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]

٣- قوله تعالى في باب ميراث الزوجين: ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُّوْصِيْنَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ [النساء:١٢] فهذا مقيَّدٌ، وقد أطلق في بعض صور الميراث، وهوملحوظ في جميع صُوَرِه.

إلى غير ذلك من الأمثلة، وهل المطلق يُحمَلُ على المُقَيَّد؟ فيه خلاف بين الأئمة، والضابط ما قال العلماء: متى وُجِدَ دليلٌ على تقييد المطلق صير إليه، وإلا فلا ؛ بل يبقى المطلق على إطلاقه والمقيد على تقييده (١).

۞ ومن تفسير القرآن بالقرآن تفسيرُه باختلاف القراءتين، فإنّه قد تُفَسِّرُ إحدى القراءتين أُخراها بأن يكون في إحداها إبهام أو إجمال، فتُفَسِّرُها الأُخرى ببيانها، ومن أمثلته:

١- قوله تبارك و تعالى:﴿ وَامْسَحُوْا بِرُءُوْسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [**المائدة:٦**] قُرِئَ بجرّ "أرجلِكم" عطفاً على "رُءُوْسِكم" وعلى هذا فيمكن

(١) **انظر الإتقان**:٢/ ٤٠

أن يُؤْخَذَ منه أن وظيفة الرِجلين في الوضوء هو المسح ،كما ذهب إليه الروافض. ولٰكنّه قُرِئَ بنصب " أرجلَكم " عطفاً على قوله " أيد يَكم " ، فهذه القراءة بَيَّنَتُ أن وظيفة الرجلين في الوضوء هو الغسل لا المسح؛ لأنه عطف على" أيديكم " لا على "رُءُوسكم " ، فالقِرَاءَةُ الثانية مُفَسِّرَةٌ للأولى.

٢- وقوله تعالى: ﴿ **يٰٓأَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْٓا إِذَا نُوْدِيَ لِلصَّلٰوةِ مِنْ يَّوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلٰى ذِكْرِ اللّٰهِ** ﴾[الجمعة:٩] وقُرِئَ "فامضوا إلى ذكر اللّٰه " فالقراءة الأولى يتوهم منها وجوب السرعة في المشي إلى صلاة الجمعة، ولٰكن القراءة الثانية رفعت هذا التوهم؛ لأن المضي ليس من مدلوله السرعة.

۞ وقد يُفَسَّرُ القرآنُ بسياقه، ومثاله ما قال اللّٰه تعالى: ﴿ **وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِيْ كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُوْنَ فِي السَّبْتِ إلخ** ﴾ [الأعراف:١٦٣] قال الإمام الشافعيؒ: ابتدأ جَلَّ و عَلَا ذكرَ الأمر بمسئلتهم عن القرية الحاضرة البحر، فلما قال: إِذْ يَعْدُوْنَ فِيْ السَّبْت الآية دلّ على أنّه إنما أراد أهل القرية ؛لأن القرية لا تكون عاديةً ولا فاسقةً بالعدوان ولا غيره (١).

فَتَلَخّصَ من هذا كلّه أنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً من أوجُه عديدة، كما تقدّم بيانه بالتفصيل.

المأخذ الثاني: الحديث

المأخذ الثاني لتفسير القرآن الكريم هو الحديث النبوي الشريف، وههنا أبحاث في صدد كون الحديث النبوي مأخذاً للتفسير، الأوّل في حُجّيته، والثاني في شرائط قبوله في التفسير، والثالث في أنواع التفاسير الواردة في الحديث.

۞ حُجِّيةُ الحديث في تفسير القرآن

قال اللّٰه تعالى : ﴿ **وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل: ٤٤] وقال: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيْهِمْ رَسُوْلًا مِّنْ**

(١)الرسالة:١١-١٢

أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ ايٰتِهٖ وَ يُزَكِّيْهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلُ لَفِيْ ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] وقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهٖ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهٖ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة:١٦-١٨]

فهٰذه الآيات وما في معناها تدلّ دلالةً واضحةً على أن تبيين الآيات من القرآن و تعليمها من أهم وظائف النبي ﷺ ، ومن أفضل مقاصد بعثته ﷺ ، فإذا كان تفسيرالقرآن وتبيينه وتشريحه وتعليمه من وظائفه ﷺ، فليس من المعقول أن لايكون تفسيره وتفهيمه وتبيينه حُجّةً، مع أن نحن نقطع بعصمته وتوفيقه من اللّٰه تعالى، إذن فعلينا أن نُسلّم تفسير النبي ﷺ حجةً ودليلاً.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد ذكر تفسير القرآن بالقرآن: فإن أعياك ذلك فعليك بالسُّنّة ، فإنها شارحةٌ للقرآن و موضحةٌ له؛ بل قد قال الإمام الشافعي رحمه الله: كل ما حكم به رسول اللّٰه ﷺ فهو مما فهمه من القرآن(١).

وقال الإمام الشاطبي: السُّنّة راجعة في معناها إلى الكتاب ، فهي تفصيل مجمله، وبيان مشكله، و بسط مختصره. وذلك لأنها بيان له، وهوالذي دل عليه قوله تعالى:﴿ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فلا تجد في السنة أمراً إلّا والقرآن قد دلّ على معناه دلالةً إجماليةً أو تفصيليةً (٢).

قلتُ: ولذا فالمسلمون كانوا في حاجة شديدة إلى معرفة بيان الرسول لمعرفة كتاب اللّٰه، ولم يمكن لهم -ولن يمكن- أن يفهموا القرآن كما هو حق فهمه، وأن يعلمُوا مراداته تعالى بكثير من الآيات، إلا بالرجوع إلى بيان الرسول الّذي أُنزِلَ عليه الكتاب ، فتفسير القرآن محتاج إلى بيان الرسول و بغيره لايصل أحد إلى مغزاه .

(١) فتاوىٰ ابن تيمية :١٣/ ٣٦٣

(٢) الموافقات : ٤/٦

۞ **شروط قبول الحديث في التفسير:**

ومـمّـا يـجـب التـنبيـه عـليـه أن الحديث إنما يُقبَلُ في التفسير – كما في غيره من الأبواب والمواضيع – بشرائط:

الأول: أن يكـون الـحـديـث صـحيـحاً أو حَسَناً، فإذا كان الحديث صحيحاً أو حَسَـنـاً فلا خلاف في وجاهته وقبوله، وأمّا ما كان ضعيفاً أو موضوعاً فالواجب الـحـذر منه. قال الإمام الزركشي: للناظر في القرآن لطلب التفسير مآخذ كثيرة؛ أمهاتها أربعة : الأول : النقل عن النبي ﷺ وهذا الطراز المعلم، لكن يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع، فإنه كثير(١) .

وإليك بأمثلة في هذا الصدد:

١ – فـمثـال الـحديث الصحيح الوارد في التفسير ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ ﴿**قال: قيل لبني إسرائيل: اُدْخُلوا البابَ سُجّداً، وقُوْلُوْا حِطّةٌ، فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدّلوا ، وقالوا: حبة في شعرة (٢)**﴾

فيـه تـفسيـر قـولـه تعالى : ﴿**فَبَـدَّلَ الَّـذِيْـنَ ظَـلَـمُوْا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِيْ قِيْلَ لَهُمْ**﴾[البقرة:٥٩] وهذا حديث صحيح أخرجه الشيخان.

٢ – و مثـال الـحـديـث الـحسـن الـذي ورد فـي التفسير ما جاء عن عدي بن حبان رضي الله عنه قال: ﴿ **قـال رسول الله** ﷺ : **إنّ الـمغضوبَ عليهم هُمُ اليهودُ، وإنّ الضّالّين النصارٰى (٣)**﴾

وهـذا الحديث حسنٌ كما يقوله الإمام الترمذي، وفيه تفسير لقوله تعالى: غيرالمغضوب عليهم ولا الضالين.

٣ – ومثال الحديث الضعيف ما روي عن أبي سعيد الخد ري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في

---

(١)البرهان:١٥٦/٢

(٢)البخاري: ٤١١٩، ومسلم: ٥٣٣٠

(٣)أخرجه الإمام أحمد : ١٨٥٧٢، و الترمذي: ٢٨٧٨، وحسّنه

قوله تعالى:﴿ وَلَهُمْ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، قال من الحيض، والغائط، والنخاعة، والبزاق (١).

وهـذا الـحديث غريب و ضعيف، قال ابن كثير: في إسناده عبد الرزاق بن عمر البزيعي، وقال فيه: ابن حِبّان لا يجوز الاحتجاج به (٢).

٤ - ومثـال الـحـديـث الموضوع ما رواه ابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم فـي الـمـعـرفة ، والـديـلمي، وابن عساكر، وابن النجار، عن ابن عباس قال: لمّا نَزَلَتْ ﴿ إِنَّمَآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَّلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]وَضَعَ رسولُ اللّٰه ﷺ يدَهُ عـلـى صـدره، فـقـال: أنـا الـمُنذِر ولكل قوم هاد، و أوْمَأَ بيده إلى منكب عليّ، فقال: أنتَ الهادي يا عَلِيُّ، بك يهتدي المهتدون بعدي (٣).

وهذا حديث موضوع، قال الحافظ الذهبي:خبر باطل (٤)، وقال ابن كثير : فيه نكارة شديدة(٥)، وقال ابن الجوزي: وهذا من موضوعات الرافضة (٦).

قـال الـراقـم: في سنده معاذ بن مسلم، قال فيه الذهبي: مجهول (٧)، وفيه الـحسن بن الحسين الأنصاري الكوفي، قال فيه ابن عدي: روى أحاديث مناكير، وقـال: ولا يشبـه حـديثـه حديث الثقات(٨).وقـال الـذهبـي وابن حجر: قال أبو حـاتـم: لم يكن بصدوق عندهم، وكان من رؤساء الشيعة. وقال ابن حبان : يأتي عن الأثبات بالملزقات، ويروي المقلوبات(٩).

(١)أخرجه ابن مردويه، والحاكم، كما ذكره ابن كثير:٩٤/١

(٢) ابن كثير :٦٣/١

(٣) تـفسيـر الـطبـري: ٣٤٤/٧،الـدر الـمـنـثـورلـلسيـوطـي:٦٠٨/٤، ابـن كثيـر:٥٠٣/٢، فتـح القديرللشوكاني :٧٠/٣

(٤) ميزان الاعتدال:٤٥٣/٦

(٥) تفسيرابن كثير:٥٠٢/٢

(٦) زاد المسير:٣٠٧/٤

(٧)انظر : ترجمة معاذ بن مسلم في ميزان الاعتدال: ٤٥٣/٦، و لسان الميزان: ٥٥/٦

(٨)الكامل لابن عدي :٣٣٢/٢

(٩)انظر: الميزان: ٢٣١/٢ واللسان:٢٥٠/٢

ومـن أمثلته: ماجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيْدٍ﴾ [قٓ: ٢٤] عـن أبي سعيد الخدري : قال قال رسول اللّٰه ﷺ :**إذا كان يوم القيامة قال اللّٰـه لي ولعلي بن أبي طالب** ﷺ: **أَدْخِـلا الجنّة مَـن أحَبَّكُمَا، وأَدْخِلا النارَ من أبْغَضَكُمَا**، وذلك قـولـه تـعالى: ﴿ أَلْقِيَـا فِـي جَهَـنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيْدٍ ﴾ . رواه ابن الجوزي،

وقـال: هـذا حـديث موضوع، وكذب على الأعمش، والواضع له إسحاق النخعي، وهو من الغلاة في الرفض الكذابين(١).

ومـن أمثلته أيضاً: ما رُوِي عن ابن عباس ﷺ قـال سمعتُ رسولَ اللّٰه ﷺ يقول: **اسـمـي في القرآن: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحٰهَا﴾، واسم علي بن أبي طالب: ﴿وَالْقَـمَرِ إِذَا تَلٰهَا﴾، واسم الحسن والحسين:﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلّٰهَا﴾، واسم بني أُمية:﴿ وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشٰهَا﴾**.

رواه ابـن الـجـوزي وقـال: قـال الـخطيب: وهذا الحديث منكرجدّاً ؛ بل موضوع، وفي إسناده ثلاثة مجهولون: الحوضي، وموسى بن إدريس، وأبوه، ولا يصحّ بوجه من الوجوه (٢).

ا لثا ني: أن لايـكـون مـخـالـفاً للقواعد المعلومة، والأصول المسلّمة عند الشرع، فـلو كان مخالفاً للقواعد والأصول فلايجوز به التفسير. ومثاله ما رُوِيَ عن ابن عمر وغيـره مـرفـوعـاً، فـي قصة هاروت و ماروت و الزهرة، فهي على رأي أكثر العلماء المحققين غيرُ ثابتة . قال العلامة ابن كثير: وقد رُوِيَ في قصة هاروت وماروت عن جـمـاعة مـن التـابعين كمجاهد، والسُّدِّي، والحسن البصري، و قتادة، وأبي العالية، والـزهـري، والربيع بن أنس، ومقاتل بن حيّان، وغيرهم. وقصَّها خلق من المفسرين من المتقدمين، والمتأخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليـس فيهـا حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الـذي لا يـنـطـق عـن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط، ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده اللّٰه تعالى(٣) .

(١) الموضوعات:١/٤٠٠

(٢) الموضوعات: ٣٨١/١
(٣) تفسيرابن كثير: ١٤١/١

وقال الإمام القرطبيؒ: " هذا كلّه ضعيف و بعيد عن ابن عمر وغيره ، لا يصح منه شيء ؛ فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أُمَنَاءُ اللّٰه على وحيه، وسُفَرَاؤُه إلى رُسُلِه ، ﴿لا يَعْصُوْنَ اللّٰهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُوْنَ مَا يُؤْمَرُوْنَ ﴾ [التحريم:٦] ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُوْنَ،لا يَسْبِقُوْنَهُ بالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُوْنَ [الأنبياء:٢٦-٢٧] ﴿ يُسَبِّحُوْنَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُوْنَ﴾[الأنبياء:٢٠] وقال: أما العقل فلا يُنْكِرُ وقوعَ المعصية من الملائكة، لكن وقوع هذا الجائز لا يُدْرَكُ إلا بالسمع، ولم يصحّ " (١).

قال الراقم: اختلفت آراء المحدثين في خبر هاروت وماروت ، أَنكره جمعٌ من المحدثين، وأثبته جمعٌ آخر منهم. فابن حجر العسقلاني مَالَ إلى ثبوته في فتح الباري، بينما ابن كثير، والقاضي عياض، والقرطبي، والآلوسي، وغيرهم من المحققين أَنكروه أشدَّ الإنكار. وعلى كل حال فإن هذا الخبر لاينطبق على أصول الشرع كما تقدّم عن القرطبي ؛ لأن الشرع أثبت للملائكة العصمةَ، وهو قول الجمهور من أَهل السنة، فلا يسوغ بحال أن يُقْبَلَ هذا الخبرُ الذي فيه نسبة المعصية إلى الملائكة الذين هم معصومون إلا بالتأويل، فهذا الخبر مخالف للقواعد الشرعية .

۞ أنواعُ التفاسير فى الحديث

إنّ نصوص السنة واردة على ثلاثة أنواع :

١- ما كان مؤيِّداً للقرآن و موافقاً له . ٢- ما كان مُبَيِّناً للقرآن من تقييد مطلق، و تخصيص عام، و تفصيل مجمل . ٣- ما دل على حكم سكت عنه القرآن .

قال الإمام الشافعيؒ في" رسالته" :

" لم أعلم من أهل العلم مُخالِفاً في أن سنن النبي ﷺ من ثلاثة وجوه : أحدها ما أنزل اللّٰه فيه نص كتاب، فبَيَّنَ رسول اللّٰه ﷺ مثل ما نص الكتاب ،

(١) القرطبي:٥٢/٢

والآخر : ما أنزل اللّه فيه جملة كتاب، فبَيَّنَ عن اللّه معنى ما أراد ، والوجه الثالث : ما سَنَّ رسول اللّه ﷺ فيما ليس فيه نص كتاب إلخ (١).

قال الراقم :ومن الواضح أنّ الأوّل، والثالث من أقسام السُّنن، لا تدخُّل لهما في تفسير القرآن، وإنما الثاني من أقسام السنن له دخل في التفسير، وهذا القسم – من ناحية تفسيرية– على أنواع ، وهو المقصود بالبيان ههنا، وفيما يلي بيان موجز لذلك :

۞ السُّنّة تُفَسِّرُ ما أُجمل من القرآن

لا يخفى أَن السنة النبوية قد تأتي تفسّر ما أجمل من القرآن ؛ مثل قوله تعالى: ﴿**أَقِيْمُوْا الصَّلٰوةَ وَاٰتُوْا الزَّكٰوةَ**﴾ [البقرة:٤٣] وقوله تعالى ﴿ **وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ**﴾ [اٰل عمران:٩٧] وقوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾[البقرة:١٨٣]، فهذه الآياتُ كلها مُجْمَلَةٌ تحتاجُ إلى البَيَان ؛ وقد بَيَّنَتُ السُّنّة أفعالَ الصلاة، وأوقاتِها، وكيفيتَها، وفرائضَها، وواجباتِها، وسُنَنَها، ومفسداتِها، وغيرَذلك . وكذا فسّرتُ مقاديرَ الزّكاة، ووقتَها، و عَيَّنَتُ ما يُزَكّى مما لا يُزَكّى، وكذا بيّنَتُ أفعالَ الصوم، و وقتَه، و كيفيتَه، و ما يجوز فيه، وما لا يجوز، وأبانتُ أفعالَ الحج، وترتيبَها، وكيفيتَها، و غيرَ ذلك. فهذا كله بيان للإجمال الواقع في كتاب اللّه تعالى، ولهذا أمثلة كثيرة ،لا يخفى على الذي يتدبر و يتفكر .

۞ السنة تُخَصِّصُ العامَّ من القرآن

وقد تأتي السنة تُفَسِّر القرآنَ بتخصيص ما نزل عامّاً ؛ فهو عام يراد به الخاص ، ومن الأمثلة له قوله تعالى في باب الميراث :﴿ **يُوْصِيْكُمُ اللّٰهُ فِيْٓ أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ** – إلى قوله تعالى– **وَاللّٰهُ عَلِيْمٌ حَلِيْمٌ** ﴾ [النساء:١١– ١٢]

قال الإمام الشافعيؒ: فأبان أنَّ للوالدين، والأزواج ، ما سَمّى في الحالات، وكان عامَ المخرج، فدلَّتُ السُّنّةُ على أنّه إنّما أُرِيْدَ به بعضُ الوالدين، والمولودين ،

(١) الرسالة : ص ١٦

والأزواج، دون بعض، وذلك أن يكون دينُ الوالدين، والمولودين، والأزواج، واحداً، ولا يكون الوارثُ منهما قاتلاً ولا مملوكاً (١).

وحاصله: أن ذكر الوالدين، والأولاد ، والأزواج، وقع في آية الميراث عاماً شاملاً، والمراد به الخاص بدلالة السنة؛ لأن السنة خصّصَتُهُ بكون دين الوارث، والمورث واحداً ، وبعدم كون الوارث قاتلاً للمورث ومملوكاً له ، فإن كان الوارث كافراً لايَرِثُ من مال المُورِث، وكذا إذا كان قاتلاً أو مملوكاً له لا يَرِثُ من ماله شيئاً، وهذه كلها جاء تُ في السُّنّة .

أمّا عدم التَوَارُث بين المسلم والكافر فرواه أسامة بن زيد ﵁ عن النبي ﷺ قال:" **لايَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلَا الْكَافِرُ الْمُسْلَمَ** (٢).

وأما عدم التوارُث بين القاتل ، و المقتول ، فرواه أبوهريرة ﵁ قال: قال رسول اللّه ﷺ:" **اَلْقَاتِلُ لَايَرِثُ** "(٣).

وروى أبوداؤد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: **لَيْسَ لِلْقَاتِلِ شَيْءٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَارِثٌ، فَوَارِثُهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ ، وَلَا يَرِثُ الْقَاتِلُ شَيْئاً** (٤).

وأما عدم التوارث بين السيد ومملوكه، فاستنبطوا من قوله ﷺ :" **مَنْ ابْتَا عَ عَبْداً، وَلَهُ مَالٌ فَمَالُهُ لِلْبَائِعِ إِلَّا أَنْ يَشْتَرِطَ الْمُبْتَا عُ**" (٥).

قال المحدّث ظَفَر أحمد العُثماني: دلّ الحديث على أن العبد لا يملك شيئاً من المال، وإنما ماله لسيده، وهذا يدل على أن العبد لا يورث، لأنه لا مال

(١) الرسالة:ص: ١٢

(٢)رواه البخاري: ٦٢٦٨، ومسلم: ٣٠٢٨، والترمذي: ٢٠٣٣، وأبوداؤد :٢٥٢١، وابن ماجه:٢٧١٩،وأحمد:٢٠٧٥٢، والدارمي: ٢٨٧١

(٣)رواه الترمذي: ٢٠٣٥، وابن ماجه :٢٦٢٥

(٤)سنن أبي داؤد :٣٩٥٥

(٥)رواه البخاري:٢٢٠٥، ومسلم:٢٨٥٤، والترمذي:١١٦٥، والنسائي:٤٥٥٧، وأبو داؤد: ٢٩٧٧

له، ولا يرث لأن الوراثة هوملك المال، والعبد لا يملك شيئاً من المال (١).

ومن أمثلة ما نحن بصدده قولُه تعالى: ﴿ **فَاغْسِلُوْا وُجُوْهَكُمْ وَ أيْدِيَكُمْ إِلَى الْـمَرَافِقِ وَامْسَحُوْا بِرُءُ وْسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾ [المائدة:٦] فهذا ظاهر في أنّ القدمين لا يجزئ فيهما إلا الغَسل في الوضوء، كما في الوجه واليدين، وقد بَيّنَتُ السُّنة أنه إذا لبس الخفين جاز المسح عليهما، فخصّصتُ السنةُ هذا بما إذا لم يلبس الخفين، وحديث المسح على الخفين حديث مشهور أخرجه أصحاب الصحاح .

۞ السُّنة تُقَيِّدُ ما أُطْلِقَ فى القرآن

قد تأتي السُّنّة بتقييد ما أُطْلِقَ في القرآن ، كقوله تعالى:﴿ **وَلْيَطَّوَّفُوْا بِالْبَيْتِ الْعَتِيْقِ** ﴾[الحج:٢٩] فإنه مطلق، وجاء ت السُّنة تُقَيِّدُ هذا بالوضوء، فيما رُوِي عن عائشة ﵂ أنها قالت: إن أوّل شيء بدأ به حين قد م (أي رسول اللّٰه ﷺ) أنه توضّأ ثم طاف بالبيت (٢).

وكقوله تعالى: ﴿ **وَارْكَعُوْا وَاسْجُدُوْا**﴾ [الحج:٧٧] فإنه مطلق، وجاء ت السنة بتقييده بالتعديل، والطمانينة، فيما رواه أبوهريرة ﵁ من حديث مُسيءِ الصلاة (٣).

ثم من اللازم أن يُعْلَمَ أن مذهب الحنفية في مثل هذا، أن المطلق إذا أمكن العمل بإطلاقه، فالزيادة عليه بخبرالواحد، والقياس لا يجوز؛ ولكن يُعْمَلُ بالحديث على وجهٍ لايتغير به حكم الكتاب ، على هذا فيكون مطلق الطواف فرضاً بحكم الكتاب، والوضوء واجباً بحكم السُّنة ، وكذا يكون مطلق الركوع

---

(١)إعلاء السنن : ١٨/ ٣٤٠

(٢)رواه البخاري:١٥٣٣، ومسلم:١٢٧٣

(٣)أخرجه البخاري، و مسلم، وغيره ، انظر صحيح البخاري: ٧٥١، ومسلم: ٦٠٢، وسنن الترمذي: ٢٧٩، وسنن النسائي:٨٧٤، وسنن أبي داؤد: ٧٣٠، وسنن ابن ماجه: ١٠١٥٠، ومسند أحمد: ٩٢٦٠

فرضاً والطمانينة، والتعد يل واجباً .

فالخلاصة أن السُّنةَ كما تُخَصِّص العامَ، و تُبَيِّنُ المُجمَل، تُقَيّد ما أُطْلِقَ من الكتاب المجيد أيضاً.

۞ كيف تُفَسِّرُالسنةُ القرآنَ؟

وممّا لا ينبغي صرف النظر عنه في هذا الصدد ما فصّلَه الإمام الشاطبيّ في كتابه " الموافقات" من كيفية اشتمال القرآن على السنة، وهو فصل كثير الفوائد، وكبير المنافع، وهو مبحث قلَّ أن يحرر مثله ، وها تلخيص مابيّنه من الوجوه التي ترشدنا لفهم كيفية تفسيرالسنة القرآنَ ماعدا التي ذَكَرُناها :

الوجه الأول: إن اللّٰه أحلّ الطيّبات، وحرّم الخبائث، وبقيت أشياء تشبه هذه وهذه، فجاء ت السنة تُبيِّنُ أنها ملحقة بأحدهما ، فألُحقتُ كلّ ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، ولحوم الحمر الأهلية بالخبائث، ونهتُ عنها؛ وألحقت الضبّ، والحبارى، والأرنب، وأشباهها بالطيبات وأحلتُها.

الوجه الثاني: إن اللّٰه أحَلَّ من المشروبات ما ليس بمُسُكِر، وحرّم الخمر لما فيها من إزالة العقل، فوقع فيما بين الأصلين ما ليس بمسكر؛ ولكنه يوشك أن يسكر ، فنهى عن كل مسكر قليلاً كان أو كثيراً، فقالﷺ :" **ما أَسُكَرَ كَثِيُرُهُ فَقَلِيُلُهُ حَرَامٌ**"(١).

الوجه الثالث : إن اللّٰه أبَاحَ من صيد الكلب ما أمسك عليك إذا كان مُعلَّماً،فدار بين الأصلين ما كا ن الكلب معلَّماً ولكنه أكل من صيده ، فجاء ت السنة ببيان ذلك، فقال ﷺ :" **فإن أكل فلا تأكل فإنه أمسكه لنفسه الخ**(٢).

الوجه الرابع: إن النهي ورد على المُحُرِمِ أن لا يقتل الصيد، وجاء أن من قتله عمداً فعليه الجزاء ، فبقي قتله خَطَأً محلاً للنظر، فجاء ت السنة بالتسوية بين العمد والخطأ. قال الإمام الزهرى:جاء القرآن بالجزاء على العامد، وهو في الخطأ سنة، والزهري مِنُ أَعُلَمِ الناسِ بالسُّنّة.

(١) **رواه الترمذي:** ١٧٨٨، **وأبو داؤد:** ٣١٩٦، **وابن ماجه:** ٣٣٨٤، **وأحمد:** ١٤١٧٦
(٢)**رواه البخاري:** ١٦٩، **ومسلم:**٣٥٦١

الـوجه الخامس: إن الـحـلال والـحرام من كل نوع قد بَيَّنَهُ القرآنُ، وبقي بينهما أمورٌ مشتبهة، فبَيَّنَتِ السُّنّةُ من ذلك بعضَها مُجُمَلاً، وبعضَها تفصيلاً:

فـالأوّل كـمـا قال ﷺ :**الـحَـلالُ بَيِّـنٌ، والـحَـرَامُ بَيِّـنٌ، وبينهما أمورٌ مشتبهاتٌ** إلخ (١).

ومثـال الثاني قوله ﷺ فـي حديث عبد اللّٰه بن زمعة :" **واحتـجبي منه يا سودةُ ، لِمَا رَأى من شبهه بعُتُبة** "(٢).

وفـي حـديـث عدي بن حاتم في الصيد :" فإذا اختلط بكلابك كلبٌ من غيرِهَا فلا تأكلُ، لا تدري لَعلّه قَتَلَهُ الّذي ليس منها"(٣) .

الوجه السادس: أحَلَّ اللّٰهُ النكاحَ، وملكَ اليمين، وحَرَّمَ الزّنٰى، وسَكَتَ عن النكاح المخالف للشرع، فإنه ليس بنكاح محض، ولا سفاح محض، فالسُّنّة جاءتُ ببَيَانِهِ : **أيُّمَا امْرَأَةٍ نَكَحَتْ بغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ بَاطِلٌ بَاطِلٌ**"(٤).

الـوجـه السابع: إنّ الـلّٰـه تـعـالـى أَحَـلَّ صيدَ البحر، وحَرَّمَ الميتةَ، وأمّا ميتةُ البحر فـدارتُ بيـنَ الـطـرفيـن ، فـجاءت السُّنةُ تُبَيِّنُ هذا الإشكالَ قائلةً : " **هُـوَ الطَّهُوْرُ مَـاؤُهُ، وَالْـحِلُّ مَيْتَتُهُ**" (٥) وقائلةً :" **أُحـلَّـتْ لَـنَـا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ ، أَمَّا الْمَيْتَتَانِ فَالْحُوْتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ**"(٦).

---

(١)البـخاري: ٥٠، ومسلم: ٢٦٦٩، والترمذي:١١٢٦، والنسائي :١١٢٦، وأبوداؤد : ٢٨٩٢، وابن ماجه:٣٩٧٤، وأحمد: ١٧٦٤٥، والدارمي: ٢٤١٩

(٢) البـخـاري: ١١٩١٢، ومسـلـم: ٢٦٤٥، والـنسـائـي :٣٤٣٠، وأبـوداؤد : ١٩٣٥، وابـن ماجه:١٩٩٤، وأحمد: ٢٢٩٥٧، والدارمي: ٣١٣٩ ، مالك:١٢٢٤

(٣)البـخـاري: ٥٠٥٣، ومسـلـم: ٣٥٦٢، والتـرمـذي:١٣٩٠، والنسـائي :٤١٩٠، وأبوداؤد : ٣٤٦٦، وابن ماجه:٣١٩٩، وأحمد: ١٧٥٣٤

(٤)الترمذي:١٠٢١، وأبوداؤد : ١٧٨٤، وابن ماجه:١٨٦٩، وأحمد: ٢٣٢٣٦

(٥)الترمذي: ٦٤، والنسائي: ٣٣٠، وأبوداؤد: ٧٦ ، وابن ماجه: ٣٨٠،وأحمد: ٦٩٣٥، ومالك: ٣٧ ،والدارمي: ٧٢٢

(٦) رواه ابن ماجه: ٣٣٠٥، وأحمد: ٥٤٦٥

الوجه الثامن: إن اللّٰه جَعَلَ النفسَ بالنفس ، والأطرافَ بعضها من بعض ، و هذا في صورة العمد، وأما في الخطأ فالدية، فأشكل الأمر في الجنين إذا أسقطتُه أمُّه بالضربة ونحوها، فبَيّنَتُ السُّنّة: أنَّ ديته الغُرّةُ(١) .

الوجه التاسع: إن اللّٰه حرّم الميتة، ولكنه أباحَ المُذكّاةَ ، فدَارَ الجنين الخارج من بطن الحيوان المذكّاة ميتاً بين الطرفين، ففَسَّرت السُّنّةُ حكمَه قائلةً :" **ذَكَاةُ الْجَنِيْنِ ذَكَاةُ أُمِّهِ** "(٢) ، ترجيحاً لجانب الجزئية على جانب الاستقلال .

الوجه العاشر: إن اللّٰه تعالى قال : ﴿ **فَإِنْ كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَاتَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ** ﴾ [النساء: ١١] فبقيت البنتان مسكوتاً عنهما، فنُقِلَ في السُّنة حكمُهما، وهو إلحاقهما بما فوق البنتين. (قال الراقم: والحديث الذي أشار إليه هو ما رُوِيَ عن جابر بن عبد اللّٰه : أن امرأة سعد بن الربيع قالت : يا رسول اللّٰه ! إن سعداً هلك و ترك بنتين ، وقد استفاء عمُّهما مالَهما ، فقال رسول اللّٰه ﷺ لعَمِّهما : **أَعْطِهما الثُلُثَين، وأَعْطِ أمَّهما الثُمُنَ، ولك ما بقي** " (٣). انتهى بتغيير و تلخيص (٤).

المأخذ الثالث : أقوال الصحابة

والمأخذ الثالث لتفسير القرآن الكريم هي أقوال الصحابة رضوان اللّٰه تعالى عليهم أجمعين ، وهو أيضاً من أهم مآخذ التفسير ؛ لأنهم شَاهَدُوا الوحيَ، والتنزيلَ ، وعَايَنُوا الأحوالَ، والأوضاعَ التي نزل فيها القرآن، وعَرَفُوا معانيه، وفَهِمُوا مراداتِه، إما بسُوالهم النبيَّ صلى اللّٰه عليه و سلم، وإما بسلامة فطرتهم ، و صفاء قلوبهم ، ومع ذلك كله فلهم من علوِّ كعبهم في ميدان الفصاحة،

---

(١) رواه البخاري: ٥٣١٧، ومسلم: ٣١٨٣، والترمذي: ١٣٣٠، والنسائي :٤٧٣٥، وأبوداؤد : ٣٩٦٣، وابن ماجه:٢٦٢٩، وأحمد: ١٠٤٩٥

(٢)رواه الترمذي: ١٣٩٦، وأبو داؤد: ٢٤٤٤ ، وابن ماجه: ٣١٩٠، وأحمد: ١٠٨٣٠
(٣)أخرجه أبوداؤد:٢٥٠٥، والترمذي:٢٠١٨، وابن ماجه:٢٧١١ ، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح)
(٤)الموافقات: ١٨/٤ – ٢٢

والبلاغة، ما يُمَكِّنُهم من الاهتداء إلى مرادات الله بكلامه العزيز ، ومن الفهم البليغ، والتذوُّق الأدبي، ما يُيَسِّرُ عليهم إدراكَ أسرارالقرآن العظيم .

وقد قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية في " مقدمة التفسير" : وإذا لم نجد التفسيرَ في القرآن، ولا في السُّنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك لما شَاهَدُوه من القرآن، والأحوال التي اختصُّوا بها، ولما لهم من الفهم التامّ، والعلم الصحيح، والعمل الصالح ، لاسيما علمائهم وكبراؤهم (١).

ملحوظات حول تفسير الصحابة

وفي صدد تفاسير الصحابة للقرآن الكريم ملاحظاتٌ هامةٌ ، ينبغي أن نلفت الأنظارَ إليها :

۞ ما هو حكم تفسير الصحابة ؟

الأول: ما هو حكم تفسير الصحابة ؟ هل هو بمنزلة الحديث المرفوع ، أو بحكم الموقوف ؟ اختلفوا فيه ، فذهب البعض إلى إطلاق المرفوع عليه، ونسب الحاكم هذا القول إلى الإمام البخاري، والإمام مسلم ، فقال في مواضع من المستدرك ما نصه: اتفق الشيخان على أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي، والتنزيل له حكم المرفوع (٢) .

والأكثرون على أن تفسير الصحابي إن كان ممّا لا مجال للرأي فيه، فهو في حكم المرفوع، وإن كان ممّا للرأي فيه مجالٌ ، فهو بمنزلة الموقوف . قال الشيخ ابن الصلاح : ما قيل من أن تفسير الصحابي مسندٌ إنّما هو في تفسير يتعلق بسبب نزول آية، و نحو ذلك (٣) .

وكذا قال النووي في " التقريب" و"إرشاد طلاب الحقائق" (٤)، وإليه جنح

(١)فتاوى ابن تيمية: ١٣/ ٣٦٤

(٢)انظر : المستدرك: ٢/ ٢٨٣ و٢/ ٢٨٩

(٣)علوم الحديث : ٤٥

(٤)انظر: تدريب الراوي: ١/ ١٠٠ وإرشاد طلاب الحقائق : ١/ ١٦٤

الحاكم نفسه في كتابه " معرفة علوم الحديث"(١).

وتحقيق القول في الموضوع ما قال ابن حجر العسقلاني في " النُكَت على ابن الصلاح " وإليك نصّه :

"والحق أن ضابط ما يُفَسِّرُهُ الصحابة رضي اللّٰه عنهم إن كان مِمّا لا مجالَ للاجتهاد فيه، ولا منقولاً عن لسان العرب، فحُكمُه الرفعُ وإلَّا فلا، كالإخبار عن الأمور الماضية من بدء الخلق، و قصص الأنبياء، وعن الأمور الآتية ، كالمَلاحِم ، والفِتَن، والبعث، و صفة الجنة والنار، والإخبار عن عَمَلٍ يحصل به ثوابٌ مخصوصٌ، أو عقابٌ مخصوصٌ ، فهذه الأشياء لا مَجَالَ للاجتهاد فيها، فيُحُكَمُ لها الرفعُ ، قال : وأمّا إذا فسّر آيةً تتعلق بحكم شرعي، فيحتمل أن يكون ذلك مُستفَاداً عن النبي ﷺ وعن القواعد ، فلا يُجزَمُ برفعه، وكذا إذا فسّر مفرداً فهذا نقل عن اللسان خاصةً ، فلا يُجزَمُ برفعه ، قال: وهذا التحريرالّذي حرّرناه هو معتمدُ خلق كثير من كبار الأئمة، كصاحبي الصحيح، والإمام الشافعي، وأبي جعفر الطبري، وأبي جعفر الطحاوي، وأبي بكر ابن مردويه في تفسيره المُسْنَد، والبيهقي، وابن عبد البر، في آخرين (٢) .

فاسُتَبَانَ ممّا قاله الحافظ: أنّ تفسيرَ الصحابي على أربعة أنواع :

١ - ما للرأي فيه مجالٌ ومدخلٌ ، فهو في حكم الموقوف.

٢ - ما كان منقولاً عن لسان العرب ، فهو بمنزلة الموقوف أيضاً.

٣ - ما يحتمل أن يكون قاله بالاجتهاد والرأي ، فهذا أيضاً لايجزم له بالرفع .

٤ - ما لا مجالَ للرأي فيه ، وذلك مثل الأخبار الماضية من بدء الخلق، وأقاصيص الأنبياء، والأمم، ومثل الأخبار الآتية من الفتن ، والملاحم، وأحوال

البرزخ، والآخرة، وغير ذلك، فهذا يُحكَمُ له بحكم المرفوع ، وذلك لأن مثل هذا لايُقَالُ بالاجتهاد والرأي .

(١)انظرمعرفة علوم الحديث: ٢٥
(٢)النكت على ابن الصلاح: ٥٣٠/٢

حكم خبر من ينظر إلى الإسرائيليا ت

والثاني : إنّ مـن الـصـحابة من كان ينظر إلى الإسرائيليات، وينقل من أخبارها، إذنْ فعلينا أن نَقِفَ هُنَيهَةً نَتَسَاءَلُ : ماذا حُكمُ ما يُخبِرُ به مَنْ عُرِف بالنظر إلى الإسرائيليات ؟

فوِجْهَةُ نـظرِ الحافظ ابن حجر في هذا: أنّ من عُرِفَ من الصحابة بالنظر إلى الإسرائيليات ، لا يكون خبرُه مرفوعاً في مثل ما تقدّم من الأمور التي لا مدخل فيها للرأي.قال الحافظ بعد ضابط تقدم ذكره :

" اِلَّا أنّه يُستَثنى من ذلك ما كان المفسّر له من الصحابة رضي الله عنهم من عُرِفَ بالنظر في الإسرائيليات ، كمُسْلِمَةِ أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام، وكعبد الله بن عمرو بن العاص، فإنه كان حصل له في وقعة اليرموك كتبٌ كثيرةٌ من كتب أهل الكتاب، فكان يُخبرُ بما فيها من الأمور المغيبة، حتى كان بعض أصحابه ربما قال له : حَدِّثْنا عن النبي ﷺ ولا تُحَدِّثْنا عن الصحيفة، فمثل هذا لا يكون حكم ما يُخبِرُ به من الأمور التي قدّمْنَا ذكرَها الرَّفْعَ لقوّة الاحتمال، والله أعلم " (١).

وحاصله: أنّ من عُرِفَ بالنظر إلى الإسرائيليات لا يكون خبره في حكم المرفوع، وإن كان ممّا لا مجالَ للاجتهاد فيه، كالأخبار الماضية، والآتية، وأسباب النزول، وغيرذلك ، ولكن نَازَعَهُ في ذلك تلميذه الشيخ السخاوي قائلاً :

"في ذلك نظرٌ ، فإنّه يبعد أن الصحابي المُتّصف بالأخذ عن أهل الكتاب يُسَوِّغُ حكايةَ شيءٍ من الأحكام الشرعية، الّتي لامجالَ للرأي فيها مُستَنِداً لذلك، من غير عزو مع علمه بما وقع فيه من التبد يل

والتحريف"(٢) .

---

(١)النكت على ابن الصلاح : ٢/ ٥٣٢- ٥٣٣

(٢)فتح المغيث : ١/ ١٤٨

وما ذَهَبَ إليه السخاويّ هو قول شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول في "مقدمة التفسير" : وما نُقِلَ في ذلك عن بعض الصحابة نقلاً صحيحاً، فالنفسُ إليه أسكنُ ممّا نُقِلَ عن بعض التابعين؛لأن احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ ، أو من بعض من سمعه منه أقوىٰ، ولأن نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقلّ من نقل التابعين ، ومع جزم الصاحب (رضي الله عنه) فيما يقوله ، فكيف يُقَالُ إنّه أخذه عن أهل الكتاب، وقد نُهُوا عن تصديقهم؟(١)

فتلخص مما نقلناه عن الحافظ ابن حجر، والحافظ السخاوي، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهم اللّٰه تعالى : أنه اختلفت وجهاتُ نظرالعلماء في خبر الأصحاب الذين عُرِفُوا بالنظر إلى الإسرائيليات.

ولٰكن النظر الفاحص والغائر، إذا وَقَعَ على ملامحِ وجوهِ الصحابة ، ويستعرض أحوالَهم من الورع الخالص، والحذر الدقيق، و التَثَبُّت البليغ، والتحرّي البالغ، والاحتياط، والأمانة، والصدق في أمر دينهم، وتحمّسهم للدين، واستبسالهم في الدفاع عن حِمَى القرآن، ومُنافَحَتِهم عن القرآن بكُلّ عناية و همّة؛ ثم إذا وَقَعَ النظرُ على ما يظهر من تصفّح تاريخ الصحابة من شدّة نفورهم ونقاء ساحتهم من الكذب وما يشبه الكذب، وتخوُّفهم من الخوض في الشريعة بغيرعلم، وتحرُّجهم عن الإفتاء في الدين بغير حجة، اضُطَرَّ- النظر الغائر - إلى القول بما ذَهَبَ إليه شيخُ الإسلام، والحافظُ السخاوي ؛ لأن من يَعْرِف ملامحَ وُجُوهِهم الإيمانيةِ والرُّوْحِيَّةِ هٰذه ، لايَرْضٰى عقلُه قطعاً بقول من ذهب إلى أنّ مُسْلِمَة أهل الكتاب الذين لهم نظر في الإسرائيليات كانوا ينقلون منها في التفسير وغيره بغير عَزْوٍ إلى مأخذها، حتى يَشْتَبِهَ على الناس ما هو حقٌّ بما هو باطل. فهل يرضى العقلُ والمنطقُ بهذا ؟ فالحقُّ هوما قال شيخ الإسلام والسخاوي وبقولهما

أَقُـوْلُ. وأمـا ما نُقِلَ عن بعضهم من ذلك فهو على ما قال ابن تيمية، و بعض الأئمة : للاستشهاد لا للاحتجاج، أو يقال: للفرجة لا للحجة (٢) .

(١) فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٣٤٥– ٣٤٦

(٢) انظر فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ١٣/ ٣٦٦، و فتح المغيث : ١٤٨/١

شرائط قبول تفسير الصحابى

ومن المُهمّات معرفة الشرائط لقبول تفسير الصحابي :

فالأول: مـا قُلنَا في المأخذ الثاني من صحة الحديث ، فإنْ جَاءَ بأسانيدَ صحيحة أو حَسَنَة يُقْبَل ، وإلَّا فلا، ويدخل في الحسن الحسنُ لعينه، والحسن لغيره على ما عُرِفَ في أصول الحديث .

فائدة غريبة

وههـنـا فائدةٌ غريبةٌ في هذا الصدد ، ذَكَرَهَا الإمامُ ابن تيميةؒ، ينبغي أن لا نُهْمِلَها ، ومُلَخّصُه :

" إن التـفسيـر عـلـى نـوعيـن : الأوّل مـا مُستَنَدُه النقلُ، والثاني ما يُعْلَمُ بـالاستـدلال والاجتهـاد . والأوّل إمّا منقولٌ عن النبي المعصوم، وإمّا عن غيـره مـن الصحابة والتابعين . ومن هذا القسم ما لا يُمْكِنُ معرفةُ الصحيح مـنـه والـضـعيفُ، و أكثـرُه مـمّا لاطائل تحته، والكلام فيه من قبيل فضول الـكـلام ؛ ومنه ما يُمكِنُ معرفةُ الصحيح منه والضعيفُ، وهذا موجودٌ فيما يُـحْتَـاجُ إليه، ثم لِيُعْلَمُ أنّ المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والـملاحم ؛ فإنّ الغالب عليها المراسيل والمنقطعات ؛ ولكن المراسيل إذا تـعـدّدتُ طُـرُقُهـا، وخلتْ عن المواطاة قصداً، أوالاتفاق بغير قصد كانت صحيحةً قطعاً ؛ فإن النقل إمّا أن يكون صِدْقاً مُطابقاً للخبر ، وإمّا أن يكونَ كَـذِبـاً تَـعَـمَّدَ صاحبُه الكذبَ، أو أَخْطَأَ فيه ، فمتىٰ سَلِمَ من الكذب العمد والـخـطـأ كـان صِـدْقـاً بـلا ريـب ؛ فإذا كان الحديث جاء من جهتين أو جهات، وقد عُلِمَ أن المُخْبِرَين لم يتواطئا على اختلاقه، وعُلِمَ أن مثل ذلك

لا تقع الموافقة فيه اتفاقاً بلا قصد ،عُلِمَ أنه صحيح ؛ مثل شخص يُحدِّث عن واقعة جرتْ ، و يذكر تفاصيلَ ما فيها من الأحوال والأفعال، ويأتي آخر قد عُلِمَ أنّه لم يواطئ الأول ، فيذكر مثلَ ما ذكره الأوّل من تفاصيل الأقوال والأفعال، فيُعلَمُ قطعاً أنّ تلك الواقعة حقٌّ في الجملة . وبهذا الطريق يُعلَمُ صدقُ عامة ما تَعَدَّدَ جهاتُه المختلفة على هذا الوجه من المنقولات، وإن لم يكن أحدها كافياً، إمّا لإرساله، وإمّا لضعف ناقله ؛ فلا يحتاج ذلك إلى طريق يثبت بها مثل تلك الألفاظ والد قائق . قال رحمه اللّٰه : وهذا الأصل ينبغي أن يُعرَفَ فإنّه أصل نافع في الجزم بكثير من المنقولات في الحديث، والتفسير، والمغازي(١).

الثاني: أن يكون تفسيرالصحابي فيما لم يرد فيه تفسير عن النبي ﷺ بطريقٍ ثابتٍ . فإن ورد فيه تفسير عن النبي ﷺ بطريقٍ ثابتٍ مُسْتَنَدٍ لايكون تفسيرُه حُجَّةً ؛لأن الحُجة حينئذ في تفسير النبي ﷺ، ويكون تفسيرالصحابي مُؤيِّداً له، وله أمثلةٌ كثيرةٌ مُنْتَشِرَةٌ في كتب التفاسير، وإليك مثالاً واحداً منها :

قال اللّٰه تعالى: ﴿ **وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَّخَيْرٌ أَمَلًا** ﴾[الكهف:٤٦] جاءَ في تفسيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "**سُبْحَانَ اللّٰهِ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ، وَلَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ ، وَاللّٰهُ أَكْبَرُ** "**من الباقيات الصالحات**(٢).

وعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه : أن رسول اللّٰه ﷺ قال: **استكثروا من الباقيات الصالحات** ، قيل: ما هُنّ يا رسول اللّٰه! قال: **الملة** ، قيل: وما هي ؟ قال: **التكبير، والتهليل، والتسبيح، والتحميد، ولاحول ولا قوة إلا باللّٰه**(٣) .

وجاءَ تفسيرُه بهذا عن ابن عباس رضي الله عنه أيضاً كما في الطبري، والقرطبي. فهومؤيِّد لِمَا ثَبَتَ عن النبيﷺ .

الثالث:أن لايكون مُعَارِضاً لِمَا ثَبَتَ عن النبي ﷺ، فإنْ كان مُعَارِضاً يُنْظَرُ فيه، فإن أمْكَنَ الجمعُ بينهما فُعِلَ، وإن لم يُمكِنْ رُدَّ .

نَقَلَ السُيوطيُّ في الإتقان عن أبي طالب الطبري: يجب أن يكون اعتمادُه

(أي المفسر) على النقل عن النبي ﷺ وعن أصحابه، ومن عَاصَرَهُم ، وإذا

(١)ملخصاً من فتاوىٰ ابن تيمية : ١٣/ ٣٤٤-٣٤٩

(٢)أخرجه الطبري في التفسير: ٨/ ٢٣١

(٣)رواه الحاكم : ٦٩٤/١، وابن حبان : ١٢١٣، وأحمد:١١٢٨٨، وأبو يعلى: ٥٢٤/٢

تعارَضَتُ أقوالُهم، وأمكن الجمع بينهما فعل، وإن تعارضت (أي ولا يمكن الجمع بينهما) ردّ الأمر إلى ما ثَبَتَ فيه السمعُ[١] .

قلتُ: ومثال ما أمكنَ الجمعُ فيه ما رُوِيَ في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَّخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ [الكهف:٤٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّٰه ﷺ:"**سُبْحَانَ اللّٰهِ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ، وَلَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ ، وَاللّٰهُ أَكْبَرُ** "**من الباقيات الصالحات** ،كما تقدم عن الطبري.

و فسّره ابن عباس رضي الله عنه بالصلوات الخمس في رواية، و بمطلق الطاعات في رواية أخرى (٢).

ولكن يمكن الجمعُ بين هذه التفسيرات ، ولذلك فإن الطبري، والقرطبي، و غيرهما، قالوا : إن الصحيح والصواب هو أن يُرَادَ بالباقيات الصالحات الجميعُ من أعمال البرّ، ولا مُنافاةَ بين هذه الأقوال .

وأمّا مثال ما لايُمكِنُ الجمعُ فيه هو ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ **ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ الخ**﴾ [إبراهيم:٢٤] قال ابن عباس رضي الله عنه : هي شجرة في الجنة (٣).

وقد صَحَّ عن النبي ﷺ برواية أنس رضي الله عنه وابن عمر رضي الله عنه : أنّ الشجرة الطيبة هي النخلة .

فما روي عن ابن عباس معارض لما قد صَحَّ عن النبي ﷺ فلا يُقْبَلُ ، ولذا قال الطبري : وأولى القولين بالصواب في ذلك قول من قال هي النخلة لصحة الخبر عن رسول اللّٰه ﷺ (٤).

والمثال الثاني لذلك ما جاءَ عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى : ﴿ **مَعِيْشَةً ضَنْكًا** ﴾ [طٰهٰ : ١٢٤] قال : هو الضيق في المعيشة، أي في الدنيا ، بينما صَحَّ عن النبي

ﷺ : أن معيشةً ضنكاً هي عذ اب الكافر في القبر(٥).

(١) الإتقان : ٢٢٥/٢
(٢) انظرالطبري:٢٣٠/٨، والقرطبي: ٤١٤/١٠، وابن كثير: ١١٦/٣
(٣) الطبري: ٤٣٩/٧
(٤) الطبري: ٤٣٩/٧
(٥) الطبري: ٤٧٢/٨

فـالصواب في ذلك ما ثَبَتَ عن النبي ﷺ مـن أنّ المرادَ بها عذاب الكافر فـي الـقبـر، وعـليـه الاعتماد؛ لأنه لا يمكن الجمع بين ما قال ابن عباس، و بين ما ثبت عن النبي ﷺ .

المأخذ الرابع : أقوال التابعين

الـمـأخـذ الـرابـع لتفسيرالقرآن هو أقوال التابعين رحمهم اللّٰه تعالى الّذين تـلـقّـوا التـفسيـرَ مـن الـصـحـابة وأَخَـذُوا السُّنّةَ والفقهَ عنهـم ، وهُم أعلمُ بالقرآن وتـفسيـره مِـمّـن هـو بـعدهم ، فليكن المرجع إليهم في التفسير بعد السُّنّة وأقوال الـصـحـابة. وهـذا هـو قـول الـجـمهـور مـن الأئمة ، وعليـه العمل عند كثير من المفسرين كما يظهر لمن ينظر في كتب التفسير .

قال شيخ الإسلام ابن تيميةؒ :

" إذا لـم تـجـد التـفسيـرَ فـي الـقـرآن ولا فـي السُّنّة، ولا وجدتَـه عن الصحابة، فقد رَجَعَ كثيرٌ من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين" (١).

وقال الزَّرْكَشِيؒ في البرهان:

" وفـي الـرجوع إلى قول التابعي روايتان عن أحمد، واختارابنُ عقيل الـمنعَ ، وحَكَوْهُ عن شعبة ، لكن عمل المفسرين على خلافه، فقدْ حَكَوْا في كُتُبهم أقوالَهم؛ لأن غالبُها تَلَقَّوْهَا من الصحابة " (٢) .

ملاحظات :

وههـنـا مـلاحـظـاتٌ لا تَـفُوْتَنَّك في هذا المقام ، فإنها من المُهِمَّات لمن يُطَالِعُ التفاسيرَ :

الأوّل : هل أقوال التابعين تكون حُجّةً ؟ فالجواب أنّه إذا أجمعوا على تفسير آية يكون قولهم حجةً، و هذا مما لاشك فيه، وأما إذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم على بعض حجةً، كما يقول الإمام ابن تيمية :

(١) فتاوىٰ ابن تيمية : ٣٦٨/١٣

(٢)البرهان: ١٥٨/٢

"وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجةً، فكيف تكون حجةً في التفسير ؟ يعنى أنها لا تكون حجةً على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح . أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجةً، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجةً على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك " (١) .

الثاني: أن مُعْظَمَ ما وَرَدَ عن التابعين لم يثبت بالأسانيد الصحيحة الثابتة إلا قليلاً،والأَغْلَبُ عليها الضعفُ، وقد تَقَدَّمَ عن شيخ الإسلام ابن تيميةؒ فائدةٌ غريبةٌ في صدد الأحاديث، والآثار المنقولة في كتب التفاسير، والمغازي، والملاحم . فعليك بالرجوع إلى تلك الفائدة، فإنّه مما ينبغي إلقاء العناية عليها ، وانظر أيضاً ما نأ تى عليه من النقاش العلمى بهذا الخصوص في التذئيل .

ا لثالث: أن المفسرين ربما نقلوا عن التابعين الأقوال والعبارات في تفسيرآية، فيظنُّ من لاخبرةَ له أنها أقوالٌ مختلفةٌ في تفسير الآية، بينما هي راجعةٌ إلى معنے واحد ، وإنما هو محض اختلاف الألفاظ والعبارات .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

" تُذْكَرُ أقوالُهم في الآية، فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً، فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك، فإن منهم من يُعَبِّرُ عن الشيء بلازمه أو نظيره ، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنے واحد في كثير من الأماكن، فلْيتفطّن اللبيب لذلك " (٢).

و قال الزّركَشي: وربما يُحكى عن التابعين عباراتٌ مختلفةُ الألفاظ ،

فيظن من لا فهم عنده أن ذلك اختلاف محقق، فيُحكِيه أقوالاً ، وليس كذلك؛ بل يكون كل واحد منهم ذكر معنى من الآية لكونه أظهرَ عنده أوأليقَ بحال السائل، وقد يكون بعضهم يُخبر عن الشيء بلازمه ونظيره، والآخر بمقصوده و ثمرته، والكل يؤول إلى معنى واحد غالباً (٣).

(١)فتاوىٰ ابن تيمية : ١٣/ ٣٧٠
(٢)فتاوى ابن تيمية: ٣٧٩/١٣ - ٣٨٠
(٣)البرهان: ١٥٨/٢

ومثال هذا ما جاء في تفسير ﴿ **الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ**﴾ [الفاتحة:٥] فقال بعضهم : هو القرآن ، وقال البعض : اتباع القرآن ، وفسّره البعض بطاعة اللّٰه ورسوله ، فهذه الأقوال كلها متفقة في المعنى، وليس فيها أيّ تضاد ولا اختلاف، كما لا يخفى.

الرابع : أنه إذا وقع في تفسير آية اختلافٌ حقيقيٌ عن التابعين، و عن غيرهم بحيث لا يمكن الجمع بين هذه الأقوال المختلفة، فهذا على قسمين: أحدهما أن يقع عن شخص واحد ، والثاني أن يقع عن الأشخاص، وعلى كلٍّ فيُقدَّم ما هو صحيح من الأقوال، وإن استوت الأقوال في الصحة ، ففى القسم الأول يُقدَّم المتأخر من القولين، ويكون المتأخر ناسخاً، والمقدم منسوخاً ، وفي القسم الثاني يُطلَب الترجيح بأصول الترجيح على ما عُرِفَ في مقامه، وسيأتى لهذا البحث تكملة في التذئيل لهذا الباب .

الخامس : لا يحومنّ حولك ظنّ خاطىء بالتابعين رحمهم اللّٰه بأنهم كانوا يقولون في القرآن بمحض آرائهم نظراً إلى ما نُقِلَ عنهم من الأقوال المختلفة. إياك أن تفهم هذا من هذا الاختلاف ، لأن للاختلاف أسباباً كما نتناول هذا الموضوع فيما يأتي من المباحث.

قال العلامة ابن تيمية : وأما الذي رُوِيَ عن مجاهد و قتادة و غيرهما من أهل العلم أنهم فسّروا القرآن، فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن و فسّروا بغير علم أو من قِبَلِ أنفسهم ، وقد رُوِيَ عنهم ما يدل على ما قلنا: إنهم لم يقولوا من قِبَلِ أنفسهم بغير علم (١).

وكذا قال الإمام الترمذي في جامعه، ولفظه: وهكذا رُوِيَ عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ و غيرهم أنهم شدّدُوا في أن يُفَسَّرَ القرآنُ بغير علم، وأما الذي رُوِيَ عن مجاهد و قتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسّروا القرآن، فليس الظنّ بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسّروُه بغير علم أو من قِبَلِ أنفسهم (٢).

(١)فتاوىٰ ابن تيمية : ١٣/ ٣٧١
(٢) الجامع للإمام الترمذي، أبواب التفسير

تذئيل

لـمّا انجرّ البحثُ إلى هذا نرىٰ من المُلائِمِ لهذا الباب أن نَذْكُرَ ذَيْلاً يشتمل على أمور لها علاقة لما سبق من المباحث :

الأول

معرفة أسباب النزول

معرفة أسباب النزول من أهم ما تدعو إليه الحاجة للمفسر . ونظراً إلى أهميتها أفردها بالتصنيف جماعةٌ من العلماء، منهم الإمام ابن المدينى، و الواحدى ،والجعبرى، و كذا الحافظ ابن حجر، وسَمّٰى كتابَه" بالعَجَب العُجاب في معرفة الأسباب" ولٰكنه ما تيسّر له أن يكمّله ، وإنما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿**أَيْنَمَا تَكُوْنُوْا يُدْرِكْكُّمُ الْمَوْتُ**﴾ [سورة النساء: ٩١] ، وألّفَ الشيخُ السيوطي كتاباً حافلاً ، وأسَماه " لُبابُ النُقُول في أسباب النُزُول " .

وحيث أن هذا المبحث يتّصل بالحديث والآثار، يُناسِبُ له هذا المقام ، و لكونه من أهم مباحث التفسير يقتضي البسط والتفصيل، لذلك أحاول في السطور القادمة أن أناقش الموضوعَ بأطرافه بقدر من التفصيل .

معنى سبب النزول

سبب النزول هو حادثة وقعت في زمن النبي ﷺ أو سوال وُجِّهَ إليه، فنزلت الآية، أو الآيات، تتحدّث في شأن تلك الحادثة، أو تجيب على ذلك السوال، فتلك

الحادثة ، أو ذلك السوال، هو سبب النزول .

ثـم الـحـادثة قـد تكون خصومةً شَجَرَتْ ، و مشاكسةً ثَارَتْ فيما بين الـنـاس، فتـنـزل الآية ردّاً عـلـى ذلك. ومثـالُــه مـا شَـجَرَ و ثَارَ من الخلاف في الـجـمـاعتيـن مـن الأوس والخزرج بدسيسةٍ من اليهود،فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿**يٰـأَيُّهَـا الَّـذِيْـنَ آمَنُوْا إِنْ تُطِيْعُوْا فَرِيْقًا مِّنَ الَّذِيْنَ أُوْتُوْا الْكِتٰبَ يَرُدُّوْكُمْ بَعْدَ إِيْـمَـانِـكُـمْ كَافِرِيْنَ**﴾ [آل عـمـران: ١٠٠] ومـا بـعـده من الآيات ، تُرَوِّعُ من الخلاف والشقاق، و تُرَغِّبُ في الوحدة والاتفاق (١).

وقـد تـكـون الـحـادثة مشتملةً على الخطأ الفاحش، فتنزل الآية تُنَبِّهُ على ذلك الخطأ أو تُبَيِّنُ في ذلك حُكماً، كما وقع لبعض الصحابة في أثناء الصلاة من خـلـط فـي سورة "الكافرون"، وهو في نَشوَته ، فنزلت : ﴿ **يٰٓأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا لاَ تَقْرَبُوْا الصَّلٰوةَ وَأَنْتُمْ سُكارٰى حَتّٰى تَعْلَمُوْا مَا تَقُوْلُوْنَ إلخ** ﴾ [النساء: ٤٣] (٢)

وقد تكون الحادثة على صورة التَمَنِّي، كما رُوِيَ عن عمر بن الخطاب ﵁ أنـه قـال :وافقتُ ربّي في ثلاث: قلتُ:يا رسول اللّٰه! لو اتخذنا من مقام إبراهيم مُصلّٰى ، فنزلت: ﴿**وَاتَّخِذُوْا مِنْ مَّقَامِ إِبْرٰهٖمَ مُصَلّٰى**﴾ [البقرة: ١٢٥]وقلتُ: يا رسـول الـلّٰـه ! إن نسـائك يدخل عليهن البرُّ والفاجرُ، فلو أَمَرْتَهُنَّ أن يَحْتَجِبْنَ ! فـنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول اللّٰه ﷺ نساؤه في الغيرة، فقلتُ لهن : ﴿**عَسٰى رَبُّهٗ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُّبْدِلَهٗ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُنَّ**﴾ ، فنزلت كذلك (٣) .

وقـد تـكـون الـحادثة خطأً في الفهم، فتنزل الآية إزالةً لذلك ، و من ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللّٰهِ الخ**﴾[البقرة:١٥٨] نزلت حين تـأثّـمُـوا مـن السـعي بين الصفا والمروة ظناً منهم أنه من عمل الجاهلية ، وأزالت تلك الشبهة (٤).

وكذلك السوال المطروح بين يدي النبي ﷺ قد يتعلق بالأمر الغابر ، وقد يتعلق بـالأمـر الحاضر ، وقد يتعلق بالأمر المستقبل. الأول كقوله تعالى: ﴿**يَسْئَلُوْنَكَ عَنْ ذِيْ الْقَرْنَيْنِ**﴾[الـكهف:٨٣]، والثاني كقوله تعالى : ﴿ **يَسْـئَلُوْنَكَ مَاذَا يُنْفِقُوْنَ** ﴾

[البقرة :٢١٥]، والثالث كقوله تعالى: ﴿**يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ السَّاعَةِ**﴾ [النازعات:٤٢].

(١)العجب العجاب:٧٢٥/٢،ولباب النقول:٥٥/١

(٢)العجب العجاب:٨٧٣/٢

(٣)رواه البخاري :٣٨٧ و ٤١٢٣ وأحمد:١٥٢

(٤)انظر :صحيح البخاري: ٤١٣٥، وصحيح مسلم: ٢٢٣٩، و سنن الترمذي: ٢٨٩١،وسنن أبي داؤد: ١٦٣٥،وسنن النسائي: ٢٩١٩،و مسند أحمد: ٢٣٩٦٠

فوائد معرفة أسباب النزول:

وحيث أن أسباب النزول تتصل بآية من آيات اللّٰه تعالى–كما قد ذكرناه–فمعرفتها لا تخلو من فائدة ، فمن قال: إنه لا فائدة للإلمام بأسباب النزول زعماً منه أنها لا تعدو أن تكون تاريخاً للنزول أو جاريةً مجرى التاريخ؛ فقد أخطأ فيما قال و زَعَمَ . وقد ذكر العلماء لمعرفة الأسباب فوائدَ متعددةً، و من أهمها :

١– الوقوف على المعنى المراد بالآية الكريمة؛ حتى قال الواحدي : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصّتها و بيان نزولها (١).

وقال ابن دقيق العيد ؒ : بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معنى القرآن(٢).

وقال الشيخ ابن تيمية ؒ : معرفة سبب النزول يُعِيْنُ على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يُوْرِثُ العلم بالمسبب(٣).

وقال السيوطي في لباب النقول: وقد أُشْكِلَ على جماعة من السلف معاني آيات ؛ حتى وقفوا على أسباب نزولها ، فزالَ عنهم الإشكال(٤).

وههنا أمثلةٌ في هذا الخصوص تُوْضِحُ لك ما قال العلماء من ضرورة معرفة أسباب النزول:

۞ قال اللّٰه تعالى: ﴿**قُلْ لَّآ أَجِدُ فِيْ مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلٰى طَاعِمٍ يَّطْعَمُهٗۤ إِلَّآ أَنْ يَّكُوْنَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوْحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيْرٍ**﴾ إلخ [الأنعام:١٤٥]

هـذه الآية بـظـاهـرها تُشِيرُ إلى حصر المحرمات فيما ذُكِرَ، مع أنه ليس كـذلك ، ولـذا قـال الإمـام الشافعي : إن الكفار لما حَرّمُوا ما أحَلّ اللّه وأحَلُّوا مـاحَرَّمَ اللّه، وكانوا على المضادّة والمحادّة ، فجاءتِ الآيةُ مناقضةً لغرضِهم،

(١)أسباب النزول: ٨
(٢) لباب النقول :١٣
(٣)فتاوى ابن تيمية :٣٣٩/١٣
(٤)لباب النقول :١٣

فكأنه قال : لا حلالَ إلا ما حرّمْتُمُوه، ولا حرامَ إلا ما أحْلَلْتُمُوه، نازلًا منزلةَ من يـقـول: لا تأكل اليوم حلاوةً، فتقول: لا آكل إلا حلاوةً، والغرض المضادةُ، لا الـنـفـى والإثبـات عـلى الحقيقة ، فكأنه قال تعالى:لا حرام إلا ما أحللتموه من الـميتة،والـدم، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ لغير اللّه به، ولم يقصد حِلّ ماوراءه ، إذ الـقـصـد إثبـات التـحـريـم لا إثبـات الـحِلّ . قال إمام الحرمين : وهذا في غاية الـحسن، ولولا سَبَقَ الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالكٍ في حصر المحرمات فيما ذَكَرَته الآيةُ (١).

۞ قـال الـلّه تعالى: ﴿ وَالَّـٰٓئِـيْ يَـئِسْـنَ مِنَ الْمَحِيْضِ مِنْ نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق:٤]

وقـد أُشْـكِلَ معنى هذا الشرط على بعض الأئمة ؛ حتى قالت الظاهرية بأن الآئسة لا عـدة عـليهـا إذا لـم ترتب، مع أن سبب النزول يقطع الإشكال، وهو ما أخـرجـه الـحـاكم في المستدرك والبيهقي في سنن الكبرى عن أُبى بن كعبٍ أنه قـال : لـمـا نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدة النساء، قالوا: قد بقي عدد من النساء لم يُذْكَرْنَ؛ الصغار والكبار، فنزلت(٢).

٢- إزالة الإشكال عن الآية وتبديد الشكوك عنها، قال الشاطبي : إن الجهل بأسباب التنزيل مُوقِعٌ في الشبه والإشـكالات و مورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف، و ذلك مظنة وقوع النزاع (٣).و نذكر فى هذا الصدد مثالين:

۞ قال اللّٰه تعالى:﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللّٰهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَجُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَّطَّوَّفَ بِهِمَا إلخ**﴾ [البقرة: ١٥٨]

وظاهر الآية يد ل على أن السعي بين الصفا والمروة ليس بواجب، بالرغم من أن السعي واجب عند الجمهور ، ومن لم يَتَفَطَّنْ لأصل المعنى ذَهَبَ إلى عدم

(١)ذكره في البرهان : ٢٣/١، والإتقان: ٣٩/١

(٢) المستدرك: ٥٣٤/٢ ، سنن البيهقي: ٤٢٠/٧

(٣)الموافقات: ٢٠٢/٣

فرضيته تمسكاً بظاهر الآية ، وسبب نزولها يزيح السِّترَ عن المراد ، روي عن عروة بن الزبير أنه قال لعائشة أم المومنين ﵂ : أرايتِ قول اللّٰه تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللّٰهِ ، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَجُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَّطَّوَّفَ بِهِمَا إلخ**﴾ فواللّٰه ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة ، قالت:بئس ما قلتَ يا ابن أختي ! إن هذه لو كانت كما أوّلتها عليه كانت: " لا جناح عليه أن لا يتطوّف بهما " ولكنها أنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يُسلِمُوا يهلّون لِمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلّل، فكان مَنْ أهَلَّ يتحرج أن يطوف ، فلما أسلموا، سألوا رسول اللّٰه ﷺ عن ذلك ، قالوا : يا رسول اللّٰه ! إنا كنا نتحرج أن يطوف بين الصفا والمروة ، فأنزل اللّٰه الآية (١).

۞ قال اللّٰه تبارك وتعالى: ﴿ **لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ يَفْرَحُوْنَ بِمَا اَتَوْا وَّ يُحِبُّوْنَ أَنْ يُحْمَدُوْا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوْا إلخ** ﴾ [آل عمران: ١٨٨]

أشكلت هذه الآية على مروان بن الحكم ، وأرسل بوّابَه إلى ابن عباس وقال: قل له لئن كان كل امرىء فَرِحَ بما أُوتِيَ وأحبَّ أن يُحمَدَ بما لم يفعل مُعَذَّباً، لَنُعَذَّبَنَّ أجمعون . فقال ابن عباس : ما لكم و لهذه الآية ، إنما دعا النبي ﷺ يهود، فسألهم عن شيء، فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فأَرَوْهُ أن استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، و فرحوا بما أوتوا من كتمانهم، ثم قرأ : ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللّٰهُ مِيْثَاقَ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الْكِتٰبَ**﴾ إلى قوله ﴿ **وَ يُحِبُّوْنَ أَنْ يُّحْمَدُوْا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوْا**﴾ (٢).

قـال الشـاطبـيّ مـعلقاً عليه: فهذا السبب بَيَّنَ أن المقصود من الآية غير ما ظهر لمروان(٣) .

٣ – الـصيـانة عـن الـوقـو ع فـي هـوَّـة الـجهل ؛ لأنه قد يغفل المرء عن سبب

(١)رواه البخاري:١٥٣٤، ومسلم:٢٢٤٠، و أحمد:٢٣٩٦٠، و أبوداؤد:١٦٢٥، و الترمذي:٢٨٩١، والنسائي:٢٩١٩، ومالك:٧٣٣

(٢)رواه البخاري:٤٢٠٢، ومسلم:٤٩٨٢، والترمذي: ٢٩٤٠، وأحمد: ٢٥٧٧

(٣)الموافقات: ٢٠٢/٣

الـنـزول ويُسَبِّـبَ ذلك الـوقـو ع في ورطة الجهل ، من ذلك ما رُوِيَ: أنه لما نزل تـحـريم الخمر قالت اليهود : أليس إخوانكم الذين ماتوا كانوا يشربونها ؟ فأنزل اللّٰه تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَ عَمِلُوْا الصَّلِحٰتِ جُنَاحٌ إلخ﴾ (١).

وعلى الرغم من ذلك رُوِيَ أن عمر ﷺ استعمل قدامة بن مظعون ﷺ على البـحرين، فقدم الجارود على عمر ﷺ ، فـقال: إن قدامة شرب فسكر ، فقال عمر : من يشهد على ما تقول؟ قال الجارود :أبو هريرة يشهد على ما أقول– إلى أن قال–: فـقـال عـمر: يا قدامة إني جالدك ، قال : واللّٰه لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تـجـلـدنـي، قال عمر: ولِمَ؟ قال: لأن اللّٰه تعالى يقول:﴿ لَيْـسَ عَلَى الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَ عَـمِلُوْا الصَّلِحٰتِ جُنَاحٌ إلخ﴾ [الـمـائدة:٩٣] فقال عمر: إنك اخطأتَ التاويلَ يا قـدامةُ ،إذا اتـقيـت اللّٰهَ اجتنبتَ ما حرّمَ اللّٰهُ ، (وفى رواية) فقال عمر: ألا تردون عليه قوله؟ فقال ابن عباس : إن هؤلاء الآيات أُنْزِلْنَ عُذْراً للماضين، و حجةً للباقين، فعذرُ الـمـاضيـن بـأنهـم لـقوا اللّٰه قبل أن تحرم عليهم الخمر، وحجةً على الباقين لأن اللّٰه يقول : ﴿ يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ إلخ﴾ [المائدة:٩٠] ثم قرأ إلى آخـر الآية الأخـرى، فإن كان من الذين آمنوا و عملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا واحسنوا، فإن اللّٰه قد نهى أن يشرب الخمر ، قال عمر:صدقت (٢).

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر من طريق عطاء بن السائب عن محارب بـن دثـار : أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ شـربـوا الـخمر بالشام ، واستدلوا على

جواز بهذه الآية حينما قدموا على عمر بن الخطاب ﷺ، فشاور فيهم الناسَ ، فقال علي ﷺ : أرى أنهم شرعوا في دين اللّٰه ما لم يأذن اللّٰه فيه، فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم ، وإن زعموا أنها حرام، فاجلدهم ثمانين ثمانين (٣).

(١)الدر المنثور: ١٧٢/٣

(٢)انظر: سنن الدارقطني: وتفسير القرطبي:٢٩٣/٦،الدر المنثور:١٥٥/٣، والموافقات : ٢٠٣/٣

(٣)ملخصاً من الدر المنثور:١٧٤/٣

طريق معرفة أسباب النزول:

قالوا: لا طريق إلى معرفة أسباب النزول إلا النقل الصحيح، ولا يَحِلّ الكلامُ فيها إلا بالسماع والرواية . قال الواحدي: لا يحلُّ القولُ في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع عمّن شَاهَدُوْا التنزيلَ، ووقفوا على الأسباب، و بحثوا عن علمها، وجدُّوا في الطلب (١).

ثم لِيُعْلَمْ : أن الراوي قد يُصَرِّحُ بأن الآية نزلت بسبب تلك الواقعة ، وقد يُعبِّر عنه بأنه نزلت الآية في كذا .

۞ فأمّا إذا رُوِيَ سببُ النزول صراحةً عن صحابي، فإنه في حكم المرفوع المسند عند جمهور المحدثين ، وأما إذا قال الصحابي : " نزلتُ في كذا " ، ففيه خلافٌ بين الأئمة ، فالإمام البخاري يُدخله في المسند ، وغيرُه لا يُدخله في المسند المرفوع. والوجه في ذلك أن قوله " نزلتُ في كذا " يحتمل أن يكون بياناً للسبب، ويحتمل أن يكون من جنس الاستدلال بالآية ؛ لأنه عُرِفَ من عادتهم أنهم ربما يعبرون بهذا عما تضمّنتِ الآيةُ من الأحكام ،كما يقول العلامة ابن تيمية في " مقدمة التفسير" وعبارته هذه :

" قولهم نزلتُ هذه الآية في كذا يُرَادُ به تارَةً سبب النزول ، و يُرَادُ به تارةً أنّ ذلك داخلٌ في الآية، وإن لم يكن السببَ ،كما تقول : عُنِيَ بهذه الآية كذا. وقد تنازع العلماء في قول الصحابي : نزلتُ في كذا ؛ هل

يَجْرِيْ مَجْرَى المُسنِدِ ،كما لو ذَكَرَ السببَ الذي أُنْزِلَتْ لأجله ،أو يَجْرِي مَجْرَى التفسير منه الذي ليس بمُسْند ؟ فالبخاري يُدْخِلُه في المُسند ، و غيرُه لا يُدخلُه فيه ، و أكثرُ المسانيد على هذا الاصطلاح كمُسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذَكَرَ سبباً نزلتُ عقبه، فإنهم كلهم يُدخِلُون مثل هذا في المسند"(٢).

وقال الإمام الزركشي:

(١)**أسباب النزول**: ٨

(٢)**فتاوى ابن تيمية** :١٣/ ٣٣٩ -٣٤٠

" قد عُرِفَ من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلتُ هذه الآية في كذا ، فإنه يريد بذلك أنها تتضمّن هذا الحكم ، لا أن هذا كان السببَ في نزولها . وجماعة من المحدثين يجعلون هذا من المرفوع المُسند ، وأما الإمام أحمد فلم يُدخِله في المسند ، و كذلك مسلم وغيره ، وجعلوا هذا مما يُقَالُ بالاستدلال وبالتاويل، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لِمَا وَقَعَ"(١).

وقال الإمام المُحدِّث الشَّاه ولي اللّٰه الدهلوي

" والذي يظهر من استقراء كلام الصحابة والتابعين رضي اللّٰه عنهم : أنهم كانوا لايستعملون " نزلتُ في كذا " لمجرّد بيان الحادث الذي وقع في زمنه ﷺ ، وكان سبباً لنزول الآية ؛ بل ربما يذكرون بعض ما صدقت عليه الآية ، مما حدث في زمنه ﷺ أو حدث بعده ﷺ ، فيقولون :" نزلت في كذا "، ولا يلزم في هذه الصورة انطباق جميع القيود المذكورة في الآية؛ بل يكفي انطباق أصل الحكم فحسبُ . وقد يُبيِّنون سوالاً سُئِلَ ﷺ عنه أو حادثةً حدثت في عهد النبي ﷺ ، واستنبط ﷺ حكمها من الآية وتلاها عليهم في ذلك الباب ، فيقولون :" نزلت في كذا " و ربما يقولون في هذه الصور" فانزل اللّٰه قوله كذا، أو فنزلت"(٢).

قال الراقم عفا اللّٰه عنه: مثاله ما رُوِيَ عن ابن عباس ﵄ قال: مرَّ يهودي بالنبي ﷺ، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم ! إذا وضع اللّٰه السمٰوات على ذِه، والأرضين على ذِه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه ، فأنزل اللّٰه تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوْا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إلخ**﴾ [الأنعام:٩٢]

والصواب في ذلك ما جاء بلفظ : فقرأ رسول اللّٰه ﷺ :﴿ **وَمَا قَدَرُوْا اللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ كما جاء في صحيح البخاري، و مسلم، وفي مسند أحمد (٣) .

(١)البرهان: ٣٢/١
(٢)الفوز الكبير : ٦٠-٦١
(٣)البخاري: ٤٤٣٧، مسلم: ٤٩٩٢، وأحمد: ١٤٣٨

والوجه في ذلك أن الآية مكية لا مدنية، وهذه الواقعة إنما وقعت في المدينة كما هو واضح . فعُلِمَ أن ابن عباس ﵄ ما أراد بقوله:" فأنزل اللّٰه"إن اللّٰه أنزل هذه الآية في هذه الواقعة بل إنما أراد بقوله:إن هذه الآية تَصُدُقُ عليها.

و المثال الثاني: ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك ﵁: قال سمع عبد اللّٰه بن سلام بمَقدَم رسول اللّٰه ﷺ،فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيٌّ، ما أوّلُ أشراط السَّاعَة ؟ وما أوّلُ طَعَامِ أهلِ الجنَّة؟ ومَا يَنْزِعُ الوَلَدُ إلى أبيه أو إلى أمِّهِ؟ قال: **أخْبَرَنِي بِهِنَّ جبريلُ آنفاً** ، قال: جبريل؟ قال : **نعم**، قال: ذاك عدوّ اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية : ﴿ **مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيْلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلٰى قَلْبِكَ** ﴾ [البقرة:٩٧] (١)

قال الحافظ ابن حجر : ظاهر السياق أن النبي ﷺ هو الذي قرأ الآية ردّاً لقول اليهود، ولا يستلزم ذلك نزولها حينئذ و هو المعتمد ، فقد روى أحمد والترمذي والنسائي في سبب نزول الآية قصةً غير قصة عبد اللّٰه بن سلام (٢).

فاتضح مما نقلناه من عبارات هؤلاء الأئمة : أن النبي ﷺ والصحابة والتابعين قد كانوا يُطْلِقون التعبير بقولهم : "نزلت في كذا " ولا يريدون أنه كان السبب في نزولها. ولذا لم يُعَدّ هذا عند الجمهورمن المحدثين من المسند المرفوع، لاحتمال أن يكون ذلك منهم استنباطاً واستدلالاً .

۞ وهـذا كـلـه إذا جـاء عن صحابي ، وأما إذا جاء عن تابعي فهو أيضاً في حـكـم الـمـرفـوع؛ لأن مثـل ذلك لا مـجـال لـلرأي فيـه، و لكنـه- لكون اسم الـصـحابي ساقطاً- يُعَدُّ من المرسل ، وحكمه أن لا يُقْبَلَ إلا إذا صح أو اعتضد بـمـرسـل آخـر و نـحوه وكان الراوي له (وهو ههنا التابعي) من أئمة التفسير الـذيـن كـانـوا يـأخذون عن الصحابة كمجاهد بن جبر ، وعكرمة، وسعيد بن جبير ، وغيرهـم (٣).

(١)رواه البخاري: ٤١٢٠

(٢)فتح البارى: ١٦٦/٨

(٣)انظر: لباب النقول:١٥، والإتقان:٤٢/١

تعدُّد الأسباب وطريق التعامل معها

لا يَعْزُب عنكم أن المفسرين كثيراً ما يذ كرون لنزول الآية أسباباً متعددةً ، وهـو مما قد يتضجّر منه الناظر في التفسير ؛ إذا مرت به أسبابٌ عديدةٌ في نزول آية؛ بـالـرغـم مـن أنـه لا إشكال ولا اضطراب فيه في الحقيقة، وعلى كل ، فبينما نـحـن فـي هـذا الموقف يناسب لنا أن نتساء ل: أنه كيف يعامل المفسر بأسبابٍ عديدة إذا مرت به في التفاسير؟

فالجواب عنه :أن ههـنا صوراً عديدةً ؛ ولكل صورة حكم يخالف حكماً تأخذه صورة أخرى :

الصـورة الأولى: أن يعبر الراوي بقوله " نزلت في كذا" ويقول الآخر " نزلت في كـذا " ويـذكـر أمـراً آخـر ، ففى هذه الصورة لا منافاة بين قولهما ، فإنهم – كما تـقـدم- قد يريدون بهذ ا التعبير أن الآية تتضمن هذا الحكم ، لا أن هذا كان سبباً لنزول الآية، فعلى هذا لا منافاة بينهما إذا كان اللفظ يتناولهما.

الـصورة الثانية: أن يـذكـر واحـد سبـب نزول الآية صراحةً ، بينما الآخر يقول : "نـزلـت الآية فـي كـذا " ويـذكـر أمـراً آخر ، ففيه المعتمد قولُ من صرح بسبب النزول، ويُحْمَلُ قول من قال:" نزلت في كذا " على استنباط منه . ومثاله ما رُوِيَ عن ابن عمر قال: أُنْزِلَتْ ﴿ **نِسَائُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ**﴾ [البقرة:٢٢٣] في إتيان النساء

في أدبارهن(١).

مع أن جابراً ﷺ صرح بخلافه، وقال: كانت اليهود تقول: من أتى امرأةً من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، فأنزل اللّٰه:﴿ **نِسَائُكُمْ حَرْثٌ لَّكُم إلخ**﴾ (٢)

فالاعتماد على حديث جابر و يُحَمَلُ قول ابن عمر على أنه استنباط منه .

الصورة الثالثة: أن يصرح كل واحد منهما بسبب النزول ولكن يذكر كل منهما ما لايذكره الآخر ، ويكون إسناد أحدهما صحيحاً دون الآخر، فالمعتمد

(١)أخرجه البخاري:٤١٦٣

(٢)أخرجه البخاري:٤١٦٤، ومسلم:٢٥٩٧،والترمذي: ٢٩٠٤،وأبوداؤد: ١٨٤٨،وابن ماجه: ١٩١٥، والدارمي: ١١١٢

هو الصحيح ، ومثاله ما جاء عن جندب قال : اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتته امرأة ،فقالت: يا محمد ! ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل اللّٰه تعالى ﴿ **وَالضُّحٰى وَالَّيْلِ إِذَا سَجٰى ، مَا وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَمَا قَلٰى**﴾ [الضحىٰ:١-٣] (١)

وقد جاء في سبب نزول هذه الآيات غير ما ذُكِرَ ، فقد أخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمها وكانت خادم النبي ﷺ قالت:إن جرواً دخل بيت النبي ﷺ، فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي . فقال: يا خولة ! ما حدث في بيت رسول اللّٰه ﷺ ؟ جبريل لا يأتيني، فقلتُ في نفسي: لو هيأتُ البيت و كنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير ، فأخرجتُ جروا، فجاء النبي ﷺ تَرْعُدُ لحيته ، وكان إذا نزل عليه أخذته الرَّعدة ، فأنزل اللّٰه ﴿وَالضُّحٰى... إلى قوله... وَمَا قَلٰى ﴾ (٢).

ولكن في سنده من لا يُعرَف، كما قال الهيثمي : وفي سنده من لا أعرف(٣) . ومع ذلك فهو خلاف ما ثبت في الصحيح ، و قال الإمام ابن حجر : ووجدت الآن في الطبراني بإسناد فيه من لا يُعرف أن سبب نزولها وجود جرو كلب تحت سريره الم يشعر به، فأبطأ عنه جبريل لذلك ، و قصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة؛ لكن كونها سبب نزول هذه

الآية غريب؛ بل شاذ مردود بما في الصحيح (٤).

الصورة الرابعة: أن يكون حديث كل منهما صحيحاً ، فيُطْلَبُ الترجيح من الخارج ، مثل أن يكون أحدهما أصح من الآخر ، أو يكون راوي أحدهما مشاهداً للقصة، أو نحو ذلك من وجوه الترجيح، ومثال ذلك ما رُوِيَ عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب ، فمر بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : لو سألتموه، فقالوا : حَدِّثْنا عن الروح، فقام ساعة ورفع راسه، فعرفتُ أنه يُوحىٰ إليه ، حتى صعد الوحي ثم قال : ﴿ **قُلِ الرُّوْحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيْ وَمَا أُوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيْلاً**﴾ [الاسراء:٨٥](١)

وقد جاء عن ابن عباس رحمه الله: قال: قالت قريش لليهود : أَعْطُوْنا شيئاً ، نسأل هذا الرجلَ ، فقالوا: اسألوه عن الروح ، فسألُوه ، فأنزل اللّٰه تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُوْنَكَ عَنِ الرُّوْحِ إلخ** ﴾[الاسراء:٨٥](٢)

فهذا يخلاف ما رواه ابن مسعود ، والأول راجح لوجهين: الأول :أنه أصح من رواية ابن عباس لكونه مما رواه البخاري ومسلم، والثاني: أن ابن مسعود رضي الله عنه كان حاضرَ القصة .

الصورة الخامسة: أن يستوي الحديثان في الصحة ولا مرجِّح لأحدهما ، و مع ذلك فيمكن الجمع بينهما ، بأن يُحْمَلَ كل ما رُوِيَ في ذلك على أنه سبب لنزول الآية مستقلاً ، لأنه يجوز أن يكون السبب لنزول الآية متعددا، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: وإذا ذَكَرَ أحدهم لها سبباً نزلت لأجله وذكر الآخر سبباً ،فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب (٣).

ومثاله ما أخرجه البخاري وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنه: أن هلال ابن أمية

---

(١)أخرجه البخاري:٤٥٦٩، ومسلم:٣٣٥٥،وأحمد:١٨٠٥٣

(٢)أخرجه الطبراني في المعجم الكبير :٢٤٩/٢٤، و الشيباني في الآحاد والمثاني: ٢١١/٦

(٣)مجمع الزوائد: ١٣٨/٧

(٤)فتح الباري:٧١٠/٨

قـذف امرأته عند النبي ﷺ بشـريك بن سمحاء ، فقال النبي ﷺ : البينةُ أو حدٌ في ظهـرك، فقال : يا رسول اللّه ﷺ !إذا رأى أحـدنـا مـع امرأته رجلًا ينطلق يلتمسُ البَيِّنَةَ؟ فأنزل اللّه تعالى عليه : ﴿ **وَالَّذِيْنَ يَرْمُوْنَ أَزْوَاجَهُمْ-- حتى بلغ -- إِنْ كَانَ مِنَ الصّدِقِيْنَ**﴾ [النور:٦] (٤).

ورُوِيَ فـي نزول هذه الآيات سببٌ آخرُ عن سهل بن سعد قال: جاء عُوَيْمِرُ إلى عاصم بن عدي، فقال :اسألُ رسولَ اللّه ﷺ : أرايتَ رجلاً وَجَدَ مع امرأته رجلاً أ يقتله، فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فسأل عاصمٌ رسولَ اللّه ﷺ ، فعاب السائلَ، فأخبر

(١) أخرجه البخاري : ٤٣٥٢،و مسلم : ٥٠٠٢، و الترمذي: ٣٠٦٦، وأحمد:٣٥٠٥
(٢) رواه الترمذي: ٣٠٦٥، وأحمد: ٢١٩٥
(٣) فتاوى ابن تيمية : ١٣/ ٣٤٠
(٤) رواه البخاري:٤٣٧٨،وأبو داؤد: ١٩٢١، والترمذي : ٣١٠٣، وابن ماجه: ٢٠٥٧، وأحمد:٢٠٢٤

عـاصـمٌ عـويمرَ فقال: واللّه! لا أنتهي حتى أسأل رسولَ اللّه، فأتاه فقال: إنه قد أُنزِل فيك و في صاحبتك قرآن ، الحديث (١).

وهاتان الروايتان تستويان في الصحة ولا مرجّح لأحداهما على الأخرى، ولا يبـعـد أن يُـحُـمَـلَ هـذا عـلـى تـعـدد الأسباب ، كما قال النووي والخطيب البغدادي وابن حجرالعسقلاني وغيرهم من العلماء . قال الإمام النووي في شرح مسلم: قلتُ: و يحتمل أنها نزلت فيهما جميعاً ، فلعلهما سألا في وقتين متقاربين، فنزلت الآية فيهما (٢).

وقـال ابـن حـجـرما ملخّصُه: اختلف الأئمة في هذ ا الموضع ، فمنهم من رَجّـحَ أنهـا نـزلـتُ فـي شـان عويمر ، ومنهم من رَجَّحَ أنها نزلت في شان هلال ، ومـنهـم من جمع بينهما بأن أوّل من وقع له ذلك هلال ، وصادَفَ مَجىءُ عويمر أيـضـاً، فـنـزلت في شانهما معاً في وقت واحد – إلى أن قال–:ولا مانعَ أن تتعدّد القصصُ و يتّحدَ النزولُ (٣).

الصـورة السـادســة : أن لا يــمـكــن الجـمـع بين هذه الأسباب ، لبعد الزمان بيـنهـا، مع استواء الروايات في الصحة، فهذه حكمها أن يُحُمَلَ على تعدد النزول

و تكرّره.

ومثـال ذلك: مـا روى المسيب قال: لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول اللّٰه ﷺوعنده أبو جهل و عبد اللّٰه بن أبى أمية، فقال: أي عمّ! قل لا إلٰه إلا اللّٰه، أحاجّ لك بها عند اللّٰه ، فقال: أبو جهل و عبد اللّٰه : يا أبا طالب! أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل يكلمانه حتى قال : هو على ملة عبد المطلب ، فقال النبي ﷺ: **لأستغفرن لک ما لم أُنهَ عنه،** فنزلت ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْآ أَنْ يَّسْتَغْفِرُوْا لِلْمُشْرِكِيْنَ الآية**﴾ [التوبة:١١٣](٤)

---

(١) رواه البخاري:٤٣٧٦، ومسلم: ٢٧٤١، وأبوداؤد: ١٩١٧،والنسائي: ٣٣٤٩،وابن ماجه: ٢٠٥٦، والدارمي :٢١٣٤، ومالك: ١٠٣٥

(٢)شرح مسلم : ١/ ٤٨٨

(٣)فتح الباري: ٨/ ٤٥٠

(٤) رواه البخاري: ٤٣٠٧، و مسلم: ٣٥، و النسائي: ٢٠٠٨،و أحمد: ٢٢٥٦٢،والحاكم: ٢/ ٣٦٦

و قد ورد سببان آخران في نزولها غير ما ذُكِرَ:

الأول: ما أخرج الترمذي و حسّنه، وغيرُه عن علي قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه، و هما مشركان، فقلتُ: تستغفر لأبويك و هما مشركان ؟ فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك، فذكرت ذلك لرسول اللّٰه ﷺ فنزلت(١).

والثاني: ما أخرجه الحاكم و غيره عن ابن مسعود قال: خرج النبي ﷺ يوماً إلى المقابر، فجلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً ثم بكى ، فقال: **إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي ، وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي، فأنزل عليّ: ما كان للنبي إلخ**(٢).

قال الراقم : ويحتمل في هذا أن يكون النزول متكرراً مع كل سبب ، ويحتمل أن يكون نزول الآية تأخّرَ ، وإن كان سببها تقدَّمَ ، وإلى الأول ذهب الإمام السيوطي، و إلى الثاني من الاحتمالين جَنَحَ الإمام ابن حجر في فتح الباري، وقال : الأصل عدم تكرر النزول(٣) .

قد يتعدد النازل مع توحّد السبب

لا يخفى عليكم أنه قد يتعدد النازل مع توحّد السبب بأن يكون أمر واحد سبباً لنزول آيتين أو آياتٍ متعددةٍ على عكس ما تقدَّمَ ، ولا إشكال فيه ولا مانع من ذلك ؛ لأنه قد يكون هذا التعدد أبلغَ في إقناع الناس و هداية الخلق وأظهرَ في بيان الحق عند الحاجة .

مثاله : ما رواه الطبري والطبراني عن ابن عباس قال: كان رسول اللّٰه ﷺ جالساً في ظِلِّ حُجرته ،فقال: إنه سيأتيكم إنسان ينظرإليكم بعينَيْ شيطان، فإذا جاءَ فلا تُكلِّمُوه ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين ، فدعاه رسول اللّٰه ﷺ ، فقال: علامَ تشتمني أنت و أصحابك ؟ فانطلق الرجل، فجاء بأصحابه،

(١) رواه الترمذي : ٣٠٢٦، والنسائي: ٢٠٠٩، وأحمد: ١٠٣٦، والحاكم: ٣٦٥/٢

(٢) رواه الحاكم: ٣٦٦/٢،و عبد الرزاق في مصنفه :٥٧٢/٣

(٣) انظر:الإتقان: ٤٤/١، و فتح الباري: ٥٠٨/٨

فحلفوا باللّٰه ما قالوا حتى تجاوز عنهم ، فأنزل اللّٰه : ﴿ **يَحْلِفُوْنَ بِاللّٰهِ مَا قَالُوْا وَلَقَدْ قَالُوْا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوْا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَ هَمُّوْا بِمَا لَمْ يَنَالُوْا وَمَا نَقَمُوْآ إِلَّا أَنْ أَغْنٰهُمُ اللّٰهُ وَ رَسُوْلُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَّتُوْبُوْا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَّتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ عَذَاباً أَلِيْمًا فِيْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَّلِيٍّ وَّلاَ نَصِيْرٍ** ﴾ [التوبة: ٧٤](١).

وأخرج الحاكم و أحمد والطبراني هذا الحديث بهذا اللفظ إلّا أنهما قالا: فأنزل اللّٰه :﴿ **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللّٰهُ جَمِيْعًا فَيَحْلِفُوْنَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُوْنَ لَكُمْ إلخ**﴾ [المجادلة: ١٨-١٩](٢).

وجَعَلَ الإمام السيوطي من أمثلته ما أخرجه البخاري من حديث زيد بن ثابت :أن رسول اللّٰه ﷺ أملى عليه : ﴿ **لاَ يَسْتَوِي الْقٰعِدُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُجٰهِدُوْنَ فِيْ سَبِيْلِ اللّٰهِ**﴾ ، فجاءَ ابنُ أم مكتوم ، وقال : يارسول اللّٰه! لو استطيعُ الجهادَ لجاهدتُ، وكان أعمى، فأنزل اللّٰه: ﴿ **غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ**﴾ [النساء:٩٥]

ومـا أخـرج ابـن أبـي حاتم عن زيد بن ثابت قال كنت أكْتُبُ لرسول اللّٰه ﷺ ، فـإنـي لـواضـع القلم على أُذُني إذ أمر بالقتال، فجعل رسول اللّٰه ﷺ ينظر ما يـنـزل عـليـه، إذ جـاء أعـمٰى، فقال: كيف لي يا رسول اللّٰه ! وأنا أعمٰى ؟ فأُنزِلَتْ: ﴿**لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ**﴾(٣)

قـال الراقم: وفيما قاله الشيخ السيوطي نظرٌ عندي ؛ فإنه يحتمل أن يكون السـائل في الرواية الثانية غيرَ ابن أم مكتوم ، وهو الظاهر ، على هذا فليس هذا من أمثلة ما نحن بصدده .

وأيـضـاً جَـعَلَ السيوطي من أمثلته ما رواه الترمذي والحاكم عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول اللّٰه ! لا أسمعُ اللّٰهَ ذَكَرَ النساءَ في الهجرة بشيء ، فأنزل اللّٰه :

(١) رواه الطبري : ١٨٥/١٠، وأورده ابن كثير في التفسير:٢/ ١٨٠

(٢) رواه الطبراني في الكبير: ٧/١٢،أحمد:٣١٠٧ و٢٢٨٣، والمقدسي في المختارة: ١٧٩/١٠

(٣) الإتقان: ٤٦/١

﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّيْ لا أُضِيْعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ ، مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثٰى، بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ إلخ** ﴾[آل عمران: ١٩٥]

ومـا خرّج الحاكم عنها أنها قالت: قلتُ: يا رسول اللّٰه ! تذكر الرجالَ ولا تـذكـر النساءَ ، فأُنزِلَتْ: ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِيْنَ وَالْمُسْلِمٰتِ الخ**﴾ [الأحزاب:٣٥] وأُنزِلَتْ: ﴿ **أَنِّيْ لا أُضِيْعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ الخ**﴾ [آل عمران:١٩٥]

ومـا أخـرج الحاكم أيضاً عنها قالت: تغزو الرجالُ ولا تغزو النساءُ، وإنّما لـنـا نصفُ الميراث ؟ فأنزل اللّٰه : ﴿ **وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللّٰهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلٰى بَعْضٍ إلخ** ﴾ [النساء: ٣٢](١)

قال الراقم: وعـنـدي فيما قاله نظرٌ ظاهرٌ؛ فإنه يحتمل أن يكون سوال أم سـلـمةَ متـعدّداً، وهو الظاهر من ألفاظها ، فإنها قالت في الرواية الأولى: يا رسول الـلّٰـه ! لا أسمع اللّٰه ذكر النساء ، و في الرواية الثانية : يا رسول اللّٰه! تذكر الرجال ولا تـذكـر الـنسـاء ، و في الرواية الثالثة : تغزو الرجال ولا تغزو النساء ولنا نصفُ

الميراث، فلعلّها سألتُ رسولَ اللّه أسئلةً في أوقات متعددةٍ، فأجاب اللّه تعالى عن ذلك فـي آيـاتٍ متعددةٍ ، ولا ضيرَ في ذلك ، فلا يكون ذلك من أمثلة الباب، كما لا يخفى ، واللّه أعلم.

ملاحظات حول سبب النزول

ثـم ههنا ملاحظات مهمّة ، يجب علينا أن نحفظها . لذلك نرٰى علينا من الواجب أن نُلْقِي عليها بعضَ الضوء ، وهي ما تلي:

الأوّل: أنـه قـد يـغترّ بـعـض الـنـاظـريـن حيـن يـنظر في كتب التفاسير ما ذكره المفسرون من قصة وحادثة تحت كل آية من آيات الأحكام والجدل، و يَظُنُّ أن تـلك الـقـصة والـحادثة سببٌ لنزول الآيات ، وليس الأمر كذلك ؛ بل ربما يذكر المفسرون قصةً وحادثةً لأدنى مناسبةٍ و ملابسةٍ بتلك الآيات .

قال الإمام الشاه ولي اللّه الدهلويؒ :

(١)الإتقان: ٤٥/١

"و يـذكـر الـمـحـدّثُون تحت آيات القرآن الكريم كثيراً من الأشياء ليستْ هي في الحقيقة من قسـم سبب النزول ، مثل استشهاد الصحابة في مناظراتهم بآية، أو تمثُّلهم بها ، أو تلاوته ﷺ آية للاستشهاد في كلامه الشـريف، أو رواية حـديـث يُـوافِقُ الآية في أصل الغرض، أو تعيين موضع الـنـزول،أو تعيين أسماء المذكورين في الآية بطريق الإبهام ، أو بيان طريق التلفظ بكلمة قرآنية ،أو فضل سور وآيات من القرآن ، أو بيان طريقة امتثاله ﷺ بـأمـر مـن أوامـر الـقـرآن الكريم ، فليس شيء من هذا في الحقيقة من أسباب النزول"(١).

الثاني: هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب ؟ اختلفت فيه أنظار العلماء من أهـل الأصـول ، وقـد ذَكَرُوا فيه مذاهبَ ثلاثة : الأوّل وهو قول الجمهور: أن العبرة بعموم اللفظ ، والثاني:أن العبرة بخصوص السبب ، والثالث : التفصيل (٢).

وهـذا الـمبـحـث أفـرده أهل الأصول و تكلّمُوا فيه بما لا مزيد عليه ، وها

نحن نُلخّصُ ما يسمح به هذا المقام لمناسبة أسباب النزول:

فـحـاصـل ما في المقام : أن الآيـات التـي نـزلتُ في واقعة ولها أسباب، تنقسم من حيث العموم والخصوص إلى أقسام أربعة :

١- النوع الأول منها الآيات التي نزلتُ في شخص مُعَيَّن مع التصريح باسمه، فمثل هذه الآيات حكمها بإجماع العلماء أنّها تَخْتَصُّ بمن نزلتُ فيه ، ولا يدخل فـي حكمها غيرُه . ومثاله قوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَآ أَبِيْ لَهَبٍ وَّ تَبَّ**﴾ [اللهب:١] فهـذه الآية نـزلـتُ فـي أبـي لهـب و فيهـا وعيد شديد له مع التصريح باسمه، فلا يدخل فيها غيرُ أبي لهب .

٢- الـنـوع الثـاني منها ما وردتُ فيه صفاتٌ وميزاتٌ لفرد أو جماعة أو أمر ،

(١)الفوز الكبير: ٦١

(٢)انـظـر البـحـث فـي الـفـروع لـلمقدسي: ٣٢١/٦،والإنصاف للمرداوي:١٥/١١، والقواعد والفوائد الأصولية للبعلي: ٢٤٠/١ والمستصفى للغزالي: ٢٣٦/١

مـن غيـر أن يـصـرح فيه باسم أحد مِمّنُ نزلتُ فيهم، على الرغم من أنها نزلتُ في جـمـاعـات مـعيّـنة ، أو أفـراد مُـعيّنة ، أو أمور خاصّة ، ومع ذلك فإن هناك دلائل تـرشـدنـا إلـى أن الـمـراد بهذه الآية أو الآيات فلان مخصوص من الأشخاص أو جـمـاعة خـاصّة مـن بيـن الـجـمـاعات أوأمرخاص من الأمور لا غير، فمثل هذه الآيات أيضاً يختص حكمها بتلك الأفراد أو الجماعات أو بتلك الأمور إجماعًا، فـلايـدخـل غيرهم في حكمها، وإن وُجِدَتُ فيه تلك الصفات والميزات. ومثاله قوله تعالى:﴿ **وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقٰى الَّذِيْ يُؤْتِيْ مَالَـهٗ يَتَزَكّٰى**﴾ [اللّيل:١٧-١٨]

قال الإمام السيوطي:

" إنهـا نـزلـت في أبي بكر الصديق بالإجماع ، وقد استدلّ بها الإمام الرازي مع قوله : ﴿ **إِنَّ أَكْـرَمَـكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْـقٰـكُمْ**﴾ [الحجرات:١٣] على أنّه أفضل الناس بعد رسول اللّه ﷺ ، ووهم من ظنّ أن الآية عامة في

كـل مـن عَـمِـلَ عـملَه إجراءً له على القاعدة ، وهذا غلط؛ فإن هذه الآية ليـس فيهـا صيـغة عـمـوم ، إذ الألف والـلام إنـما تفيد العموم إذا كانت موصولةً أو معرفةً في جمع، زاد قوم : أو مفردٍ بشرط أن لا يكون هناك عهـد ، والـلام فـي" الأتقى" ليست موصولة لأنها لا توصل بأفعل التفضيل إجـمـاعاً، و"الأتقى" ليست جمعاً ؛ بل مفرد، والعهد موجود خصوصاً مع مـا يـفيـده صيغة أفعل من التمييز و قطع المشاركة، فبطل القول بالعموم و تعين القطع بالخصوص والقصر على من نزلت فيه رضي الله عنه (١).

٣- النوع الثالث من الآيات ما نزلت في صدد واقعة وحادثة ، إلا أن ألفاظها عامة; وهـنـاك دليل يدل على أنها عامة ، وليست خاصةً بتلك الواقعة والحادثة التـي هـي سبـب نـزولهـا، فـقد أجمع العلماء في هذا النوع على تعديتها إلى غير أسبـابهـا ، كنزول آية الظهار في سلمة بن صخر، و آية اللعان في هلال بن أمية، و آية حـد الـقـذف فـي من رَمٰـى عـائشةَ رضي الله عنها،فـجـميـع أهـل الـعـلـم علـى أن هذه

(١)الإتقان: ٤٠/١

الآيـات – بالرغم من أنها نزلت في أسباب خاصة– غيرُ مُخْتَصَّةٍ بمن نزلت فيهم؛ بـل تتـعـدى إلـى غيـرهـم ، ويـكـون الحكم الذي ذُكِرَ فيها عاماً لجميع من هذه صـفتُهـم . والـدليـل قـد يـكـون مـا فـي هـذه الآيات من العموم، وقد يكون من الـخارج، كاحتجاج الصحابة و غيرهم في وقائع بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة .

قال الإمام ابن تيمية:

" قـد يـجيء كثيراً من هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت في كذا ، لا سيـمـا إن كان المذكور شخصاً كقولهم : إن آية الظهار نزلت في امرأة أوس بـن الـصـامـت ، وأن آية الـكـلالة نزلت في جابر بن عبد اللّه، وأن قوله:﴿ **وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ** ﴾[المائدة: ٦٩] نزلت في بني قريظة والنضير ، ونظائر ذلكَ مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة أو في قوم

مـن اليهـود والـنـصـارىٰ أو فـي قـوم من المؤمنين ، فالذين قالوا ذلك لم يـقـصـدوا أن حـكـم الآية يختص بأولٰئك الأعيان دون غيرهـم ، فإن هذا لايـقـولُـهٗ مسـلـمٌ ولا عاقلٌ على الإطلاق، والناس وإن تَنَازَعُوا في اللفظ الـعـام الـوارد على سبب، هل يختص بسببه ؟ فلم يقل أحدٌ أن عمومات الـكتـاب والسـنة تَـخْتَـصُّ بـالشـخص المعين ، وإنما غاية ما يقال: إنها تـختـص بـنـوع ذلك الشـخـص فتـعـم ما يشبهه ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ"(١).

٤- النـوع الـرابـع مـنها ما كان نزولها في أسباب خاصة و بمناسبة خاصة ، ولٰكن ألفاظها عامة ولم يوجد صارف يصرف عن عمومها . فهذا ما اختلف فيه أهل العلم:

فذهب البعض منهم إلى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم ألفاظها ، و مـعـنـى هـذا أن لـفظ الآية يكون مقصوراً على الحادثة التي نزلت هي لأجلها ،أما أشباهها فلا يُعْلَمُ حكمُها من نصّ الآية. وإنما يُعْلَمُ بدليلٍ مستانفٍ آخر .
وقـال الجمهور من أهل العلم :إن العبرة بعموم ألفاظ الآية و تطبيق الأحكام

(١)ملخصاً من الفتاوىٰ :٣٣٨/١٣-٣٣٩

الواردة فيهـا عـلـى جميع أفرادها ، ومعنى هذا : أن لفظ الآية يَتَنَاوَلُ كلَ أفراد اللفظ سواءٌ أ كان من أفراد السبب أو من غيره .

ولٰكن يجب أن نلاحظ ههنا : أن هذا الاختلاف إنما هو اختلاف نظري فقط، وليس له أثر في الخارج والعمل ، فإن الحكم العام الوارد على سبب يتعدى عـملاً إلى غير أفراد السبب عند هٰؤلاء و هٰؤلاء كلهم إلا أن الجمهور قائلون بأنه يتـنـاول غيـرهـا بهـذا الـنـص نـفسـه ، بينما غيرهـم يذهبون إلى أنه لا يتناولُه إلا بالقياس أو بنص آخر .

ولـنـضرب لك مثلاً يوضح الفرق بين الرأيين ، وهو قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِيْنَ يَـرْمُـوْنَ أَزْوَاجَهُـمْ وَلَـمْ يَـكُـنْ لَّهُـمْ شُهَـدَاءُ إِلَّآ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللّٰهِ ،إِنَّهٗ لَمِنَ الصّٰدِقِيْنَ**﴾[النور:٦]

نـزل فـي حـادثة قـذف هـلال بـن أمية ، فـالسبب خاصٌّ ، واللفظ عام، ولا صـارف يـصـرف عـن عمومه، فيتناول- عند الكل من الجمهور وغيرهم- بعمومه أفرادَ القاذفين في أزواجهم ، ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ، سواء منهم هلال بن أمية و غيـره، إلا أن الـجـمهـور يـقولون : لا نحتاج في سحب هذا الحكم على غير هـلال بـن أمية إلى دليل آخر، بل هو ثابت بعموم هذ ا النص ، بينما غيرهم يقولون : إن آية القذف هذه خاصة بهذه الحادثة، فلفظها و حكمها مقصوران على هلال بن أمية الـذي لأجله نزلت، إلا أن هذا الحكم الذي تشتمل عليه الآية، يتعدى إلى غيره ممن يقذف أزواجهم ، بطريق القياس أو غيره من الأدلة لا بهذا النص .

الثانى

أحاديث التفسير فى الميزان

ومما يجب أن نَعِيَه في هذ ا الصدد ، أن التفاسير المنسوبة إلى الصحابة و التـابـعين غالبها ضعيفةٌ و بعضها واهيةٌ و باطلةٌ لا أصل لها، ومع ذلك فقد يُوجَدُ في التفسير شيءٌ كثيرٌ مما هو صحيح أو حسن من الأحاديث والآثار. لذلك فإنه يـجـب عـلـى الـمـفسر في سيرهِ في روضة التفسير أن يقبل الصحيح والحسن، و يحذر من الضعيف والباطل منه .

قـال الإمـام الـزركشي: " يجب الحذر من الضعيف منه والموضوع، فإنه كثيـر، وإن سـواد الأوراق سـواد فـي الـقـلـب. قال الميموني : سمعتُ أحمدَ بن حنبل يقول : ثلاث كتب لا أصل لها : المغازي والملاحم والتفسير" (١).

وقال ابن كثيركما نقله في المناهل:

" إن أكثـر التـفسيـر الـمـاثـور قـد سرىٰ إلى الرواة من زنادقة اليهود، والـفُـرُس، و مسـلـمة أهل الكتاب ، قال بعضهم : وجُلّ ذلك في قصص الـرسـل مـع أقوامهم وما يتعلق بكتبهم و معجزاتهم ، و في تاريخ غيرهم كـأصـحاب الكهف، و مدينة إرم العماد، و سحر بابل ، و عوج بن عنق، و فـي أمـور الـغيب من أشراط الساعة و قيامتها وما يكون فيها و بعدها، وجُـلُّ ذلك خـرافـات و مـفتـريـات ، صـدّقهـم فيهـا الـرواة حتى بعض

الصحابة رضي اللّه عنهم . ولذلك قال الإمام أحمد : ثلاثة لا أصل لها : " التفسير والملاحم والمغازي " (٢).

وذكر الخطيب البغدادي في" الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع " بسنده عن يحيى بن سعيد : تساهلوا في أخذ التفسير عن قوم لا يُوَثِّقُونَهُم في الحديث، ثم ذكر ليث بن أبي سليم ، و جويبر بن سعيد ، والضحاك، و هؤلاء لا يُحْمَدُ أمرهم و يُكْتَبُ التفسير عنهم (٣).

وهذا ما دفع الإمامَ أحمدَ إلى القول بأنه لا أصل لثلاثة : التفسير والمغازي والملاحم ، وأما أسباب الضعف في أحاديث التفسير ، فلخّصَها الشيخ الزرقاني في "مناهل العرفان" له ، وحاصل ما قاله : أنه يَتَطرّق الضعف إلى ما يُعْزىٰ إلى الصحابة والتابعين من وجوهٍ :

الأول: ما دسَّهُ زنادقةُ اليهود والفُرُس على الصحابة والتابعين، لِهَدْمِ هذا الدين عن طريق الدسّ والوضع ، حينما أَعْيَتْهُمُ الحِيَلُ في النيل منه عن طريق الحرب،

(١) البرهان:١٥٦/٢

(٢) مناهل العرفان : ١٤/٢

(٣) الجامع لأخلاق الراوي: ١٩٤/٢

والقسوة ، وعن طريق الدليل والحُجّة .

ثانيها : ما لَفّقَه أصحابُ المذاهب المتطرّفة ترويجاً لتطرّفهم ، كشيعة علي الذين نَسَبُوا إليه ما هو منه بريءٌ ، و كالمتزلفين الذين حطبوا في حبل العباسيين، فنَسَبُوا إلى ابن عباس ما لم تصحّ نسبتُه إليه ، تملّقاً لهم واستدراراً لدنياهم .

ثالثها : اختلاط الصحيح بغير الصحيح ، ونقل كثير من الأقوال المَعزُوَّة إلى الصحابة أو التابعين من غير إسناد ولا تحرّ، ممّا أدّى إلى التباس الحق بالباطل .

رابعها: أن تلك الروايات مُليئةٌ بالإسرائيليات ، ومنها كثير من الخرافات التي يقوم الدليل على بطلانها . ومنها ما يتعلق بأمور العقائد التي لا يجوز الأخذ فيها بالظن ولا برواية الآحاد ؛ بل لا بد من دليل قاطع فيها ، كالروايات التي تتحدّث

عـن أشـراط الساعة ، وأهوال القيامة وأحوال الآخرة ، تُذْكَرُ على أنها اعتقاديات في الإسلام (١).

كلمة الإنصاف فى هذا الموضوع

وحيثُ وَقَفْنَا على أسباب تطرُّقِ الضعف إلى أحاديث التفسير ، بَقِى علينا أن نتساءَ لَ : كيف يعامل المفسّرُ مع الأحاد يث والآثار التي رُوِيَت في صدد التفسير ؟

والجواب : أن أحاديث التفسير نوعان ، منها ما هو صحيح أو حسن ، ومنها ما هو ضعيف أو باطل، فما تَوَافَرَتِ الأدلةُ على صحته وقبوله على حسب قاعدة المحدثين، فهذا مما يُقْبَلُ و يُفَسَّرُ القرآنُ على وَفْقِهِ، ولا يَلِيْقُ بأحد ردُّهُ ولا يجوز إهمالُه وإغفالُه. وأما ما لم يصح لسبب من الأسباب ، فهذ ا يجب ردُّه ولا يجوزُ قبولُه ولا الاشتغالُ به (٢).

(١)قال الراقم : إن ما قال الشيخ الزرقاني :" إنه لا بد من د ليل قاطع في إثبات العقائد " فصحيح ولكن قوله :" كالروايات التي تتحدث عن أشراط الساعة ، وأهوال القيامة " إلخ فيه نظر عندي،لأن الروايات التي تتحدث عن أشراط الساعة وأهوال القيامة و غير ذلك ، إنما تُذكر لتفصيل أحوال ما ذُكر لا لإثبات العقائد كما زعم الشيخ الزرقاني ، ولذا لا نرى من العلماء أحدا حذر أو منع من نقل الروايات التي هي من قبيل الآحاد في تفصيل أحوال الآخرة وغيرها من باب الاعتقاديات لأنها ليست لإثبات تلك العقائد . فافهم

(٢) انظر مناهل العرفان:٥٦/٢

الانتباه

إيّاكَ وأن تفهم مما نقلنا عن الأئمة من كثرة الوضع و غلبة الضعف في أحاديث التفسير ، أنه لم يصح في أحاديث التفسير شيء ، فإنه ظنٌّ خاطئٌ لا نصيب له من الصحة، كما ارتَكَبَهُ أحمد أمين في كتابه [فجر الإسلام] .

فإن من الواضح لكل من يطالع كتب السنة أنه ما من كتاب صُنِّفَ في السنة إلا وقد يوجد فيه باب خاص تحت عنوان " كتاب التفسير" لبيان ما ورد في التفسير من الأحاديث والآثار عن الرسول ﷺ و الصحابة والتابعين ، و أثبت فيها مؤلفوها شيئاً كثيراً من أحاديث التفسير بطرق صحيحة لا غبار عليها ، فهذا ينادي بأعلى صوت أن هناك

من الأحاديث والآثار في التفسير ما قد صح،و يجب الاعتماد عليها في التفسير .

وأما ما قال الإمام أحمد : ثلاثة ليس لها أصل :التفسير والملاحم والمغازي، ففيه الكلام من وجوه :

أولاً: أنه لم يثبت هذه الكلمة عن الإمام أحمد بطريق صحيح يطمئن إليه القلب. والوجه في ذلك أن الإمام أحمد نفسَه قد ذكرفي مسنده أحاديث كثيرةً في التفسير كما لا يخفى على أهل العلم، فكيف يُعُقَلُ أن يُخرج هو هذه الأحاديث، و يُثبتها عن شيوخه في مسنده، ثم يحكم عليها بأنه لم يثبت ولم يصح منها شيء ؟ (١)

ثانياً: أنه وإن ثبت هذا عن الإمام أحمد فالمراد به – والله أعلم– أن غالب أحاديث التفسير ليس لها أصل،لأن الصحيح منها قليل بالنسبة إلى غيره، وليس المراد به عموم النفى . والدليل على ما قلنا ما ذكره الزركشي : أن المحققين من أصحاب الإمام أحمد قالوا: مراده أن الغالب أنها ليس لها أسانيد صحاح متصلة وإلا فقد صح من ذلك كثير(٢).

ثالثاً: أن ما قاله الإمام أحمد غايةُ ما يلزم منه نفي الصحة، ولا يستلزم منه الوضع والضعف ، فإن المحدثين كثيراً ما يقولون: " لايصح" و "لايثبت" في

(١)انظر: السنة ومكانتها :٢٤٤
(٢)البرهان:١٥٦/٢

كتب الأحكام، ويريدون به نفي الصحة الاصطلاحية فقط، وأما إذا قالوه في كتب الضعفاء والمتروكين والوضاعين أو كتب الموضوعات ، فالمراد به نفي الصحة والثبوت مطلقاً ، ويلزم منه البطلان والوضع والضعف. وهذا القول من الإمام أحمد إنما جاء في صدد أحاديث التفسير، لا في صدد بيان الوضاعين والمتروكين كما هو واضح (١).

رابعاً : أن ما قاله الإمام أحمد محمولٌ على كتبٍ مخصوصةٍ بهذه العلوم الثلاثة، والدليل على ذلك ما جاء في الرواية الثانية مصرحاً به: ثلاثة كتب لا أصل لها إلخ " و هذا المعنى هو ما فهمه الخطيب البغدادي ،حيث يقول: إن هذا

محمول على كتبٍ مخصوصةٍ في هذه المعاني الثلاثة، فأشهرها كتابان : للكلبي و مقاتل بن سليمان(٢) .

---

(١) اعلم أن التعبير بلفظ " لا يصح " و " لا يثبت" تعبير عام كَثُرَ استعمالُه عند المحدثين ، وأما معناه المراد عندهم بهذا التعبير، فقال الزركشي في " نكته على ابن الصلاح" : بين قولنا موضوع وبين قولنا لايصح بون كثير ، فإن الأول إثبات الكذب والاختلاق ، والثانى إخبار عن عدم الثبوت، ولا يلزم منه إثبات العدم . وهذا يجيء في كل حديث قال فيه ابن الجوزي :لايصح و نحوه. (مقدمة إعلاء السنن : ١/ ١٧٣)

وكذا قال علي القاري في تذكرة الموضوعات والزرقاني في شرح المواهب وغيرهم ، وكذا اختار هذا القول الإمام عبد الحي اللكنوي في الرفع والتكميل حيث يقول : لا يلزم من قولهم :لايصح أو لا يثبت هذا الحديث، كونه موضوعاً أو ضعيفاً ، وكذا لا يلزم من قولهم: لم يصح أو لم يثبت في الباب شيء خلوه عن الحسن أيضاً . (الرفع والتكميل:١٩١) . ولكن نازعهم في ذلك الشيخ أبو غدة عبد الفتاح ، وحاصل ما قاله الشيخ في هذا المقام : أن ما ذهب إليه هٰولاء العلماء من حمل كلام المحدثين على نفي الصحة الاصطلاحية فإنما يصح إذا قالوه في كتب الأحكام، وأما إذا قالوه في كتب الضعفاء والوضاعين أو في كتب الموضوعات فإنما يريدون به البطلان . و نقل الشيخ ههنا قول شيخه الإمام الكوثري رحمه اللّٰه في كتابه: [مقالات الكوثري] " إن قول النقاد في الحديث :إنه لايصح ، بمعنى أنه باطل في كتب الضعفاء والمتروكين ،لا بمعنى أنه حسن وإن لم يكن صحيحاً ، كما نص على ذلك أهل الشأن بخلاف كتب الأحكام . انتهى (انظر للتفصيل: تعليقات الشيخ أبو غدة على مقدمة إعلاء السنن : ١٧٢/١- ١٧٥، وتعليقاته على الرفع والتكميل:١٩١- ١٩٤)، قلتُ: وهذا الذي اخترناه في كتابنا هذا .

(٢)السنة ومكانتها:٢٤٥

فالآن نستطيع أن نُجمل القول في هذا الباب بأن التفسير يُوجَد فيه نوعان من الأحاديث ، الصحيح و غير الصحيح ، أما الصحيح فهو أيضاً كثير، ويدخل فيه الحسن لذاته ولغيره أيضاً، على حسب قاعدة المحدثين، وأما غير الصحيح فيشتمل على الضعيف والباطل، إذن فعلينا أن نعامل معه حسبَ مراتبِها ، وليس من الإنصاف في شيء أن نَرُفَضَها تماماً ، ولا أن نَخِرّ عليها صُماً وعُمياناً.

الثالث
الاختلاف فى التفسير وأسبابه وأحكامه

كثيراً ما نجد بين أئمة التفسير اختلافاً في تفسير الآيات، قلما تُوجَدُ آيةٌ من القرآن الكريم تسلِم منه ، كما يلمسه كل من ينظر في كتب التفسير. وهذا الاختلاف قد يقع في أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المفسرين ، وهو قد يبدو لمن ليست له صلة بعلم التفسير تناقضاً و تضاداً ، و يصعب عليه فهم الآية ، ويتطرّق إلى قلبه شك وريب نحوَ القرآن وعلومه ، ومن هذه الناحية يكاد يُعَدُّ هذا الموضع من المواضع الصعبة من التفسير ، التي تزلُّ فيها الأقدام. لذلك فإنه يجب على من يطالع التفاسير أن يتنبه له ويعامل معه حسبَ ما قاله الأئمة في هذا الصدد ، ولقد فصّل هذا الموضوع شيخ الإسلام ابن تيميةؒ في "مقدمة التفسير" له ، وها أنا ألخصه تلخيصاً حسناً إن شاء اللّٰه تعالى، و حاصل ما قاله الشيخ العلامة رحمه اللّٰه تعالى:

"إن الاختلاف في التفسير على نوعين : الأول : ما مستنده النقل عن النبي المعصوم أو عن غيره من الصحابة والتابعين و من بعدهم ، والثاني : ما مستنده الرأي والعقل . وكل منهما لا يخلو إما أن يكون اختلاف تنوع وإما أن يكون اختلاف تضاد ، والغالب في التفسير هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، وهذا التنوع يكون على أنحاء:

اختلاف تنوّع وصُوَره

أحد ها : أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه ، تدلّ على معنى في المُسمّىٰ غير المعنى الآخر مع اتحاد المُسمّىٰ ، كما في اسم السيف : الصارم والمُهَنَّد ، وذلك مثل أسماء اللّٰه الحسنىٰ وأسماء الرسول ﷺ وأسماء القرآن، فإن أسماء اللّٰه تعالى كلها تدلُّ على مسمّى واحد ، فليس دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى، مضاداً لدعائه باسمٍ آخر، ومثال ذلك في التفسير،تفسيرهم ﴿**الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ**﴾ ، وفيه أقوال: ١- قال بعضهم: هو القرآن . ٢- وقال البعض :هو الإسلام .٣-وقال البعض: هو السنة والجماعة . ٤- وقال بعضهم : هو طريق العبودية . ٥- وقال بعضهم :هو طاعة اللّٰه ورسوله. فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها .

ثا نيها: أن يـذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع لا على سبيل الحدّ والحصر. مثال ذلك ما نُقِلَ في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتٰبَ الَّذِيْنَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِه وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُ بِالْخَيْرٰتِ** ﴾ [الفاطر:٣٢]

ومعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات؛ والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات ؛ والسابق يدخل فيه من سبق فتقرب بالحسنات مع الواجبات . ثم إن كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع العبادات.

١ - كقول القائل: السابق الذي يصلي في أول الوقت ؛ والمقتصد الذي يصلي في أثنائه ؛والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار.

٢ - ويقول الآخر :السابق المحسن بأداء المستحبات مع الواجبات ؛ والظالم آكل الربا أو مانع الزكاة ؛ والمقتصد الذي يؤدى الزكاة المفروضة ولا يأكل الربا .

وأمثال هذه الأقاويل ، فكل قول فيه ذكر نوع داخل في الآية، ذكر لتعريف المستمع بتناول الآية له و تنبيهه على نظيره .

ثالثها : أن يكون التنازع لكون اللفظ محتملاً للأمرين ؛ وذلك :

١ - إما لكونه مشتركاً كلفظ " قسورة" الذي يراد به الرامي، ويراد به الأسد؛ ولفظ "عسعس" الذي يراد به إقبال الليل وإدباره.

٢ - وإما لكونه متواطئاً في الأصل، لكن المراد به أحد النوعين، أو أحد الشيئين، كالضمائر في قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلّٰى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنَ أَوْ اَدْنٰى** ﴾ [النجم:٨-٩] وكلفظ: ﴿ **وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ** ﴾ [والفجر:١-٢] وما أشبه ذلك. فمثل هذا قد يجوز أن يراد به كل المعاني التي قالها السلف، وقد لا يجوز ذلك .

رابعها: أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة ، فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر، وإما معدوم ، وقل أن يعبر عن لفظ واحد للفظ واحد يؤدي جميع معناه ؛ بل يكون فيه تقريب لمعناه، فإذا قال القائل في تفسير قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَمُوْرُ السَّمَاءُ مَوْرًا** ﴾[الطور:٩] إن المور هو الحركة كان تقريباً، إذ

الـمور حركةٌ خفيفةٌ سريعةٌ . وكذلك إذا قال: الوحي الإعلام، أو قيل: أوحينا إليك، أنـزلنـا عـليك، وقيـل :لا ريـب ،لا شك، فهذا كله تقريب ، ونحو ذلك لم يكن من اختـلاف تـضـاد، و فـي مثـل هـذا جـمـع عبارات السلف نافع جداً ؛ فإن مجموع عباراتهم أدلُّ على المقصود من عبارة أو عبارتين .

اختلاف تضاد و صُوَره

وأما اختلاف تضاد فهو أيضاً واقع محقق بينهم، كما يوجد مثل ذلك في الأحـكـام ، إلا أنـه نـظـراً إلـى اختـلاف تـنـوع، قليل. ثم هو فيمن بعد الصحابة والتابعين أكثر منه فيهم .

ثـم هـذا الاختـلاف قـد يـوجـد فيـما مستنده النقل عن الرسول، أو عن الصحابة، وغيرهم، وهو على ضربين :

الأول: ما يمكن معرفة الصحيح والضعيف منه ، وهذا القسم موجود فيما يُحتاج إليه في الدين، وقد نصب اللّٰه الأدلة على بيان ما فيها من صحيح أو ضعيف .

والثاني: ما لا يمكن معرفة الصحيح والضعيف منه ، وهذا عامته مما لا فائدة فيه، فـالـكـلام فيـه من فضول الكلام ، كاختلافهم في كلب أصحاب الكهف ، وفي بـعـض البـقـرة الـذي ضرب به موسىٰ، و في مقدار سفينة نوح، وفي اسم الغلام الذي قتله خضر، ونحو ذلك . فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ فهذا معلوم، وما لم يكن كذلك فهذا لا يجوز تصديقه، ولا تكذيبه إلا بحجة .

وأمـا إذا وُجِـدَ الاختـلاف فيـمـا مستـنـده الـعقل، والرأي، وفيمـا يُعْلَمُ بالاستدلال، فله أسباب :

١ - قد يكون الاختلاف لخفاء الدليل.
٢ - وقد يكون لذهول عنه .
٣ - وقد يكون لعدم سماعه.
٤ - و قد يكون للغلط في فهم النص .
٥ - وقد يكون لاعتقاد معارض راجح .

وبـالإضـافة إلـى ذلك هـناك سببان لهذا القسم من الاختلاف ،حَدَثَا بعد

الـصـحابة، والتابعين، و تابعيهم بإحسان: أحدهما : قوم اعتقدوا معاني، ثم أرادوا حـمـل ألـفـاظ الـقـرآن عـليهـا ، فهـم راعوا المعنى الذي رأوه من غير نظر إلى ما تستـحـقـه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان ، والثاني: قوم فسروا القرآن بمجرد ما يسـوغ أن يـريـده بـكـلامـه مـن كـان من الناطقين بلغة العرب ، من غير نظر إلى المتكلّم بالقرآن، والمنزّل عليه، والمخاطَب به .

ثـم أنهم تارةً يسلبون لفظ القرآن ما دل عليه وأريد به، وتارةً يحملون على مـا لم يدل عليه ولم يرد به ، كتفسير الرافضة قوله تعالى: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ** ﴾ [الـلهب :١) بقولهم : هما أبو بكر وعمر ، وكتفسيرهم قوله تعالى:﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً** ﴾[البقرة:٢٧] قالوا: هي عائشة، وغير ذلك .

فـمثـل هـذا التـفسيرلا يُقْبَلُ بحالٍ من الأحوال ، فإن الصحابة، والتابعين، والأئـمة إذا كـان لهـم قـول فـي تفسير الآية، وجاء قوم فسروها بقول آخر لأجل مـذهـب اعتـقـدوه؛ وذلك الـمـذ هـب ليس من مذاهب الصحابة، والتابعين لهم بإحسان ، صاروا مشاركين للمعتزلة، و غيرهم من أهل البدع في مثل هذا (١) .

قـال الـراقم : و تلخص من هذا :أن غالب الاختلاف الذي وقع في التفسير، إنـمـا هو اختلاف تنوع ، و يظنه الناس – في بادىء النظر– اختلاف تضاد ، وليس كـذلك ، وأمـا الاختلاف الواقع بين الصحابة والتابعين فقليل، والأكثر إنما هو في أتباع التابعين ومن بعدهم ، وما وقع منهم فله أسباب، كخفاء الدليل والذهول

(١)الفتاوىٰ للشيخ ابن تيمية: ١٣/ ٣٣٣ -٣٦١

عـنـه، والـغـلـط فـي فهـم الـنصوص، واعتقاد معارض راجح وغير ذلك، وهذا لا يُـوْجِـبُ الشكَّ والـريـبَ في القرآن وعلومه، كما لا يُوْرِثُ ذلك الاختلاف في الأحـكـام بيـنهـم، لأن هـنـاك أدلة نـصبها اللّٰه تعالى لمعرفة الصحيح من الغلط و الـراجـح من المرجوح . نعم هناك اختلاف تضاد أثاره قوم مبتدعون على حسب اعتـقـاداتهم الزائغة والباطلة ولا يُعْتَدُّ بهم، ولا بتفاسيرهم . وسيأتي المناقشة في شأن الاتجاهات المنحرفة في التفسير في بابٍ مفردٍ .

المأخذ الخامس : اللغة العربية

المأخذ الخامس للتفسير هي اللغة العربية ، وقد نصَّ على كونه مأخذاً و مرجعاً جماعةٌ من العلماء، منهم الإمام ابن تيمية، والنحاس، والشاطبي، والزركشي، والسيوطي وغيرهم .

قال الزركشي : الثالث الأخذ بمطلق اللغة، فإن القرآن نزل بلسان عربي مبين ، وهذا ذكره جماعة و نص عليه أحمد في مواضع(1).

وقال النحاس في بداية تفسيره: قال جل وعز ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِيْنٍ**﴾ [الشعراء: 195] وقال : ﴿ **قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِيْ عِوَجٍ** ﴾ [الزمر :28] وقال : ﴿**كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا** ﴾[الاحقاف: 12] فدل على أن معانيه إنما وردت من اللغة العربية (2).

وهذا هو قول الجمهور من الأئمة والعلماء، إلا ما رُوِيَ عن الإمام أحمد : إنه كره التفسير بمقتضى اللغة ، كما حكاه الزركشي نقلاً عن الفضل بن زياد، قال:إن الإمام أحمد سُئِلَ عن القرآن يمثل له الرجل ببيت من الشعر ، فقال: ما يُعجبني . قال الزركشي: قال بعضهم : في جواز التفسير بمقتضى اللغة روايتان عن أحمد، وقيل: الكراهة تُحمَلُ على مَنْ صرف الآية إلى معانٍ خارجةٍ محتملةٍ يدل عليها القليل من كلام العرب، ولا يُوجَدُ غالباً إلا في الشعرِ ونحوه ويكون المتبادر خلافها (3).

(1)البرهان: 160/2
(2)معاني القرآن للنحاس: 42/1
(3)انظر: البرهان: 160/2

شرح غريب القرآن

ومن هذا الصدد شرح غريب القرآن، وهذا مما ينبغي الاعتناء به ، وقد تصدى لذلك خلائق كثيرون ، وقد روى أبوهريرة ﷺ عن النبي ﷺ : أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه (1).

قال السيوطي: وعلى الخائض في ذلك التثبتُ، والرجوع إلى كتب أهل الفن ، وعدم الخوض بالظنّ، فهذه الصحابة، وهم العرب العرباء، وأصحاب اللغة الفُصحىٰ، ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم، توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها، فلم

يقولوا فيها شيئاً (٢).

وقال الشيخ المحدث الشاه ولي اللّٰه الدهلوي:

"ومبناه على تَتَبُّعِ لغة العرب، أو التَفَطُّن بسياق الآية وسباقها، و معرفة مناسبة اللفظ بأجزاء الجملة التي وقع هو فيها، قال: فههنا للعقل مدخل، وللاختلاف مجال؛لأن الكلمة الواحدة تأتى في لغة العرب لمعان شتىٰ، و تختلف العقول في تتبع استعمالات العرب، والتفطن بمناسبة السابق واللاحق. قال: فلا بدّ للمفسّر أن يزن شرح الغريب مرتين :

مرةً في استعمالات العرب حتىٰ يعرف أي وجه من وجوهها أقوىٰ وأرجح، ومرةً أخرىٰ في مناسبة السابق واللاحق حتىٰ يعلم أي الوجهين أولى و أقعد بعد إحكام المقدمات و تتبع موارد الاستعمال و تفحص الآثار" (٣).

حكم الاحتجاج بالشعر الجاهلي

ومن الملائم لهذا المقام أن يُعْرَفَ أن من التفسير باللغة، التفسيرُ بالشعر الجاهلي بمعنى الاحتجاج والاستشهاد على غريب القرآن بالشعر الجاهلي، وهذه مسئلة اُختلف فيها على قولين: فمِنْ زاعم يزعم:أنه لا يجوز الاحتجاج على القرآن الكريم بالشعر، بينما الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان :٤٣٧/٢، وأبو يعلى كما في مجمع الزوائد :١٦٣/٧، قال الهيثمي: وفيه عبد اللّٰه بن سعيد بن أبى سعيد المقبري وهو متروك)

(٢) الإتقان: ١٤٩/١

(٣) الفوز الكبير: ١١٠

على جواز التفسير بالشعر.

وذلك أن فهم القرآن يتوقف على معرفة لغة العرب، والشعرُ هو وعاء واسع يستوعب هذه اللغة، ويحافظ عليها برُمتها، و بأحسن طرقها ، ولذلك فإنا نرىٰ جمعاً من الصحابة يستشهدون في تفسير القرآن بالشعر الجاهلي، وممن يُعْرَفُ بكثرة استشهاده بالشعر ابن عباس ﷺ، وكون الأشعار الجاهلية وعاءً لهذه اللغة هو أحد أسباب العناية بالشعر لتفسير القرآن .

واستدل الجمهور على جواز الاحتجاج بالشعر في التفسير بقول ابن

عباس ص : الشعر ديوان العرب ، وبقوله: إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب(١).

وأما الذين أنكروا على الاحتجاج بالشعر فَتَعَلَّقُوا :

أولاً: بأنه إذا احْتُجّ بالشعر على غريب القرآن يكون الشعر أصلاً للقرآن وهو باطل.

ثانياً: بأن الشعر جاء ذمّه في القرآن والحديث، فكيف يجوز أن يُحْتَجّ به على القرآن؟

وأجاب عن الأول أبو بكر بن الأنباري كما حكاه الزركشي والسيوطي، ومحصّله: أن ما قال أصحاب هذه المقالة من أن الاحتجاج بالشعر على القرآن يجعل الشعر أصلاً للقرآن، فليس الأمر كذلك لأن من احْتَجَّ بالشعر إنما أراد تبيينَ الحرف الغريب من القرآن بالشعرلأن اللّٰه تعالى قال: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا**﴾ [الزخرف:٣] وقال: ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِيْنٍ**﴾ [الشعراء:١٩٥]، وقال ابن عباس : الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي عليه الحرف من القرآن الذي أنزله اللّٰه بلغة العرب رجع إلى ديوانها (٢).

وأما الجواب عن الثاني فأقول أولاً : أن الشعر لم يُذَمّ مطلقاً بل قال النبيﷺ:﴿ **إن من الشعر لحكمةً.** ﴾(٣)

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب :١٩٨/٢، والإتقان: ١٥٧/١

(٢)انظر البرهان: ٢٩٤/١، الإتقان: ١٥٧/١

(٣) رواه البخاري: ٥٦٧٩، والترمذي: ٢٧٧٢، وأبو داؤد: ٤٣٥٧،وابن ماجه: ٣٧٤٥، والدارمي: ٢٧٠٤، وأحمد: ٢٠٢٢٥

وإنما جاء ذمُّهُ من ناحية أُخرى، وهي أنه كان الغالب على الشعر آنذاك العصبية، والحمية ، والتشبيب ، والتغزل، والحماسة، والهجاء؛ وكان يُسْتَخْدم الشعر في سلبياتٍ خالصةٍ: في إثارة الأحقاد والضغائن، في الاعتزاز بالآباء والأجداد ، في الافتخار بالأحساب والأنساب، وفي بناء صروح المجد على أنقاض الكرامة الإنسانية ؛ وكان الشعر في ذلك المجتمع الجاهلي من أكبر أداةٍ لرفع قوم و وضع قوم آخرين، وإبراز مفاخرأشخاص وإفشاء مثالب

آخرين؛ ومن أعظم وسيلةٍ للتلاعب بالحرمات والأعراض، و للانتقام من الأعداء والمخاصمين ، و لإثارة العواطف النفسانية والشهوانية ، ولاشتعال نار الشحناء والبغضاء. هذا هو الشعر الذي ذمّه الشارع، وأما ما لم يكن من جنس ما تقدم ذكره فلا يتوجه الذم إليه .

قال ابن عبد البرّ: ولا يُنْكِرُ الحسنَ من الشعر أحد من أهل العلم، ولا من أولى النُهى ، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم و موضع القدوة إلا وقدْ قَالَ الشِعْرَ أو تَمَثَّلَ به أو سَمِعَه، فرَضِيَه ما كان حكمةً أو مباحاً ،ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أ ذى (١).

فنهاية القول في الباب أن الشعر إنما ذُمّ في الشرع لما كان فيه من مفاسد و قبائح، فما لم يكن من هذا الجنس فليس هو من جنس المذموم .

وثانياً: أنه ذُمّ الشعر من ناحية المعنى، وأمّا من ناحية اللفظ فلا ، فإذا استشهدنا على غريب القرآن بالشعر فهو من ناحية اللفظ فقط وهو واضح .

وأذكر هنا طرفاً مما جاء عن ابن عباس من الاستشهاد بالشعر على القرآن، وقد ذكره السيوطي في الإتقان :

١- قال نافع بن الأزرق لابن عباس : أخبرني عن قول اللّه تعالى: ﴿ **عَنِ الْيَمِيْنِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِيْنَ**﴾ [المعارج:٣٧] قال : العزين حِلَقُ الرِّفَاق ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال: نعم ، أما سمعتَ عبيد بن الأبرص يقول:

(١)القرطبي: ١٣/ ١٤٧

فَجَاءُوا يُهرَعُونَ إِلَيهِ حَتىٰ ❁ يَكُونُوا حَولَ مِنبَرِهِ عِزِينَا

٢- قال نافع:أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ **شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾[المائدة:٤٨] قال:الشرعة الدين والمنهاج الطريق ، واستشهد عليه بقول سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

لقد نَطَقَ المامونُ بالصِّدْقِ والهُدٰى ❁ وبَيَّنَ لِلْإِسْلَامِ دِيْناً وَ مَنْهَجاً

٣- سأل نافع فقال:أخبرني عن قوله تعالى:﴿ **إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ** ﴾

[الأنعام:١٠٠] قال: نضجه و بلاغه، واحتج عليه بقول الشاعر:

إِذَا مَا مَشَتْ وَسْطَ النِّسَاءِ تَأَوَّدَتْ ❁ كَمَا اهْتَزَّ غُصْنٌ نَاعِمُ النَّبْتِ يَانِعٌ

٤- قال نافع :أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَايْئَسِ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا** ﴾ [الرعد:٣١] قال :" أفلم يعلم "بلغة بني مالك ، قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال: نعم ، أما سمعت قول مالك بن عوف :

لَقَدْ يَئِسَ الْأَقْوَامُ أَنِّي أَنَا ابْنُهُ ❁ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيْرَةِ نَائِيًا

٥- قال نافع:أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ **فَيَطْمَعَ الَّذِيْ فِيْ قَلْبِهٖ مَرَضٌ** ﴾ [الأحزاب:٣٢] قال :" الفجور والزنى"، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم، أما سمعت قول الأعشىٰ:

حَافِظٌ لَلْفَرْجِ رَاضٍ لِلتُّقىٰ ❁ لَيْسَ مِمَّنْ قَلْبُهُ فِيْهِ مَرَضٌ

وهذا قُلٌّ من كُثْرٍ، وإن شئت التفصيل والاطلاع الواسع في الباب، فارجع إلى الإتقان، فإن لك فيه غنية وكفاية (١).

هل فى القرآن كلمات غير عربية؟

ومـمّا تـجْـدَرُ الإشارة إليه أن العلماء اختلفوا : هل وقع في القرآن ألفاظ وكلمات عجمية غيرعربية ؟ بعد اتفاقهم على أنه ليس فيه كلام مركب على أساليب غير العرب ، وبعد اتفاقهم على أن فيه أسماءً و أعلاماً من غير لسان العرب كاسرائيل وجبريل ونوح ولوط وغير ذلك .

فذهب الإمام الشافعي والقاضي أبو بكر بن الطيب، والطبري، و غيرهم إلى أنه لا يُوجَدُ في القرآن كلماتٌ خارجةٌ عن لغة العرب؛ وأن القرآن عربيٌّ خالصٌ. وأما ما

(١)الإتقان:١٥٨- ١٨٥

ورد فيه من الألفاظ التي تُنسَبُ إلى غير لغة العرب فهي من توارد اللغات والألسنة على تلك الكلمات، فتكلمت بها العرب والحبشة والترك وغيرهم ، واحتجُّوا عليه بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنْزَلْنٰهُ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا** ﴾ [يوسف:٢] وبقوله : ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِيْنٍ**﴾[الشعراء: ١٩٥] وأشباه ذلك. وذهب بعضهم إلى أن الكلمات العجمية تُوجَدُ في القرآن كلفظ "ناشئة الّيل" و" القسطاس " و " كِفْلَيْن " و " قَسْوَرَة" وغير ذلك، و تعلّقُوا في ذلك بالآثار الوارد ة فيه :

١- عن أبي موسىٰ في قوله تعالى:﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ ﴾ [الحديد:٢٨] قال: الكفلان : ضعفان من الأجر ، بلسان الحبشة (١).

٢- عن ابن عباس في قوله :﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيلِ﴾[المزمل:٦] قال : بلسان الحبشة إذا قام الرجل من الليل قالوا: نشأ (٢).

٣- عن ابن عباس أنه سُئِلَ عن قوله : ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾[المدثر:٥١] قال: هو بالعربية الأسد، وبالفارسية شار، و بالنبطية اريا، وبالحبشة قسورة (٣).

يقولون : إن في هذه الآثار دلالةً على أن في القرآن كلمات غير عربية من لسان الحبشة والنبطية وغير ذلك .

وههنا نظريةٌ ثالثةٌ ، وهي أن الألفاظ التي تُنسَبُ إلى العجمية هي في الأصل أعجميةٌ، لكن استعملتها العربُ و عرّبَتْها، فهي عربيةٌ بهذا الوجه . وهو قول ابن عطية ، قال: وقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات ،و برحلتيُ قريش، و كسفر مسافر بن أبى عمرو إلى الشام، و كسفر عمر بن الخطاب و كسفر عمرو بن العاص و عمارة بن الوليد إلى أرض حبشة، وكسفر الأعشى إلى الحيرة، و صحبته لنصاراها، مع كونه حجةً في اللغة ؛ فعَلِقَت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجميةً غيرت بعضها بالنقص من حروفها وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة، واستعملتها في أشعارها و محاوراتها ؛ حتى جرت مجرى العربى الصحيح ووقع بها البيان و على هذا الحد نزل بها القرآن (٤).

(١) انظرتفسير الطبري:٣١/١
(٢) الطبري:١٢٨/٢٩،الدر المنثور:٣١٦/٨
(٣) الطبري:١٧١/٢٩
(٤) انظر تفسير الطبري: و القرطبي: ٦٨/١-٦٩، و الرسالة للإمام الشافعي:٨

المأخذ السادس : العقل السليم

المأخذ السادس هو العقل السليم، والفهم البليغ ، الّذي يهتدي به الإنسان إلى ما أراده اللّٰه تعالى بكلامه الشريف الذي هو بحرٌ لا ساحل له؛ وبه ينتهي نظره إلى الحقائق والمعارف، التي لايعرفها من حُرِمَ العقلَ السليم ؛ و يستنبط به من الأسرار والدقائق ما لايهتدي إليه من لم يُرْزَق ذلك.

وهـذا هـومـا أشـار إليـه الـزركشـي بقوله: التفسير بالمقتضى من معنى الكلام و المقتضب من قوة الشرع (١).

وهـوالـعـلـم الموهوب الذي تقدَّمَ ذكرُه، وقد أسلفنا هناك عن عبد اللّٰه بن مسعودﷺ أنّه قال :ليس العلم عن كثرة الحديث ، إنّما العلمُ خشيةُ اللّٰه، وعن الإمام مـالك قـال : إن الـعـلـمَ ليـس بـكثـرة الـرواية، ولـكـنَّه نورٌ جَعَلَهُ اللّٰه في القلوب ، وقال:العلمُ والحكمةُ نورٌ يهدي به اللّٰه منُ يشاءُ، وليس بكثرة المسائل .

و قـد ذكـرنـا هـنـاك أن هـذا هـو الـعـلم الّذي دَعَا بـه الرسو لُ ﷺ لابن عباسﷺ وقـال :" اَللّٰهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّيْنِ وَعَلِّمْهُ التَّأوِيْل"، وهو الذي أشار إليه أمير الـمـؤمـنين علي بن أبي طالب ﷺ حيـن سـألـه أبوجحيفة : هل عندكم كتاب ؟ فقال: لا، إلّا كتاب اللّٰه، أو فهمٌ أعُطِيَهُ رجلٌ مسلمٌ .

الانتباه:

ومِمَّا لامجالَ للبحث فيه أنّ المراد بهذا العقل والفهم هومايكون موهوباً من اللّٰه تعالى إنعَاماً وثمرةً للتقوى، والعمل الصالح ، والإنابة، والخشوع، والتعلُّق مـع الـلّٰـه تـعـالـى، وغيرذلك من الصفات الحميدة الإيمانية، والخصائل الجميلة الـروحية، وهـذا إنـمـا يـحصل للإنسان إذا تحلّٰى بهذه الصفات والخصائل على أكمل نمط و أحسن وجه.

ولا يمكن أن يكون المراد بهذا عقلاً عاماً يتواجد و يشترك فيه كل فرد من أفـراد البشـر عـلـى السـواء؛ وتتـم بـه إجـراء اتـه اليومية وأفعاله العاد ية ؛ وبه يفارق الإنسان من بين سائرالبهائم والحيوانات ، فإن من البديهى أن صاحب هذا العقل الـعـام لامـزية لـه من بين أفراد البشر، وإنما المزية والتفوق من بينهم لمن رُزِقَ العقلَ الـخـاصَ الـمـوهـوب الـذي هـو ثمرة الإيمان الكامل، والعمل الصالح، والخشية، والتقوى، وغير ذلك .

فيَتَّـضِـحُ بـمـا قلنا أن ما اتَّخَذَهُ الطبقةُ المُثَقَّفَةُ المُتَحَذْلِقَةُ طريقاً إلى تفسير الـقـرآن الـكريم من الاعتماد على عقولهم والاتّكال على فهمهم من غير تحصيل

---

(١)**البرهان** : ١/ ١٦٢

العلوم الشرعية والعلوم العربية ؛ ومن غير النبوغ فى العلم والعمل والهُدى والتقوى، ثمّ من الاجتراء على تفسير القرآن الكريم على مستوى علمهم و عقلهم، هذا هو -لا شك- من الغواية والمتاهة، وهو موقف خَطِر عظيم . و من العجب أنه سوّل لبعضهم أن يعتنق هذا الطريقَ المُعَوَّجَ مستدلًّاعلى جوازه بأن العقل من المآخذ التفسيرية، فهل هذا إلا الهزوءُ بالعلوم القرآنية، والسُخْرِيَّةُ بالعلوم الشرعية، والتلاعبُ بالأحكام الدينية، والعبثُ بالتعاليم الإسلامية ؟

فواجب الحذر والحيطة يقتضي منا أن نخط خَطّاً فارقاً بين عقل وعقل؛ لكي يبدوَ لنا في وضوح تامٍّ ، الفرقُ بين عقل هو مأخذ التفسير، و بين عقل هو بمعزل عنه ، فأقول: إن الأول هو ثمرة الإيمان الكامل، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، والتقوى الراسخ ، بينما الثاني لا علاقة له بهذه العلوم والصفات، فهذا هو الخط الفاصل بينهما، فافهم حق الفهم .

حكم التفسير الإشارى الصو فى

إنّا كثيراً ما نجد في كلام الصوفية رحمهم اللّٰه تعالى ما يَتَعَرَّضُ لتفسير الآيات من القرآن على ضوء العقل السليم، والفهم الثاقب، الذي يهبهم اللّٰه تعالى إنعاماً و ثمرةً للتقوى، والعمل الصالح ؛ وعلى ما يَقْذِفُ في قلوبهم من النور الذي يَجْعَلُهم نافذي البصيرة ، ولكن طريقتهم في التفسير- كما يَلْمسُ من يطالع كلامَهُمُ- يُخَالِفُ ظاهراً طريقةَ المُفَسِّرِينَ ، وهذا هو ما يُقَالُ له التفسيرالإشاري والتفسيرالصوفي أيضاً .

أقسام التفسير ومعنى التفسير الإشارى

ولا يَعْزُبَنّ عن بالكم أن بعض العلماء قَسّمَ التفسير إلى ثلاثة أنواع :

١ – **التفسير بالرواية** : وهو ما جاءَ في القرآن أوالسُّنّة أو كلام الصحابة بياناً للمراد بآيات اللّٰه تعالى، ويُسَمّٰى هذا التفسيرُ بالمأثور أيضاً.

٢ – **التفسير بالدراية** : وهو مَا اسْتُنْبِطَ من الاجتهاد مُسْتنداً إلى ما يجب الاستناد إليه، فإن كان هذا الاجتهاد مستندا إلى مايجب الاستناد إليه فالتفسير محمود مقبول وإلا فمذموم مردود ، ويسمى بالتفسير بالرأى .

٣– **التفسير بالإشارة**: وهو مَا اسْتُنْبِطَ من القرآن من الدقائق والأسرار بإشارة

خفية تنكشف على أرباب الحقائق وأصحاب السلوك بواسطة الإلهام الرباني .

ومن هنا يُعْلَمُ معنى التفسير بالإشارة ، و ملخصه: إن التفسير الإشاري هو تاويل الآيات على غير ما يظهر منها لإشارات خفية تظهر لأرباب السلوك،و يمكن الجمع بينها وبين الظواهرالمرادة(١).

نماذج التفسير الإشارى من كلام الصوفية

ومما يُنَاسِبُ هذا المقام أن نسرد بعض النموذج للتفسيرالإشاري من كلام الصوفية رحمهم الله تعالى ، فمما قالوه في التفسير:

١- قوله تعالى: ﴿ **إِذْ هَبْ إِلٰى فِرْعَوْنَ** ﴾ [طٰه:٢٤] قالوا : إن فرعون هو القلب .

٢- قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوْا بَقَرَةً**﴾ [البقرة:٢٧] قالوا : المراد بالبقرة هوالنفس.

٣- قوله تعالى: ﴿ **فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ**﴾[طٰه:١٢] قالوا: المراد ترك الدنيا.

٤- قوله تعالى: ﴿ **فَلاَ تَجْعَلُوْا لِلّٰهِ أَنْدَادًا**﴾[البقرة:٢٢] قال بعضهم : أكبر الأنداد النفسُ الأمارةُ بالسوء، الطواعة إلى حظوظها.

٥- قوله تعالى: ﴿ **يُؤْمِنُوْنَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوْتِ** ﴾ [النساء:٥١] قالوا: رأس الطواغيت كلها النفس الأمارة بالسوء .

٦- قوله تعالى: ﴿ **وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبٰى** ﴾[النساء:٣٦] القلب ، ﴿ **وَالْجَارِ الْجُنُبِ**﴾ النفس الطبيعي ﴿ **وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ**﴾ العقل المقتدي بالشرع ﴿**وَابْنِ السَّبِيْلِ**﴾ الجوارح المطيعة للّٰه .

---

(١) انظر: الإتقان: ٢٣٦/٢، و البرهان :١٠٧/٢

٧- قوله تعالى: ﴿ **فَتِلْكَ بُيُوْتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوْا**﴾[النمل:٥٢]أي قلوبهم عند إقامتهم على ما نهوا عنه والبيوت القلوب ؛ فمنها عامرة بالذ كر ومنها خراب بالغفلة عن الذكر.

٨- قوله تعالى: ﴿ **فَانْظُرْ إِلٰىٓ اٰثٰرِ رَحْمَتِ اللّٰهِ ، كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ [الروم:٥٠] أي حياة القلوب من الذكر .

٩- قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِيْ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[الروم:٤١] أي المراد بالبر الجوارح وبالبحر القلب.

١٠- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسٰجِدَ اللّٰهِ أَنْ يَّذْكُرَ فِيْهَا اسْمُهٗ﴾ [البقرة:١١٤] قالوا: المساجد القلوب؛ تمنع بالمعاصي من الذكر(١).

حكم التفسير الإشارى

ولٰكن هناك سُوالٌ: ما هو حكم التفسير الإشاري ؟ هل هو ممنوع شرعاً أو لـذلك سبيـلٌ في الشرع؟ فقد تنازع فيه العلماء بين مُجيز ومانع ، وبين مُنصِف و مُسْرِف:

۞ فمنهم من يقول: إنه لا يجوز القول في القرآن إلا بما هو ظاهر من حيث اللغة العربية وبما نُقِلَ عن النبي ﷺ وأصحابه ، وقالوا: إنه ليس في القرآن ما يسميه البعض بالباطن .

۞ ومنهم من يزعم أنه يجوز أن يفسر القرآن بما هو ليس بظاهر من اللغة العربية ،لأن للقرآن ظاهراً وباطناً، حتى أنهم أسرفوا فيه و فسروا القرآن على غير التفسيرالمعروف عن الصحابة والتابعين .

۞ ومنهم من يقول: إن التفسير هو ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه أو ما ظهر من اللغة العربية ، ومع ذلك ففي القرآن إشارات خفية تُفْتَحُ على قلوب أولياء اللّٰه تعالى المتقين وعباده الصالحين، وهذه الإشارات لا تخالف الظواهرَ المرادةَ ؛ بل تكون موافقةً للظاهرالثابت عن الرسول ﷺ وأصحابه .

المانعون و أدلتهم

وممن منع التفسير بالإشارة الإمام أبوالحسن الواحدي المفسر. قال العلامة ابن الصلاح في فتاواه ، كما في البرهان للزركشي: وجدت عن الإمام

(١)انظر:الموافقات:٣/ ٢٣٨ - ٢٤٢، و فتاوى ابن تيمية: ١٣/ ٢٣٨

أبي الحسن الواحدي المفسر أنه قال :صنف أبو عبد الرحمان السلمي حقائق التفسير، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر. (١)

ومنهم الإمام النسفي حيث قال في عقائده: النصوص على ظواهرها، والعدول عنها إلى معان يدّعيها أهل الباطن إلحادٌ(٢).

ومنهم الإمام سراج الدين البلقيني، قال السيوطي في الإتقان: سُئِلَ شيخُ

الإسـلام سراج الدين البلقيني عن رجل قال في قوله تعالى: ﴿ **مَنْ ذَا الَّذِىْ يَشْفَعُ عِنْـدَهُ اِلَّا بِاِذْنِهٖ** ﴾ [البـقـرة:٢٥٥] : إن مـعناه :"مَنُ ذَلَّ" أي من الذُلِّ ،و " ذِىُ" إشارةٌ إلى النفس ، و"يَشُفَ" من الشفاء جواب مَنُ، و "عُ" أمرٌ من الوَعْي، فأفتى بأنه ملحد(٣).

وهٰؤلآء الأئمة استدلوا على منعه بأمور :

الأول: بـأن الـقـرآن الـكـريم عربيٌّ خالصٌ ، و معانيهِ ومضامينهِ و تراكيبهِ هي ما تـعرفه العرب و توانسه ، فما كانت العرب لا تعرفه، ولا توانسه لا يصح أن يكون ذلك مـراداً بهـذا الـكـلام الـعـربي الخالص، وإلا تَعَطَّلَتُ فائدة التخاطب به، فلا يجوز أن يُتَأَوَّلَ القرآن على خلاف ما يظهر من ألفاظه .

الثانى: بـأن التاويل على خلاف الظاهر قد يذهب بالقرآن عن هدفه و قصده الـذي يُـرُمٰي إليه ، فمثلاً قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّـذِيْنَ كَفَرُوْا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُـمْ أَمْ لَـمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُوْنَ** ﴾ [البـقـرة:٦] قال الشيخ الأكبر ابن عربي يشرح هذه الآية:

"يا محمد .... إن الذين كفروا : ستروا محبتهم فيّ .... دعهم ، فسواء عليهم أ أنذرتهم بوعيدك الذي أرسلتك به ، أم لم تنذرهم ،لا يؤمنون : بكلامك ؛ فإنهم لا يـعـقـلـون غيري ، وأنت تنذرهم بخلقي وهم ما عقلوه ولا شاهدوه ، كيف يـؤمـنـون بك، وقـد ختـمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعاً لغيري ؛ وعلى سـمـعهـم فـلا يسـمعون كلاماً في العالم إلا منّي ؛ وعلى أبصارهم غشاوة من بهائي عند مشاهدتي فلا يبصرون سواي، إلخ(٤)

(١)البرهان:١٧٠/٢
(٢)العقائد النسفية مع شرحه للتفتازانى:١٦٦
(٣)الإتقان:٢٣٦/٢
(٤)الفتوحات المكية : ١١٥/١

وهـذا التـفسيـر- كـما ترى- صرف القرآن عن معناه الظاهر وإذهابه عن هدفه المنشود، فلا يجوز التفسير به ولايُقْبَلُ إلا بالتاويل.

الثالث: بأن تفسير القرآن بمثل ما يقوله أصحاب السلوك والإشارات ؛ لم يُنْقَلُ عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين وغيرهم، بالرغم من أنهم كانوا أدرى بمعاني

كتاب اللّٰه وأعرف باللغة العربية من غيرهم ، فلو كان مثل هذا التفسير معروفاً عندهم لنُقِلَ إلينا لتوافر الدواعي، فلما لم يُنْقَلُ عنهم عُلِمَ أنه ما كان عندهم معروفاً. وغير معقول أن يأتيَ غيرهم بأفضل وأهدى مما قالوا في التفسير .

وهذه هي وجوه ثلاثة استدلوا بها على أن التفسير الإشاري ممنوع و محذور شرعاً .

المجيزون وأدلتهم

وأما المجيزون للتفسير الإشاري فهم كثيرون ، وها هو كلام بعض الأئمة في هذا الخصوص :

قال الإمام ابن الصلاح :

" وأنا أقول: الظن بمن يُوَثَّقُ به منهم إذا قال شيئاً من ذلك أنه لم يذكره تفسيراً ، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة ، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلكَ الباطنية ، وإنما ذلك منهم تنظير لما ورد به القرآن؛ فإن النظير يذكر بالنظير ، ومع ذلك فيَالَيْتَهُمْ لم يتساهلوا بمثل ذلك لما فيه من الإبهام والالتباس" (١).

قال العلامة التفتازاني في شرح العقائد النسفية :

"وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص مصروفة على ظاهرها، ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك ، يمكن التوفيق بينها و بين الظواهر المرادة ؛ فهو من كمال الإيمان و محض العرفان " (٢).

(١)البرهان : ١٧١/٢،و الإتقان:٢٣٥/٢

(٢)شرح العقائد النسفية:١٦٦

وقال الأستاذ محمد حسين الذهبي بعد إيراد الأدلة في هذا الصدد ما نصه:

"هذه الأدلة مجتمعةً تُعْطِينا أن القرآن الكريم له ظهر و بطن .....

ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربي.. و بطن يفهمه أصحاب الموهبة و أرباب البصائر ، غيرَ أن المعاني الباطنة للقرآن لا تقف عند

الـحـد الذي تصل إليه مداركنا القاصرة ؛ بل هي أمر فوق ما نَظُنُّ وأعظمُ ممّا نَتَصَوَّرُ (١).

واستدلوا على جواز التفسير الإشاري بأمور:

۞ أولًا : بـما رُوِيَ عن النبي ﷺ قال : ﴿ **لـكـل آية ظهر و بطن، ولكل حرف حد ، ولكل حد مُطّلع** ﴾ (٢) .

۞ ثـا نيـاً : بـمـا رُوِيَ عـن عبـد الـرحمن بن عوف مرفوعاً : ﴿ **الـقـرآن تحت العرش، له ظهر وبطن يحاج العباد** ﴾ (٣)

هـذان الـحديثان يُصَرِّحَان بأن للقرآن بطناً كما له ظهر، ولكن ينشأ هناك سُوال بأنه ما هو الظهر وما هو البطن؟ ففيه خلاف بين العلماء، وحكى السيوطيؒ في ذلك ستةَ أقوال للعلماء :

أحدها: أنك إذا بحثت عن باطنها و قستَه على ظاهرها وقفتَ على معناها .

ثانيها: أنه ما من آية إلا عمل بها قوم ولها قوم سيعملون بها .

ثالثها: أن ظاهرها لفظها، و باطنها تاويلها .

رابعها : قـال أبـو عبيد : إن القصص التي قصها اللّٰه تعالى عن الأمم الماضية و ما عـاقبهـم بـه ظـاهرها الإخبار بهلاك الأولين،إنما هو حديث حدث به عن قوم، و بـاطـنها وعظ الآخرين و تحذيرهم إن يفعلوا كفعلهم فيحل بهم مثل ماحل بهم، قال السيوطي : وهذا أشبه بالصواب.

خامسها : حـكاه ابن النقيب : أن ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر و بطنها ما تضمّنه من الأسرار التي اطلع اللّٰه عليها أرباب الحقائق .

(١) التفسير والمفسرون:٢/ ٣٥٦
(٢) ذكره السيوطي عن الفريابي، الإتقان: ٢٣٦/٢
(٣) أخرجه الديلمي، كذا في الإتقان: ٢٣٦/٢

سادسها: قال بعضهم الظاهر التلاوة والباطن الفهم(١).

۞ **ثالثاً** : بما رُوِيَ عن الصحابة من قولهم و فعلهم بهذا الخصوص: فأما الدليل من قولهم فهوما يلي :

١- عـن أبـى جحيفة قلتُ لعليؓ : هـل عـندكم شيء من الوحي إلا ما في

كتـاب الـلّـه ؟ قال:لا والذي فلق الحبة، و برأ النسمة ما أعلمه إلا فهماً يعطيه اللّه رجلاً في القرآن إلخ(٢)

٢- عن ابن عباس رضي الله عنه أنـه قال : إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون ، لا تـنـقضي عجائبه، ولا تبلغ غايته ، فمن أوغل فيه برفق نجا ، ومن أخبر فيه بعنف هوى، أخبـار و أمثـال، وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه، و ظهر وبطن ، فظهره التلاوة و بطنه التأويل ، فجالسوا به العلماء و جانبوا به السفهاء (٣).

٣- عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنـه قال: لا يفقه الرجل كل الفقه ؛ حتى يجعل للقرآن وجوهاً (٤).

٤- عـن ابـن مسعود رضي الله عنه أنــه قـال: مـن أراد عـلـم الأوليـن والآخرين فليثوّر القرآن(٥).

قـال الإمـام السيـوطـي بـعد سرد هذه الآثار : وهذا الذي قالوه لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر .

وأما الدليل من فعلهم فهوما يلي :

١- مـا جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنـه قـال: كـان عمر رضي اللّه عنه يُدخلني مع أشيـاخ بـدر، فـكـأنّ بـعـضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثـلـه؟ فـقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيتُ أنـه دعاني يومئذ إلا ليُريهم ، قال: ما تقولون في قوله تعالى : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ [الـنـصـر: ١] فـقال بعضهم : أُمِرْنَا أن نحمدَ اللّهَ ونَسْتَغفِرَهُ إذا جَاءَ نصرُنا وفُتِحَ عَلينَا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي: أ كذاك تقول يا ابن

(١) الإتقان: ٢٣٦/٢
(٢) رواه البخاري: ٢٨٢٠، والترمذي :٣١٣٢و غيرهما
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ، كذا في الإتقان:٢٣٦/٢
(٤) الإتقان:٢٣٦/٢
(٥) الاتقان:٢٣٦/٢

عبـاس؟ فقلتُ: لا، قال: فما تقول؟ قلتُ: هو أجَل رسول اللّه ﷺ أعلمه له. قال: إذا جـاء نصر اللّه والفتح ، وذلك علامة أجَلِك، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان تواباً ، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول(١).

قال الإمام الشاطبيّ : فظاهر هذه السورةَ أن اللّٰه أمر نَبِيَّه ﷺ أن يسبح ربه ويستغفره إذ نصره اللّٰه و فتح عليه، و باطنها أن اللّٰه نعىٰ إليه نفسه(٢).

ورُوِيَ هكذا عن العباس عمِّ النبي ﷺ أنه بكى حيث نزلت هذه الآية ، فقال النبى ﷺ ما يُبكِيكَ يا عمّ؟ فقال: نعيت إليك نفسك ، فقال: إنه لَكَمَا تقول(٣).

٢- ما جاء أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ **أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِيْ إلخ**﴾ فرح الصحابة و بكى عمر ﷺ، فقال النبي ﷺ : **ما يُبْكِيكَ؟** قال: أبكَانِي أنا كنا في زيادة من ديننا ، فأمّا إذا كَمُلَ فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، فقال ﷺ :**صدقت**(٤).

قالوا: ففي هذه الآثار أن بعض الصحابة فهم من الكلام ما لم يفهم الآخرون منهم ، فأدرك عمر وعباس و ابن عباس رضي اللّٰه عنهم المعنى الإشاري وهو نعى رسول اللّٰه ﷺ ، بينما الصحابة الآخرون لم يفهموا أكثر من المعنى الظاهر من الكلام .

قول فصل فى الباب

وحيثُ قد فَرَغْنَا من استعراض الأدلّة عن الطرفين ، يتبادر إلى أذهاننا التَسَاؤُل : ما هو الحق في الباب ؟ إذنُ فعلينا أن نُنَاقِشَها على سبيل الإيجاز بأسلوب علمي رصين، فنقول:

إنّ ما استَدلَّ به المانعُون عن التفسيرالإشاري إنما يدُلُّ على أن القُرآن الكريم الّذِي نزل بلسان عربيّ مُبين ، لا يُؤْخَذُ مفهومُه و معناهُ إلّا مما كان يتعارف و يتداول بين العرب من المعاني ، فلا يجوز تفسير آيةٍ من آيات اللّٰه

(١) رواه البخاري:٤٥٨٨،و الترمذي: ٣٢٨٥، وأحمد: ٢٩٦١ واللفظ للبخاري
(٢) الموافقات:٢٢٨/٣
(٣) تفسير القرطبي:٢٠/ ٢٣٢
(٤) ابن أبي شيبة:٨٨/٧

تعالى على خلاف ما عليه العربُ من المعنى الظاهر المتبادر إلى أذهانهم . وأما إذا فُسِّرَتِ الآيةُ على وفق اللغة العربية وعلى قواعدها النحوية والبلاغية ، إلّا أنه أُخِذَتُ من خلالها الإشاراتُ اللطيفةُ مع إبقاء المعنى الظاهر ، فلا دليلَ على منعه

وحذره فيما أوْرَدُوه من وجوه المنع .

وأمّا الأدلّة المُجيزَةُ التي استَدلَّ بها المُبيحُون للتفسير الإشاري فهي إنّما تدُلُّ على جواز أخذ الإشارات اللطيفة من خلال المعاني الظاهرة ؛ وعلى إباحة الاعتبار والاتِّعَاظ بما فيها من المواعظ والعِبَر الباطنة ، مع الاحتفاظ بالمعاني الظاهرة المرادة، وليس فيها أيّ دليل على جواز التفسير الإشاري على الإطلاق .

إذاً فإنّا قد نستطيع أن نجعل هذا الخلاف خلافاً لفظياً بأنْ نحمل كلامَ المانعين للتفسيرالإشاري على أن مرادهم بالمنع: أن تُفَسَّرَ الآياتُ على خلاف اللغة العربية وقواعدها النحوية والبلاغية ، ولا يكون له شاهدٌ من نصّ أو ظاهر يشهد لصحته ؛ و نحمل كلامَ المُجيزِين على أن المراد بالجواز ما إذا لم يخرج عن اللغة العربية وقواعدها، ولايَذْهبُ بالقرآن عن هدفه وغايته، ويشهد له شاهدٌ على صحّته.

فَيَبْدُوُ من هذا : أن الإشارات القُدسِيَةَ واللطائف السُبُحَانِيَةَ التي تنكشف من سَجف العبارات لأرباب السلوك و تَنْهَلّ من سحب الغيب على أصحاب القلوب ، إذا كانت موافقةً لمعاني النصوص الظاهرة ، ولم تخرج عن اللغة العربية، فلا ضيرَ في قبولها ولا شكَّ في جوازها عند الكل .

ومن خلال ما أسْلَفْنَا من المناقشة ، يَبْدُوُ بوضوح أن التفسير الصوفيالإشاري ليس هو في الحقيقة تفسيراً ؛ بل إنما هو اعتبار وقياس. وإطلاق التفسيرعليه تجوُّزٌ وتوسُّعٌ ؛ ثم يظهر من هذه المناقشة والمُذاكرة : أن التفسير الإشاري لجوازه شرطان : الأول: أن لايخرج عن مقتضى الظاهر المقرَّر في لسان العرب ، والثاني:أن يكون له ما يشهد لصحته من الشواهد. و سيأتي المناقشة في الشروط في أواخر المبحث .

وهذا الذي قُلنا هو مختارالإمام ابن تيمية ، والإمام ابن الصلاح، والإمام الشاطبي، والإمام الزركشي، وغيرهم . وقد تقدّم كلامُ الشيخ ابن الصلاح فيما سبق ، وقال الزركشي: وأما كلام الصوفية في القرآن فليس بتفسير(١).

كلام الشيخ ابن تيمية

وأمّا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، فإليك تلخيصَ كلامه ، فقال

رحمه اللّٰه في فتاواه :

"وجماع القول في ذلك أن هذا الباب نوعان: أحدهما :أن يكون المعنى المذكور باطلاً ؛ لكونه مخالفاً لما عُلِمَ . فهذا هو في نفسه باطل. والثاني :ما كان في نفسه حقّاً ؛ لكن يستدلّون عليه من القرآن والحديث بألفاظ لم يُرَدُ بها ذلك ، فهو الذي يُسَمُّوُنَه "إشارات". أما النوع الأول فيُوُجَدُ كثيراً في كلام القرامطة والفلاسفة المخالفين للمُسلمين في أصول دينهم . وأما النوع الثاني فهو الذي يشتبه كثيراً على بعض الناس ؛ فإن المعنى يكون صحيحاً لدلالة الكتاب والسنة عليه، ولكن الشأن في كون اللفظ الذي يذكرونه دَلَّ عليه، وهذان قسمان:أحدهما: أن يُقَالَ :إنّ ذلك المعنى مراد باللفظ، فهذا افتراءٌ على اللّٰه. فمن قال المراد بقوله : ﴿ أَنْ تَذْبَحُوْا بَقَرَةً ﴾ [البقرة:٦٧] هي النفس، وبقوله: ﴿إِذْهَبْ اِلٰى فِرْعَوْنَ﴾[طٰهٰ:٢٤] هو القلب، فقد كذّب على اللّٰه إمّا مُتعمِّداً وإمّا مُخطِئاً.

والثاني: أن يُجعَلَ ذلك من باب الاعتبار والقياس ، لا من باب دلالة اللفظ ، فهذا من نوع القياس، فالذي تُسَمِّيُهِ الفقهاءُ قياساً هوالّذي تُسَمِّيهِ الصُوفياء إشارةً . وهذا ينقسم إلى صحيح وباطل ،كانقسام القياس إلى ذلك . فمن سمع قول اللّٰه تعالى : ﴿ **لَا يَمَسُّهٗ إِلَّا الْمُطَهَّرُوْنَ**﴾[الواقعة:٧٩] وقال: " إنه اللوح المحفوظ أو المصحف، فكما أن اللوح المحفوظ الذي كتب فيه حروف القرآن لا يَمَسُّهُ إلا بدنٌ طاهرٌ، فمعاني القرآن لا يَذُوُقُها إلا القلوبُ الطاهرةُ ، وهي قلوب المتقين" ، كان هذا معنى صحيحاً واعتباراً صحيحاً .

ولهذا يُرُوٰى هذا عن طائفة من السلف، وكذلك من قال: " لَا تَدخُلُ المَلائكةُ بَيتاً فيه كلبٌ ولا جنبٌ " فاعُتَبَرَ بذلك أن القلب لايدخله حقائقُ الايمان ، إذا كان فيه ما يُنَجِّسُهُ من الكبر والحسد ، فقد أصَابَ"(١) .

(١)البرهان : ١٧١/٢

كلام الإمام الشاطبي

وقال الإمام الشاطبيؒ في" الموافقات ":

" وهـو(اى التفسيرالإشاري) مزلّةُ قَدَم لمن لم يعرف مقاصدَ القوم، فـإن الـنـاس فـي أمثـال هـذه الأشياء بين قائلين : منهم من يُصدِّقُ به و يأخُذُهُ على ظاهره ، ويعتقد أنّ ذلك هو مراد اللّٰه تعالىٰ من كتابه ، وإذا عَارَضَهُ ما يتعلّق في كتب التفسير على خلافه فربما كذّبَ به أو أُشْكِلَ عليه، ومنهم من يُكذِّب به على الإطلاق و يَرىٰ أنه تقوُّلٌ و بهتانٌ ، مثل ما تقدم من تفسير الباطنية ومن حَذَا حَذْوَهُم . وكِلَا الطريقين فيه ميل عـن الإنـصـاف، ولا بُدَّ قبل الخوض في رفع الإشكال من تقديم أصل مُسَلَّمٍ يَتَبَيَّنُ بـه مـا جـاءَ مـن هذا القبيل . فنقول: الاعتبارات القرآنية الـواردة على القلوب الظاهرة للبصائر إذا صحّتُ على كمال شروطها فهـي عـلى ضربين : أحدُهُمَا ما يكون أصل انفجاره من القرآن و يتبعه سـائـر الـموجودات ، فإن الاعتبار الصحيح في الجملة هوالذي يخرق نورالبصيرة فيه حجبَ الأكوان من غير توقُّفٍ ، فإن تَوَقَّفَ فهو غيرصحيح أو غيـركامل حسبما بَيَّنَهُ أهل التحقق بالسلوك. والثاني ما يكون أصل انفجاره من الموجودات جزئيها أوكليها، و يتبعه الاعتبارُ في القرآن . فإن كان الأول فذلك الاعتبار صحيحٌ، وهومعتبر في فهم باطن القرآن من غير إشكال؛ لأن فهم القرآن إنّما يرد على القلوب على وفق ما نزل لـه الـقرآن ، وهو الهداية التامّة على ما يليقُ بكل واحد من المُكلَّفِين ، وبحسب التكاليف وأحوالها لا بإطلاق .

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٣/ ٢٤٠ - ٢٤٢

وإذا كـان كـذلك فـالـمشـي عـلـى طـريقهـا مشي على الصراط الـمستـقيم ؛ ولأن الاعتبارالقُرآني قلّما يَجِدُهُ إلا من كان أهلَه عملاً به عـلـى تقليد أواجتهاد ، فلا يَخرُجُون عند الاعتبار فيه عن حدوده كما لـم يـخرجُوا في العمل به والتَّخَلُّق بأخلاقه عن حدوده ؛ بل تنفتح لهم

أبوابُ الفهم فيه على توازي أحكامه، ويلزم من ذلك أن يكون مُعتَدّاً به لجريانه على مجاريه . والشاهد على ذلك ما نُقِلَ من فهم السلف الصالح فيه؛ فإنّه كلَّه جارٍ على ما تقتضي به العربية ، وما تَدُلُّ عليه الأدِلَّةُ الشرعية حسْبَمَا تَبَيَّنَ قبل. وإن كان الثاني فالتوقُّف عن اعتباره في فهم باطن القرآن لازمٌ ، وأخذُه على إطلاقه فيه مُمتنِعٌ ؛ لأنه بخلاف الأوّل، فلا يصح إطلاق القول باعتباره في فهم القرآن(١).

الفرق بين تفسير الصوفية والباطنية

ومن خِلَال هذا الكلام يَبْدُوُ لك الفرقُ بين تفسير الصوفية وبين تفسير الباطنية والقرامطة ، فإن الأولين لا يمنعُون إرادةَ المعنى الظاهر ؛ بل يَحُضّون عليه، ويقُوُلُون به و يعملون حسبَ مفاده و منشأه ؛ بينما الآخرون يمنعون المعنى الظاهر ويُنكِرُوُن أن يكون المعنى الظاهر هو مرادُ اللّٰه تعالىٰ بكلامه الشريف، ويَتَصَرّفُون في معاني القرآن كما يُحِبُّون وعلى أى وجه يَشْتَهُون ؛ بل عندهم أنّ كل فقرة من فقرات القرآن لها تأويلٌ يجري في كلّ آن و على أهل كل زمان، فمعاني القرآن عندهم متجدّدة ،حسبَ تجدُّد الأزمنة ، وما يكون فيها من حوادث ؛ بل وسَاغَ لهم ما هو أكثرُ من ذلك ، فقالوا :إن الآية الواحدة لها تأويلاتٌ كثيرةٌ مُختَلِفَةٌ مُتناقِضةٌ ، وقالوا: إن الآية الواحدة يجوز أن يكون أوّلها في شيء وآخرها في شيء آخر(٢).

قال العلامة التفتازانيؒ

"وهم الملاحدة ، و سُمُّوا الباطنية لادّعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها ؛ بل لها معان باطنية لايعرفها إلا المعلم ، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية " (٣).

(١) الموافقات:٢٤٣/٣
(٢) انظر التفسير والمفسرون:٣٣/٢
(٣) شرح العقائد النسفية:١٦٦

وها أنا أذكر أمثلةً من كلام الباطنية في التفسير تنبيهاً على بُطلانِه وخَطَئِه :

۞ فمن أمثلته ما حُكِيَ أنّه ادّعى رجلٌ منهم مُسمّىٰ بـ "بَيانُ بن سَمعَان" أنه هو المراد بقوله تعالى: ﴿**هٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ**﴾ [آل عمران:١٣٨]

۞ و مثلُه في الفُحش ما حُكِيَ أنّه ادّعى من يُسَمّىٰ بـ "الكِسُف" أنه المراد

بقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنْ يَّرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ [الطور:٤٤]

۞ وحُكِيَ أنّ عبيد اللّٰه الشيعي المُسَمّىٰ بـ "المهدي" حين مَلِكَ أفريقية واستولى عليها كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره، وكان أحدهما يُسَمّىٰ بـ "نصراللّٰه" والآخر بـ "الفتح"، فكان يقولُ لهما: أنتُمَا اللّذان ذَكَرَكُمَا اللّٰه في كتابه، فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللّٰهِ وَالْفَتْحُ﴾[النصر:١] (١).

وكذا مِنْ فضائحهم ما قالوا: إنّ الوضوءَ عبارةٌ عن موالات الإمام، والتيمّم هوالأخذ من مأذون عند غيبة الإمام الذي هو الحجة، والصلاة عبارةٌ عن الناطق الذي هوالرسول، والغُسل هو تجديد العهد، والزكاة عبارةٌ عن تزكية النفس، إلى غيرذلك من الهفوات(٢).

۞ ومن أمثلته ما قال الكذّاب الفَنُجَابِي غلام أحمد القَادِيَانِي المُتَنَبِّي في قوله تعالى: ﴿ مُبَشِّراً بِرَسُوْلٍ يَّأْتِيْ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف:٦] إن المراد بأحمد الذي وقع فيه هو نفسه (٣).

ومن ذلك ما قال الكذّاب في قوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُوْلُ اللّٰهِ وَالَّذِيْنَ اٰمَنُوْا الخ ﴾ [الفتح:٢٩]: سُمِّيْتُ في هذا الوحي الإلٰهي باسم محمد(٤).

فمن هذه الأمثلة يَبْدُوْ واضِحاً: أن الباطنية لايعتقدون ما هو يظهر بآيات القرآن من معانيه؛ بل يُنكِرُوْنَه ويَدَّعُوْنَ ما هوغيرظاهر، بل هوخلاف ما هو المراد بالقرآن الكريم، وما فَسّرَ به الرسول الكريم ﷺ الذي هو أدْرٰى بمعانيه من كل أحد من الناس.

كلام الشيخ الإمام أشرف على التهانويؒ:

وههنا كلامٌ للشيخ الإمام حكيم الأمّة أشرف علي التهانويؒ في الفرق بين تفاسير الصوفية وبين تفاسير الباطنية، وهو كلام حسن لطيف، وهذا ما لَخَّصْنَاهُ و عَرَّبْنَاه من كلامه الشريف، قال:

"وما قال الصوفية في تفسير القرآن ليس هو في الحقيقة من التفسير في

(١) ذَكَرَ هٰذهِ الأمثلة الشاطبي في الموافقات :٣/٣٣-٢٣٤
(٢) انظر:التفسير والمفسرون:٢/٢٤١
(٣) اعجازاحمدى: ٧
(٤) اشتهار: ايك غلطى كا ازاله

شـيء؛ بـل ذَكَـرُوُهُ عـلى سبيل التنظير والتمثيل، فمثلاً قالوا في قوله تعالىٰ ﴿إِذْهَبْ إِلٰى فِرْعَوْنَ، إِنَّهٗ طَغٰی ﴾ [طٰهٰ:٢٤] أي إذهب يا روح إلى النفس فَجَاهِدُها، فإنّها قدْ طَغَتْ. ففَهِمَ الجاهلُون أنّه تفسيرٌ منهم للقرآن، وأنْكَرُوُا أن يكون في القرآن قصةَ موسىٰ و فرعون، وقالوا:إن المراد بموسى هوالرُوُح ، و بفرعونَ النفسُ . و هذا جهلٌ محضٌ ، ومن يَنُسَبُ هذا إلى الصوفية فهو كذّاب ؛ فإنه ليس المراد عندهم بموسى الروحَ ، ولا بفرعون النفسَ ؛ بل المراد بهما شخصية موسى عليه السلام وذات فرعون عليه اللعنة ، و هو مدلوله الظاهرى . ولولم يكن المدلول الظاهر مراداً بالآيات القرآنية ، فلا يثبت بها صلاة ولا حج ولا زكاة ولا ولا ولا.

وهذا عين ما قاله المُلْحِدُون. وأما الصوفية فهم ليسوا بمُلْحِدِينَ، بل هم بريؤن من ذلك . وأمّا الآخرون المُعانِدون للصوفية فحكموا عليهم بالإلحاد والزندقة ، وقالوا: إن الصوفية حَرَّفُوُا القُرآنَ، وفَسَّرُوُه برأيهم . هؤلاء أيضاً على الخطأ ؛لأن الصوفية لايُفَسِّرُوُنَ القرآنَ برأيهم ، وإنما يَحُضُّون على الاعتبار به ؛لأن القرآن نفسه يَحُضُّ عليه كما قال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ فِيْ قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١] قال الصوفية : إذا بلغتم مثلاً إلى قصة موسى و فرعون، فاعْتَبِرُوُا بها بأن في باطنكم شيئاً يشبهُ موسىٰ و هو الرُوُح ، وشيئاً يشبهُ فرعونَ وهو النفس، فذَكِّرُوُا النفسَ بالآيات الالٓهية لتكون على خوف من رَبِّها و تترك معاصيه . وهذا علم الاعتبار، وليس هو من علم الاستدلال، لأن الاستدلال يتكوَّنُ من المفهوم اللغوي وطُرُقِه وأساليبه التي بَيَّنَهَا علماءُ المعاني والأصول؛ وأما الاعتبار فيَتَكَوَّنُ من التشبيه والإشارة. على هذا فمن يَحُكُم على الصوفية بالإلحاد والزندقة لاعتبارهم بالقرآن فهو أيضاً على الخطأ " (١).

(١) البدائع :٢٣٧-٢٤٨، لمولانا المجدد التهانويؒ

شروط التفسير الإشارى

وأخيراً نذكرُ شُرُوطاً لجواز التفسيرالإشاري الصوفي، وإنْ مرَّ بك طرفٌ

منها فيما سبق إلا أنا نُرِيْدُ أن نذكرها بالتفصيل :

يقول الإمام الشاطبيؒ :" يُشْتَرَطُ فيه شرطان : أحدُهُمَا أنْ يصح على مقتضى الظاهر المقرَّر في لسان العرب و يجري على المقاصد العربية، والثاني: أن يكون له شاهدٌ نصّاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض. فأمّا الأول فظاهر من قاعدة كون القرآن عربياً، فإنه لو كان له فهم لايقتضيه كلام العرب لم يُوْصَفُ بكونه عربياً بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يَدُلُّ عليه. وما كان كذلك فلا يصح أن يُنْسَبَ إليه أصلاً ؛ إذ ليستُ نسبتُه إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه ولا مرجّح يدل على أحدهما، فإثبات أحدهما تَحَكُّمٌ و تَقَوَّلٌ على القرآن ظاهرٌ. وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغيرعلم . والأدلّة المذكورة في أن القرآن عربي جارية هنا. وأما الثاني فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر أوكان له مُعَارِضٌ صار من جملة الدعاوي التي تدعى على القرآن ، والدعوى المُجرّدة غيرمقبولة باتفاق العلماء" (١).

وقال الإمام ابن القيمؒ:

" تفسيرالناس يدُوْرُ على ثلاثة أصول : تفسيرٌ على اللفظ ، وهو الّذي ينحو إليه المُتأخِّرُون ، وتفسيرٌ على المعنى، وهو الذي يذكره السَلَف، وتفسيرٌ على الإشارة ، وهوالّذي ينحُو إليه كثيرٌ من الصوفية و غيرهم، وهذا لا بأس به بأربعة شروط: ١- ألّا يُنَاقِضَ معنى الآية . ٢- أن يكون معنى صحيحاً في نفسه. ٣- أن يكون في اللفظ إشعارٌ به. ٤ -وأن يكون بينه و بين معنى الآية ارتباط و تلازم . فإذا اجتمعتُ هذه الأمورُالأربعةُ كان استنباطاً حَسَناً "(٢).

(١) الموافقات:٣/ ٢٣٥ - ٢٣٦

(٢) التبيان في أقسام القرآن:١/ ٥٠

وقال الشيخ الزرقاني في" مناهل العرفان" :

" إن التفسير الإشاري لايكون مقْبُولاً إلّا بشُرُوطٍ خمسةٍ ، وهي :

١ – ألا يَتَنَافِي وما يَظهَرُ من معنى النظم الكريم.
٢ – ألا يُدَّعى أنّه المراد وحده دون الظاهر .
٣ – ألا يكون تأويلاً بعيداً سخيفاً .
٤ – ألا يكون له مُعارِضٌ شرعي أو عقلي .
٥ – أن يكون له شاهدٌ شرعي يُؤيّدُه .

ثم قال: كذلك اشْتَرَطُوا ، بيدَ أنّ هذه الشروط مُتَداخِلَةٌ ، فيمكن الاستغناء بالأوّل عن الثالث ، و بالخامس عن الرابع . و يَحْسُنُ ملاحظةُ شرطين بدلَهما : أحدهما بيان المعنى الموضوع له اللفظ الكريم أوّلاً ، ثانيهما: ألا يكون من وراء هذا التفسير الإشاري تشويش على المفسَّر له (١) .

المآخذ التى لا عبرة لها فى التفسير

وبعد ذلك نَرىٰ من الواجب في ختام هذا المبحث أن نُلقِيَ أضواءً على ما لا عبرة لها في التفسير من المآخذ، فإنّ هذاالمَبحَث لا يتمُّ بدونها . ففي ما يلي من السطور بيانٌ موجزٌ لذلك ؛ ولكن بحيث يُرْوِي الغَليلَ، و يَشْفِي العَليلَ.

الأوّل:الأخبارالإسرائيلية

معنى الإسرائيليات

مِنَ المآخذ والمصادر التي لا اعتداد بها في التفسير هي "الإسرائيليات" ، والمراد بها ما هو منقول عن بني إسرائيل من اليهود والنصارىٰ ؛ سواء كان من كُتُبهم القديمة، أومن المعروف لديهم أو من ثقافتهم الدينيّة. وكلمة " إسرائيليات" وإنْ كانتُ تدُلُّ بظاهرها على اللون اليهودي وما كان من ثقافتهم الدينية، إلا أنه يُرَادُ بها ما هو أوسَعُ من ذلك و أشملُ، فتشمل كلمةُ " الإسرائيليات" الثقافةَ اليهودية والثقافةَ النصرانية كلتاهما على سبيل التغليب .

(١)مناهل العرفان: ٢/ ٦٨ - ٦٩

كيف دخلت الإسرائيليات فى الإسلاميات

وقبلَ الخوض في صُلب الموضوع ، نَوُدُّ أنْ نُلقِيَ بعضَ الأضواء على

كيفية دخول الإسرائيليات، في المجتمع الإسلامي، وفي التفاسيرخاصةً . فنقولُ: لا يـخفى أنه لمّا اتّسَعَتُ دائرةُ الإسلام اتِّسَاعاً واسعاً، وانُتشَرَ الإسلامُ في أوساط الـنـاس انتشَـاراً عـظيـمـاً، وكـان مِمَّن دخل فيه عددٌ كبيرٌ من اليهود والنصارىٰ، فوجد بعض منهم أمامَه مَجَالاً لنفث خرافاتهم القديمة، وإفشاء رواياتهم المألوفة لـديهـم مـن بـدء الـخـليقة، والنبوات الأولى، وأحوال السعداء، والأشقياء، وغير ذلك، ووقـع الأغـرار مـن الـمسلمين في هذ ه الحبائل، فأخذُوا يَنقُلونَها حتّى في صـدد التـفسيـر . فهـذا هـو مبـدأ دخـول الإسـرائيـليات فيما بين المسلمين وفي التفاسير .

أمّا عصرُالصحابة فقد اشتهرتُ فيه الإسرائيلياتُ لعامِلَيْن:

الأول: مـا أشـار إليـه ابنُ خلدون في "مقدمته" : إن العرب لم يكونوا أهلَ كتابٍ ولا عـلـمٍ، وإنّما غلبتُ عليهم البداو ةُ والأُمّيةُ، وإذا تَشَـوَّقُـوُا إلى معرفة شيء ممّا تَتَشَـوَّقُ إليـه الـنـفـوسُ البَشَـرِيّةُ فـي أسبـاب المكونات، و بدء الخليقة ، وأسرار الوجود؛ فإنّما يسألُوُن عنه أهلَ الكتاب قبلَهم، و يستفيدون منهـم" (١).

والثاني: أن الـصـحـابة ربما إذا كانوا يَمُرُّون على آيةٍ أو آياتٍ من القرآن الكريم تشتـمـلُ عـلـى قصةٍ من قصص الأمم ، وأنبيائهم، أو فردٍ من أفرادهم، يجدون من أنـفسهـم مَيلاً إلى أن يسأل عن بعض ما طوّاهُ القرآنُ الكريمُ منها ولـم يتعرّض له؛ ولـكـن لايـجـدون إلـى ذلك سَبيلاً إلّا أن يسأل عنه مُسْلِمَةَ أهل الكتاب ، الذين دَخَـلُوُا في الإسلام . فكانوا يسألونهم عن بعض ما أُجمِلَ أو اخْتُصِرَ من القصص فـي الـقـرآن، وكـان مُسْـلِـمَةُ أهـل الكتاب يُجِيبُوُنَ عن ذلك بما بدا لهـم ، بيدَ أن الـصـحابة إنّما كانوا يسألون عن أشياء لا تَعْدُوُ أنُ تكون توضيحاً للقصّة، و بياناً لما أُجمِلَ أو تفصيلاً لِمَا اخُتُصِرَ في القرآن .

وأمـا عـصـر التـابـعيـن فقد شاعت الإسرائيليات فيه شيوعاً كثيراً ، وذلك لكثرة دخول أهل الكتاب في الإسلام في جانب ، وكان فيهم من له هواية عميقة

(١)مقدمة ابن خلدون: ٤٣٩

إلـى نـفث رواياتهم القد يمة و بثّ مآثرهم الطريفة، ولكثرة ميلان النفوس لسماع الأعـاجيـب مـن الـروايـات فـي جـانـب آخـر. فظهرت الإسرائيليات في المجتمع

الإسلامى ؛ حتى تَسَرَّبَتْ في التفاسير . وممّن اشتهر في ذلك العصر بنقل الإسرائيليات كعبُ الأحبار، ومقاتل بن سليمان، ووهب بن منبه ، وغيرهم .

ثم جاءَ بعد ذلك عصرُ أتباع التابعين ، وكَثُرَ الشغفُ بالإسرائيليات، وأُفْرِطَ في الأخذ منها إلى درجةٍ صارتْ لنا لُغزاً لايمكن أن يُعْقَلَ، ومُعَمًّى لايَكَادُ يَنْحَلّ. وفي هذا العصر نرىٰ الإسرائيليات تأْخُذُ مكانةً رفيعةً في قلوب الناس، وصارت لها منزلةٌ مرموقةٌ في التفاسير .

ثم جاء بعده عصرٌ له أهميةٌ كبيرةٌ من ناحية ما كان فيه من كثرة تدوين العلوم الإسلامية وترتيبها و تهذيبها ؛ لأنه فيه دُوّنتْ كتبٌ كثيرةٌ في التفاسير، والأحاديث، والسيرة ، والتواريخ ، والمغازي ، وغير ذلك؛ ولٰكن المُحزِن أنه هوالعصرالذي التبس فيه الصحيح بالسقيم، واختلط الحابل بالنابل، وأخذت الإسرائيلياتُ مكانَ الإسلاميات ؛ وذُكِرَتْ في التفاسير و غيرها في ضمن أقاصيص الأنبياء، وأحوال الأمم السالفة، و بدء الخلق ، و غير ذلك . وهذا ممّا يَتَندى له الجَبينُ خجلاً، وممّا لا يتّفقُ مع الحقائق العلمية قطعاً. ومع ذلك كله فما زاد الطين بلّةً أنّ هذا كله كان على وجهٍ يُمكِنُ أن يظنَّ الناظرُ في تلك الكتب: أن كل ما فيها صحيحٌ حقٌّ ، والحالُ ما ترىٰ. ومعلوم أنه يكون حصادُ هذا كله طيناً لا قمحاً ، و حسكاً لا تَمراً، ولولاجهودُ المُحققِّين من علماء التفسير والحديث في سبيل إحقاق الحق، وإبطال الباطل لانطمستْ المعالم.

أثر الإسرائيليات فى التفسير

قال الشيخ محمد حسين الذهبي:

”ولقد كان لهذه الإسرائيليات التي أخذها المفسرون عن أهل الكتاب، و شرحوا بها كتابَ اللّٰه تعالى أثرٌ سيىءٌ في التفسير ، و ذلك لأن الأمر لم يقِفُ على ما كان عليه الصحابة ؛ بل زادوا على ذلك، فرَوَوُا كلَّ ما قيل لهم إن صدقاً وإن كذباً ؛ بل ودخل هذا النوعَ من التفسير كثيرٌ من القصص الخيالية المخترعة ، مما يجعل الناظر في كتب التفسير التي هذا شانها يكاد لا يقبل شيئاً مما جاء

فيها، لاعتقاده أن الكلَّ من وادٍ واحدٍ، وفي الحق أن المكثرين من هذه الإسرائيليات، وَضَعُوا الشوكَ في طريق المشتغلين بالتفسير[١].

حكم الأخبار الإسرائيلية

وبعد هذا الاستعراض التاريخي نُرِيدُ أن نجلب انتباهَ القارئ إلى سوال مهمّ، وهو:ما هو حكم الأخبارالإسرائيلية ؟

وقبل أن نُعالِجَ السُّوال المطروح ؛ يُناسِبُ لنا أن نذكر من الأحاديث ما جاءَ في هذا الخصوص، ونُلقِي عليها نظرةً عابرةً تكشف ما فيها من الغموض.

ففي خصوص الأخبارالإسرائيلية جاء ت عدّة من الأحاديث :

١- عن عبد اللّه بن عمرو ﵄ قال، قال: النبي ﷺ : **بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَج ، ومَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**[٢].

٢- عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللّه ﷺ :﴿ **لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ إلخ.**﴾[٣]

٣- عن جابر بن عبد اللّه ﵁: أن عمربن الخطاب ﵁ أتى النبيَّ ﷺ بكتاب أصابَهُ من بعض أهل الكتاب، فَقَرَأهُ عليه فغَضبَ، فقال:أمُتَهَوِّكُون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئُتكم بها بيضاءَ نقيّةً ،لاتَسألُوهُم عن شيء فيُخبِرُوكُم بحق، فتُكَذِّبُوا به، أو بباطل فتُصَدِّقُوا به ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حَيّاً ما وَسِعَهُ إلّا أن يَتَّبِعَنِي [٤]. قال الهيثمي في مجمع الزوائد : وفيه مجالد بن سعيد، ضعّفَه أحمد و يحيى وغيرهما [٥].

فهذه ثلاثة أحاديث تَتَعلَّقُ بالأخبارالإسرائيلية، وبظاهرها تَتَصَادَمُ بعضُها بعضاً، فالحديث الأوّل يُجِيزُ لنا التحديثَ بالأخبارالإسرائيلية، بينما الحديثُ

(١)التفسير والمفسرون :١/ ١٧٨--١٧٩
(٢)رواه البخاري: ٣٢٠٢ ، والترمذي: ٢٥٩٣، وأحمد: ٦١٩٨ ، والدارمي:٥٤١
(٣)رواه البخاري: ٤١٢٥
(٤) أحمد :١٥١٩٥، وابن أبي شيبة: ٣١٢/٥
(٥) مجمع الزوائد :١٧٤/١

الثالثُ يَنهٰى عن ذلك، وأما الحديثُ الثاني فلا يُجيزُ ولا يَنهٰى، ولكن إذا حَاوَلْنَا فهمَ هذه الأحاديث في ضوء ما أَفَادَهُ الأئمة الشارحون للحديث نجد أنه لم يكن

هُناك أيّ تَصَادُمٍ وتعارُضٍ بين هذه الأحاديث:

فأقول: إنّ الحديث الأول من هذه الأحاديث إنما يُجيزُ لنا التحدّثُ عن بني إسرائيل بِمَا يُعلَمُ صِدقُه، أو ما لايُعلَمُ كَذِبُه؛ لأن من البدهي أن النبي ﷺ لا يُجيزُ التحديث بالكذب، وهذا المعنى لايصادم مع الحديث الثاني لأن حاصله: لا تُصَدِّقُوا أهلَ الكتاب ولا تُكَذِّبُوهم فيما لاتعلمون صدقَه ولا كذبَه؛ بل يكون محتملاً للأمرين، كما يقول الإمام العسقلاني ما نصه:

" وقال الشافعي: من المعلوم أن النبي ﷺ لا يُجيزُ التحدُّث بالكذب، فالمعنى: حَدِّثُوا عن بني إسرائيل بما لا تعلمون كذبَه، وأمَّا ما تجوزونه فلا حرج عليكم في التحدث به عنهم، وهو نظير قوله " إذا حَدَّثَكُم أهلُ الكتابِ فلا تُصَدِّقُوهُم ولا تُكَذِّبُوهُم " ولم يَرِدِ الإذنُ ولا المنعُ من التحدث بما يقطع صدقه "(١).

وقال هو والإمام القسطلاني في شرح قوله ﷺ: " **لَا تُصَدِّقُوْا أهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوْهُمْ** " ما نصهما:

" **لَا تُصَدِّقُوْا أهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوْهُمْ** " أي إذا كان ما يُخبِرُوْنَكُم به مُحتملاً لئلّا يكون في نفس الأمر صدقاً فتُكَذِّبُوه، أو كذباً فتُصَدِّقُوهُ، فَتَقَعُوا في الحرج (٢).

وزاد ابن حجرالعسقلاني بعد ذلك:

"ولم يَرِدِ النهيُ عن تكذيبهم فيما ورد شرعُنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعُنا بوفاقه، نَبَّهَ على ذلك الشافعيُ رحمه الله (٣).

وأمّا الحديثُ الثالثُ الّذي فيه النهي عن التَحدُّث عن بني إسرائيل، فَيُحمَلُ على ابتداءِ الإسلام حين لم تكن استقرتُ الأحكامُ الشرعيةُ، والقواعدُ الدينيةُ، والسِّرُّ في هذا النهي الحِفاظُ على الشريعة الإسلامية عن الالتباس والاشتباه، فلما استقرت الأحكام، والشرائع، أجاز لنا ذلك.

(١) فتح الباري: ٦/ ٤٩٩
(٢) فتح الباري:٨/١٧٠، وإرشاد الساري:١٠/٢٥
(٣) فتح الباري:٨/١٧٠

قال الحافظ العسقلاني والعلامة القسطلاني في شرح قوله ﷺ: " **حَدِّثُوا**

عَنْ بَنِي إِسْرَائِيْلَ وَلَاحَرَجَ" ما نصهما:

" لا ضيق عليكم في الحديث عنهم ؛ لأنه كان عليه الصلاة والسلام زجرهم عن الأخذ عنهم والنظر في كتبهم قبل استقرار الأحكام الدينية والقواعد الإسلامية خشيةَ الفتنة، ثم لما زال المحذور أذِنَ لهم (١).

فبَعْدَ ما فَهِمْنَا هذه الأحاديث الثلاثة – في ضوء الشروح التي وَضَعَها الأئمةُ الشَّارِحُون على هذه الأحاديث – يَبْدُوُ لنا في وضوحٍ تامٍ أنّه لا تَعَارُض بين هذه الأحاديث الَّتي بين أيدينا .

فالآن نحن نستطيع الإجابةَ على السُّوال الذي تَمَثَّلَ بين أيدينا ، وهو:ما هو حكم الأحاديث الإسرائيلية ؟ بأنْ نقُولُ: إن الإسرائيليات ليستُ كلُّها على منوالٍ واحدٍ؛ بل هي على أنواع ، وباعتبارأنواعها تأخُذُ حُكْمَها :

النوع الأول: ما يُوافِقُ شَرْعَنا و يُعْلَمُ صِدقُه ببيان القُرآن والسُّنّة . وهذا القسم لا كلام في جواز الأخذ به والتحدُّث به، إلّا أنه لاحاجةَ لنا إليه .

النوع الثاني: ما يُصَادِمُ شرعَنا بأن يُناقِضَ ما عُرِفَ في الشرع الإسلامي، أو يُعلَمَ كذبُه ببيان القرآن والسُّنة ، أو بالعقل العام . وهذا القسم لا يجوزالأخذ به،ولا التحدُّث به ، ولا حكايتُه .

النوع الثالث : ما لا يُخَالِفُ شرعَنا ولا يُوَافِقُه ؛ بل هو مسكوتٌ عنه . وهذا النوع حكمُه التوقُّفُ فيه، فلا نُصَدِّقُ به ، ولا نُكَذِّبُه ، و تجوز حكايته (٢).

وعلى كل فلا نحتاج إلى الإسرائيليات للتفسيرأو غيره كما يظنُّ بعض الناس، وهو ظنٌّ خاطئٌ؛ فإن غاية ما يثبت بالأحاديث وكلام الأئمة، هو جواز الأخذ بالإسرائيليات، وجواز التحدُّثِ بها فقط، لا الوجوب. ثمّ هذا الجواز مشروط بشروط كما قد ذكرنا، فكيف يصحُّ أن يُقَالُ: إنا نحتاج إلى الإسرائيليات للتفسير ؟

ملاحظات حول الإسرائيليات

فإذا لَاحَ لنا حُكمُ الأخبار الإسرائيلية ، فههُنا ملاحظات عديدة ، يجب

(١)إرشاد الساري:٧/ ٤١٤، وفتح الباري:٦/ ٤٩٩

(٢)فتاوىٰ ابن تيمية : ١٣/ ٣٦٦، و التفسير والمفسرون : ١/ ١٧٩

على المفسر اعتبارها:

١- على المُفَسِّر أن يَنْتَبِهَ ويَلْتَزِمَ اليقظةَ لتحقيق مايُوَافِقُ شرعَنا، وما يُصَادِمُه مـن الأخبـارالإسـرائيلية ؛حتى يستطيع أن يستخلص من حُزمة الإسرائيليات ما يُلَائِـمُ روحَ القرآن والإسلام ، فيَقْبِل ما هو موافق له ، ويَجْتَنِب عمّا يُخَالِفه في التـفسيـر. وأمّـا مـا هـو مسكوت عنه في شرعنا فهذا القسم غالبُه ممّا ليس فيه فـائـدة يتـعـلـق بها أمر ديننا ، ولا فيه طائلة يُحْتَاجُ إليها في التفسير، نعم تجوز حكايتُه ،كما يقول الإمام ابن تيميةؒ :

"وهذا القسم (أي المسكوت عنه) غالبُه ممّا ليس فيه فائدة تعودُ إلى أمـر ديني ؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا اختلافاً كثيراً ، و يـأتـي عـن المفسرين خلافٌ بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسمـاء أصـحاب الكهف ، ولون كلبهم، وعصا موسى من أي الشجرة كـانـتُ، وأسـماء الطيور التي أحياها اللّٰه لإبراهيم ، وتعيين البعض الذي ضُـرِبَ بـه قتيلٌ من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلّم اللّٰه منها موسٰى، إلى غيـر ذلك مِـمَّـا أبْهَـمَـهُ الـلّٰـهُ في القرآن، ولا فائدة في تعيينه تعود على الـمُـكـلّـفيـن في دنياهم أو دينهم ؛ ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز (١).

٢- إن مـن أسْـلَـمِ الـطريق وأحْكَمِه لمن يُفَسِّرُ القرآنَ الكريم أن لا يُدخل في التـفسيـر من هذه الإسرائيليات شيئاً ، وأن يُعرِضَ عنها كُلَّ الإعراض؛ فإن الغالب مـنها ما لا طائل تحته ، فالخيرُ في الإمساك عمّا لا طائل تحته . وأما إذا كان فيها فـائـدةٌ تُـنَـاسِـبُ الـمـقامَ فلا بُدَّ أن يقتصر على ما يُلَائِمُ المقام على ما يُقَالُ : إن الضروري يتقدّر بقدرالضرورة ، فلا يَعْدُوَ إلى ماعداه .

٣- و مِـمّا يجب على المُفسِّر أن لايرتكب النقلَ عن أهل الكتاب إذا وقع في السُّـنة بيـانٌ لـمُـجْـمَـل القرآن. فمثلاً وَجَدْنَا لقوله تعالى:﴿ **وَلَـقَـدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْـقَيْـنَا عَلٰى كُرْسِيِّهٖ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ** ﴾ [ص:٣٤] بيـانـاً في السُّنّة بأنَّ سليمان عليه السـلام قـال : لأَطُـوُفَـنَّ الليلةَ على سبعين (وفي رواية :تسعين) امرأةً تأتي كل واحدةٍ

(١)فتاوىٰ ابن تيمية: ٣٦٧/١٣

بـفـارسٍ يُـجَـاهِـدُ في سبيل اللّٰه تعالى، ولـم يقل "إن شاء اللّٰه" فطافَ عليهن، فلم تحمل إلا امرأةٌ ، وجاءَ تُ بشقّ رجل(١).

فـلا نـرتكب تفسيرَه بقصّة الجِنّي المَارِد، وقد أخرج هذه القصّةَ النسائي، وابـن جرير، وابن أبي حاتم، والسيوطي، بسندٍ قويٍ عن ابن عباس، ولٰكن قال أبو حيّـان وغيرُه :إن هذه المقالة من أوضاع اليهود ، وزنادقة السوفسطائية، ولاينبغي لعاقل أن يعتقد صحّةَ ما فيها (٢).

٤- ومِـمّـا يـنبغي للمفسِّر اعتبارُه: أن بعض المفسرين يذكرون الإسرائيليات تـحـت آيـاتٍ مـن القرآن، ويُحَاوِلُوُن تفسيرَها على ضوء الإسرائيليات، فيربطون بيـن هذه الآيات وتلك الإسرائيليات ، بينما لا تكون أي حاجةٍ إلى ارتكاب ذلك ؛ لأن الـمـقــام لا يـقـتـضيــه . فــالـحـيـطةُ فـي مثـل هذه المواضع أن لا يرتكب تـفسيـرَالآيـات الكريمات على ضوءِ الإسرائيليات . ومثاله ما نقله المُفسِّرون من قصة الزهرة وهاروت وماروت، تحتَ قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّبَعُوْا مَا تَتْلُوْ الشَّيٰطِيْنُ إلخ**﴾ [البـقـرة:١٠٢] فهـذه الـقـصّة لايَتَوَقَّفُ عليها تفسيرُ هذه الآية، ولذا قال حكيم الأمّة الشيخ الجليل أشرف علي التهانويؒ ما تعريبه :

"وقـد اشتهـرتُ فـي تـفسير هذه الآيات قصّةُ الزهرة، ولـم تَثْبُتُ بسندٍ مـعتبـرٍ. فـمـن رآها مُخَالِفَةً للقواعد الشرعية ردَّهَا، ومن لـم يَرَهَا مُخَالِفَةً لـلـقـواعـد الشـرعية لـم يَـرُدَّهَـا . ونحن الآن لسُنَا بصدد تحقيق كونها صحيحةً أوضعيفةً ؛ إلّا أنّه من المعلوم أنّ هذه الآيات لا يتوقف تفسيرُها على هذه القصّة (٣).

فـالـحـاصل أنّ الأخبار الإسرائيلية ليستُ من ضرورة المفسّر، ولا هي من المآخذ للتفسير. وإنّما هي- على الحد الأقصىٰ - من المناسبات له فحسبُ، إن لـم تكنُ مُتَصَادِمَةً ومُخالِفةً للشريعة الإسلامية وقواعدها الرصينة .

---

(١) رواه البخاري:٦١٤٨،مسلم:٣١٢٦،النسائي: ٣٧٧١،أحمد: ٧٣٩٠

(٢)انظر روح المعاني: ٢٣/ ١٩٩

(٣)تفسير بيان القرآن

الثاني: مجرد العقل والرأى

لايعزُبنَّ عن بالكم أن العقل نعمةٌ عظيمةٌ من نعماء اللّٰه ﷻ، أُعْطِيها الإنسانُ؛ لكي يستخدمه لفهم الحقائق الكونية، والمعارف الدينية، والأحكام الشرعية. وبهذا العقل تحصل للإنسان معرفة ربه ﷻ، وبه يمتاز من بين سائر مشاركاته في جنسه من الحيوانات؛ إلا أنه من المعلوم قطعاً أنه ليست العُقُول كلها في درجةٍ واحدةٍ؛ بل يختلف بين أكمل وكامل، وناقص وأنقص. ولذا لا يصح لكل إنسان أن يستخدم عقلَه في جميع مجالاته ودوائره. فليس الجاهل كالعالم، وليس العامي كالمحامي، والمهندس، والطبيب. فالمحامي مثلاً له حق تفسير القانون الدولي، ويكون تفسيره حجةً، بينما العامي ليس له ذلك، ولا يكون قوله فيه حجةً، وكذا المُهندِس لرأيه اعتبارٌ في الهندسة، ولا يكون لغيره اعتبار في هذا الباب، وهكذا دَوَالَيْك.

وبعدَ ملاحظة هذا نستطيع القول بأنه لايجوز لكل إنسان أن يخوض في تفسيرالقرآن الكريم بمحض عقله و بمجرد رأيه، لذا نَرٰى العلماءَ أفْتَوا بعدم جواز التفسير بالرأي والاجتهاد، وشدّدُوا فيه.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن كثير يقولان: "أما تفسير القرآن بمجرّد الرأي فحرام" (١).

ويقول الشيخ الزركشي والعلامة السيوطي: "ولا يجوز تفسير القرآن بمجرّد الرأي والاجتهاد من غير أصل "(٢).

فعُلِمَ من هذا كله أن مجرّد العقل والرأي لا يكفي لتفسير القرآن الكريم، وهوالذي يُقَالُ له"التفسير بالرأي ".

معنى التفسير بالرأى

ولٰكن بقي علينا أنْ نَعْلَمَ: ما هو معنے التفسير بالرأي حين نقول: لا يجوز

(١)فتاوى ابن تيمية:١٣/ ٣٥٧،وتفسير ابن كثير:٦/١

(٢)البرهان :٢/ ١٦٢، والإتقان: ٢٢٩/٢

التفسير بالرأي ؟

وإيّاك أن تفهم منه أنّ علم التفسير لامَدْخَلَ فيه للرأي والاجتهاد، وأن فهمَ القرآن يَتَوَقَّفُ على النقل عن النبي ﷺ وأصحابه فقط ؛ لأن هذا الظن ليس بصواب، فإن العلماء صرّحُوا بأن التفسيرعلى وُجُوهٍ:

- ما تَعْرِفُه العربُ من كلامهم .
- ما لا يعذر أحد بجهالته .
- ما تَعرِفُه العلماء.
- ما لا يَعْلَمُه إلا اللّٰه تعالى.

وقد جاءَ هذا عن ابن عباس رضي الله عنه كما تقدَّمَ مِنّا فيما سبق ، ومعنى : " ما تعرفه العلماءُ " أي باستنباطهم واجتهادهم اعتماداً على الشواهد والدلائل من كلام العرب، وأصول الشرع .

فإذا أفادنا هذا أن مايعرفه العلماء من اجتهادهم وآرائهم هو أيضاً وجهٌ من وجوه التفسير، لانستطيع القول بأن التفسير لامساغَ فيه للاجتهاد ، ولا مدخلَ فيه للرأي، وأنه يتوقّف على النقل فقط .

لذا نَرىٰ عَلَيْنَا من الواجب أن نُحَقِّقَ معنى" التفسير بالرأي" على ضوء ما أفادَه العلماءُ في هذا الباب. فحاصل ما قالوا في هذا المقام: إن الرأي رأيان ، أحدُهما: رأيٌ مجرّدٌ، وعقلٌ محضٌ ، لا استناد له إلى أيّ دليل؛ بل هو من قبيل الخرص والتخمين، والثاني: رأيٌ مُسْتَنِدٌ إلى دليل من الأدلة من الكتاب،أوالسنة، أو أقوال الصحابة، أومن لغة العرب، أو من أساليب كلامهم، وأشباه ذلك مما ذَكَرْنَاهَا فيما مَضىٰ . فالتفسير بالرأي إن لم يكن مُسْتَنِداً إلى دليل من الأدلّة فهو التفسير بالرأي، وهو الممنوع المذموم، وأما إذا كان مستنداً إلى دليل، و ماخوذاً من قوانين اللغة العربية، وأساليب الكلام العربي، ومن أصول الد ين والشريعة، فلا يدخُلُ في التفسير بالرأي . فالذي يفسر القرآن فيرجع إلى تفسيرألفاظه إلى أهل اللغة، وفي معرفة ناسخه ومنسوخه، وسبب نزوله ، وما يحتاج فيه إلى بيانه ، إلى أخبار وآثار الصحابة الذين شاهدُوا الوحيَ والتنزيلَ،لا يدخل في النهي.

ومـن هذا القبيل ورد كثيرٌ من التفاسير عن جمع من التابعين ومن بعدهم، كـمـجـاهـد، و قتـادة ، وابن زيد، وغيرهـم، كما يظهر لمن ينظر في التفاسير، فما ثبـت عنهـم من التفسير بآرائهم واجتهادهم، فيُحَمَلُ على هذا القسم المحمود، لا الـمـمـنـوع المذموم. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذكر الآثار التي تدل على تَحَرُّج السلف الصالح عن التفسير بالرأي، ما نصه:

" فهـذه الآثـار الصحيحة و ما شَاكَلَها عن أئمة السلف محمولةٌ على تـحـرّجهـم عـن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلّم بما يعلم من ذلك لغةً و شرعاً فلا حرج عليه، ولهذا رُوِيَ عن هؤلاء وغيرهم أقـوالٌ فـي التـفسيـر ، ولا منافاةَ لأنهم تكلموا فيما عَلِمُوه، وسَكَتُوا عمّا جَهِلُوه، وهذا هو واجب على كل أحد(١).

فحصل لنا من خلال هذا البحث : أن التفسير بالرأي الذي ذمّه الشرعُ هو مـا لا يسـاعـده قوانين اللغة وأصول الشرع ، ولذا نرى العلماء – كما في الإتقان وكشف الظنون – قالوا : التفسير بالرأي أحد هذه الوجوه الخمسة :

١ – التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير .

٢ – تفسيرالمتشابه الذي لايعلمه إلا اللّٰه تعالى .

٣ – التـفسير المقرر للمذ هب الفاسد بأن جُعِلَ المذهب أصلاً والتفسير تابعاً، فيرد إليه بأي طريق أمكن وإن كان ضعيفاً.

٤ – التفسير بأن مراد اللّٰه تعالى كذا على القطع من غيردليل.

٥ – التفسير بالاستحسان والهوىٰ (٢).

وهـذه الـوجـوه الـخـمسة يـمـكـن لـنا أن نلخصها في كلمتين : الجهالة والـضـلالة ، فـالتـفسيـر بالرأي ما مبناه على الجهالة والضلالة ، وأما ما مبناه على العلم والدين فليس يدخل في التفسير بالرأي.

الكلام على أحاديث تتعلق بالتفسير بالرأى

ثم من الملائم لهذا المقام أن نتناول الأحاديث التي تتعلق بالتفسير بالرأي

(١)فتاوىٰ ابن تيمية : ١٣/ ٣٧٤

(٢)انظر : كشف الظنون :٤٣٤/١، و الإتقان: ٢٣٤/٢

بالشرح عليها .فأقول:جاء في التفسير بالرأي ثلاثة أحاديث :

الحديث الأول:ما رُوِيَ عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال:﴿ **من قال في القرآن بغيرعلمٍ فَلْيَتَبَوَّأ مقعدَه من النار** (١) ﴾

الحديث الثاني: عن ابن عباس أيضاً : عن النبي ﷺ قال: ﴿ **اتقوا الحديث عني إلا ما عَلِمْتُم، فمن كذب عليَّ متعمداً فَلْيَتَبَوَّأ مقعدَه من النار، ومن قال في القرآن برأيه فَلْيَتَبَوَّأ مقعدَه من النار**﴾(٢)

هذان الحديثان قد حَسَّنَهُمَا الإمامُ الترمذيُّ في سننه ، وفي إسنادهما عبد الأعلى بن عامرالكوفي، ضَعَّفَهُ الجمهورُ من المحدثين، منهم أحمد بن حنبل، و ابن مهدي، و أبو زرعة، وأبو حاتم، والنسائي، وابن معين، وابن سعد ، وغيرهم، و تركه ابن مهدي، والقطان ، ومع ذلك حسّن له الترمذي، وصحّح حديثه الطبري ، والحاكم(٣).

وأما شرحهما فقال العلماء : إن التفسير بغيرعلم قولٌ على الله تعالى ما لم يعلم، وهوحرام في دين الله تعالى ،كما قال تعالى : ﴿ **وَأَنْ تَقُوْلُوْا عَلَى اللّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ** ﴾ [الأعراف :٣٣] وفَسَّرَ بعضُهم هذا الحديث: بأن من قال في مشكل القرآن بما لايعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين، فهو متعرض لسخط الله. وقال بعضهم: إن معنى الحديث: أن من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره ، فليتبوأ مقعده من النار (٤).

الحديث الثالث: عن جندب بن عبد الله ﷺ : قال: قال رسول الله ﷺ : ﴿ **من قال في القرآن برأيه فَأَصَابَ فقد أخطأ**﴾ (٥)

قال الراقم : هذا الحديث قد تَكَلَّمَ العلماءُ فيه من قبل إسناده؛ لأن فيه سهيل بن أبي حزم ، وهو متكلم فيه،ضعّفه الجمهور، قال أحمد: روى أحاديثَ منكرة، وقال أبوحاتم: ليس بالقوي ، يُكْتَبُ حديثه ولايُحْتَجُّ به، وقال البخاري:

---

(١) رواه الترمذي:٢٨٧٤، وابن جرير :٥٨/١،وأحمد: ١٩٦٥
(٢) رواه الترمذي: ٢٨٧٥ ، وابن جرير: ٥٨/١
(٣) انظرترجمته في تهذيب التهذيب: ٩٤/٦- ٩٥
(٤) انظر روح المعاني: ٦/١،والقرطبي: ٣٢/١ ،والإتقان:٢٣/٢
(٥) رواه أبوداؤد : ٣١٦٧ و الترمذي: ٢٨٧٦

لا يُتَابَعُ في حديثه، يتكلمون فيه ، ووَثّقَه العجلي(١).

وأما معناه فقال ابن الأنباري: حمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأي معنِيٌّ به الهوى؛ فمن قال في القرآن قولًا يوافق هواه، لم يأخذ عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله، ولا يقف على مذاهب أهل الأثر والنقل فيها(٢).

وقال ابن عطية: ومعنى هذا أن يُسئل الرجل عن معنى في كتاب اللّٰه عز وجل، فيتسوّر عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، واقتضته قوانين العلم، كالنحو والأصول . وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته، والنحويون نحوه، والفقهاء معانيه ، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم و نظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرد رأيه (٣).

وقال الإمام القرطبي المفسر ما فذلكته :

"إن النهي في الحديث يُحْمَلُ على أحد الوجهين : أحدهما أن يعتنق فكرةً، ثم يتأول القرآن على وفق فكره وهواه، لِيَحْتَجَّ على تصحيح غرضه، وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ، ولولم يكن له ذلك الرأي والهوى، لكان لا يَلُوحُ له من القرآن ذلك المعنى، قال : وقد تَسْتَعْمِلُه الباطنيةُ في المقاصد الفاسدة لتغريرالناس، ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة ، فينزلون القرآن على وفق رأيهم و مذهبهم، على أمور يعلمون قطعاً أنها غيرُمرادة ، والثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المُبْهَمَة والمُبَدَّلَة، وما فيه من الاختصار ، والحذف، والإضمار، والتقديم، والتأخير؛ فمن لم يُحكِم ظاهر التفسير، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرّد فهم العربية كَثُرَ غلطه، ودخل في زمرة من فسّر القرآن بالرأي"(٤).

(١) كذا في التهذيب:٢٦١/٤
(٢) الإتقان:٣٢/٢،وتفسير القرطبي:٣٢/١
(٣) انظرتفسير القرطبي: ٣٢/١
(٤) القرطبي: ٣٤/١

وقال الإمام البيهقي :

"إن صح أراد به – والله أعلم– الرأي الذي يغلب على القلب من غير دليل قام عليه، وأما الذي يشدّه ببرهان فالقول به جائز، وأما قوله: فقد أخطأ معناه أخطأ طريقَ الحق، فإن من يَجْتَرِئ على ذلك لايأمن عليه أن يقع في الخطاء، فلاينبغي له الاجتراء على ذلك؛ حتى يرجع فيها في بيان اللغة إلى أهل اللغة، وكذلك في بيان أسباب النزول وغيرها؛ حتى يرجع إلى ما رُوِيَ في ذلك عن الصحابة رضي الله عنهم(١).

قلتُ: وكذا يُحمَلُ ما ورد من الآثار عن الصحابة والتابعين في ذم التفسير بالرأي، على ما ذكرنا كما ورد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: أيُّ سماء تظلني وأيُّ أرض تقلني؛ إذا قلتُ في القرآن برأئي أو بما لاأعلم ؟ وكما ورد عن سعيد بن المسيب رحمه الله :أنه كان إذا سُئِلَ عن تفسيرآية من القرآن، قال : أنا لا أقول في القرآن شيئاً ، وأشباه ذلك من الآثار والأقوال، فالتحرّج عن تفسيرالقرآن من هؤلاء الكبار من الصحابة ومن بعدهم، محمول على التفسير الذي، فُقِدَتُ فيه شروطه المعتبرة، والذي لا توافقه الأدلة الشرعية ولا قواعد اللغه العربية .

وإنما نضطرّ إلى هذا التاويل في كلامهم لأنا نرى من الصحابة جمعاً كثيراً، أنهم فَسَّرُوا القرآن الكريم باجتهادهم، وأبدوا آرائهم تجاه المعاني القرآنية ، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يفسر آية الكلالة وهو قوله تعالى: ﴿**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّٰهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلٰلَةِ إلخ**﴾[النساء:١٦٧] ويقول: أقول فيها برأئي فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان. ومثل ذلك ورد عن غيره من الصحابة أيضاً (٢).

قول فصل فى التفسير بالرأى

وبعد ما لاحظنا من معنے التفسير بالرأي على ضوء ما أفاده الأئمة، لا يبقى لنا ولا لأحد مجال البحث في ذلك ، نعم قد يَبْدُوُ في ذلك – في بادئ النظر –أن في ذلك خلافاً بين العلماء، فمن قائل يقول بجوازه ويحتج عليه بأن

(١)حكاه عنه في بذل المجهود :٣٢٥/٥

(٢)انظر للتفصيل الموافقات للإمام الشاطبي:٢٥٤/٣ - ، وإعلام الموقعين للإمام ابن القيم: ١/ ٨٢ - ٨٣

اللّه ﷻ حثَّ العباد على التَدَبُّر والتَفَكُّر في القرآن والاعتبار والاتّعاظ بآياته وبمواعظه، وهذا يدل على جواز التفسير باجتهادهم، فإن التّدبّر والاتّعاظ لا يمكن أن يتحصل إلا بالفهم والتفقّه في كتاب اللّه تعالى وهوالتفسير ، ومن ذاهب يذهب إلى حرمته ، ويستدل عليه بأحاديث وآثار جاء ت في هذا الصدد وقد تقدمت، ولكن النظر الفاحص الذي يسبُر غورَ الموضوع المطروح ، يقطع بأن الحق هو التفصيل كما ظهر من خلال البحث الذي تَنَاوَلْنَاهُ سابقاً ، وهو قولٌ فصلٌ في هذا الباب ؛ بل قال بعض العلماء : إن الاختلاف في جواز التفسير بالرأي اختلافٌ لفظيٌ لاحقيقي، فمن قال بجوازه، فإنما جوّزَه بشروطه المعتبرة التي تقدّمَتُ، ومن قال بحُرُمَتِه فإنما حَرّمَه وشدَّدَ فيه، إذا فُقِدَتُ شروطه السابقة.

علىٰ هذا فإنا نعتقد :أنه ليس أحد –عبرَ التاريخ الإسلامي – قال بجواز التفسير بالرأي من غير اعتبار شروط فيه ، إلا من شذّ من أهل المذاهب الباطلة الضالة المضلة كالباطنية والشيعة ، ومن أهل هذه العُصُوُر المُتَأخّرة من المتجددين المتثقّفين .

ولنُمسك القلم ههنا حيث أنه – فيما أظنُّ – قد حَصَلَ المقصودُ ، وتبدّد الظلام الذي كان على وجه الحق، وظهرالحق ، والحق أحق أن يُتَّبَعَ .

الثالث
العلوم الفلسفية والطبيعية

ما من شك أن هذا العصر عصر النهضة العلمية الحديثة ؛ نرىٰ فيها للعلوم الكونية من الطبيعية والتكنالوجيا ، ازدهاراً باهراً، و تقدماً مدهشاً ، ونجدها ألقتُ ظَلَّهَا على جوانب الحياة البشرية كلها ؛ الفردية والجماعية ، وكشفت من أسرار الكون، و نواميس الطبيعة ، ما أثارالدهشةَ ، وأظُهَرَ الحيرةَ .

وبهذا التَقَدُّم والازُدِهَار المُدُهِش الذي نالتُه هذه العلوم الكونيةُ الحديثةُ في هذا العصر ، تمركزتُ في بعض الأذهان نظريةٌ و فكرةٌ حول هذه العلوم الحديثة المتقدمة ، و زعموا: أن هذه العلوم لها تدخلٌ كبيرٌ بالنسبة إلى التفسير و علوم القرآن، وقالوا: إن المرأ لا يتمكن بدونها من فهم و تفسير بعض الآيات

القرآنية، التي تشير إلى بعض أنواع العلوم الكونية ؛ ولا يقدر- إذاصرف النظر عنه-على تفهيم و تشريح تلك الآيات بوجهٍ صحيحٍ علميٍ رصينٍ . فمثلاً قوله تعالى: ﴿ **قُلِ انْظُرُوْا مَا ذَا فِيْ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ [يونس:١٠١] وقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَنْظُرُوْا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنٰهَا، وَزَيَّنّٰهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوْجٍ** ﴾ [قٓ:٦] وقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِيْ السَّمَاءِ بُرُوْجًا** ﴾ [الحجر:١٦] وما أشبه ذلك من الآيات الكثيرات، قالوا : إن هذه الآيات تقتضي العلوم المستحدثة لتفسيرها و تفهيمها .

بل قال بعض مَنْ لَفّ لفّهُم : إن كثيراً من آيات القرآن لايفهم شيئاً من معناها الحقيقي إلا مَنْ دَرَسَ العلومَ الحديثةَ ، وقال: إن العلم الحديث كَشَفَ عن معنى بعض الآيات، وسَيَنْكَشِفُ الباقي منها كلما تقدَّمَتِ العلومُ، ثم يأتي وقت يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس إلى الدين (١).

وهذا كما قد نَمَت – في بعض الأذهان في العصور المنصرمة – فكرةٌ بالنسبة إلى العلوم الفلسفية والمنطقية ، وذلك حينما لاحَظُوا ازدهارَ وتطوُّرَ هذه العلوم والفنون، وكَلّتْ بمشاهدة رُوائها ونضارتها أبصارُهم .

وتلك الفكرةُ هي أن العلوم الفلسفية والمنطقية ،لا بد منها لتفسير القرآن الكريم، من ناحية كونها من إمكانياته المطلوبة وأساسياته اللازمة.

ولكن هذه الفكرة- كالتي قبلها- لم تأخذْ قبولاً عاماً بين العلماء الراسخين للوجوه التي نأتي عليها في هذه المناقشة .

هل التفسير يحتاج إلى العلوم الفلسفية ؟

أما العلوم الفلسفية والمنطقية فمن الذين عدّوُها مصدراً من المصادر التفسيرية ؛ الإمام الرازي، وابن رشد الفلسفي، وزعم ابن رشد – كما حكاه عنه الإمام الشاطبي- إن علوم الفلسفة مطلوبة ؛ إذ لا يُفْهَمُ المقصود من الشريعة على الحقيقة إلا بها (٢).

---

(١)الإسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز إسماعيل ،حكاه الدكتور الذهبي في التفسير والمفسرون: ٥٠٢/٣

(٢)الموافقات: ٢٢٢/٣

ولكن الجمهور من أهل النظر والبصيرة ومن فطاحل العلماء لم يَرْتَضُوا بتلك النظرية، والفكرة ؛ بل رَفَضُوها تَمَاماً، لأنهم بعد البحث والتمحيص أظْهَرُوا بكل صراحة :أن هذه العلوم الفلسفية لا مدخل لها في العلوم الشرعية، ولا هي من الإمكانيات ، والوسائل ، بالنسبة إلى تفسير وفهم القرآن الكريم ، وإضافةً إلى ذلك أن هذه العلوم محظورةٌ ، وممنوعةٌ عند أكثرهم، حتىٰ أفْتَوا بحرمة تعليمه وتعلّمه، وعلى الأكثر فإنما أجازوها إذا لم يكن فيه ما يَتَصَادَمُ و يَتَنَاقَضُ مع الشرع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

" أما المنطق فمن قال: أنه فرضُ كفاية ، و أن من ليس له به خبرة ، فليس له ثقة بشيء من علومه ، فهذا القول في غاية الفساد من وجوه كثيرة التعداد—قال: ومع هذا فلا يَصِحُّ نسبةُ وجوبه إلى شريعة الإسلام بوجه من الوجوه — وقال: ولهذا ما زال علماء المسلمين وأئمة الدين يذمّونه، ويذمُّون أهلَه، و يَنهَوْنَ عنه، وعن أهلِه، حتىٰ رأيتُ للمتأخرين فتياً فيها خطوطُ جماعةٍ من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية ، والحنفية، وغيرهم، فيها كلامٌ عظيمٌ في تحريمه وعقوبة أهله (١).

وقال في موضع آخر من فتاواه:

" من قال من المتاخرين : إن تَعَلُّم المنطق فرضٌ على الكفاية ، أو أنه من شروط الاجتهاد ؛ فإنه يدل على جهله بالشرع، وجهله بفائدة المنطق. وفساد هذا القول معلوم بالاضطرار من دين الإسلام ؛ فإن أفضل هذه الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين عَرَفُوا ما يجب عليهم، و يُكَمِّلُ علمَهم، وإيمانَهم، قبل أن يعرف المنطق اليوناني . فكيف يقال: إنه لا يُوَثَّقُ بالعلم إن لم يُوزَنُ به، أو يقال: إن فطر بني آدم في الغالب لم تستقم إلا به ؟(٢)

ثم أنه ما من شكٍّ أن الصحابة والتابعين على الرغم من أنهم أوفر الناس

(١)فتاوى ابن تيمية: ٩/٥-٧

(٢)فتاوى ابن تيمية: ١٧٢/٩

علماً، وأعمقهم عقلاً ، وأبرُّهم قلوباً ، وأحكمُهم تفسيراً ؛ ما كانوا يعلمون شيئاً من تلك العلوم الفلسفية والمنطقية ، لأن مُعْظَم هذه العلوم إنما نُقلتُ من اليونانية أوالسريانية إلى العرب بلغتهم في عهد الخليفة العباسي مامون الرشيد (المتوفّى سنة: ٢١٨هـ) ولم يكن العرب يعرفون شيئاً منها قبل ذلك ، إلا نزراً يسيراً نقله إليها خالد بن يزيد بن معاوية (المتوفى سنة: ٩٠هـ)، فلو كانت علوم القرآن والإسلام تحتاج في تفسيرها، و فهمها إلى هذه الفنون ؛ لم يُعدّوا ، و لم يكونوا موصوفين بهذه الصفات المذكورة، ففيه دلالةٌ واضحةٌ على أنه لا يحتاج التفسير إلى هذه العلوم .

وإلى هذا الدليل أشار الإمام الشاطبي في الموافقات حيث قال:

"زعم ابن رشد الحكيم في كتابه الذي سمّاه بـ" فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال" : أن علوم الفلسفة مطلوبة إذ لا يُفْهَمُ المقصود من الشريعة على الحقيقة إلا بها . ولو قال قائل إن الأمر بالضد مما قال لما بَعُد في المعارضة ، وشاهد ما بين الخصمين شأن السلف الصالح في تلك العلوم ؛ هل كانوا آخذين فيها أم كانوا تاركين لها أو غافلين عنها؟ مع القطع بتحقُّقِهم بفهم القرآن ، يشهد لهم بذلك النبي ﷺ والجمّ الغفير ، فلينظر امرؤ أين يضع قدمه؟[(١)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

"ليس في القرون الثلاثة من هذه الأمة التي هي خيرأمة أُخرِجَتُ للناس وأفضلها القرون الثلاثة : من كان يلتفت إلى المنطق أو يعرج عليه، مع أنهم في تحقيق العلوم و كمالها بالغاية التي لا يدرك أحد شأوها ، كانوا أعمق الناس علماً وأقلهم تكلفاً وأبرهم قلوباً [(٢)].

ثم ليُلاحَظُ: أن في أهل الفلسفة والمنطق من تضارُب الآراء وتَبَايُن الأفكار بين كثير من المسائل، ما لا نهاية له ، وقد بلغ هذا إلى حدٍ لايستطيع أحد أن يقرّب ثغرةَ الاختلاف بينهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

(١)الموافقات: ٢٢٢/٣
(٢)فتاوى ابن تيميه: ٩/ ٢٣

"ثـم إن الـفلاسفة أصحاب هذا المنطق البرهاني الذي وضعه أرسطو ومـا يتبـعه من الطبيعي والإلٰهي، ليسوا أمةً واحدةً ؛ بل أصناف متفرّقون، و بينهم من التفرّق والاختلاف ما لا يُحصِيهِ إلا اللّٰهُ ،أعظم مما بين الملة الواحدة كاليهود والنصارىٰ أضعافاً مضاعفةً " (١).

انـطـلاقـاً مـمـا أسلفنا نستطيع نحن أن نَتَفَهَّمَ ونقولَ : إن العلوم الفلسفية والـمـنطقية لا تكاد تُعَدُّ من المصادر التفسيرية بوجهٍ من الوجوه، وأنها لا مدخل لها في فهم القرآن الكريم .

ملحوظة حول تفاسير الفلاسفة

ثـم مـن الـمـلاحـظ ههنا : أنه لما تُرجَمَتُ كتبُ الفلسفة اليونانية من اللغات الـمـختـلـفة إلى اللغة العربية، وقَرَأَ هَا بعضُ من كان له هوايةٌ ورغبةٌ إلى هذه العلوم من الـمسـلمين ، ووَجَدُوا فيها ما تَتَعَارَضُ – كلياً أو جزئياً– مع الدين والشريعة ؛ اختلفت آرائهم بالنسبة إلى تلك العلوم ، فالأكثرون ذَهَبُوا إلى تركها وعدم الالتفات إليها، كما تـقـدّمَ فيـمـا سبـق مـنـا، وإلى جانب ذلك كان هناك طبقتان أُخريان بالنسبة إلى هذه العلوم:

الطبقة الأولى : هـم الـذيـن كـرّسُوا ووَقَفُوا حياتهم للرد، والإنكار على نـظـريـاتهـم البـاطـلة ،وآرائهـم الـزائـغة، وتَعَرَّضُوا لنظرياتهم الواهية المُغُوِيَّة في مبـاحثهـم و مـقـالاتهـم ، ورأوا من واجبهم كمفسِّرٍ أن يَتَعَرَّضُوا لهذه النظريات ويَـمُـزَجُوها بالتفسير ، إما دفاعاً عنها إذا كانت تلك النظريات صحيحةً متوافقةً مـع الشـرع والدين، فيُفَسِّرُوُن القرآنَ على ما يُوافِقُ هذه النظرياتِ التي لا يَرَوُنَهَا مُتـعـارِضَةً مع الدين ، وإما على طريقة الردّ عليها إذا كانت متناقضةً ،غيرَ متوافقة مـع الـديـن والشرع، فكانوا لا يمشون في التفسير على ضَوء النظريات الفلسفية؛ بـل كـانـوا يُـفسِّـرون الـقـرآن على وفق أصول الدين والشرع، وعلى ضوء العقل السـليـم ، دون أن يـكون للرأي الفلسفي دخلٌ في التفسير ، ومن هذه الطبقة يُعَدُّ الإمامُ الغزالي والإمامُ الرازي .

الطبقة الثانية:هم الذين أعُجَبُوا بهذه العلوم إلى حدٍّ لا نهاية له ،على الرغم

(١)فتاوىٰ ا بن تيمية: ٢٢٩/٩

مـن أنـه يتناقض أكثرُ أصولِها و قواعدِها مع الدين والشريعة ؛ ظانِّيْنَ من أنفسهم: أنهـم يَـقْـدِرُون على أن يُوَفِّقُوا بين الفلسفة والدين، وأن مَسْعَاهُم في هذا الصدد، يتـكـلّـل بـالـنـجـاح ، فـوظّـفُوا جهودَهم ، وأطْلَقُوا محاولاتِهم، ليصِلُوا الفلسفةَ بـالـديـن؛ حتـى يـصبـحَ الـدينُ فلسفةً ، والفلسفةُ ديناً، ولكن هذه الجهود- فيما أظـن- فشـلـتُ وذهبـتُ عبثـاً ، ولـم يـرضَ بهـا علماءُ المسلمين الثقات ، فإنهم فسّـروا الـقـرآن على حسب ما تقتضيه النظريات الفلسفية ،دون نظر إلى ما يدعو إليــه أصـول الـديـن والشـرع، وتـأوّلـوا فـي آيـات القرآن وأصول الدين لتحقيق الـنـظـريـات الـفـلسـفية، حتـىٰ ضَحُّوا بأصول الدين، وقواعد الإسلام، أمامَ هذه الـنـظـريات الواهية المُغوِيّة، كما صَنَعَ الفارابي وابنُ سينا منهم . ومن الواضح أن هـذه الـطـريـقة فـي الحقيقة ليست من التفسير في شيء، وإنما هو- كما ترىٰ - تهديمُ أصول الدين، وتدميرُ قواعد الشرع ومن قبيل ما قِيْلَ: ضغثٌ على إبّالة .

وسـرد الـدكتـور مـحـمـد حسين الذهبي أمثلةً كثيرةً في هذا الصدد من تفسير ابن سينا والفارابي ، توضح لك صحةَ ما قلنا (١).

التفسير والعلوم الكونية الحديثة

وأمـا العلوم الكونية من الطبيعية والتكنالوجيا، فذهب إلى كونها مصدراً للتفسير بعضُ منْ عاصَرَنَا ولكن الجمهورَ على خلاف ذلك . وذلك لوجوه :

أما أولاً:فـلأن هذه النظرية تُوصِلُ أصحابَها إلى تجهيل و تخطئة السلف الصالح فـي تـفهمهم وتفسيرهم للقرآن الكريم ، فإنه إذا كانت تلك العلوم الحديثة شرطاً لـلـمـفسـر ؛ عـلى الرغم من أن الصحابة والتابعين ومن بعدهم من عشرات ألوف الـمـفسـرين ما كان لهم منها من حظ، وما كانت لهم بها من صلة، فما قالوه في تـفسيـر الآيـات، يُعَدُّ غلطاً و يبقى لغواً، وهذا - لا شكّ - من أقبح الأباطيل، ولا يـكاد يقوله منصفٌ عاقلٌ، فالقول باشتراط هذه العلوم للتفسير خطأ فاحشٌ، صد ر عن ارتكاس في الفهم وانطماس في البصيرة.

وأما ثانياً: فلأن تاريخَ العلوم الفلسفية والطبيعية يشهد : أن قواعد العلوم الفلسفية و الطبيعية وما تبتني عليه من الجوانب النظرية والنواحي الفكرية؛ تَتَبَدَّلُ وتَتَغَيَّرُ يوماً

---

(١)انظر التفسير والمفسرون: ٤٢٠/٣ --٤٣١

فيوماً، لاقرار لها و لا بقاء ، وكم من نظرية علمية نشأتُ و انتشرتُ في دوائر علميةٍ، واستحوذتُ على مشاعرها، ثم تَغَيَّرَتُ و تَحَوَّلَتُ بعد زمن قليل أو كثير، حتى عُدَّ ذِكُرُها بعد ذلك من أمارة الرجعيّة ، واحُتَلَّتُ مكانَها نظريةٌ أُخرى تُخالِفُ و تُناقِضُ الأولى؛ كما نعلم ما وقع بالفلسفة اليونانية من سوء مصيرها ؛ حتى أن أحد نا يستهزىء بها اليوم، و يحمّق من كان يحملُها من الفلاسفة اليونانيين ومن حَذَا حَذُوَهم . وكذا نرىٰ كثيراً من النظريات العلمية الطبيعية ، تتبدل وتتغير من حينٍ لآخر ، و إضافةً إلى ذلك هناك نظريات قديمة و حديثة، تتناقض و تتصادم بعضها بعضاً . فهل من سبيل لمن له عقل أن يعتقد – تمشياً مع هذه الفكرة –: أن القرآن محتمل لجميع هذه النظريات العلمية ،على الرغم من أنها تتبدّل و تتغيّر من حين لآخر و يتناقض بعضها بعضاً ؟

وإليك مثالًا في هذا الصدد ، وهو أنه لما انتشرتُ نظريةٌ علميةٌ بالنسبة إلى الأرض، وهي: "أن الأرض ساكنة" وهبّتُ عليها ريحُ القبول من دوائر علمية، جعل بعض المفسرين المتجددين من أصحاب هذه الفكرة يستدلون عليها بقوله تعالى: ﴿ **أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا** ﴾[النمل:٦١] وقالوا: إن اللّٰه تعالى وَصَفَ الأرض بالقرار ، والقرار هو السكون، فالقرآن قائل بسكونية الأرض .

ولكن هذه النظرية ما كان لها من قرار ولا بقاء ، فَتَحَوَّلَتُ و تَغَيَّرَتُ ، واحُتَلَّتُ مكانَها نظريةٌ أخرىٰ تُنَاقِضُها كلياً ، وهي :" أن الأرض متحركةٌ غيرُ ساكنة " وهذه النظرية – كضَرّتِها – لاقتُ في الحلقات العلمية قبولاً وإقبالاً، و ذهب بعض من أصحاب هذه الفكرة يستدلون عليها أيضاً بقوله تعالى : ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَّهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**﴾ [النمل:٨٨] وقالوا : إن الجبال إذا مَرّتُ مَرَّتُ مع الأرض ، فثَبَتَ أن الأرض موصوفةٌ بالمرور وهو ضد القرار والسكون، فالأرض متحركة .

فيالَلعجب! كيف يكون القرآن محتملاً لهاتين النظريتين المتضادّتين في وقتٍ واحدٍ ؟ فهل من عاقل على وجه الأرض يصدِّقُ هذا ؟ وهل هذا إلا تهافة و سخرية بكتاب اللّٰه تعالى، وإخضاع معانيه أمامَ هذه النظريات الحديثة ؟

وأما ثالثا :فلأنه لو كان القرآن الكريم محتملاً لجميع النظريات المتغيرة والنظريات

المتناقضة ، لوقع الشكُّ في عقائد المسلمين نحوَ القرآن الكريم ، ولا يمكن لهم أن يصدِّقُوا بأنه كتاب اللّٰه الذي نزل لهداية البشر ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ بل يكون القرآن الكريم لُعبةً في أيدي الرجال، هذا يقول في تفسيره شيئاً، و ذلك يقول شيئاً ، وهذا – كما ترى – لايقوله منصف فضلاً عن أن يقوله مؤمن .

لأجل ذلك و لغيره من الوجوه ذهب الجمهور من العلماء إلى الحذر والحيطة من هذه النزعة التفسيرية ، وقرروا: أنه لا يجوز التعويل على هذه العلوم في تفسير القرآن الكريم (١) .

ملحوظات هامة:

نعم يمكننا أن نقول في هذا المضمار: إن لهذه ا لعلوم الكونية الحديثة، بُعدين وناحيتين :

١ – ناحيةُ كونها من شروط التفسير وأدوات المفسر ، فمن هذه الناحية لاصلة لها بالتفسير ولا مدخل لها فيه، لأنها لم تُوْضع لأن تَخْدِمَ القرآنَ الكريمَ في شرح آياته، و كشف أسراره و إبراز إعجازه، وبالتالي لا يَتَوَقَّفُ عليها تحقيقُ الغاية المنشودة التي يستهدف إليها القرآنُ الكريمُ .

٢ – ناحية كونها ملائمةً و مناسبةً لبعض ما في القرآن الكريم من الإشارات إلى الكونيات وأسرارها وعجائبها، فمن هذه الناحية نستطيع القول بأن لها صلة بالتفسير وعلومه ، ومن هذه الناحية –لا من الناحيه الأولى– امتزجتِ العلوم الكونيةُ بالتفاسير ، واحُتلَّتُ مكانَها في الكتب التفسيرية من كتب المفسرين الراسخين كالإمام الغزالي والإمام الرازي وغيرهما .

ولكن المفسِّر ههنا يَقِفُ في موقف عصيب خطر ، لذا عليه مراعاة الأصول التي ذكرها العلماء في هذا الخصوص ؛ ونذكر منها ما ليس منه بُدٌّ :

الأول: أن يعلم– بادئ ذي بدء – أن القرآن الكريم هو كتاب هداية وإعجاز، نزل من عند اللّٰه تعالى لكي يهتدي به الإنسان في مجالات حياته المنوّعة ؛ ولكي يَدهش

(١) انظر لهذا المبحث : الانتباهات المفيدة لحل الإشكالات الجديدة، للمجدد التهانويؒ مع تعليقات الشيخ الحكيم محمد مصطفىٰ البجنوريؒ عليه:(٢ / ٢٨ -- ٤٠)، فإنه في الباب نفيس ، تجد فيه نفائس، وانظر أيضاً التفسير والمفسرون : ٤٩١/٣ ،وبعدهٗ

بإعجازه، وبالتالي إما أن يؤمن به ويصدقه لتتمّ عليه النعمة من عند اللّه ؛ وإما أن يُنكِرَه ويَجحَدَه ، لتتمّ عليه الحجة من اللّه : ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيٰى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾ [الأنفال: ٤٢] وهذا هو الهدف القرآني المنشود .

قال اللّه تعالى : ﴿ **الٓمّٓ، ذَالِكَ الْكِتٰبُ لاَ رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ**﴾ [البقرة:١،٢] وقال: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيْ أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْاٰنُ؛ هُدًى لِّلنَّاسِ وَ بَيِّنٰتٍ مِّنَ الْهُدٰى وَالْفُرْقَانِ** ﴾ [البقرة:١٨٥] وقال: ﴿ **تِلْكَ اٰيٰتُ الْكِتٰبِ الْحَكِيْمِ هُدًى وَّرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِيْنَ** ﴾[لقمان:٣] إلى غير ذلك من الآيات الكريمات.

فليس هو كتاب المنطق والفلسفة، ولا هو كتاب العلوم الطبيعية، ولا كتاب التكنالوجيا، ولا الفيزياء، ولا الهندسة، ولا الطب، ولاهو كتاب التاريخ، ولا الجغرافية، ولا الادب، والبلاغة، ولا ولا ولا...ولكن هو كتاب هدايةٍ و إعجازٍ، هَدفُه إنقاذُ الإنسانية العائرة، و هدايةُ الثقلين إلى سعادة الدارين.

لأجل ذلك يُعَدُّ من مصادر تفسير القرآن ما يخدمه من العلوم من هذه الناحية ، وإن كان القرآن يدعو إلى تعلم العلوم الكونية والحذاقة فيها، إلا أنّ هناك فرقاً بَيّناً بين العلوم التي هي مصادر التفسير، وبين العلوم التي يدعو القرآن إلى تَعلُّمِها، فليس كل ما يدعو القرآن إلى تعلُّمِه وتعليمه ،مصدراً من مصادر التفسير ، إذنُ فإن على المفسّر أن يُلاحِظ هذا الفرقَ في سَيرِه في مجال التفسير.

الثاني : مما يَجِبُ التَفَطُّنُ له أن عظمة القرآن لا يتوقَّفُ على أن نَنْتَحِلَ له وظيفةً جديدةً ، ولا أن نحمّله مهمةً ما أنزل اللّه بها من سلطان، فلا عيبَ على القرآن إن لم يتناول حقائقَ كونيةً و نظرياتٍ علميةً حديثةً ؛ لأن هذا خارج عن موضوع القرآن؛ نعم هو قد يَبُحَثُ عن حقائق كونيةٍ علميةٍ على هامش موضوعه لا استقلالاً، ويُشِيُرُ من طرفٍ خَفِيّ إلى هذه العلوم ، وذلك لأن المقصود منه توجيه قلوب الناس عامتهم ،وخاصتهم إلى الاعتبار، والاتّعاظ، بما في هذه الحقائق من دلائل الوحد ة ،وآيات القدرة ؛ ورياضة مشاعرهم في مشاهدة ما في الكون من مظاهر الحكمة ،ونواميس القدرة، ولكن من جهة ما لهذه الآيات والمشاهد من حسن و جمال و بهاء و كمال ، لا من جهة ما لها من دقائق النظريات وغوامض

الـمـلاحـظـات، فـإنهـا خـاضـعـةٌ لقانون النشوء والارتقاء، و في تفاصيلها من الدقة والخفاء ما يعلو على أفهام العامة، هذا .

ومـع ذلك قـد زَعَمَ بعضُ مَنُ عاصرنا من الباحثين المتجدِّدِين :أن القرآن متـضـمِّـنٌ لـكـل مـا جَدّ و يَجدُّ في الكون من العلوم والنظريات ، وطاب لهم أن يَتَـوَسَّعُوا في علوم القرآن و معارفه، فنَظَمُوا في سلكِها ما بدا لهم من علوم الكون ، ولا شكَّ أن نيتهم في ذلك حسنة، و شعورهم نبيل، ومع ذلك فإنهم مُخطِئُون و مُسْـرِفُـوْن؛ لأن النية الحسنة لا يسوغ أن يُحْمَلَ كتاب اللّٰه تعالى على ما ليس من وظيـفته ، كما نَرٰى بعضَهم يَزْعَم: أن قوله تعالى :﴿ **ثُمَّ اسْتَوٰى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾ [حٰمٓ السـجـدة:١١]- يـزعـم-أنه بيان لما قاله العلماء الماديون من أن مادة الكون هي الأثير .

و كـذا نَـرٰى بـعضَهم يقولون: إن قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنٰهُمَا**﴾ [الأنبياء:٣٠]، هو كشف النظرية العلمية الحديثة ؛ وهي : أن الأرض مُنْفَتِقَةٌ من النظام الشمسي .

و كذا نَرٰى منهم من يقول: إن قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾ [الأنبياء:٣٠] هوعين ما قاله العلماء الطبيعيون : إن للجمادات حياةً .

وكذا فيهم من يزعم في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلٰى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَـوْ شَـآءَ لَـجَـعَلَهُ سَاكِنًا**﴾ [الـفـرقـان:٤٥]، أن فيـه بيـانا لطريقة إمساك الظل التصوير الشمسي (١).

ولٰـكـن هـذا كـلُّـهٗ يـوشك أن يَـخْرُجَ بالقرآن عن غرضه الأسُمىٰ و هَدُفِهِ الأعلٰى، و مَثَلُهُـم عـندي مثل الذي يلمس في كتاب الطب مسائلَ الزراعة ؛ وفي كتاب القانون مسائلَ الهندسة ؛ و في كتاب التاريخ مسائلَ الطب . فهل يُعَدُّ مثلُ هـذا الـعـمل ، من النباهة والكياسة ؟ وهل له من أساس منطقي ؟ لا ، ولا يكون ولا يـمكن أن يكون ، بل هذه النزعة التفسيرية يكاد يُعَدُّ ضرباً من التكلّف؛ بل شعبةً من الـجـنـون الـذي يـذهـب بـغـرض الـقـرآن ، وعـلـى سبيـل الافتراض إن لم يذهب

(١)انظر الأمثلة في هذا الخصوص في التفسير والمفسرون : ٢/ ٥٠٠ و بعده

بغرضه فلا أقل من أن يذهب ببهائه وجماله .

لذلك فإن على المفسِّر أن لا ينحُوَ إلى هذا المنحى في التفسير، يتزعّم أن في القرآن كل ما جاء ويجيء به الإنسان من العلوم والنظريات، رغبةً في إظهار إعزاز القرآن، وجدارته للمسايرة مع الظروف والأوضاع؛ لأن هذا خارجٌ عن موضوعه ، فلا عيب إذاً على القرآن إن لم يتناول هذه العلوم بالمناقشة والبحث .

الثالث: إن المفسِّر إذا وجد حقيقةً كونيةً تناولها القرآن الكريم بالبيان والذكر صراحةً، فعليه أن يفسِّر ذلك المقامَ من القرآن الكريم بحسب ما يقتضيه ،أو ما تحتمله ألفاظُ القرآن، من غير إخضاع معانيه أمام نظرياتٍ حديثةٍ ؛ جدّتُ أو تجدُّ. فمثلاً قوله تعالى: ﴿ **يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوْا رَبَّكُمُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَّاحِدَةٍ وَّ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيْرًا وَّ نِسَاءً** ﴾ [النساء: ١] صريحٌ في أن الإنسان خُلِقَ من نفسٍ واحدةٍ، وهو آدم عليه السلام ، وهذه حقيقةٌ كونيةٌ كَشَفَها من هو خالقُ هذا الكون ، وبعد ذلك لا يجوز لأحد أن يذهب إلى نظرية " الارتقاء" التي اخترعها "دارون" . وكذا لا يجوز لأحد أن يتأوّل آياتِ القرآن على وفق ما قاله "دارون" ؛ لأنه يتناقض مع القرآن، وألفاظه لا تحتمله .

الرابع: لا يَعْزُبَنَّ عن بالكم أن اكتشافاتٍ علمية حديثة ليست كلُّها على منوال واحدٍ ؛ بل بعضها يشتمل على حقائقَ ثابتةٍ تبتني على المشاهدة واليقين ، بينما بعضها الأخرى يشتمل على نظرياتٍ ظنيةٍ أو وهميةٍ لا تَعْدُوَ الظنَ والتخمينَ فحسبُ ، ومن البدهي أن الكل ليس تحت حكمٍ واحدٍ ؛ بل فيه تفصيل :

١- فما كان من جنس الأول، يجوز أن يُفَسَّرَ القرآنُ طبقاً له إذا كان ألفاظ القرآن تحتمله، ولا يَتَصَادَمُ ، ولا يَتَنَاقَضُ مع الهدف المنشود القرآني، وإليك من أمثلته:

۞ قال الله تعالى : ﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِيْ بُطُوْنِ أُمَّهٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِيْ ظُلُمٰتٍ ثَلٰثٍ** ﴾[الزمر : ٦]

فقد أَخْبَرَ تعالى أن الجنين يُخلق في بطن أمه في ظلماتٍ ثلاثٍ ، ففيه إشارةٌ إلى ما أَثْبَتَهُ علماء الطب الحديث من أن الجنين في بطن أمه مُحاطٌ بثلاثة

أغشية. فـلا بأس أن تُفَسَّرَ الآية بهذا التحقيق؛ لأن لفظ القرآن يحتمله ولا يصادم مع هدفه .

❁ جاء في القرآن : ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ**﴾ [النحل: ٨] ففيه إشارةٌ إلى المصنوعات الحديثة : من الدرّاجات ، والدراجات النارية، والسيارات، والقطارات، والطيارات، والحوامات وغير ذلك من المراكب ، فلا ضيرَ – إذنُ – أن تُفَسَّرَ هذه الآية بهذه المراكب الحديثة لأن ألفاظ الآية تحتملها ولا يتصادم هذا التفسير مع الهدف القرآني؛ بل يؤكّده .

❁ قال اللّه تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِيْ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ، هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَّ هٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ، وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَّحِجْرًا مَّحْجُوْرًا** ﴾[سورة الفرقان: ٥٣] وقال تعالى: ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيٰنِ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيٰنِ** ﴾ [سورة الرحمن :١٩-٢٠]

فأخبر اللّه تعالى أنه مرج البحرين بحيث يلتقيان، أحدهما عذبٌ فراتٌ، والآخر ملحٌ أُجاجٌ، وجعل بين هذين البحرين حاجزاً و برزخاً، بحيث لا يبغيان ولا يختلطان. وهذا المرج والالتقاء مع عدم البغي والاختلاط من عظيم مظاهر قدرته ل ، وقد انكشف هٰذا كله من تَحَرّياتٍ عَصْرِيَّةٍ، فإن "كيستو الفرنسي" (CASTUO) شاهده عند مُلتقى البحر الأحمر [RED-SEA]و بُحَيرة الروم[MEDITERRANEAN-SEA] وهذا وقع في عام ١٩٨٦م، ثم قرأ هوالآيةَ المذكورةَ ، وأسْلَمَ بعدَه قائلاً : إن هذا القرآن هو كتابُ اللّه، وليس من تصنيف البشر؛ لأنه أظْهَرَحقيقةً علميّةً قبل قرون كثيرةٍ ؛حيث لم تكن علوم ولا معارف ، فهذا – واللّه– كتابُ اللّه. فهذا التحقيق يحتمله لفظ الآية مع موافقته على الهدف القرآني .

٢ – وأما إذا كان من جنس الأول، ولكن ألفاظ الآية لا تَحْتَمِلُه، فلا يجوز أن يُفَسَّرُالقرآنُ على مقتضاه ، كما صَنَعَ العلامةُ جوهري طنطاوي في تفسيرقوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيْهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ**﴾ [النور :٢٤] حيث فَسَّرَهُ بما ظَهَرَ من العلم بآثارالأقدام وآثارالأصابع في أيامنا الحاضرة (١).

---

(١)انظر: تفسير الجواهر للطنطاوي : ٩/٣

قلتُ: وهـذا الـعلم الحديث الذي يُستَدَلُّ فيه بآثار الأقدام والأصابع على الـجـانيين والسـارقين؛ وإن كان حقيقةً علميةً ثابتةً بالتجربة والمشاهدة، غير أن الآية لاعـلاقةَ لهـا بـه، أمّا أوّلاً: فلأنّ الآية إنّما وَرَدَتْ في مَعْرَضِ أحوال الآخرة، وأمّـا ثـانيـاً: فـلأن شهادة الألسنة والأيدي والأرجُل التي ذكرها اللّٰه تعالى في الآية، ليستْ من جنس الاستدلال بآثارالأقدام والأصابع ؛ لأن الشهادة فوقَه بألف ألف درجة ، وهـذا الـعـلـم إنـمـا هـو مـن قبيل القرائن التي تؤيّد الواقعة ، أو تُشِيرُ إليها فحسبُ، فأين هذا من ذاك ؟

و مثـال آخـر لـه مـا وَقَـعَ للشيخ العلامة محمد عبده رحمه اللّٰه تعالى في تـفسيـر سـورـة الفيل من حمل" طيراً أبابيل"على ما يُسَمّٰى اليوم بـ"الميكروبات" [MICROBE] وحـمـل"الـحـجارة "على جراثيم بعض الأمراض التي اكتشفها الطبُّ الحديثُ ، حيث يقول رحمه اللّٰه تعالى:

"فيـجـوز لكَ أن تـعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذُباب الذي يَـحْـمِـلُ جـراثيـم بـعـض الأمـراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين الـمسـمـوم اليـابس ، الذي تحمله الرياحُ فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فـإذا اتّـصـل بـجسده دَخَلَ في مسامه ، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بـإفسَـادِ الـجسم وتَسَاقُط لحمه ، وإن كثيراً من هذه الطيورالضعيفة يُعَدُّ مـن أعـظـم جُـنُـود اللّٰـه فـي إهلاك من يَرِيُدُ إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغيرالذي يُسَمُّوُنَـهُ الآن بـ"الميكروب" لايخرج عنها إلخ "

ذكـره الشيـخ مـحـمد حسين الذهبي في "التفسير والمفسرون" بالإشارة إلـى تـفسيـر جـزء عـمّ لـلشيخ محمد عبده، ثم قال الشيخ محمد حسين الذهبي تـعـليـقـاً عـليـه : " وهـذا ما لا نُقِرُّه عليه ؛ لأن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الـحـديـث لـم يـكـن لـلـعرب علمٌ بها وقتَ نزول القرآن، والعربي إذا سَمِعَ لفظَ الـحـجـارة في هذه السورة لاينصرف ذهنُه إلى تلك الجراثيم بحالٍ من الأحوال، وقد جاءَ القرآنُ بلغة العرب وخَاطَبَهُم بما يعهدون و يألِفُون(١).

٣- وإن كان مِمَّا يُصَادِمُ الهدفَ القرآني ؛ فلا سبيلَ إلى أن يُفَسَّرَ القرآنُ على

(١)التفسير والمفسرون : ٢/٥٦٩

مقتضاه بحال من الأحوال، ومثالُه ما وقع لبعض المعاصرين في تفسير قوله تعالى: ﴿ **يٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوْا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوْا، لَا تَنْفُذُوْنَ إِلَّا بِسُلْطٰنٍ** ﴾ [سورة الرحمن: ٣٣] من تفسير "سلطان" بالصاروخ . قاله الشيخ الاستاذ شهاب الدين الندوي في كتابه "الإسلام والعصرالحاضر".

قلتُ: وهو من هفواته في تفسيرالقرآن ؛ لأن هذا التفسير يخرج بالآية عن هدفها المقصود و غايتها المنشودة ؛ فإنها إنّما جاء تُ تَسْتَحِثُّ الجنَّ والإنسَ على قبول طاعة اللّٰه تعالى، والخضوع أمامَ أحكامه ؛ وتُدَلِّلُ على أنهم كلّهم عبيد اللّٰه تعالى، و يَعِيْشُوْن عيلةً عليه في شؤون حياتهم، و يَحْتاجُون إليه في كل حاجاتهم ؛ بأنهم لايستطيعون أن ينفذوا من أقطار السمٰوات والأرض، ثم تقول الآية أخيراً: ﴿ **لَا تَنْفُذُوْنَ إِلَّا بِسُلْطٰنٍ** ﴾ وهذا من قبيل التعليق بالمحال ، و المعنى : لا تستطيعون أن تنفذوا إلا أن يحصُل لكم سلطانٌ ومالكم ذلك ، إذاً فأنتم تحت حكم اللّٰه، ولذا يجب عليكم أن تطيعوا أوامرَه، و أن تجتنبوا نواهِيَه. والسلطانُ هو البينة والحجة أو الملك(١).

فلوأُرِيدَ بـ "السلطان" "الصاروخ" يكون المعنى: إن الإنسان والجن يستطيعون باستمداد الصاروخ أن ينفذوا من أقطارالسمٰوات والأرض؛ فبالتالي هم لَيْسُوا تحت حكم اللّٰه ولا عليهم أن يطيعوا أمرَه، ولا أن يجتنبوا نهيَه .

وهذا – كما تَرٰى– من غاية الفساد في المعنى المراد ، ومن عكس ما تهدف إليه الآية القرآنية ، فلا يجوز أن تُحْمَلَ الآيةُ على ذلك .

٤ – وإن كانت تلك النظريات العلمية من جنس الثاني من النظريات التي مبناها على الظنّ والتخمين ؛ فلا يَخْلُو إمّا أن يكون لفظ القرآن يحتملها أوْ لا ؛ فإن لم يحتمل فظاهرٌ أنه لايجوزُ حملُ الآية عليها، وإن كانت مِمّا يحتملُها لفظ الآية فكذلك أيضاً ، لأنها ليست نهائيةً ولا مطلقةً ، ويمكن أن يَظْهَرُ خَطَأُها في يوم من الأيام ،كما ظهرالخطأُ في كثير ممّا اخْتَرَعُوْه واعْتَنَقُوْه من النظريات ، فكيف يصح أن يُحْمَلَ معنى الآية على النظريات التي هي على وشك الزوال،و

(١)كما في تفسير الطبري: ٥٩٥/١١

مُـؤذِنَة بـالانهيـار؟ كـمـا قد ذَكَرْنَا أن بعض الناس استدلّوا على سكونية الأرض بقوله تعالى :﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [الـنمل:٦١] ثم لما تغيرت و تحولت تـلك الـنـظريةُ و جاء ت مكانها نظريةٌ أخرٰى تُنَاقِضُهَا؛ قام بعضُهـم يستدلون على هذه الجديدة بقوله :﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَّ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨] فهذا مما لا يُجَوِّزُه الشرع و لا العقل.

فـنهـاية الـقـول في هذا الموضو ع : أنه يجوزالتفسير بوفق العلوم الحديثة والنظريات العلمية بشُرُوطٍ ثلاثةٍ :

١ – إذا كانتُ تلك العلوم والنظريات ممّا يبتني على المشاهدة واليقين.

٢ – إذا كانتُ مما تَحْتَمِلُها ألفاظُ القرآن .

٣ – إذا كانت مِمّا لا يَتَصَادَمُ مع الهدف القرآني .

فـمـا كـان مـمّا لا يَعْدُوْ الظنَ والتخمينَ ، أو لا تَحتَمِلُه ألفاظُ القرآن ، أو يَتَصَادَمُ مع الهدف المنشود القرآني؛ لايجوز تاويلُ الآيات من القرآن وِفْقَه بحال من الأحوال .

خاتمة البحث

وأختتـمُ هـذا الفصل على ما قال الأستاذ سيد قطب في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿ يَسْـئَـلُوْنَكَ عَنِ الْأَهِـلَّةِ ، قُـلْ هِـيَ مَـوَاقِيْـتُ لِـلـنَّـاسِ وَالْـحَـجِّ إلـخ﴾ [البقرة:١٨٩]، قال رحمه الله تعالى:

" إنّ الـقـرآن قـد جـاءَ لِمَا هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية ، ولم يـجـئ ليـكـونَ كتـابَ عـلـمٍ فلكيٍ أو كيماويٍ أو طبيٍ ... كما يُحَاولُ بـعـض الـمُتَحَمِّسِيْن له أن يَلْتَمِسُوْا فيه هذه العلوم، أو كما يُحَاوِلُ بعضُ الطاعنين فيه أن يَلتَمِسُوا مخالفاتِه لهذه العلوم .

إنّ كـلتـا الـمـحاولتين دليلٌ على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب، ووظيـفتـه، ومـجـال عـمـلـه . إن مـجـالَـه هو النفسُ الإنسانيةُ والحياةُ الإنسـانيةُ ، وأن وظيـفتَه أن يُنْشِئَ تَصَوُّراً عامّاً للوجود وارتباطه بخالقه ، ولـوضـع الإنسـان فـي هذا الوجود وارتباطه بِرَبِّه ، وأن يُقِيْمَ على أساس

هـذا التـصوّر نِظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كلَ طاقاتِه، ومن بينـهـا طـاقتُـه الـعقليةُ التي تقومُ هي بعد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق الـمـجال لها ؛ لتعمل – بالبحث العلمي – في الحدود المتاحة للإنسان، وبـالتـجـريـب والتـطبيـق ، وتـصل ما تصل إليه من نتائج ، ليست نهائيةً ولامطلقةً ، بطبيعة الحال .

وإنّـي لأعـجب لسَذَاجَةِ المُتَحَمِّسِيُن لهذا القرآن الذين يُحَاوِلُون أن يُـضِيـفُـوُا إليـه مـا ليـس مـنـه ، وأن يَـحْـمِلُوا عليه ما لم يُقْصَدُ إليه ، وأن يَستَـخْـرَجُوا منه جزئياتٍ في علوم الطبِّ والكيمياء والفلك وما إليها ... كأنما يُعَظِّمُوُه بهذا ويُكَبِّرُوُه ...

إنّ الـحـقـائـق القرآنية حقائقُ نهائيةٌ قاطعةٌ مطلقةٌ ، وأما ما يصل إليه البـحـث الإنساني ... أياً كانت الأدوات المتاحة له... فهي حقائقُ غيرُ نهـائية ولا قـاطـعة ، وهي مقيّدة بحدود تجاربه و ظروف هذه التجارب وأدواتها ، فمِنَ الخَطَأ المنهجي ... بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته ... أن نـعـلّـقَ الـحقائق النهائية بحقائق غيرنهائية، وهي كل ما يصل إليه العلم البشري .

هـذا بـالـقيـاس إلـى الـحـقـائـق الـعلمية ، والأمرأوضح بالقياس إلى النظريات الفروض التي تُسَمّٰى "علميةً" فهي قابلةٌ دائماً للتغُّير والتعديل والـنـقـص والإضـافة ؛ بل قابلةٌ لأنُ تنقلب رأساً على عقب ، بظهور أداة كشف جديدة ،أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة.

وكـل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامّة بما يصل إليه العلم من نـظـريـاتٍ مُتجدّدةٍ مُتغيّرةٍ ... أو حتى بحقائق علميةٍ ليستُ مطلقةً كما أسُـلَـفُـنَـا ... تحتوي أوّلًا على خطأ منهجي أساسي ، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم:

الأولى: هـي الهـزيـمة الـداخـلية التـي تـخيـل لبـعض الناس ، أنّ العلم هو الـمُهَيْـمِـنُ والـقـرآن تـابعٌ ، و مِنُ هُنا يُحَاوِلُون تثبيـتَ الـقـرآن بالعلم ، أو الاستـدلال لـه مـن الـعلم ؛ على حين أن القرآن كتابٌ كاملٌ في موضوعه و

نهـائيٌ في حقائقه ، والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثْبَتَهُ بالأمس ، وكـل مـا يـصـل إليه غير نهائي ولا مطلق ، لأنه مقيّد بوسط الإنسان و عقله وأدواته ، وكلها ليس من طبيعتها أن تُعْطِيَ حقيقةً واحدةً نهائيةً مطلقةً .

الثانية : سـوءُ فهـم طبيعة القرآن ووظيفته ، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تُـعـالِـجُ بناء الإنسان، بناء يتفق ... بقدرما تسمح طبيعة الإنسان النسبية ... مـع طبيـعة هـذا الـوجـود وناموسه الإلّهي، حتى لا يصطدم الإنسان بـالـكون من حوله ، بل يُصادِفُه ويَعرِفُ بعضَ أسراره ، و يستخدم بعضَ نـوامســه مـن خـلافتــه ، و نـواميســه التـي تكشف لـه بالنظر والبحث والتـجـريـب والتـطبيـق وفـقَ ما يهديه إليه عقلُه الموهوبُ له ؛ لِيَعْمَلَ لا لِيَتَّسِمَ المعلومات المادّية جاهزة.

الثالثة:هـي التـأويـل الـمستـمر ... مع التمحّل والتكلّف ... لنصوص الـقـرآن كـي نـحملها، ونلهث بها وراء الفروض النظريات التي لا تثبت ولا تستقرّ ، وكلَ يوم يَجِدُّ فيها جديدٌ (١).

فصل
الاتجا هات المُنحَرِفَة في التفسير وأسبابَها

وما من شكّ أن تفسير القرآن الكريم موقفٌ هام خطيرٌ جدّاً؛ فإنّه إن كان بـجـانـب شـرفـاً عـظيماً، و سعادةً كبيرةً للإنسان، فإنه مهمةٌ دقيقة الغاية بجانب آخـر،ولـذا فـإن السـلف الـصالح كانوا يتحرّجُون عن القول في القرآن وتفسيره؛ حتـىٰ روى ابـن خـلـكـان عـن سـعيـد بن جبيرؒ أنه سأله رجل أن يكتب له تفسيرَ القرآن، فغَضِبَ وقال: لأنْ يسقط شقي أحبُّ إليَّ من ذلك (٢).

وبـالـرغـم من ذلك نَجِدُ هناك أفراداً وطبقات يتجرئون على تفسير كلام اللّٰـه تـعـالـى بـغيـرعلم وهدى، ويُفسِّرُونَه بمحض آرائهم وأهوائهم، وعلى وفق أنظارهم ومذاهبهم، من غير تمييز بين الباطل والصواب والقشر واللباب.

(١)مقتبسًا من ظلال القرآن: ١/١٩٨-٢٠٠
(٢) وفيات الأعيان: ١/٣٦٤

ومن هنا نجدُ الاتجاهاتِ المُنحِرَفَةَ بالنسبة إلى تفسيرالقرآن الكريم من مثل هؤلاء الأفراد والطبقات . وهذه الاتجاهات المُنحرِفَة دَفَعَتْهُم إلى هُوَّةِ الضلالات المتنوّعة، وإلى هاوية المتاهات البعيدة ، وبَعَّدَتْهُم عن سبيل الهداية والرشاد وطريق الصواب والسداد .

أسباب الانحراف فى التفسير

ثم إذا أطلنا التفكير في هذه الاتجاهات المُنحرفة وفي تاريخها نجدُ أنّ لها أسباباً عديدةً ، وهي أربعة أسباب:

الأوّل: الجُرأة على التفسير مع عدم الأهلية .

والثانى: إخضاع معاني القرآن أمامَ المُعْتقَدات الباطلة والأهواء الزائغة .

والثالث: التأثُّر بآراء أهل الزمان من الفلاسفة والطبيعيين وغيرهم .

والرابع: صرف النظرعن موضوع القرآن ومقاصده.

وها إنّنا نتكلّمُ على هذه الاتجاهات المنحرفة وأسبابها الباعثة عليها بشيء من البسط والتفصيل.

۞الاتجاه المنحرف بسبب عدم الأهلية

إن أعظم أسباب الضلالة وأخطرها هو الجرأة على التفسير بغير علم و هُدىً، ومن غيرأن يكون أهلاً لهذا المنصب الجليل الخطير. ولقد فَصَّلْنَا القولَ فيما سبق في من يكون أهلاً لهذا المنصب الشريف، و فيما يلزم للمُفسِّر من العلوم الشرعية والفنون العربية . فمنْ لاحَظَّ له من هذه العلوم والفنون، ومن لم يكنْ أهلاً لهذا المنصب لايجوزُ له أن يُفَسِّرَ القرآنَ .

والعجبُ من طبقة المُثَقَّفِيْن المعاصرين حيث يدَّعون فهمَ القرآن من غير استناد إلى علومٍ شرعيةٍ، ومن غيرحصول على فنونٍ عربيةٍ، ومن غير انخراطٍ في عمل التحقيق والتدقيق، ويتجرءون على التفسير مع عدم الأهلية ؛ حتى نَجدَ منهم من يزعم أنه من يعلم العربيةَ يكون عالماً بالقرآن ومفسِّراً له، وبالتالي فله أن يفسِّر القرآنَ حسبَ ما أدّى إليه فهمُه واجتهادُه. وهذا ظنٌّ لاسندَ له من العلم، ولا أساسَ له من الصحة.

ولعَلَّك تُلاحِظُ معي أن بعضَ الناس من الطبقة المثقّفة قد فُتِنُوا بالإقبال

علـى مثـل هـذه التـفـاسيـر، التـي رَتَّبَهَا من لا حظَّ لهم من هذه العلوم الضرورية، ومَلَـؤُوهـا بـالـرطـب واليـابـس، و بـالصحيح والباطل؛ لكونهم جاهلين بالعلوم الشـرعية والـفنون العربية . وممّا لا خِفاءَ فيه أنه لا يكفي لمهارةٍ في فن وعلم من عـلـوم الـدنيـا والآخرة وفنونهما العلمُ بلغة ذلك العلم والفن فحسبُ؛ بل لا بُدّ له مـن الـمُنَاسَبَة بذلك الفنِّ والعلم . فمثلاً لا يكفي لمهارةٍ في الطب أن يعلم لغتَهُ، وكـذا لا يـكـفي للعلوم الطبيعية أن يعلمَ اللغةَ الإنكليزيةَ؛ بل لابُدَّ لها من المناسبة فـي تـلك الـعـلوم، ولا تحصل إلا بالممارسات المتوالية، والمزاولات المتتابعة ، والمجاهدات المتواصلة؛ حتى يصيرَ الرجلُ محنّكاً في ذلك الفن والعلم .

فـواجـب الـنـصح لإخواننا المسلمين يقتضي مِنَّا أن نُحَذّرَهُم الوقوعَ في هذه الشبكة ، فالأحرى بالفطن العاقل أن يَتَنَآئ بنفسه عن هذه المزالق.

ثم نريد أن نذكر نموذجاً من التفاسيرالتي أُلِّفَتُ من هذه الطبقة من غير علم و هدىً ؛ لكي نُشاهَدَ أنه كيف استزلَّهُمُ الشيطان وكيف زلقوا عن الطريق القويم ؟

فـنـقـول:إنّ منهم سَرْ سَيِّد أحمد خَان الدهلوي مؤسّس الكلية الإنكليزية بـ"عـليجراه" ، وما كان يدري الفنونَ العربيةَ ولا الأصولَ الدينيةَ ؛ فأراد الوصولَ إلـى الـحـق فأخطأ الطريقَ السوي؛ وصَنَّفَ كتباً عديدةً ، ومنها كتابه في التفسير سمّاه "تفسير القرآن" وهو في الحقيقة تحريف القرآن؛ أنْكَرَ فيه وُجُودَ المَلائكة ، وقـال :إنّهـا الـقُوَى الملكية في فطرة الإنسان ؛ وأنكرَ الشياطينَ، وقال :إنها قوى الشرِّ ؛ وأنكر الحشرَ والمعادَ الجسماني ؛ وأنْكَرَ السماواتِ والأرواحَ ، وغيرَذلك مـن ضـروريـات الدين بتأويلاتٍ سخيفةٍ ركيكةٍ ؛ وبالرغم من ذلك كُلِّهِ هو يزعم أنه أجابَ عما أُوْرِدَ على الشريعة الغراء من الكفار لا سيما من اليهود والنصارى ؛ ولـكن دأبّه في ذلك ..... على ما قال العلامة يوسف البَنّورِي .... أنّ كلَّ مـايَرِدُ من أهل أوربا، من الاعتراضات السخيفة على المِلَّة الإسلامية ،كان يُسْلِمُهُ ويَـقْبِـلُـهُ، ثـم طـفـق يتـأوَّلُ القرآنَ والسنةَ، وأخَذَ يُقَرِّبُ الإسلامَ إلى الكفرِ؛ حتى يـجـعـلهما ديناً واحداً، وكأنّه أراد التقرّبَ به إلى أهل الكفرالّذين كانتُ بأيديهم الحكومةُ في الهند(١).

(١) يتيمة البيان لمقدمة مشكلات القرآن :٤٨-٤٩

ومن نماذج تفسيره الباطل أنه استدلَّ على أنه لا يجوز للرجل أن ينكح إلا واحدةً بقوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوْا فَوَاحِدَةً** ﴾[النساء:٣] مع قوله تعالى: ﴿ **وَلَنْ تَسْتَطِيْعُوْا أَنْ تَعْدِلُوْا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ [النساء:١٢٩] قائلاً بأن اللّٰه تعالى قد صَرّحَ بأنه لا يستطيع أحدٌ أن يعدل بين الزوجات، وجواز النكاح فوق زوجة كان مشروطاً بالعدل وهو مفقود، وإذا فات الشرط فات المشروط، فلا يجوز لأحد أن ينكح إلا واحدةً (١).

قلتُ: وهذا باطلٌ لا يُوافِقُهُ في ذلك سلفٌ من أهل الحق والسنة ؛ ومخترعٌ من المخترعات التي ليس عليها سلطانٌ ؛ وهفوةٌ من الهفوات التي لم يقم عليها برهانٌ . ثم استدلاله هذا في الحقيقة مغالطةٌ صريحةٌ – وليس بَدُعاً فكَمْ رَأيْنَا وسَمِعْنَا مثلَه من أهل الجهل والبدعة يُغَالِطُون مثل ذلك – وجوابُه ظاهرٌ فإن العدلَ في الآية الأولى هو توفيةُ الحقوق وهو في مقدور البشر ؛ وفي الثانية الميلُ والمحبةُ وهو خارج عن مقدوره ، فالمنفي في الآية الثانية ليس عينَ ما هومثبت في الأولى .

ومنهم أبوالكلام آزاد الدهلوي أحدُ الزعماء السياسيين ،صاحب تأليفاتٍ عديدةٍ ، وكان له قلم رشيق سيّال، وأسلوبٌ جذّابٌ خلّابٌ، ومن تصانيفه كتابٌ في التفسير أسْمَاه " ترجمان القرآن" بالأردية، ومن هفواته ما قال في تفسير قوله تعالى: ﴿**اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ**﴾ من توحيد الأديان كلها ، وخلاصةُ كلامه ما ذَكَرَهُ العلامةُ يوسفُ البِنّوري المرحوم، ولفظه:

> "ما حَقَّقَ ذلك الرجلُ في تفسير ﴿ **اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ**﴾ أنّ كلَ دين من الأديان في العالم، سواء كان دينَ النصرانية أو اليهودية أو الصائبية، أو دان به الرجل في صورته التي أتى بها شارع ذلك الدين، كفي لنجاته يوم القيامة ؛ فإن أصل هذه الأديان كلّها واحدٌ وهوالإيمان باللّٰه والعمل الصالح. وشارعُ كل دين أتٰى بالتوحيد و هَدٰى إلى العمل الصالح ، وإنما الشركُ وأعمالُ الشرِّ نَشَأتْ في أتباع المذاهب من تحزُّبِهم وتَشَيُّعِهم . وهو يُرَدِّدُ ذلك في تفسيره، و يدندن حوله بعباراتٍ مختلفةٍ

(١) تفسير القرآن لسيد أحمد الدهلوي:١٠٦/٢

وأساليبَ شتّى ؛ وهو يقول :إن القرآن يُنَادِي بأعلى نداء إلى ذلك ؛ ويزعم أن ذلك الذي فَهِمَهُ هومَغْزَى القرآن وغرضه ؛ ويَسْتَدِلُّ لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَالَّذِيْنَ هَادُوْا وَالنَّصارٰى وَالصّٰبِئِيْنَ مَنْ اٰمَنَ بِا للّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ﴾[البقرة:٥٩]، والعمل الصالح ليس عنده الأحكام التكليفية والشرائع ؛ وليس المدارعليها عنده؛ويقول:إنّ تلك العبادات وتلك الشرائع ظواهرُ ورسومٌ ، وأنها صورٌ وأجسادٌ، وليستُ هي حقيقةَ الدين ولا روحَه ، فكل من أنكر الشرائعَ والأحكامَ التكليفيةَ اعتقاداً فيكون عنده مُسْلِماً ولا بُدَّ(١).

ومن نماذج تفسيره الباطل قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿كُوْنُوْا قِرَدَةً خَاسِئِيْنَ﴾ [البقرة:٦٥] حيث يقول:

"كُونُوا أذِلّاءَ مهانينَ كالقردةِ ؛ مُنْحَطِّيْن نازلين عن رتبة الإنسان، فتُخْرَجُون من محافل المروءة والإنسانية مَدحُورِيْن (٢).

ويقول في تفسير:﴿فَقَالَ لَهُمُ اللّٰهُ مُوْتُوْا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٣]:أي لكم الموتُ بِجُبنكم، يعني" يغلبكم العدوّ وتُحْرَمُون حياةَ الفتح والظفرعلى العدوّ، ثم أحياهم اللّٰه ، ونشأ فيهم روحَ العزم والثبات، حتى استعدوا للقتال، فرُزِقُوا الفتحَ والنصر(٣).

ويقول في تفسير قوله تعالى:﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوْهُ ببعْضِهَا﴾ [البقرة:٧٣] اضربوا الذي هو في الحقيقة قاتل ببعض أجزاء المقتول(٤).

أ قول: وهذا في الحقيقة فرار من الإيمان بالمعجزات النبوية، وإنكار منها بالتأويلات الركيكة. ثم ما قال هو في تأويل الآية الأخيرة من ضرب القاتل ببعض أجزاء المقتول فهو غير معقول أيضاً؛ لأن القاتل لا يخلو إما أن كان معلوماً مشخّصاً عندهم أوْ لا ، فإن كان معلوماً لما احتاجُوا إلى هذا الضرب، ولا إلى غير

---

(١) يتيمة البيان:٥٧-٥٨

(٢) ترجمان القرآن:٤٢/٢

(٣) ترجمان القرآن: ٦٠/٢

(٤) ترجمان القرآن:٤٦/٢

ذلك لتعيين القاتل ؛ لأنه متعين ومعلوم ، وإن كان القاتل غيرمعلوم فكيف يستطاع لهم أن يضربوا القاتلَ ببعض أجزاء المقتول ؟ فهل يُعقَلُ هذا ؟

ومنهم الكاتب الإسلامي المعروف أبوالأعلى المودودي من شخصيات بارزة ،حيث بَرَزَ صَاحِبَ تصانيفَ كثيرةٍ و مقالاتٍ عديدةٍ ، وله تفسير أسماه " تفهيم القرآن" ولكن لم يكن له رسوخٌ في علوم التفسير ولا في العلوم الشرعية ولا في العلوم العربية ، وبالتالي لم تكن لديه أهلية القيام بالتفسير، ومع هذا فَسَّرَ القرآنَ حسبَ ما أدّى إليه فكرُه الخاطئ واجتهادُه السقيم، فَزَاغَ قلمُه وطَغٰى، وغَلَطَ في تفهيم كلام اللّٰه تعالى في أكثر مواضعه ، و ظهرتْ منه أفكارٌ زائغةٌ فَزَعَتِ الأسماعَ ، وافْتَضَحَتْ نظرياتٌ فاسدةٌ أدْهَشَتِ الأذهانَ .

ومن أفكاره الزائغة ما قال في كتابه " قرآن كى چار بنيادى اصطلاحيں" [أربعة مصطلحات قرآنية أساسية]: إن لفظ الإله ، والرب ، والعبادة ، والدين ، أربعةُ مصطلحات أساسية للقرآن؛ ولكن وَقَعَ في معانيها تَغَيُّرٌ، وانحازتْ هذه المعاني الوسيعةَ إلى معانٍ ضيقةٍ محدودةٍ مُبْهَمَةٍ. وذلك لأمرين:الأول لِقِلَّة ذوق العربية ، والثاني:لكونِ المسلمين وُلِدُوا في الإسلام، فلم يَعْرِفُوا تلك المعاني المُستعمَلةَ في الكفّار في عهد نزول القرآن . ولذا خَفِيَتْ على أئمة اللغة وأرباب التفسير تلك المُصطلحات بمعانيها المستعملة في عهد النزول، وفَهِمَ هؤلاء ما كان يَفْهَمُهُ المسلمون، وأنه لخفاء هذه المعاني خَفِيَ على الناس ثلاثةُ أرباعِ الدين؛ بل خَفِيَتْ عليهم روحُ الإسلام الحقيقية (١).

وبعد هذه الدعوى العريضة التي تُخطّئ جمهورَ المسلمين من غير استثناء أحدٍ منهم،أخذ يفسِّرُ بعضَ الكلمات القرآنية من "الإله" و" الرب " و "العبادة" و"الدين" بِمَا لم يَقُلْهُ أحدٌ من الصحابة والتابعين، ولا من الأئمة المجتهدين والمفسِّرِين ، ولا من أرباب اللغة والبيانيين . فقال في معنى الإله:إن السلطة هي روحُ الألوهية .(ص:١٩)، وقال في معنى الرب : إن الربوبية مرادفةٌ للسيادة والسلطة ، فالربُّ هوالسلطان المطلق.(ص:٧٩). وقال في معنى العبادة:إن العبادة اسْتُعْمِلَتْ في القرآن تارةً بمعنى العبودية ، تارةً

(١) قرآن كى چار بنيادى اصطلاحيں:٥-١٠

بمعنى الإطاعة، وتارةً بمعنى التذلُّل، ويقول: إن دعوة القرآن هي أن يكون الإطاعة والعبودية والتذلل للّه تعالى فقط (ص:٩٠-٩٨). ولم يَدْرِ المسكينُ أن هذا خلافُ ما نَطَقَ به القرآنُ من قوله تعالى: ﴿**أَطِيْعُوْا اللّٰهَ وَأَطِيْعُوْا الرَّسُوْلَ**﴾ [النساء:٥٩].

وقال في معنى الدين:إن الدين هو اصطلاحٌ جامعٌ، والمراد به نظامُ الحياة والتمدن الذي يعترف فيه الإنسان لأحد النفوذَ الأعلى والسلطةَ العُليا مطيعاً له. ويقول: لا يُوجَدُ في لسان من ألسنة الدنيا اصطلاحٌ جامعٌ مثلُه، ولفظة "استيت"{state} أي "الرياسة" بَلَغَ مَعْنَاهُ قريباً منه إلى حدٍّ . ويقول في تفسير ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُوْنِيْ أَقْتُلْ مُوْسٰى وَلْيَدْعُ رَبَّه، إِنِّيْ أَخَافُ أَنْ يُّبَدِّلَ دِيْنَكُمْ**﴾ [المؤمن:٢٦] إن الدين ههنا ليس هو بمعنى الديانة ، فحسبُ ؛ بل هو بمعنى الرياسة ونظام التَّمَدُّن(١).

أقول : مع قطع النظرعما تضمر هذه الدعوى - من رفع الأمان عن أرباب اللغة والثقة بالمفسّرين طوالَ هذه القرون، وفتح باب التأويل في القرآن بما يفهمه العقل والإدراك، من دون أن يستشهد و يحتج بأئمة اللغة ورجال التفسير - إن ما قاله الشيخ المودودي في معنى هذه الألفاظ لم يقله أحد من السلف الصالح ؛ بل هو من مخترعات ذهنه الذي تسلط عليه الفكر السياسي. ولذا فسّرهذه الألفاظ بلون سياسي. ولقد أجاد فيما رد عليه الشيخ أبو الحسن على الحسني الندوي في كتابه "عصر حاضر مين دين كى تفهيم و تشريح" فراجعه.

ومن تفسيره الخاطئ ما قاله في قوله تعالى:﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلٰى نِسَآئِكُمْ** ﴾ [البقرة:١٨٧] قال:

" ولم يكن هناك حكمٌ صريحٌ في أنه لا يجوز لأحد أن يُباشِرَ زوجتَه في ليلة الصيام، ولكنهم (اى الصحابة) اعتقدوا من عند أنفسهم أنه لايجوز، ومع ذلك قد كانوا يُباشِرُون أزواجَهُم، وكأنهم يختانون أنفسَهم بذلك، فلذلك نَبّهَهُم اللّٰه على ذلك أوّلًا، ثم قال:"أُحِلَّ لكم ليلةَ الصيام الرفث إلى نسائكم(٢).

(١) انظر: قرآن كى چار بنيادى اصطلاحين:١٠٨-١١١
(٢) تفهيم القرآن:١٤٥/١

قلتُ: وهذه غفلةٌ منه شديدةٌ ؛ لأن ابن عباس وكعب بن مالك وأبا هريرة من الصحابة صرّحُوا بأنّ ذلك كان حراماً عليهم قبل نزول الآية، فكيف يقول:إن الصحابة اعتقدوا ذلك من عند أنفسهم، ولم يكن هناك أمر صريح؟(١).

إخضاع معاني القرآن أمامَ نظريات فاسدة

ومن أعظم أسباب الانحراف إخضاع معاني القرآن الكريم أمامَ النظريات الفاسدة، والمعتقدات الباطلة . وهذا هو دأب الفرق الضالّة المُضِلّة من أوّل الزمان إلى يومنا هذا ، فإنهم اتخذوا من تأويل القرآن باباً للوصول إلى أغراضهم الدَنِيَّة .

قال العلامة القرطبي:

" وهذا النوع يكون تارةً مع العلم كالذي يحتجُّ ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك؛ ولكن مقصوده أن يُلبِّسَ على خصمه ؛ وتارةً يكون مع الجهل، وذلك إذا كانت الآية محتملةً، فيَمِيْلُ فهمُه إلى الوجه الذي يُوَافِقُ غرضَه؛ ويُرَجِّحُ ذلك الجانبَ برأيِهِ وهوَاهُ، فيكونُ قد فَسَّرَ برأيه، ورأيُه حَمَلَهُ على ذلك التفسير، ولولا رأيُه لَمَا كان يَتَرَجَّحُ عنده ذلك الوجهُ " (٢).

وقد تناول هذا الموضوعَ العلامةُ شيخ الإسلام ابن تيميةؒ في فتاواه(٣). ونحن نتكلّم هنا على ذلك في ضوء ما أفاده كلامُه مع بعض الزيادات المناسبة منّا في الموضوع .

فنقول وباللّٰه التوفيق : إن الانحراف والخطأ في التفسير جاءَ من جهتين:

الأول: بأن حمل قوم ألفاظ القرآن الكريم على معاني اعتقدوها ، من غير نظر إلى ما تقتضيه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان ؛ وهو كتفسير الاستمتاع الذي وقع في قوله تعالى:﴿ **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوْهُنَّ أُجُوْرَهُنَّ فَرِيْضَةً** ﴾ [النساء: ٢٤] بالمتعة الذي يقول به الشيعة الشنيعة، ولادلالة فيه على ذلك؛ فإن المراد بالآية

(١)انظر تفسير الطبري:٩٤/٢،و ابن كثير:٣٧٥/١،و فتح الباري:١٨٢/٨

(٢)تفسير القرطبي:٣٣/١

(٣)انظر فتاوى شيخ الإسلام: ٣٥٥/١٣-٣٦٣

الاستمتاع بالنكاح الشرعي لا بالمتعة.

وكتفسير الشجرة في قوله تعالى: ﴿**وَقُلْنَا يَآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ**﴾ [البقرة:٣٥] بشجرة علم محمد وآل محمد، كما قاله الحسن العسكري في تفسيره المنسوب إليه، ولفظه: "لا تقربا هذه الشجرة: شجرة العلم شجرة علم محمد وآل محمد، الذين آثرهم اللّٰه به دون سائر خلقه، فقال اللّٰه تعالى: لا تقربا هذه الشجرة شجرة العلم، فإنها لمحمد وآله خاصةً دون غيرهم، ولا يتناول منها بأمر اللّٰه إلا هم....... (١).

ثم إنهم صنفان:

١- صنفٌ يسلبون لفظَ القرآن ما دَلَّ عليه وأُرِيْدَ به من المعاني، كما فَسَّرَ الشيعةُ والمعتزلةُ قولَه تعالى: ﴿**وُجُوْهٌ يَّوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ، إِلٰى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] بأن المراد أنها تنتظر ثوابه، قالوا: وإنّما نعني بالنظر إليه النظرَ إلى ثوابه تبارك وتعالى(٢).

فاستلبوا معنى النظر المراد به من قوله:" إلى ربها ناظرة" وصرفوه إلى المعنى الذي قصدوه به من غير حاجة، ومن غير داعٍ يقتضي الصرفَ إلى ذلك المعنى.

٢- وصنفٌ يحملونه على ما لم يدلّ عليه ولم يُرَدْ به، كقول الرافضة في تفسير قوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِيْ لَهَبٍ**﴾ [اللهب:١] هما أبو بكر وعمر، وكقولهم في تفسير قوله تعالى: ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾ [الزمر:٦٥] لئن أشركت بين أبي بكر وعلي في الخلافة، وكقولهم في تفسير: ﴿**إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوْا بَقَرَةً**﴾ [البقرة:٦٧] هي عائشة رضي الله عنها، وقولهم في تفسير: ﴿**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ**﴾ [الرحمن:١٩] هما علي وفاطمة.

ثم لا يخفى أن في كلا الأمرين قد يكون المعنى الذي قصدوه بذلك باطلاً، فيكون خَطَأُهم في الدليل والمدلول جميعاً، وقد يكون المعنى الذي قصدوه بذلك حقّاً، فيكون خَطَأُهم في الدليل لا في المدلول.

(١) تفسير الحسن العسكري:٨٩، ذكره في التفسير والمفسرون:٢/ ٩٣

(٢) الصافي لملا محسن الكاشي، انظر" التفسير والمفسرون": ١٨٣/٢

أمّا الذين أخطأوا في الدليل والمدلول فهم الذين اعتقدوا مذهباً يُخالِفُ الحقَّ الذي عليه الأمة الوسط، الذين لايجتمعون على الضلالة كسلف الأمة وأئمتها ، ثم عَمِدُوا إلى القرآن، فتأوّلُوه على آرائهم مثل طوائف من أهل البدع.

ولهم في ذلك طريقان: ١- تارةً يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها على ذلك ، كما فعلوه في تفسير الاستمتاع، فإنهم قالوا : إن المراد به المتعة الذي يقول به الشيعة الشنيعة ولادلالة فيه على ذلك كما مَرّ ، وكذا تفسيرهم قوله تعالى: ﴿**إِلَّا أَنْ تَتَّقُوْا مِنْهُمْ تُقٰةً**﴾ [آل عمران:٢٨] بأن المراد به التقية الشيعية ، كما يقول الطبرسي من الشيعة، ولفظه : " والمعنى: إلا أن يكون الكفار غالبين والمؤمنون مغلوبين ، فيخافهم المؤمن إنْ لم يظهر موافقتَهم ولم يحسن العشرة معهم ، فعند ذلك يجوز له إظهارُ مؤدّتِهم بلسانه ومداراتهم تقيةً منهم ودفعاً عن نفسه من غير أن يعتقد ذلك " (١).

فهذا لادلالة فيه على ماذهبوا إليه ، ولولم يكن لهم ميلٌ إلى رأي يرونه لكان لا يلوحُ لهم من القرآن ذلك المعنى، فأخطأوا في الدليل والمدلول جميعاً، كما لايخفى على من له أدنى مسكة من العلم.

قلتُ: وممن سلك هذا المسلكَ الباطلَ المتنبّي الكاذبُ الفنجابي غلام أحمد القادياني، الذي ادّعَى النُبوّةَ في القرن الماضي، وفسّرالقرآنَ الكريمَ على وفق زعمه الباطل؛ بل حرَّفَ معانيه على حدٍّ تكاد تكون سُخْرِيَّةً ، كما قال هذا الكذّاب القادياني في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ** ﴾ [النمل:٨٢] : " إنّ المراد بالدابّة دودة الطاعون (٢). وتأوّل لفظَةَ خاتم في قوله : ﴿ **وَخَاتَمَ النَّبِيِّيْنَ**﴾ بأن المراد به الخاتَم الّذي يُخْتَمُ به الكتابُ، وأنْكَرَ كون نبيّنا محمد ﷺ خاتَمَ النَبيِّين بمعنى آخر النَبِيِّين (٣)، إلى غير ذلك من التحريفات الباطلة.

٢- تارةً يتأوّلُون ما يُخالِفُ مذهبَهُمُ بما يحرّفون به الكلم عن مواضع من الكتاب، وذلك كما فَعَلُوه في تفسير قوله : " إِلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ " وقد سبق .

(١)مجمع البيان للطبرسي: ١٨٣/١
(٢)نزول المسيح:٣٨
(٣)حقيقة الوحي : ٢٥

قال شيخ الإسلام : ومن هؤلاء فرق الخوارج ، والروافض ، والجهمية، والقدرية، والمرجئة، وغيرهم ، فهٰؤلاء اعتقدوا رأياً ، ثم حَمَلُوا القرآنَ عليه، وليس لهم سلفٌ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمّة المسلمين، لا في رأئهم ولا في تفسيرهم ، وما من تفسيرٍ من تفاسيرهم الباطلة إلا وبُطلانُه يَظْهَرُ من وُجُوهٍ كَثيرةٍ.

وأما الّذين أخطأُوا في الدليل لا في المدلول، فمثل كثير من الصوفية، والوعاظ، والفقهاء، و غيرهم ؛ فإنهم يفسّرون القرآن بمعان صحيحةٍ ، و يكون غرضهم بذلك صحيحاً، لكن القرآن لايدلُّ عليها، وهذاً في الحقيقة ليس من الضلالة، والانحراف في شيء ؛لأن ما قَالُوه من المعاني وإن لم يدلّ عليها القرآنُ، فإنه يدلُّ عليها دليلٌ آخرُ من الأدلة الشرعية، كما لا يخفٰى .

أما الصوفية والوعاظ فقد يُحَرِّضُهُم على ذلك النصحُ، والإرشادُ، والترغيبُ، والترهيبُ. ومثالُه ما ذكرنا في فصل " التفسير الإشاري"، ومنه ما قال نجم الدين الداية في " التاويلات النجمية" في تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوْتُ بِالْجُنُوْدِ قَالَ إِنَّ اللّٰهَ مُبْتَلِيْكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّيْ وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهٗ مِنِّيْ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهٖ**... ﴾ [البقرة:٢٤٩] قال:

" والإشارة فيها: أن اللّٰه تعالى ابتلى الخلق بنهرالدنيا وماءِ زِيْنَتِهَا، وما زَيَّنَ للخلق فيها، ليظهرَ المُحْسِنُ من المُسِيْءِ، و لِيَمِيْزَ الخبيثُ من الطيّبِ ، والمقبولُ من المردودِ، ثم امتحنهم وقال: ﴿ **فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّيْ وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهٗ مِنِّيْ** ﴾ يعني من أوليائي و مُحِبِّي وطلّابِي، و له اختصاص بقُربي، وقبولي، والتَخلّق بأخلاقي، ونيل الكرمة منّي،﴿**إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهٖ**﴾ يعني: من قَنَعَ من متا ع الدنيا على ما لا بُدَّ منه من المأكول، والمشروب، والملبوس، والمسكن، وصحبة الخلق، على حد الاضطرار بمقدار القوام .... إلخ"(١).

قلت: لا شك أن هذا المعنے معقولٌ، والغرض صحيحٌ، إلا أنه لاتدُلُّ عليه الآيةُ المذكورةُ كما لا يخفٰى على المتأمِّل .

(١) انظر :التفسير والمفسرون:٣٩٦/٢

وأما الفقهاء فقد يسلكون هذا المسلكَ لغرض التدليل على مذهبٍ مُعيّنٍ من المذاهب الفقهية، وأما أمثلته من كلام الفقهاء فكما قال بعض الشافعية بوجوب النية في الوضوء مُستدِلًّا بآية الوضوء، وقالوا: إن الآية تقتضي إيجابَ النية لأن معنى قوله تعالى: ﴿ **إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلٰوةِ فَاغْسِلُوْا إلخ**﴾ [المائدة:٦]أي إذا أَرَدْتُم القيامَ وأنتم مُحدِثُون، والغَسْل وقع جزاءً لذلك، والجزاءُ مسبّبٌ عن الشرط، فيُفِيدُ وجوبَ الغَسْل لأجل إرادة الصلاة، وبذلك يَثبتُ المطلوبُ، و هذا الذي قالوا لادلالةَ فيه على المطلوب ،كما حَقَّقَهُ الآلوسي في روح المعاني (١).

وكذا استدلال البعض على أن الخلعَ فسخٌ، لا طَلَاق بأن اللّٰه تعالى قال : ﴿ **اَلطَّلَاقُ مَرَّتٰنِ، فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوْفٍ أَوْ تَسْرِيْحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾[البقرة:٢٢٩] ثم عقب ذلك بقوله :﴿**وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوْا مِمَّا اٰتَيْتُمُوْهُنَّ شَيْئًا**﴾ [البقرة: ٢٢٩] إلى أن قال في نسقِ التلاوة:﴿ **فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتّٰى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**﴾ [البقرة: ٢٣٠] فأثبت الثالثةَ بعد الخلع، فدلَّ ذلك على أن الخلعَ ليس بطلاق،إذ لو كان طلاقاً لكانت هذه رابعةً ؛لأنه ذكر التطليقتين بعد الخلع، ثم ذكرالثالثة بعد الخلع.

قلتُ: ولكن لا دلالةَ فيه على ذلك ؛لأن قوله تعالى:﴿ **فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتّٰى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ**﴾ معطوف على قوله " اَلطَّلَاقُ مَرَّتٰنِ" لأن قوله "أَوْ تَسْرِيْحٌ بِإِحْسَانٍ" إنّما يعني به "أَوْ تَطْلِيْقَةٌ" فلوكان الخلع معطوفاً على تطليقتين لكان لايجوز الخلع إلابعد تطليقتين، وهذا لا يقوله أحدٌ (٢).

ثم لا يخفى عليك أنه لانعني بهذا الردِّ، الاستدراكَ على نفس المسئلة ؛ لأنها من المسائل التي ذَهَبَ إليها إمامٌ من أئمة المسلمين، ونَعْتَقِدُ فيهم حقاً أنّهم لم يخرج اجتهادُهم عن سبيل الدَّلَالَات في مقصود الشريعة، ولا جَاوَزَ طَرَفَيْهَا إلى الإفراط؛ بل نعني به الردَّ على الاستدلال بالآية فحسبُ، ولذا ذَكَرْنَاهَا في هذا الفصل، الذي عُقِدَ لبيان من أَخطَأَ في الدليل لا في المَدلُول .

---

(١)انظر: روح المعاني:٨١/٦

(٢)انظر: تفسير القرطبي:١٤٤/٣

الانحراف بسبب التأثر بآراء أهل الزمان

ومن الأسباب التي تُوجِبُ الانحرافَ في التفسير، هوالتأثُّر بآراء أهل الزمان من الفلاسفة والمناطقة والطبيعيين وغيرهم. وهذا السبب في الحقيقة من بقية ما مرَّ من إخضاع معاني القرآن أمامَ نظرياتٍ فاسدةٍ؛ ولكنا أرَدْنَا أن نَتَكَلَّمَ عليه استقلالاً لكون ذلك مُهِمًّا بالنظر إلى ما ظهرمن الانحرافات في التفسير، بسبب ما أشرنا إليه الآن .

فنقول: إنه قد مَضَتْ في تاريخ الإسلام أفرادٌ وجماعاتُ تأثّرُوا، وانْذَعَرُوا بالعلوم الفلسفية والمنطقية والطبيعية؛ وآمَنُوا وصَدَّقُوا بكل ما فيها من نظريات و آراء ، ووَضَعُوا تلك النظريات والآراء أمامَ أعْيُنِهِم ؛ ثم نَظَرُوا من خلالها إلى القرآن والإسلام، حتىٰ فسَّرُوا القرآنَ الكريمَ والسنةَ النبويةَ، طبقاً لما تَقُولُ به تلك العلومُ والنظرياتُ ، رغماً من أنها لم تبلغ إلى درجةٍ تُوجِب الإيقانَ والتحقيقَ ، وعلى حين أنها قد تُخَالِفُ ما يهدفُ إليه القرآنُ والإسلامُ ، أو لا يتفق معه كلياً أوجزئياً. والذي نراه أن الهزيمة الداخلية هي التي دَفَعَتْهم إلى تلك المحاولة ، ولذلك نراهم تارةً يُؤوِّلُون ما حقّقه القرآنُ والسُّنةُ بما تُفْهِمُه نزعتُهم الفلسفيةُ من غير ضرورةٍ تَدْعُوُ إليه ؛ وتارةً يعنون به ما لم يُرِدِ اللّٰهُ به اتباعاً لأهل الزمان، لكونهم مذعورين مرعوبين بها على حدٍ انتزعتْ منهم حُرّيةُ الفكر، وكَبّلَتْ عقولَهم وأفهامُهم، بحيث لا يستطيعون أن يَتَدَبَّرُوا القرآنَ، و يفهموه بفكرةٍ حُرّةٍ، و بصيرةٍ ثاقبةٍ ؛ ولايستطيعون أن ينظروا ما فيه من الحقائق، والعلوم ، والأحكام ، والتعاليم، إلا من خلال تلك النزغة الفلسفية ، والعقلية . وإنما غرضهم بذلك إخضاع معاني القرآن أمامَ تلك النظريات الفلسفية، والمنطقية، والطبيعية؛ بل يُمْكِنُنَا أن نقول – كما يظهر من طريقتهم – إن غرضهم في الحقيقة شرح بعض النظريات العصرية لتدعيمها، ولخدمتها على حساب القرآن الكريم.

والذي يلوحُ لنا في ثنايا دروس التاريخ أن هذه الحادثة إنّما حدثتُ في الإسلام بعد ما نُقلتْ كتُبُ الفلسفة اليونانية، والعلوم الرومية، والفنون الهندية، إلى العربية،وكان ذلك في عهد خلافة المامون، ثم انتشرتْ، وشاعتْ نظرياتُهم

في الناس؛ حتى ظنَّ منُ ظنَّ منهم أن المنطق اليوناني، والفلسفة اليونانية، والعلوم الرياضية الهندية، هي الميزان العقلي الوحيد الذي تُوزَنُ به الأحكام، والأفكار، والعلوم ، والأنظار؛ و يتميز به الحق من الباطل ، والخطأ من الصواب والصدق من الكذب .

والذين تأثَّرُوا بآراء أهل زمانهم هم المعتزلة ، والقدرية، والجهمية، وغيرهم من الفِرَقِ الضالَّةِ المُضِلَّةِ الذين اختارُوا من المعتقدات، والنظريات، ما هو خلافُ ما عليه جمهور المسلمين. ومن الملائم ههنا أن نذكر في هذا الصدد طائفةً من تفاسيرهم الباطلة، التي خالفوا فيها جمهورَ المسلمين.

ؤ ذَهَبَتِ المعتزلةُ والجهميةُ إلى أن "الميزان" في قوله تعالى:﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِيْنَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ**﴾[الانبياء:٤٧] هو العدل لا الميزان المعروف، وقالوا : لا تُوزَنُ أعمالُ بني آدم ؛ وبَنَوا مذهبَهم على أن الأعراض يستحيل وزنُها، فليس الميزان بمحمول على الحقيقة. ولكن هذا باطل . قال العلامة الشوكاني في فتح القدير:" وأما المُسْتَبْعِدُونَ لحمل هذه الظواهر على حقائقِها، فما يأتُون في استبعادهم بشيءٍ من الشرع يُرْجَعُ إليه؛ بل غايةُ ما تَشَبَّثُوا به مجرّدُ الاستبعادات العقلية، وليس في ذلك حجة على أحد،فهذا إذا لم تقبله عُقولُهم، فقد قَبِلَتْهُ عقولُ قومٍ هي أقوى من عقولهم من الصحابة ، والتابعين، و تابعيهم، حتى جاءتِ البدعُ كالليل المُظلم، وقال كلٌّ ما شَاءَ، وتركوا الشرعَ خلفَ ظهورهم(١).

ؤ أنكرت المعتزلة والجهمية أن يكون اللّٰه تعالى مستوياً على العرش ، وقالوا: إن اللّٰه تعالى في كل مكان. وإنما قالوا ذلك على أصولهم من أن الشيء لا يكون مستوياً على شيء إلا مقروناً بالتكييف، وهو محال في حقه تعالى، فلا يكون مستوياً على العرش، وتأولوا قوله تعالى:﴿**اَلرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى**﴾[طه:٥] بأن المراد به الاستيلاء ، والجواب ما قاله ابن عبد البرؒ : إنه قد يكون الاستواء واجباً، والتكييف مرتفع، وليس رفع التكييف يوجب رفع الاستواء، ولولزم هذا لزم التكييف في الأزل ؛ لأنه لا يكون كائن في لا مكان إلا مقروناً بالتكييف، وقد عقلنا وأدركنا بحواسّنا أن لنا أرواحنا في أبداننا، ولا نعلم كيفية ذلك ، وليس جهلنا بكيفية الأرواح يوجب أن ليس لنا أرواح ، و كذلك **ليس**

(١)فتح القدير: ١٩٠/٢

جهلنا بكيفيته على عرشه يوجب أنه ليس على عرشه(١).

ؤ أنكرت الجهمية والمعتزلة صفاتَ الباري عزَّ اسمُه التي أثْبَتَهَا القرآنُ والسُّنّةُ، وقالوا: إن إثبات الصفات يستلزم تشبيهَ الخالق بمخلوق، وهو عين الإشراك بالله تعالى، فعلى أصلهم هذا أنْكَرُوا رؤيةَ الله تعالى في الآخرة، والنزول، والإتيان، والكلام، والعلم، والحياة، وغير ذلك من صفات الله الباري.

ثم إنهم تَفَرَّقُوا فرقتين: أما الجهمية فأظْهَرُوا القولَ بإنكار الصفات، حتى صارَ قولُهم في الحقيقة تعطيلَ الخالق سبحانه، ولذا سُمُّوا مُعطِّلةً، وأما المعتزلة فيقولون :إن الله كلّم موسىٰ حقيقةً، وتكلّم حقيقةً ؛لكن حقيقةَ ذلك عندهم أنه خَلَقَ كلاماً في غيره، إمّا في شجرة، وإمّا في هواء، وإمّا في غيره، من غير أن يقوم بذاته كلام، وكذا يقولون في جميع صفاته تعالى(٢).

ؤومِمَّنْ حَكّمَ النظرياتِ الفلسفيةَ في النصوص القرآنية الشيخُ الرئيسُ أبو علي بن سينا، وكان يشرح الحقائقَ القرآنيةَ بالنظريات الفلسفية، كما نَجدُ ذلك في رسائله، فيُفسِّر العرشَ بأنه الفَلَكُ التاسعُ الذي هو فلك الأفلاك ؛ ويفسِّرُ الملائكةَ الثمانيةَ التي تحمل العرشَ بالأفلاك الثمانية التي تحت الفلك التاسع ؛ ويفسِّرُ الجَنّةَ بالعالم العقلي، والنَّارَ بالعالم الخيالي(٣).

ولا يخفى ما فيه من التحريف في معاني القرآن ؛ والإلحاد في حقائق الدين؛ بل هو في الحقيقة استهزاء و تسخُّر بالحقائق الإسلامية .

ؤأنكر أبو مسلم الأصفهاني من المعتزلة و موافقوه أن يكون خلقُ حوّاء من نفس آدم، كما قال تعالى﴿ **الَّذِيْ خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَّاحِدَةٍ وَّخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾ [النساء:١] وقالوا: إن الله قادرٌ على أن يَخْلُقَها من التراب؛ فأيّ فائدةٍ في خلقها من نفس آدم؟ وتأوّلوا قوله تعالى:﴿ **خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا** ﴾ بأن المراد "خَلَقَ مِنْ جِنْسِهَا" على حدِّ قوله تعالى: ﴿**جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا** ﴾ [الشورى:١١]

(١) التمهيد:١٣٧/٧

(٢)انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٥٠٣/١٢-٥٠٧

(٣)انظر التفسير والمفسرون: ٤٢٦/٢-٤٢٧

وإنما استبعدوا خلق حَوّاء من نفس آدم لما يجرُّ هذا – على زعمهم – إلى القول بـأن آدم كان ينكح بعضه بعضاً ، وفيه من الاستهجان ما لايخفى. ولكن زعمهم هـذا– كـما قال الآلوسي البغدادي – باطلٌ أمّا أوّلًا فلأنه ليس في الآيات ولا في الأحـاديـث مـا يتوهم منه إشارة إليه أصلاً ، فضلًا عن التصريح به، وأما ثانياً فلأنه لـو كـان الأمر كما ذُكِرَ لكان الناسُ مخلوقين من نفسَيْن لا من نفسٍ واحدةٍ، وهو خـلاف مـا نـطـق بـه النصُّ القرآني والحديثُ النبوي، وأما ثالثاً فلأن قولهم :أيّ فـائـدة فيـه؟ فيُمْكِنُنَا أن نقول في جوابه :إن فائدة ذلك إظهار قدرته ل على خلق الحيّ من الحيّ كقدرته على خلق الحيّ من جمادٍ ، وهذا سِوٰى ما خَفِيَ علينا من الحِكَم الإلٰهية في ذلك (١).

قال الراقم: ومِـمّا يُحزِن أنه كما مضتُ أفرادٌ وجماعاتٌ تأثّروا بما تُمْلِيهِ عـليهـم الـفـلسـفةُ القديمةُ اليونانيةُ، كذلك ظهرتُ رجالٌ في العُصُور الراهنة من الطبقة المُثَقَّفَةِ الذين كلّتُ أبصارُهم بما يُشَاهِدُون من التقدُّم والازدهار، في شتّى ميـادين العلوم الكونية من الطب، والهندسة ، والحساب، والهيئة، والفلك، وعلم الاقتـصـاد، والاجتـمـا ع، وعـلـم الـطبيـعة، والكيميا، وغير ذلك؛ وتسلّطتُ على قـلـوبهـم آراءٌ فـلسـفيةٌ، وأفـكارٌ مادّيةٌ؛ حتى نَجِدَهُم يلهثون وراء هذه النظريات والـفـروض التي يكشفه العلم الحديث ، واعتقدوا أن هذه العلوم الكونية الطبيعية هـي الـميـزان الـقسـط لِـفَهْمِ القرآن والسُّنة ، فما وَافَقَ منهما هذه العلومَ الكونيةَ الـمـاديةَ، هو الحق الصحيح، وما لـم يُوافِقُها فهو إمّا مردودٌ وإما مُؤَوَّلٌ، وانطلا قاً مـن هـذا الأصل المُخْتَرَع المرفوض فقد ردُّوا، أو تأوّلُوا كثيراً من الآيات القُرآنية والأحـاديـث الـصـحيـحة الـنبـوية، وحَـمَلُوا بعض الآيات على غيرما أرادَ اللّٰه به ورسوله . وقد ذكرنا من ذلك أمثلةً في ما سبق.

ولـم يـكتفِ هٰؤلاءُ بمجرّد الإصرار على ما ذهبوا إليه؛ بل نجدهم يثورون عـلـى قـدماء المُفَسِّرين ويَرْمُوْنَهم جميعاً بالسِفْهِ والغَفْلَةِ، ويحملون عليهم حملةً شديدةً نكراء ، ويُوجِّهُون اليهم نَقْدَهُم الساخِرَ ولَوْمَهم اللاذِعَ.

ومن نماذج تفسيرهم : أنه أُنْكَرَ بعضُهم حقيقةَ الشيطان الذي وَرَدَ ذِكْرُه

(١)انظر: روح المعاني:١٨١/٤–١٨٢

فـي الـقـرآن الـكـريـم في مواضع شتىٰ، وقالوا: إن الشيطان هو داعي الشرِّ ونزعةُ الـعـصيـان . قـالـه سـر سيـد أحـمد خان الدهلوي الذي مرَّ ذكرُه في الصفحات الـماضية (١). وكـذا يـقـول أبـو زيـد الـدمـنهـوري الذي كتب التفسير وسماه "الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن"(٢).

أنـكـرالبـعضُ وجودَ عالم الجن والملائكة، وتأوّلُوا الآيات القرآنية بما لا يرضاه الشرع ولا يقرِّرُهُ العقلُ . ومن الذين انكروه سرسيد أحمد خان الدهلوي، وأبو زيد الدمنهوري(٣).

ومـن العجائب تفسير الجنّ بما قاله الشيخ رشيد رضا المصري : إنه يَصِحُّ أن يُـقَـال :إن الأجسـام الحيّة الخفية التي عُرِفَتُ في هذا العصر بواسطة النظارات الـمُـكَبِّـرَةِ، وتُسَمّٰى بـ"المكروبات" يصحّ أن تكون نوعاً من الجنّ، وقد ثَبَتَ أنّها عِلَلٌ لأكثر الأمراض(٤).

ذهـب أكثـر هـٰؤلاء الـمُتـجدِّدِين المُتَنَوِّرِين إلى القول بإنكار المعجزات، وتـأوّلُـوهـا بما أدّى إلى إنكارها، كما قد فعل ذلك سيد أحمد الدهلوي والشيخ طنطاوي جوهري وغيرهما مِمّن انتحل مذهبَهما.

ومـنهـم أبـو زيـد الدمنهوري ، وهو يقول في" الهداية والعرفان في تفسير الـقـرآن بالقرآن"حين يتعرَّضُ لتفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ تَـخْلُقُ مِنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الـطَّيْـرِ بِـإِذْنِـي فَتَـنْفُخُ فِيْهَا فَتَكُوْنُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُـخْـرِجُ الْمَوْتٰى بِإِذْنِي**..... ﴾ [الـمـائـدة: ١١٠] ما نصُّه: من هذا تعرف أن عيسى نبي أرسله اللّٰه إلى بني إسرائيل ليشفي نفوسهم ويُحي موتَ قلوبهم ، فآيتُهُ فـي دعـوته وسيرته وهدايته. عاش ومات كغيره من الأنبياء في بشريته ، فلم يكن خارقاً لِسُنَنِه(٥).

ومنهم العلامة الشيخ رشيد رضا المصري صاحب" تفسير المنار"، وهو

---

(١) انظرتفسيره
(٢) انظر الهداية والعرفان :١٠٥
(٣) انظر: الهداية والعرفان:٧، و ٢٩٧، وتفسير القرآن لسيد أحمد الدهلوي
(٤) على هامش تفسير المنار:٥١٦/٧
(٥) الهداية والعرفان:٩٧

يذهب إلى القول بإنكار المعجزات ويُقَرِّرأنه لا معجزة لنبيّناا غيرالقرآن الكريم (١).

ومن ذلك ما ذهب إليه الشيخ العلامة محمد عبده في تفسير سورة الفيل من أن الطيرالأبابيل يجوزأن تكون من جنس البعوض أوالذباب ،الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض؛ ويجوز أن تكون الحجارة المسومة هوالذي تحمله الرياح، فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسده دَخَلَ في مسامه، وذَهَبَ إلى أن هذا الحيوان الصغير هو الذي يُسَمُّوْنَه الآن بالميكروب (٢).

ولا يخفى ما في تفسيرالطير بالميكروب من العدول عن ما هو واضح، وظاهرلكل من يقرأ القرآن بلا تكلف .

ثم هذا التفسيرالغريب - إني أرى - حَمَلَهُ على ذلك الحرصُ على التوفيق بين معاني القرآن التي قد تَبْدُوْ مُسْتَبْعَدَةً، وبين ما عند الناس من نظريات وآراء ، ولكن كُلَّ من له دراية بِتَذَوُّق أسَاليبِ الأداءِ والبَيَانِ لايُخَالِجُه شكٌّ في أنه لا يليق بجلال القرآن ، وأنه يفسد جماله وبهاؤه .

الاتجاه المنحرف بسبب صرف النظر عن موضوع القرآن

ومن أسباب الانحراف صرف النظر عن مقاصد القرآن وأهدافه، والإغماض عن موضوعه ، وسوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب . وكثيراً ما نجد ذلك في المتجدّدين من الطبقة المُثقّفة الذين لا يعرفون أصول العلم ومبادئ الفن، ومع ذلك يجترئون على تفسيركلام اللّه تعالى، فيُحَاوِلُوْن أن يُضِيْفُوْا إليه ما ليس منه ، وأن يحملوا عليه ما لم يهدف إليه ، وأن يَسْتَخْرِجُوْا منه جزئياتٍ في علوم الطب والكيمياء والفلك وغير ذلك، كأنه كتاب العلوم الكونية الطبيعية؛ حتى نَرىٰ منهم مَنْ يُصَرِّحُ بأن القرآن مقصدُه الدعوةُ إلى درس العلوم الكونية فحسبُ ،كما يَتَرَشَّحُ مما قاله العلامة الشيخ طنطاوي وهو في صدد بيان السبب

(١) انظر:تفسير المنار:٣٣٤/١١

(٢) ذكره في التفسير والمفسرون :٥٦٩/٢، وقد مر نصه في ما سبق

الدافع له على وضع التفسير، فقال:

"وإني لعلى رجاءٍ أن يؤيّدَ اللّٰهُ هذه الأمةَ بهذا الدين، و يَنْسَجَ على منـوال هـذا التـفسير المُسْلِمُوْن ، ولَيَقْرَأَنّ في مشارق الأرض و مغاربها مـقـرونـاً بالقبول، ولَيُوْلِعَنَّ بالعجائب السماوية والبدائع الأرضية الشُبّانُ الـمُـوَحِّـدُوْن ، ولَيَـرْفَعَنَّ اللّٰهُ مدنيتَهم إلى العلا، ولَيَكُونَنَّ داعياً حثيثاً إلى درس الـعـوالـم الـعـلـوية والسـفـلية، ولَيَقُومَنَّ من هذه الأمة منْ يَفُوْقُوْنَ الفرنجةَ في الزراعة، والطبّ، والمعادن، والحساب، والهندسة، والفلك، و غيرها من العلوم والصناعات(١).

والـعَـجَـبُ كـلَّ الـعـجـب لسـذاجة هؤلاء المُتَجَدِّدِيْن المُتَحَمِّسِيْن لهذا الـقـرآن، كيف ذَهَـلُوْا عن موضوعه الأعلى و عن مقصده الأسمىٰ الذي صرح به فـي مـواضـع شتّـى بـكل صراحةٍ ووضوحٍ؛ حتى لا يمكن صرفُ النظر عن ذلك لأحد مِمَّنْ يقرأه، وإليك بعض الآيات في هذا الصدد :

١- ﴿ **الٓمّٓ، ذٰلِكَ الْكِتٰبُ لَا رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ** ﴾ [البقرة:١-٢]

٢- ﴿ **قَدْ جَاءَ كُمْ مِّنَ اللّٰهِ نُوْرٌ وَّكِتٰبٌ مُّبِيْنٌ، يَهْدِيْ بِهِ اللّٰهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَه‘ سُبُلَ السَّلٰمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمٰتِ إِلَى النُّوْرِ بِإِذْنِهٖ وَيَهْدِيْهِمْ إِلٰى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ** ﴾[المائدة:١٥-١٦]

٣- ﴿ **تَنْزِيْلَ الْعَزِيْزِ الرَّحِيْمِ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَائُهُمْ فَهُمْ غٰفِلُوْنَ** ﴾[يٰسٓ:٥-٦]

٤- ﴿ **وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرٰى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيْهِ فَرِيْقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيْقٌ فِي السَّعِيْرِ** ﴾[الشورى: ٧]

٥- ﴿ **إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِيْ لِلَّتِيْ هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ الصّٰلِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيْرًا** ﴾ [الإسراء:٩]

٦- ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِيْ هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُوْنَ،قُرْآنًا عَرَبِيًّاغَيْرَ ذِيْ عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ** ﴾ [الزمر:٢٦-٢٧]

(١)ذكره في التفسير والمفسرون :٥٠٦/٢

٧- ﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩]

والآيات في ذلك كثيرةٌ ، وللمُنصِف في ما ذُكِرَ كفايةٌ ، فالهدف الأعلى والغرض الأسمى من هذا الكتاب العظيم هو الإنسان نفسه من حيث نياته، وتصوراته، و معتقداته ، و مشاعره ، وسلوكه ، و أعماله ، وأخلاقه ، و روابطه ، و علاقاته ، وأما العلوم المادية فهي موكولة إلى الإنسان.

ولقد صدق الشيخ سيد قطب الشهيد حيث قال:

" إن مجالَه (أي القرآن) هو النفسُ الإنسانيةُ والحياةُ الإنسانيةُ ، وأن وظيفتَه أن يُنشِئَ تَصَوُّراً عامّاً للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بِرَبِّه ، وأن يُقِيَمَ على أساس هذا التصوّر نِظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كلَ طاقاتِه، ومن بينها طاقتُه العقليةُ التي تقومُ هي بعد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق المجال لها ؛ لتعمل – بالبحث العلمي – في الحدود المتاحة للإنسان، وبالتجريب والتطبيق ، وتصل ما تصل إليه من نتائج ، ليست نهائيةً ولامطلقةً ، بطبيعة الحال .

إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته: تصوره، و اعتقاده ، و مشاعره ، و مفهوماته ، وسلوكه ، و أعماله ، و روابطه ، و علاقاته، أما العلوم المادية والإبداع في عالم المادة بشتى وسائله وصنوفه ، فهي موكولة عقل الإنسان و تجاربه وكشوفه وفروضه ونظراته . (١)

نعم قد يكون القارئ معجباً بالبدائع الطبيعية، ومغرماً بالعجائب الكونية؛ حتى تَتَسَيُطَرَ هذه العجائبُ والبدائعُ على قلبه وذهنه ، فيَرَاها في كلِّ ما يَرٰى ، كالنائم يَرٰى بعضَ ما تسلّط و تَسَيُطَر على قلبه وذهنه في نومه، كذلك هٰؤلاء المُتَحَمِّسُون للقرآن والإسلام يَرَون تلك العلومَ والنظرياتِ في القرآن، والقرآنُ بعيدٌ عنها بمراحل، وإنما وقع هذا منهم لصرف النظر عن مقصد القرآن و موضوعه كما قد قلنا.

---

(١) في ظلال القرآن:١/١٩٩

ولـذلك نـراهـم يُحَاوِلُون أن يُضِيفُوا إليه ما ليس منه، بالرغم من أنه يكون من نظريةٍ حديثةٍ علميةٍ يمكن أن يكون صحيحاً ويمكن أن يكون خاطئاً، مثلاً:

حـاولـوا أن يُثْبِتُوا الحركةَ الدائمةَ للكون بقوله تعالى: ﴿ **وَكُلٌّ فِيْ فَلَكٍ يَّسْبَحُوْنَ** ﴾[يٰسٓ: ٤٠]

وكشـفـوا أن مادة الـكـون هـي الأثيـر الذي يقال لـه { Ether } بـقولـه تعالى:﴿**ثُمَّ اسْتَوٰى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ** ﴾ [حٰمٓ السجدة:١١]

ورأوا أن الأرض مُـنْـفَتِـقَةٌ من النظام الشمسي ، واسْتدَلُّوا عليه بقوله ﴿ **أَنَّ السَّمٰوٰت وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا** ﴾ [الأنبياء:٣٠]

وما إلى ذلك من الاستدلالات الضعيفة ، وقد مرّ بعضُ الأمثلة في الفصل الماضي فتذكّر.

تنبيه مهمّ

وههـنـا أمر يجب أن يَتَنَبَّهَ له، وهو أن من له خبرة بما في القرآن من العلوم والـمـعارف لا يخالجه شكٌّ في أن القرآن يشمل إشاراتٍ واضحةً أو غامضةً إلى بـعض العلوم الحديثة ، والحقائق الكونية ، التي جدّ ت أو تجدّ، وهو – على ما لا يخفٰى – من إعجازه العلمي الدائمي.

ولا نـريـدُ ههـنـا الاستدراكَ على هذه الحقيقة ، ولا نعني بهذا البيان أن لا نـنتـفـع بـمـا كشـفـه العلم الحديث من نظريات و حقائق في فهم القرآن أصلاً . كيف وهـوأمرٌ جليٌّ واضحٌ لا يمكن صرف النظر عنه ؟ ولكن نريدُ ههنا الردَّ على من يُحَاوِلون أن يُضِيفُوا إليه كلَ ما جدّ من النظريات والعلوم ، ويلهثون وراء هذه الـنـظـريـات والـفـروض ليَـحْـمِـلُوا النصوص القرآنية النهائية على تلك الفروض والـنـظـريـات ، مـن غيـر نظر إلى مقاصد القرآن و موضوعه ؛ حتى قد يذهبوا بما يهـدف إليـه الـقـرآن فـي حـرص إثبـات ذلك مـن القرآن ، وهو أمرٌ يُسَبِّبُ خطراً عـظيـمـاً عـلـى الـكتـاب الإلٰهـي ؛ لأنه قد يكون في العلوم الحديثة ، والنظريات الـفـلسفية، أوهاماً من أصحابها، لا تزيد على هذيان المصاب بالحمّى، فجرّ الآية القرآنية إلى هذه العلوم والنظريات لا يَخْلُوُ من الخطر، وقد مرّ منّا الكلامُ عليه في الفصل السابق .

الباب الثالث

فى المباحث المتفرقة

فصل

المحكم والمتشابه

من واجباتنا في خلال دراسات التفسير أن نعلم أن من الآيات ما يُقَالُ له : محكم ، ومنها ما يُعَبَّرُ عنه بالمتشابه ، وفي إنزال القرآن مشتملاً على هذين القسمين من الحِكَم ما لا يخفى.

قال اللّٰه تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتٰبَ مِنْهُ اٰيٰتٌ مُّحْكَمٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتٰبِ وَأُخَرُ مُتَشٰبِهٰتٌ، فَأَمَّا الَّذِيْنَ فِيْ قُلُوْبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُوْنَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيْلِهٖ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهٗ إِلَّا اللّٰهُ، وَالرَّاسِخُوْنَ فِيْ الْعِلْمِ يَقُوْلُوْنَ اٰمَنَّا بِهٖ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧]

فعُلِمَ من هذا أن من الآيات ما هو محكمٌ ،ومنه ما هو متشابهٌ؛ وهو قول جمهور العلماء ، على حين أن في الباب ثلاثةُ أقوال ذَكَرَه ابن حبيب النيسابوري، على ما حكاه الزركشي و السيوطي : أحدُها : أن القرآن كله محكم ، لقوله تعالى: **﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ اٰيٰتُهٗ ﴾** [هود:١]، الثاني : أنه كله متشابهٌ، لقوله تعالى: **﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾** [الزمر:٢٣] ، الثالث : انقسامُه إلى محكم و متشابه للآية المصدَّر بها(١).

إطلاقاتٌ فى المحكم والمتشابه

وللعلماء في المحكم والمتشابه إطلاقاتٌ بحسب اللغة والاصطلاح ، فاللغويون يستعملون مادّة " الإحكام" في عدّة معان، و مع ذلك فهي ترجع إلى شيء

---

(١) البرهان: ٢ / ٦٨، و الإتقان : ٣/٢

واحد وهو المنع ، يُقَالُ: " أحُكَمَ الأمْرَ " أتْـقَنَهُ ومَنَعَهُ عن الفساد، ويُقَالُ:حَكَمَ نفسَه وحَكَمَ الناسَ: مَنَعَ نفسَه و مَنَعَ الناسَ ، وفي هذا المعنى قال جرير :

أ بني حنيفةَ أحُكِمُوا سُفَهائَكم ❁ إنِّـي أخـافُ عـليكم أن اغضبا

أي رُدوهم و كفوهم وامنعوهم من التعرض لي(١) . وكذلك يستعلون مادّة " التَشَابُه" فيما يدُلُّ على المشاركة والمماثلة المُؤَدّية إلى الالتباس(٢).

وهـذا المعنى جاءَ في التنزيل والحديث، قال تعالى: ﴿ **وَأُتُوْا بِهِ مُتَشَابِهًا** ﴾ [البقرة:٢٥] وقال حكايةً عن بني إسرائيل: ﴿ **إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا**﴾ [البقرة:٧٠] ، و قال النبي ﷺ :﴿ **الحَلالُ بَيِّنٌ والحَرَامُ بَيِّنٌ وَ بَينهُمَا مُتشابِهَاتٌ** ﴾(٣).

إطلاقاتٌ اصطلاحيةٌ في المحكم والمتشابه

هـذا بـحسـب الـلغة، وأما بحسب الاصطلاح، فللعلماءِ فيهما إطلاقاتٌ كثيرةٌ ، وها أنا أكتفي منها على أهمّها:

الأول: الـمُـحـكَم ما عُرِفَ المرادُ منه ظاهراً أو تأويلاً ؛ والمُتشَابِهُ ما لم يكن إلى مـعـرفتـه سبيـلٌ ، واستـأثـر الـلّه تعالى بعلمه ،كقيام الساعة، والحروف المُقطّعة، وصفات البارئ . وهذا القول يُنسَبُ إلى أهل السُّنّة .

الثاني: الـمُحكَم ما لا يَحْتَمِلُ من التأويل إلّا وَجْهاً واحداً ؛ والمُتشابهُ ما يَحْتَمِلُ وُجُوهاً مُتعدّدةً ، وهو قول الأصوليين .

الثالث : أن المُحكم ما وَضَحَ معناه ؛ والمُتَشَابِهُ ما خَفِيَ معناه .

الرابع : الـمُـحُـكَـم مـا كـان مـعقولَ المعنى؛ والمتشابهُ ما هو بخلافه، كأعداد الركعات ، واختصاص رمضان بالصيام .

الخامس : الـمُـحـكَمُ ما هو ناسخٌ ؛ والمتشابه ما هو منسوخٌ . و يُرْوٰى عن ابن مسعود ، وعن بعض الصحابة ﭫ .

السادس: الـمُـحـكـم ناسخُه ، وحلالُه، وحرامُه ، وحدودُه، و فرائضُه ، وما يُؤمَنُ

---

(١) انظر لسان العرب : ١٢/ ١٤٤ ، والفائق للزمخشري: ٣٠٣/١

(٢) انظر البحث في مادة " شبه" في مختار الصحاح : ١/ ١٣٨، و لسان العرب : ١٣/ ٥٠٣

(٣) رواه البـخـاري: ٥٠،ومسلم:٢٩٩٦، والترمذي:١١٢٦، والنسائي : ٤٣٧٧ ، وأبو داوُد : ٢٨٩٢،وابن ماجه:٣٩٧٤، وأحمد:١٧٦٤٥، والدارمي:٢٤١٩

بـه، ويُعمَلُ به؛ والمُتشابهُ منسوخُه، و مقدّمُه، ومؤخّرُه، وأمثالُه، وأقسامُه ،وما يُؤمَنُ به، ولا يُعمَلُ به . وهو مروي عن ابن عباس(١).

حكم المحكم والمتشابه

ثـم مـن الـواجـب أن يُـعْـلَـمَ مـا هو حكم المُحُكَم والمُتَشَابِه ؟ أما حكم الـمُحكم فظاهرٌ، وهو الإيمان به والعمل بمقتضاه، كما تقدّم عن ابن عباس رضي الله عنه، وأمـا حـكمُ المتشابه فيَخُتَلِفُ باختلاف تفسيره . فمن فسّره بما لم يتَّضِحُ معناه، فحكم المتشابه عنده أنّه يجوزُ الخوضُ في إبداء معناه، ولذا فيجوزُ عنده أن يَعُلَمَ تـاويـلَـه الرَّاسِخُون في العلم، وأمّا من فسّره بما لا سبيلَ إلى معرفته مما اسُتَأُثَرَاللّه بـعـلـمِـه، فـحـكـمُ الـمتشابه عنده أن يُؤمَنَ به؛ ولا يجوز الخوضُ في معناه، لأنه لايُمكِنُ لأحدٍ أن يعلم تاويلَه إلا اللّه .

ومنشأُ هذا الاختلاف هو الاختلافُ في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلَّا اللّٰهُ ، وَالرَّاسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ يَقُوْلُوْنَ اٰمَنَّا بِهٖ ، كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا**﴾ [آل عمران :٧] فـذَهَـبَ الأوّلُون إلى أن قوله: ﴿ **وَالرَّاسِخُوْنَ فِيْ الْعِلْمِ**﴾ مـعـطوف على ما قبله؛ والواوُ فيه واوُ العطف ، فيكو ن المعنى: ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيْلَهُ إِلَّا اللّٰهُ وَالرَّاسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ** ﴾ وهـي طـائـفةٌ يسيـرةٌ ، منهم مجاهد رحمه الله وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنه ؛ وإليه ذَهَـبَ بـعـضُ الشـوافـع، ومنهم النووي في شرح مسلم ، و بعض المالكية ، ومنهم القرطبي في تفسيره (٢).

وهـو الّـذي اختاره ابن قتيبة الدينوري في كتابه: **[تـأويل مشكل القرآن]** ، فقال فيه :" ولَسُنَا مِمَّن يزعمُ أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم، وهـذا غـلط من مُتأوّلِيُه على اللُّغة والمعنى، ولم ينزل اللّه تعالى شيئاً من القرآن إلا لـيـنـفـع بـه عبـادَه ويدُلَّ به على معنىً أرَادَه ، فلو كان المتشابه لا يعلمه غيرُه لَلَزِمَنَا لِـلـطَّـاعِـنِ مقالٌ، و تَعَلَّقَ علينا بعلّةٍ. وهل يجوز لأحدٍ يقول :إن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم لم يـكـن يَـعُرِفُ المُتَشَابِهَ ؟ وإذا جـازَ أن يـعـرفَـه مـع قوله تعالى :﴿ **هُـوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ**

(١) راجـع لهـذا الـمبحـث تـفسيـر الـطبـري :٣/، و زاد الـمسيـر لابن الجوزي: ١/ ٣٥٠ ،

والقرطبي: ٩/٤–١١، فتح القدير: ٣١٣/١
(٢) انظر شرح مسلم: وتفسير القرطبي: ١٨/٤

الْكِتٰبَ مِنْهُ اٰيٰتٌ مُّحْكَمٰتٌ إلخ﴾ جاز أن يَعْرِفَه الرَّبَّانِيُّون من صحابته ، ......ثم قال ...... ولو لم يكن للراسخين في العلم حَظٌّ في المتشابه إلا أن يقولوا ﴿**:اٰمَنَّا بِهٖ ،كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾** لم يكن للراسخين فضلٌ على المتعلّمين؛ بل على جَهَلَةِ المسلمين لأنهم جميعاً يقولون :﴿**اٰمَنَّا بِهٖ ، كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾**(١).

وذهب الأكثرون إلى أن قوله :﴿ **وَالرَّاسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ﴾** ابتداءُ كلامٍ، مقطوعٌ مِمَّا قبلَه؛ وليس بعطفٍ على ما قبلَه؛ والواوُ فيه للاستيناف ، وقوله ﴿**يَقُوْلُوْنَ اٰمَنَّا بِه ﴾** خبرُ هذا المبتدأ، وهذا هو ما اختارَه كثيرٌ من الصحابة ، والتابعين ، وأتباعهم، من العلماء ، والأئمة، والمفسّرين ، والفقهاء، ولا سيما أهل السنة والجماعة ؛ وإليه جَنَحَ أكثرُ الحنفية والشوافع وغيرهم .

ولٰكن الذي يلوح لي بعد الدراسة الدقيقة هو أن الاختلاف في حكم المحكم والمتشابه اختلافٌ لفظيٌّ لاحقيقيٌّ ؛ لأنه إن أُرِيْدَ بالمُتشَابِه ما استأثر اللّٰه تعالى بعلمه؛ وما لم يكن لأحد إلى علمه سبيلٌ،كما هو مختار الأكثرين، فيكون حكم المتشابه عند الكُلِّ: أنه لا يجوزُ الخوضُ في معناه؛ وإنْ أُرِيْدَ به ما لم يَتَّضِحُ معناه ،كما هو قول البعض، فالمتعيّن عند الكُلِّ إذاً جوازُ الخوض فيه. وإليه يُشيرُ قول بعض أئمة التحقيق –كما نقله في روح المعاني– : أنه إن أُرِيْدَ بالمُتشابِهِ ما لا سبيل إليه للمخلوق فالحَقُّ الوقفُ على " إلا اللّٰه "، وإنْ أُرِيْدَ به ما لا يتّضِحُ معناه بحيث يَتَنَاوَلُ المُجمَلَ ونحوَه فالحَقُّ العطفُ(٢).

وكذا تُشِيْرُ إلى أن الاختلافَ لفظيٌّ عبارةُ القرطبي في تفسيره حيث يقول:" المُتشابِهُ يتنوّعُ: فمنه ما لايُعْلَمُ ألبَتَّةَ كأمرالرُوْح ، والسَّاعَة ، ممّا اسْتَأْثَرَ اللّٰهُ بغيبه ، وهذا لا يتعاطى علمَه أحدٌ ، لا ابنُ عباس، ولا غيرُه، فمنْ قال من العلماء والحُذّاق بأن الراسخين لايعلمون علمَ المتشابه فما أَرَادَ هذا النوعَ، وأَمَّا ما يمكن حملُه على وجوهٍ في اللغة ومناح في كلام العرب ، فيُتَاوَّلُ ويُعلَمُ تاويلُه المستقيم إلخ(٣).

(١) تأويل مشكل القرآن: ٤٣
(٢) روح المعاني: ٣/ ١٥
(٣) تفسير القرطبي: ١٨/٤

فلمّا لاحَ ممّا تقدَّمَ : أن هذا الاختلاف في الحقيقة واقعٌ في تفسير المُتشابه لا في حكم المتشابه، فمذهبُ السَلَف في المتشابه – المُفَسَّرِ بما لا سبيلَ لأحد إلى معرفته – أن لا يَخُوضَ في معناه، وأنْ يَترُك التعرّضَ لتأويله مع العلم قطعاً بأن معناه الظاهر مستحيلٌ بالنسبة إلى ذاته عزوجل .

وهو المراد بما رَوَى اللالكائي بسنده عن أم سلمةَ رضي الله عنها في قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى**﴾ [طـه:٥] قـالـتُ : الـكيفُ غيرُ معقول، والاستواءُ غيرُمجهول، و الإقرارُ به من الايمان، والجحودُ به كفرٌ(١).

وهـذا الـذي يُـرَادُ بما قال الإمام مالكٌ رحمه الله حين سُئِلَ عن الآية ، فقال:الكيفُ غيرُمعقول، والاستواءُ غيرُمجهول، والإيمانُ به واجبٌ، والسوالُ عنه بدعةٌ (٢).

وهو المقصود بما رُوِيَ عن ابن عيينة قال: سُئِلَ ربيعةُ عن قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوٰى**﴾ [طـه:٥] كيف استـوى؟ قـال:والاستواءُ غيرُ مجهول، والكيفُ غيرُمعقول، ومنَ اللّٰهِ الرسالةُ، وعلى الرسول البلاغُ وعلينا التصديقُ (٣).

قـال الإمـام مـحـمـد بـن الـحسـن رحمه الله : اتّفَقَ الفقهاءُ كلُّهم من المشرق إلى الـمغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءَتُ بها الثقاتُ عن رسول اللّٰه في صفة الربّ عزّ وجلّ، مـن غيـر تغيير ولا وصفٍ ولا تشبيهٍ، فمنُ فسّر شيئاً من ذلك فـقـدُ خَـرَجَ مِـمّـا كان عليه النبيُ وفَارَقَ الجماعةَ ، فإنهم لم يصفوا ولـم يُفسّروا، ولكن أفْتَوُا بما في الكتاب والسُّنّة (٤).

وأمـا الـخـلـف المتأخّرون فأجَازُوا تأويلَه بشرط أن لايكون بما لايليق بجلال اللّٰه العظيم الذي جاء في شانه : ليس كمثله شيءٌ .كما تأوّلُوا الاستواءَ بالاستقرار، أو بـالارتـفـاع ، أوالـقَـصْـد ؛ وكما تأوّلُوا النفسَ والوجهَ بالذات ؛ وتأوّلُوا اليدَ بالقُدرة ؛ وتأوّلوا نُزُولَه ومجيئَه تعالى بمجيء أمرِه أو عذابِه ، وما إلى ذلك من التاويلات. ولكنّ الأسـلـمَ والأحـوطَ هـو مـذهـبُ السـلـف الذين اختاروا سبيلَ التفويض والتسليم في صـفـات الـلّٰـه البارئ دونما تفسير، وتأويل، ووصف، و تشبيه.

---

(١) اعتقاد أهل السنة: ٢٩٧/٣

(٢) اعتقاد أهل السنة: ٢٩٨/٣
(٣) اعتقاد أهل السنة: ٢٩٨/٣
(٤) اعتقاد أهل السنة: ٤٣٢/٣

قلت: وفي هذا الباب رسالةٌ جامعةٌ نافعةٌ للشيخ الفقيه الإمام أشرف علي التهانوي رحمه الله، لا يزيد عدد أوراقها على ثمانية أوراق، ولٰكنّه حاوٍ على أطراف الموضوع وجوانبه، أسماها "التواجُه بما يتعلق بالتشابُه".

فصل

الناسخ والمنسوخ

ومن الجدير بالذكر في ثنايا دراسات القرآن و تفسيره: أن معرفةَ الناسخ والمنسوخ من الآيات ممّا يجبُ على من يفسّرُالقرآن الكريم. ولقد قال الأئمةُ: إنّهُ لا يجوز لأحد أن يتعاطيَ و يُحاوِلَ تفسيرَ القرآن الكريم إلا بعد أن يَعرِفَ الناسخ والمنسوخ من الآيات، وبعد أن يُحكِمَ هذا العلمَ، وأنّ مَنْ تَكَلّمَ في شيءٍ من الكتاب الكريم، ولم يَعْلَمِ الناسخَ والمنسوخَ كان علمُه ناقصاً؛ لأنه يخلط الأمر بالنهي والإباحة بالحظر.

وقد ذَكَرُوا في كُتُبِهم ما جرى بين علي رضي الله عنه و عبد الرحمن بن داب الواعظ من القصّة، وحاصلها أنّ علياً رضي الله عنه دخلَ يوماً المسجدَ الجامعَ بالكوفة، ورأى فيه رجلاً يُعرَفُ بعبد الرحمن بن داب، قد تَحلّقَ الناسُ عليه يسألونه؛ وهو يخلط الأمرَ بالنهي والإباحةَ بالحظر، فقال علي رضي الله عنه: أتعرفُ الناسخَ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكتَ وأهلكتَ، ثم أخذ بأُذُنِه ففَتَلَها، وقال: لا تَقُصَّ في مسجدنا بعدُ. ويُروى مثلُه عن عبد اللّٰه بن عمر وابن عباس رضي الله عنهم (١).

فعُرِفَ مِمّا سبق أن معرفة الناسخ والمنسوخ من أهمّ ما يجبُ على المُفَسِّر ولايجوزالكلامُ في تفسيرالقرآن إلّا بعد معرفته.

اتفاق أهل الملل إلا اليهود على جواز النسخ

وممّا يُلائِمُ الموضوعَ أن الاتفاق واقعٌ بين جميع طوائف المسلمين على جوازالنسخ، ووقوعه في كلام اللّٰه تعالى، إلا ما حُكِيَ عن أبي مسلم الأصبهاني

(١) الناسخ والمنسوخ للمقرئ : ١٨، والناسخ والمنسوخ لابن حزم :٥ ،وقلائد المرجان للكرمي: ٢٠،والناسخ والمنسوخ للنحاس : ٤٨

من القول بعدم الوقوع ، وكذا أَجْمَعَ على جوازه جميعُ أهل المِلَل والشَرَائِع إلا اليهود، فإنّهم قالوا : إنه لايجوز النسخ في كلام اللّه تعالى ظنًّا منهم أنه بداء. والبُداءُ هو ظهورُ رأي بعد أن لم يكنْ ؛ واسْتصوابُ شيء عُلم بعد أن لم يُعْلَم، وهو مُسْتَحِيلٌ في حقّهل . وأجاب عنه علماء الإسلام بأن هذا ظنٌّ منهم باطلٌ، والنسخ ليس ببداءٍ في شيء؛ بل هو تحويل العباد من حكم إلى حكم آخر، إصلاحاً لأحوالهم، و تزكيةً لنفوسهم، وإرشاداً لهم إلى مصالحهم، فإن المقصود من التشريع تحقيق مصالح العباد ؛ ومَصَالحُهُم قد تَتَغَيَّرُ بتغيّر الأحوال والظروف، والحكمُ قد يُشْرَعُ لتحقيق مصالحَ اقْتَضَتْها أسبابٌ، فإذا زَالتْ هذه الأسباب فلا مصلحةَ في بقاء الحكم .

الفرق بين النسخ والبداء

قال الإمام أبو جعفرالنحاس في كتابه "الناسخ والمنسوخ" :

" الفرق بين النسخ والبداء: أن النسخَ تحويلُ العبادِ من شيء قد كانَ حلالاً فيُحرَّم، أو كان حراماً فَيُحلَّل، أو كان مطلقاً فيُحظَر، أو كان محظوراً فيُطلَقُ، أو كان مُباحاً فيُمنَعُ، أو كان مَمْنُوعاً فيُبَاحُ إرادةَ صلاح العباد. وقد علم اللّه عز وجل العاقبةَ في ذلك، وعلم وقتَ الأمر به أنه سَيَنْسخُه إلى ذلك الوقت ، فكان المطلق على الحقيقة غير المحظور—إلى أن قال— : كان الأول المنسوخ حكمةً وصواباً، ثم نُسِخَ وأُزِيلَ بحكمةٍ وصوابٍ ، كما تُزالُ الحياةُ بالموت، وكما تُنقَلُ الأشياءُ ، فلذلك لم يقع النسخ في الأخبار لِمَا فيها من الصدق والكذب، وأما البداء فهو تركُ ما عزم عليه ،كقولك : امضِ إلى فلان اليوم ، ثم تقول: لا تمض إليه ، فيبدُوُ لك عن القول الأول ، وهذا يلحق البشرَ لنقصانهم، وكذا إذا قلتَ: ازْرَعْ كذا في هذه السنة ، ثم قلتَ: لاتفعلْ ، فهذا البداء[(١)].

قلتُ: ونظيره العَمَلي ما نُشاهد من أمر الطبيب حيث يفحص المرض و

يصِفُ دواءً ؛ ثم يُغَيِّرُ الوصفةَ بعد أيّام أو أسبوع؛ لأنه يعلم أن هذا المرض يقتضي

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس: ٦٣

لإزالتـه أوّلاً دواءً لايُـوافَقُ طبيعةَ المريض بعد أيام أوأسبوع؛ ثم يقتضي دواءً آخر لايُـوافِـقُ إلا بـعد الأيام أوالأسبوع . فهل هذا يُسَمّٰى بداءً ؟ لا، وكذلك النسخ لا يُسَمّىٰ بداءً.

النسخ فى اللغة

والنسخ له معنيان عند أرباب اللسان :

١- الإزالة والإبـطال على جهة الانعدام ، ومنه قوله تعالى: ﴿ **فَيَنْسَخُ اللّٰهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطٰنُ** ﴾ [الـحج:٥٢] وقولهم : نَسَخَ الشَيْبُ الشبابَ، ونَسَخَتِ الشمسُ الظلَّ أي: أذْهَبَتْهُ .

٢- الإزالة على جهة الانتقال ، ومنه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ** ﴾[الجاثية:٢٩] ومنه قولك :نسختُ الكتاب أي نقلتُه .

معنى النسخ الاصطلاحى

وقـد وقـع الـخـلاف بيـن الـعـلـمـاء في مـعنى النسخ الاصطلاحي ، فقال بـعـضـهـم:إنه رفعُ الحكم بعد ثبوته. وقال بعضهم :إنه بيانُ انتهاء مدّة العبادة. وقيل: هـو انـقـضـاءُ الـعبـادـة التـي ظاهرها الدوام، وقيل وهو قول الحنفية : هو بيان لمدة الـحـكـم المطلق الذي كان معلوماً عند اللّٰه تعالى، إلا أنه تعالىٰ أطلَقَهُ، فصارَ ظاهرُه البقاءَ في حق البشر، فكان تبديلاً في حقِّنَا، بياناً في حق صاحب الشرع(١).

ثـم ههـنـا أبـحـاثٌ فـي شـروط الـنسـخ، وفـي أقسـامـه، وأقسام الناسخ والـمـنسـوخ، وفيـمـا يدخل فيه النسخ، و فيما يجوز أن يكون ناسخاً، وغير ذلك ، وليس هذا موضعه(٢). وإنما موضعه كتب أصول الفقه. ونحن نذكر ههنا أشياء يليق بنا في هذا المقام .

(١)انـظـر : الـحسـامـي: ٨٧ ، ونـور الأنـوار : ٢١٠، نهـاية السـول لـلأسنوي : ٢٣٦، والناسخ والمنسوخ لابن حزم :٦ - ٧ ، والناسخ والمنسوخ للمقرئ : ٨ ، وقلائد المرجان للكرمي: ٣٢

(٢)انظر لهذه المباحث : نواسخ القرآن و المصفىٰ من علم الناسخ والمنسوخ كلاهما لابن الجوزي، والناسخ والمنسوخ للنحاس، ولابن حزم، وللمقرئ، والكرمي، و ناسخ القرآن ومنسوخه لابن البارزي، وغيرها

أقسام المنسوخ

ذكرالعلماء : أن النسخ على ثلاثة أنواع:

١ - ما نُسِخَ خَطُّه وحُكمُه، وبتعبير آخر: ما نُسِخَ تلاوتُه وحكمُه جميعاً، ومثالُه ما أخْرَجَهُ أبوداؤد في ناسخه، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف، وأبوذر الهروي في فضائله، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف: أن رهطاً من أصحاب النبي ﷺ أخبروه أنه قامَ رجلٌ منهم من جوف الليل، يُريد أن يفتتح سورةً كان قد وَعَاهَا، فلم يقدر منها على شيء إلا بسم اللّٰه الرحمن الرحيم ، فأتىٰ بابَ النبي ﷺ حين أصْبَحَ يَسْأَلُ النبيَ ﷺ عن ذلك ، جاءَ آخرُ و آخرُ حتى اجتمعُوا، فسَأَلَ بعضُهم بعضاً ما جَمَعَهُمْ؟ ، فأخْبَرَ بعضُهم بعضاً بشأن تلك السورة ، ثم أذِنَ لهم النبي ﷺ ، فأخبروه خبرَهم ، وسألوه عن السورة ، فسكتَ ساعةً لايرجع إليهم، ثم قال: نُسِخَتِ البارحةَ (١).

٢ - ما نُسِخَ خطُّه ورَسْمُه و بَقِيَ حكمُه ، ومثالُه ما رُوِيَ عن أمير المومنين عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال على المنبر في خطبته: كان فيما أنزل اللّٰه على النبي ﷺ آيةُ الرجم (وهي - كما في بعض الروايات- : الشَيْخُ وَالشَيْخَةُ إذَا زَنَيَا فَارْجُمُوْهُما الْبَتَّةَ) ، فقرأناها ووَعَيْنَاها وعَقلْنَاها، ورجم رسول اللّٰه ﷺ و رجمنا إلخ(٢).

٣ - ما نُسِخَ حكمُه و بَقِيَ رسمُه وخطُّه، وهذا القسم هوالذي فيه الكُتُب المُؤلّفَة، ومن ذلك كثيرٌ في القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَالّٰتِيْ يَـأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوْا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوْا فَأَمْسِكُوْهُنَّ فِي الْبُيُوْتِ؛ حَتّٰى يَتَوَفّٰهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلُ اللّٰهُ لَهُنَّ سَبِيْلاً** ﴾[النساء:١٥]

أنواع النسخ

النسخ في الشرع له تقسيماتٌ :

❁ **تقسيم أول** : وباعتباره ينقسم إلى نوعين : الصريح و الضمني:

(١)الدر المنثور : ٢٥٦/١،و فتح القدير : ١٢٨/١
(٢)رواه البخاري: ٦٣٢٨،و مسلم: ٣٢٠١،و الترمذي:١٣٥٢، وأبوداؤد : ٣٨٣٥،و ابن ماجه: ٢٥٤٣، وأحمد:٢٦٥، ومالك: ١٢٩٧، والدارمي:٢٢١٩

١-النسخ الصريح

هو أن ينصّ الشارعُ صراحةً في تشريعه اللاحق علىٰ إبطال تشريعه السابق ، وهذا قليل بالنسبة إلى النسخ الضمني ، ومثالُه من القرآن الكريم قوله تعالى:﴿ **يٰاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ عِشْرُوْنَ صَابِرُوْنَ يَغْلِبُوْا مِائَتَيْنِ، وَإِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ مِّائَةٌ يَّغْلِبُوْا أَلْفًا مِّنَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُوْنَ ، أَلْئٰنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيْكُمْ ضَعْفًا، فَإِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَّغْلِبُوْا مِائَتَيْنِ، وَ إِنْ يَّكُنْ مِّنْكُمْ أَلْفٌ يَّغْلِبُوْٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّٰهِ، وَاللّٰهُ مَعَ الصَّابِرِيْنَ** ﴾ [الأنفال: ٦٥-٦٦]

ومثالُه من الحديث قول الرسول ﷺ : ﴿ **كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُوْرِ، فَقَدْ أُذِنَ لِمُحَمَّدٍ فِيْ زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ فَزُوْرُوْهَا فَإِنَّهَا تُذَكِّرُ الْآخِرَةَ** ﴾[١]

٢-النسخ الضمني

وهوأن لاينصّ الشارعُ صراحةً في تشريعه اللاحق علىٰ إبطال تشريعه السابق، ولكن يشرع حُكماً مُعارِضاً لحكمه السابق . وهذا القسم من النسخ كثيرٌ في الشرع، ومثالُه ما قال اللّٰه تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِيْنَ بِالْمَعْرُوْفِ**﴾ [البقرة: ١٨٠] فإنه منسوخٌ بما قال تعالى في مقام آخر: ﴿ **يُوْصِيْكُمُ اللّٰهُ فِيْ أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ الخ**﴾ [النساء:١١] فالأوّل دلَّ على أن المرءَ يجب عليه الوصيةُ للوالدين والأقربين من ماله المتروك إذا حضره الموت ، والثاني يدلُّ على أن اللّٰه تعالى نفسه قسم الميراث بين ورثة الميّت حسبما اقتضته الحكمة، فالأوّل يكون منسوخاً بالثاني، ولكن اللّٰه تعالى لم يُصرِّح بأنه نسخ ذلك .

❖ **تقسيم ثان** : وباعتباره له قسمان : النسخ الكلي والنسخ الجزئي:

١- النسخ الكُلّي:

وهو أن يُبطِلَ الشارعُ حكماً شَرَعَهُ سابقاً ، إبطالاً كُلّياً بالنسبة إلى كل

(١) رواه الترمذي: ٩٧٤

فردٍ من أفراد المكلّفين ؛كما أبَطَلَ عِدّةَ الوفاة على المرأة المتوفّى عنها زوجُها حولًا كاملاً باعتدادها بأربعة أشهروعشراً .

٢- النسخ الجزئى

وهو أن يَشْرَعَ الحكمَ عامّاً شاملًا كلَّ فردٍ من أفراد المكلفين؛ ثم يُلْغِيَ هذا الحكمَ بالنسبة لبعض الأفراد ، أو يشرع الحكمَ مطلقاً ، ثم يُلغِي بالنسبة لبعض الحالات . مثال ذلك قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِيْنَ يَرْمُوْنَ الْمُحْصَنٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوْا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوْهُمْ ثَمَانِيْنَ جَلْدَةً**﴾ [النور:٤] وهذا يدلُّ على أنّ قاذفَ المحصنة الذي لم يُقِمْ بَيِّنةً على ما قذف به؛ يُجْلَدُ ثمانين جلدةً ، سواء كان زوجها أم غيره ، وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِيْنَ يَرْمُوْنَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللّٰهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِيْنَ إلخ** ﴾[النور:٦] وهو يدلُّ على أن القاذفَ إذا كان الزوجُ لا يُجْلَدُ بل يَتَلَاعَنُ هو وزوجتُه ، فهذا نسخ، أي بالنسبة إلى بعض أفراد المكلّفين وهم الأزواج .

فوائدُ مهمة

ثم ههنا فوائد فيما نحن بصدده :

الفائدةُ الأولى

و ههنا يتوجه سؤالان : الأوّلُ ما هي الحكمةُ في بقاء الخَطِّ والتلاوةِ مع نسخ الحكم ؟ فأجاب السيوطيؒ عن ذلك بوجهين : أحدهما : أن القرآن كما يُتْلى ليُعْرَفَ الحكمُ منه والعملُ به، كذلك يُتْلى لكونه كلامَ اللّٰه فيُثَابُ عليه ، فتُرِكَتِ التلاوةُ لهذه الحكمة، والثاني: أن النسخ غالباً يكون للتخفيف ، فأُبْقِيَتِ التلاوةُ تذكيراً للنعمة ورفع المشقة (١).

والسُؤال الثاني : ما الحكمةُ في نسخ التلاوة والخطِّ مع بقاء الحكم ؟

والجوابُ عنه ما قال صاحب الفنون –على ما نقله السيوطي،إن

(١)الإتقان:٣١/٢

ذلك لِيَظْهَرَ مقدارُ طاعةِ هذه الأمة في المُسَارَعَةِ إلى بذل النفوس بطريق الظنّ، من غير اسْتِفْصَالٍ لطلبِ طريقٍ مقطوعٍ به، فيُسْرِعُوْن بأيْسَر شيء كما سارَعَ الخليلُ إلى ذبح ولدهِ بمنامٍ، والمنامُ أدنى طريقِ الوحي(١).

و قال السيوطي في سبب نسخ الآية: "الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة": إن سبب النسخ التخفيفُ على الأمة بعدم اشتهار تلاوتِها و كتابتِها في المصحف، وإن كان حكمُها باقياً لأن الرجم أثْقَلُ الأحكام وأشَدُّها وأغْلَظُ الحدود، وفيه الإشارة إلى ندب الستر(٢).

قلت: إن هذا الوجه لا يطّرِدُ في كل ما نُسِخَ تلاوته وبَقِيَ حكمُه؛ بل يجري هذا فيما فيه تشديد و تغليظ كما في الرجم، وأما في غيرها كقوله ﷺ: "جاهدوا كما جاهدتم أول مرة"و قوله ﷺ:" إن اللّه وملائكته يصلون على النبي والذين يصلون في الصفوف الأولى" فالحكمة ما قال صاحب الفنون.

الفائدة الثانية

تَصارَعتُ آراء العلماء في تعداد الآيات المنسوخة، فالمتقدمون من المفسرين ذَهَبُوا إلى أن الآيات المنسوخة تبلغ إلى خمس مائة آيةٍ، لما في اصطلاحهم من العموم في معنى النسخ بالنسبة إلى اصطلاح المتأخرين؛ لأن عندهم النسخ بمعنى "إزالة شيء بشيء" فمعنى النسخ عندهم –كما يقوله الشاه ولي اللّه المحدث الدهلوي –: إزالة بعض أوصاف الآية بآية أخرىٰ، سواء كان ذلك ببيان انتهاء مدة العمل، أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر، أو ببيان كون القيد اتفاقاً، أو بتخصيص عام، أو ببيان الفارق بين المنصوص وبين ما قِيْسَ عليه ظاهراً، أو بإزالة عادة من العادات الجاهلية، أو برفع شريعة من الشرائع السابقة (٣).

وأما المتأخرون فَذَهَبُوا – حسب اصطلاحهم في معنى النسخ – إلى أن المنسوخات قليلة، وبالرغم من ذلك أوصلها بعضهم إلى مأتين و ثمان و

(١)الإتقان:٣٢/٢
(٢)الإتقان: ٣٤/٢
(٣)الفوز الكبير:٥١

ثلاثين آية ،أو مأتين و تسع و أربعين آية ، كما تجد ذلك في الناسخ والمنسوخ للمقرئ، وناسخ القرآن و منسوخه لابن البارزي.

ولكن في ذلك نظراً ، فإن الذي أورده المكثرون –على ما يقوله الشيخ السيوطيّ– أقسام: قسم ليس من النسخ في شيء، ولا من التخصيص ، ولا له بهما علاقة بوجهٍ من الوجوه . وقسم هو من قسم المخصوص لا من المنسوخ . وقسم رفع ما كان عليه الأمر في الجاهلية ، أو في شرع من قبلنا، أو في أول الإسلام ولم ينزل في القرآن ، كإبطال نكاح نساء الآباء . وقسم رفع ما كان في أول الإسلام . وهذا النوع إدخاله في المنسوخ أَوجَهُ ممّا قبله . قال الإمام السيوطي: إذا علمتَ ذلك فقد خرج من الآيات التي أورده المكثرون، الجمّ الغفير.

ثم حرر المنسوخ طبقاً لما قاله الشيخ ابن العربي القاضي المالكي، فأوصله إلى عشرين آية كمايظهر من الإتقان ، ونازعه في أكثرها الإمام الدهلويّ في الفوز الكبير(١).

الفائدةُ الثالثة

حكى الإمام السيوطيّ: عن ابن الحصارأنه قال: إنما يُرجَعُ في النسخ إلى نقل صريح عن رسول الله ﷺ أو عن صحابي يقول: آية كذا نسختْ كذا ، قال: ابن الحصار : وقد يُحُكَمُ به عند وجود التعارض المقطوع به ، مع علم التاريخ لِيُعْرَفَ المتقدمُ والمتأخّرُ . قال: ولا يُعْتَمَدُ في النسخ قولُ عوام المُفسّرين؛ بل ولا اجتهاد المجتهدين من غير نقلٍ صحيح ولا معارضةٍ بينةٍ، لأن النسخ يتضمن رفعُ حكمٍ و إثباتُ حكمٍ تَقَرَّرَ في عهده ﷺ ، والمعتمدُ فيه النقلُ والتاريخُ، دون الرأي والاجتهاد . قال: والناس في هذا بين طرفيْ نقيض، فمن قائل لا يَقْبَلُ في النسخ أخبارَ الآحاد العدول، ومن مُتَسَاهِلٍ يَكْتَفِيْ فيه بقول مفسّرٍ أو مجتهدٍ ، و الصواب خلاف قولهما (٢).

الفائدةُ الرابعة

لاخلاف بين العلماء في جواز نسخ القرآن بالقرآن، و نسخ السُّنّة

(١) انظر : الإتقان :٢٩ -٣٠، و الفوز الكبير: ٥٢ -٦٠
(٢) الإتقان: ٣٢/٢

بالسنة، واختلفوا في جواز نسخ القرآن بالسنة، ونسخ السنة بالقرآن بين مُجيزٍ و مانعٍ. فالإمامُ الشافعي قال بعدم الجواز في الصورتين،واستدل عليه بوجوهٍ :

الأول :بقوله تعالى:﴿ **مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ [البقرة:١٠٦] وذلك يَتَحَقَّقُ في الآيتين أو السُّنّتين، فإن السُنّة ليست كمثل الكتاب ولا بخيرٍ منه . وأُجيبَ عنه بأن المراد بالخير والمثل، الخيرُ والمثلُ من ناحية النفع والثواب ،لا من ناحية اللفظ، وجائزٌ أن يكون السُنّة خيراً أو مثلاً له من هذه الناحية .

والثاني: بقوله تعالى: ﴿ **قُلْ مَا يَكُوْنُ لِيْ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِيْ**﴾ [يونس:١٥] وأُجيبَ عنه بأن النسخ وإن كان بالسُنّة، فليس من عند النبي ﷺ ، بل من عند اللّٰه ، لأنه لا يَنْطِقُ عن الهوٰى، إن هو إلا وحي يُوْحٰى .

والثالث : بأنّه لوجاز نسخ الكتاب بالسُّنّة تهيأتِ الفرصةُ للطاعنين في الكتاب والسُّنة، ويقولون: كَذّبَ اللّٰهَ رسولُهٗ، فكيف نُصَدِّقُ قولَه؟ وأُجيبَ عنه بأن مثل هذا الطعن لا مفرَّ عنه في نسخ السُّنّة بالكتاب أيضاً ؛ بل هو صادرٌ من السُفَهَاء الجاهلين، فلا يُعْبَأُ به .

وذهب الإمام أبو حنيفةؒ إلى الجواز في الصورتين ، واسْتَدَلَّ عليه بأدلّةٍ :

الأوّل: بقوله تعالى:﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل:٤٤] والنسخ في الحقيقة بيانُ مدَّةِ المنسوخ ، فاقْتَضَتِ الآيةُ قبولَ هذا البيان من الرَّسُول .

والثا نی: بقوله تعالى: ﴿ **وَمَا اٰتَاكُمُ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا**﴾ [الحشر:٧] والنسخُ هو بيان مدّة المنسوخ فهو ممّا اٰتاهُ الرسول، فيلزم قبوله .

والثالث: بقوله تعالى: ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِيْنَ يُخَالِفُوْنَ عَنْ أَمْرِهٖ أَنْ تُصِيْبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيْبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ**﴾ [النور:٦٣] فالآيةُ تَقْتَضِيُ مِنّا أن نقبل قولَه في صدد النسخ أيضاً (١).

وأما الأمثلة التي سردها علماؤنا الحنفيةُ في هذا الصدد، فلا تَخْلُوْ عن

مقال كما مَثَّلُوا لِنسُخ القرآن بالسُّنة بآية الوصية ، وهي:﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرَاً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِيْنَ بِالْمَعْرُوْفِ إلخ**﴾ [البقرة:١٨٠] و لايخلُو عن مقالٍ،لأن النسخ ههنا إنّما ثَبَتَ بآية الميراث لا بالسُّنة .

و كذا مَثّلُوه بقوله تعالى: ﴿ **لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ إلخ** ﴾ [الأحزاب:٥٢] وفيه إشكالٌ؛ لأنه نُسِخَ بالآيةِ الّتي قبلَها في التلاوة، وهوقوله : ﴿**إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الّتِيْ اٰتَيْتَ أُجُوْرَهُنَّ إلخ**﴾ [الأحزاب: ٥٠] ولذا قال المُلّا جِيْوَنْ رحمه اللّٰه تعالى في كتابه" نور الأنوار": و هكذا كل ما أوْرَدُوْا في نظير نسخ الكتاب بالسُّنة فقد وَجَدْنَا فيه نسخَ الكتاب بالكتاب بقطع النظر عن السُّنّة (١).

ومـمّا لابُدَّ من الإشارة إليه أنّ ما قال الإمام أبوحنيفة من جواز نسخ الكتاب بالسُّنّة، فالمراد به الأخبارُالمُتَواتِرَةُ لا الآحَادُ، قال العلامة عبد الوهاب الخَلّاف في " علم أصول الفقه":

"الأصل العام أنّ النَصَّ لا يَنْسَخُهُ إلا نصٌّ في قوّته أوأقوٰى منه، وعلى هذا فنُصُوصُ القُرآن قد ينسَخُ بعضُها بعضاً، وقد تُنسَخُ بالسُّنة المُتواتِرَة لأنها قطعيةٌ وفي قوّةٍ واحدةٍ .... وعلى هذا لايُنسَخُ نصٌّ قرآنيٌّ، أوسُنّةٌ مُتواتِرَةٌ بِسُنّةٍ غيرِمُتواتِرَةٍ أو قياسٍ؛ لأن الأقوى لا يُنسَخُ بما هوأقلّ منه قوّةً "(٢).

فصل

مناسبة الآيات والسُوَر

من أهم مباحث التفسير مبحثُ مُناسَبَة الآيات والسُوَر، وقد اعُتَنٰى به جماعةٌ من العلماء، فصنّفُوا فيه كُتُباً ، منهم الشيخ أبوجعفربن الزبير، والعلامة بُرهانُ الدين البقاعي، والشيخ العلامة جلال الدين السُّيُوطي ، وغيرهم . وقد رأيتُ جزأ لطيفاً في مناسبة الآيات والسُّوَر للشيخ العلامة أشرف علي التهانوي ،

---

(١)انظر البحث في نواسخ القرآن لابن الجوزي:٢٥، والناسخ المنسوخ للكرمي:٣٢، وللنحاس:٥٣

بـاسـم " سبـق الـغـايات فى مناسبة الآيات " وكذا أَكْثَرَ هو من ذكرالمناسبة بين الآيات والسُور في تفسيره " بيان القرآن" .

(١) نور الأنوار: ٢١٧
(٢) علم أصول الفقه للخلاف :٢٢٧– ٢٢٨

وقـد وقـع البحث في هل بين الآيات والسُّوَر مناسبةٌ بحيث يرتبط بعضُها ببعض، ويكون الكلامُ كالكلمة الواحدة ، مُتَّسَقَةَ المعاني مُنْتَظِمَةَ المباني؟

اختـلف فيـه الـعلماءُ بعد اتفاقهم على أن هذا العلم لم يتكلم فيه الصحابةُ والتَّـابِـعُـون، وإنما هوعلمٌ حادثٌ . فقال بعضهم : المناسبةٌ في الآيات والسُّوَر لا تُـوجَـد فـي كـل مـوضـع مـن الـقرآن ؛ لأن القرآن نَزَلَ في نيف وعشرين سنةً في أحـكـامٍ مختلفةٍ شُرِعَت لأسبابٍ مُختلِفَةٍ حسبَ ما تقتضيه الأوضاعُ والظروفُ، و مثـلُـه لايـرتبـط بـعضُه ببعض، وينفع لك في هذا المقام مثلًا بَيّنَهُ الشيخُ العلامةُ أشـرف علي التهانوي ،فقال:القرآن كالرسالة المشتملة على أنواع من المضامين ولاتـكون فيها مناسبة ،كذلك القرآن هو خطابٌ من اللّٰه تعالى إلى عباده، يشتملُ عـلـى أنـواع من الأحكام والمضامين حسب ما تقتضيه فطرتهم، فطلبُ المناسبة بين الآيات والسُّوَركطلب المُناسَبَة في الخُطَب والرسائل.

وقـال الشيـخُ عـزالدين بن عبد السلام :المناسبة علم حسن ، لكن يُشْتَرَطُ فـي حُسُـن ارتبـاط الـكلام أنْ يقع في أمرمُتّحدٍ مُرتَبِطٍ أوّلُه بآخره ، فإن وقع على أسبـابٍ مـختـلفةٍ لم يقع فيه ارتباطٌ، ومنُ رَبَطَ ذلك فهو مُتَكلّفٌ بما لايَقْدَرُ عليه، إلا بربطٍ ركيكٍ يُصَانُ عن مِثله حَسَن الحديث فضلاً عن أحسَنِه (١).

وذَهَـبَ بـعـضُ الأئـمة إلى أنّ المُناسَبة بين الآيات والسور يُوجَدُ، وهوعلمٌ شـريفٌ ينبغي الاعتناءُ به، قال الإمام السيوطي: وعلم المناسبة علمٌ شريفٌ قلّ اعتناءُ الـمُـفَسِّـريـن بـه لـدقّتِـه، وممّن أكْثَرَ منه الإمامُ فخرُالدين الرازي، وقال ابن العربي : ارتبـاط آي الـقـرآن بـعـضُهـا ببعض؛ حتى يكون كالكلمة الواحدة مُتّسقةَ المعاني مُـنتـظـمةَ الـمبـانـي، علمٌ عظيمٌ لم يتعرَّضُ له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة. وقـال غيـره :أوّل مـن أظهـرعلمَ المناسبة الشيخُ أبوبكرالنيسابوري، وكان يقُوْلُ إذا قُـرِئَ عـليـه :لم جُعِلَتُ هذه الآية إلى جنب هذه ؟ ما الحكمةُ في جعل هذه السورة

إلى جنب هذه السورة ؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة. و قال الإمامُ الرازي في تفسير سورة البقرة : ومن تأمّل في لطائف نظم هذه السورة

(١) البرهان: ١/ ٣٨، الإتقان: ٢/ ١٣٨

وفي بدائع ترتيبها عَلِمَ أنّ القرآن كما أنه مُعجِزٌ بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه، ونظم آياته، ولعلّ الذين قالوا : إنه معجزٌ بسبب أسلوبه أرَادُوا ذلك إلّا أنّي رأيتُ جمهُورَ المفسرين مُعْرِضِينَ عن هذه اللطائف غيرَ مُتَنبِّهين لهذه الأسرار، وليس الأمر في الباب إلا كما قِيل:

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الأبْصَارُ صُورَتَهُ ۞ وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصِغَرِ

ثم ليُعْلَمُ أنه تناوَلَ هذا الموضوعَ الشيخُ الزركشي والشيخ السيوطي تناوُلًا بسيطاً، وملخصه ما يلي:

إنّ المناسبة في اللغة المشاكلةُ والمقاربةُ، ومَرجَعُها في الآيات إلى معنى رابطٍ بينها عامٍ أو خاصٍ، عقليّ أو حسيّ أو خياليّ أوغيرِ ذلك من العلاقات ؛ أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلّة والمعلول، والنظيرَين والضِدَّين، و نحوِه، وفائدتُه جعلُ أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط و يصيرالتأليف حالُه حال البِنَاءِ المُحْكَم المُتَلائِم الأجزاءِ .

المناسبة فى الآيات

ثم لا يخفى أن ذكر الآية بعد الآية الأخرى لا يَخلُو إمّا أن يكون ظاهرَ الارتباط لِتَعَلُّقِ الكلم بعضه ببعض، وعدم تمامه بالأولى، أولكون الثانية للأولى تاكيداً ، أو تفسيراً ، أو اعتراضاً، أو بدلاً، وهذا القسم لا كلام فيه .

وإمّا أن لا يظهرَ الارتباطُ بل يظهر أن كلَّ جملةٍ مستقلةٌ، وأنها خلافُ النوعِ المبدوءِ به ، وهذا على صورتين :إمّا أن تكون معطوفةً على الأولى أوْ لا ، فإن كانت معطوفةً فلا بد أن يكون بينهما جهة جامعة كقوله تعالى: ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيْهَا** ﴾ [الحديد:٤] و قوله تعالى: ﴿ **وَاللّٰهُ يَقْبِضُ وَ يَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ** ﴾ [البقرة:٢٤٥] للتّضَادِ بين القبض والبسط، والولوج والخروج ، والنزول

والعروج، وشبه التضاد بين السماء والارض . ومن هذا القبيل ما وَرَدَ من ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب، والرغبة بعد الرهبة، وجرّتْ بذلك عادةُ القرآن.

وإن لم تكن معطوفةً فلابدّ من دعامةٍ تُؤذِنُ باتصال الكلام، وهي قرائن معنويةٌ تُؤذِنُ بالربط، وله أسبابٌ:

١- التنظير: فإن إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء، كقوله تعالى: ﴿ **كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ**﴾[الأنفال:٥] عقبَ قوله ﴿ **أُولٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُوْنَ حَقًّا** ﴾ فإنه تعالى أَمَرَ رَسُوْلَه أن يَمْضِيَ لأمرِهِ في الغنائم على كُرهٍ من أصحابه، كما مَضٰى لأمرِهِ في خُرُوجِه من بيته لطلب العير أوالقتال على كُرهٍ من أصحابه، والقصدُ أنّ كراهتهم لِمَا فَعَلَهُ من قسمة الغنائم ككراهتهم للخروج، وقد تَبَيَّنَ في الخروج الخيرُ من الظفر، والنصر، والعزّ للإسلام، فكذا يكون في القسمة، فلْيُطِيْعُوْا ما أُمِرُوْا به ولْيَتْرُكُوْا هوٰى أنفسِهم .

٢- المُضَادَّة: كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُوْنَ**﴾ [البقرة:٦] فإن أوّل السُّورة كان حديثاً عن القرآن، وأنّ من شأنه الهدايةُ للقوم المؤمنين، فلمّا أكْمَلَ وصفَ المؤمنين عَقَّبَ بحديث الكافرين، فبينهما جامعٌ وهو يُسَمَّى التَّضَادَّ .

٣-الاستطراد: وهو أن تَتْرُكَ ما كُنتَ فيه، وتَمُرّ بذكرالأمرالذي استطردتَ إليه مُرُوْراً كالبرق الخاطِف، ثم تَترُكه وتَعُوْدُ إلى ما كنتَ فيه، كأنّك لم تقصد، ومثالُه: ﴿ **يٰا بَنِيْ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُّوَارِيْ سَوْآتِكُمْ وَ رِيْشًا وَلِبَاسُ التَّقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ** ﴾ [الأعراف:٢٦]، قال الزمخشري: هذه الآية واردةٌ على سبيل الاستطراد عقبَ ذكر بدو السمٰوات، وخصف الورق على آدم وحوّاء، إظهاراً للمِنّة فيما خُلِقَ من اللباس، ولِمَا في العُرْي وكشفِ العَورَةِ من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن السِتْرَ بابٌ عظيمٌ من أبواب التقوى.

٤- حُسْن التخلّص :وهي أن ينتقل مِمّا ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجهٍ سهلٍ يختلسُهُ اختلاساً دقيق المعنى، بحيث لا يشعرالسامع بالانتقال من المعنى الأول، إلا وقد وقع عليه الثاني لشدّة الالتئام بينهما. ومثالُه ما قال تعالى

في سورة الشعراء من حكاية قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ **وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُوْنَ** ﴾ [الشعرا:٨٧] ثم تخلص منه إلى وصف المعاد بقوله:﴿**يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَّلَا بَنُوْن**﴾ . ثم لِيُعْلَمُ أن بعضَهم لا يُفرِّقُ بين الاستطراد والتخلّص، وبعضَهم يفرّق بينهما كما أشرنا إليه في تعريفهما .

٥- الانتقال: وهو يقرب من التخلص، ومثاله قوله تعالى في سورة صّ بعد ذكر الأنبياء ﴿ **هٰذَاذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِيْنَ لَحُسْنَ مَآب** ﴾[صّ:٤٩] فإن هذا القرآن نوع من الذكر، فلمّا انتهى ذكرُ الأنبياء أرادَ أن يذكُرَ نوعاً آخرَ وهو ذكر الجنة وأهلها، ثم لمّا فرغ منه قال:﴿ **هٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِيْنَ لَشَرَّ مَآبٍ**﴾ فذَكَرَ النارَ وأهلَها.

٦-حسنُ الطلب: وهو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدّم الوسيلة ،كقوله تعالى : ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنَ** ﴾ فإن قبله الحمدَ والثناءَ، وهو وسيلةٌ إلى الخطابِ، فلما فرغ منه خرج إلى المقصود(١).

انتباه

لا يعزبنَّ عن بالكم أنّ من الآيات ما أُشْكِلَتْ مناسبتُها لما قبلها ، ومن ذلك قولُه تعالى في سورة القيامة : ﴿ **لاَ تُحَرِّكْ بِهٖ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهٖ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ [القيٰمة:١٨] فإن السُّورَةَ من أوَّلِها إلى آخرِهَا في أحوال القيامة، وهذه الآيات ليستْ منها، فأُشْكِلَتْ مناسبتُها بما قبلها وما بعدها، حتى زعمتُ الرافضةُ أنه سَقَطَ من السورة شيءٌ، وهو زعمٌ باطلٌ مبنيٌ على عقيدتهم الزائغة من وقوع التحريف في القرآن.

وأمّا أهلُ الحق، فذهب منهم الإمامُ القفال إلى أن الآيات نزلتْ في الإنسان المذكور في قوله تعالى: ﴿ **يُنَبَّؤُا الْأِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ**﴾ [القيٰمة:١٣] وفسّرها بأنّه يعرض عليه كتابه المشتمل على أعماله ، فإذا قرأ تَلَجْلَجَ خوفاً فأسْرَعَ في القراءة، فيُقَالُ له:لا تُحَرِّكُ به لسانَك لِتَعْجَلَ بِهٖ، إنّ علينا أنْ نَجْمَعَ عملَك ، وأنْ نَقْرَأَ عليْكَ، فإذا قرأناه عليك فاتَّبِعْ قرآنَه بالإقرار بأنّك فَعَلْتَ، ثم إنّ علينا بيانَ أمرالإنسان، ومايتعلّق بعقوبته.

وهذا - كما قال الإمام السيوطي - يُخالِفُ ما ثَبَتَ في الصحيح:أنّها

نزلتُ في تحريك النبيﷺ لسانَهُ حالةَ نزولِ الوَحْي عليه .

ولذا فقد ذكرالأئمةُ لها مناسباتٍ:

الأول: أنه تعالى لمّا ذَكَرَ القيامةَ، وكان من أصل الدين المبادرةُ إلى العمل لها،

(١) انظر: البرهان :٣٥/١-٥٢، الإتقان:١٣٨/٢ -١٤١

فنبّه علـى أنّـه قـد يعترض على هذه المبادرةِ ما هو أجلّ منه، وهو الإصغاء إلى الـوحي، وتـفهُّـم مـا يَـرِدُ مـنـه،لأن التشاغُل بالحفظ قد يَصُدُّ عن ذلك، فأُمِرَ بأن لايُبَـادِرَ إلى التحفُّظ لأن ذلك مضمون على ربّه، ثمّ لمّا انقضتِ الجُملة المُعترِضَةُ رَجَعَ الكلام إلى ما يتعلق بالإنسان المبدأ بذكره .

والثاني: أن عادة الـقـرآن إذا ذَكَـرَ الـكـتـابَ المُشْتملَ على أعمال العباد ، رَدِفَه بـذكـرالـكتـاب المشتمل على الأحكام الدينيّة التي تنشأ عنها المحاسبةُ عَمَلاً و تـركـاً ، كما في سورة الكهف :﴿ **وَوُضِـعَ الْـكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِيْنَ مُشْفِقِيْنَ مِمَّا فِيْهِ**﴾ [الكهف:٤٩]إلى أن قال: ﴿ **وَلَـقَدْ صَرَّفْنَا فِيْ هٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ** ﴾[الكهف:٥٤]وأمثلتُه كثيرةٌ في القرآن(١).

قلتُ: إنـه ليـس فـي هـذا الوجه الأخيرما يُرْوِي الغليلَ،لأنه ليس فيه وجه المُناسَبَة بتحريك اللسان بالقرآن، وهو الأهم ههنا.

والثالث: قـال الزركشي:هذا من باب قولك للرجل وأنت تُحدِّثُه بحديث، فيَنتقِلُ عنك، و يُقبِلُ على شيءٍ آخر ، فتقول له :أَقبِلْ عليَّ، واسْمِعْ ما أقُولُ ، وافْهَمْ عنِّي، ثـم تَـصِـلُ حـديثَك ، فـلا يـكـون بذلك خارجاً عن الكلام الأوّل قاطعاً له، وإنّما يـكـون بـه مُشَوِّقاً للكلام ، وكان رسول اللّٰه ﷺ أمِّيًّـا لايَقرأُ ولايَكتُبُ، وكان إذا نَـزَلَ عـليـه الـوحيُ، وسَمِعَ القرآنَ حَرَّكَ لسانَه بذكراللّٰه، فقيل له : تدبّرْ ما يُوحٰى إليك، ولا تتلقّفُهُ بلسانِكَ (٢).

قال الراقم : و قـد خطر ببالي الفاتر وجهٌ آخر في مناسبة هذه الآيات، وهو أنه لَمَّا قال تعالى: ﴿ **يُـنَبَّؤُا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَ أَخَّرَ**﴾[القيٰمة:١٣] وكان معناه أنه يُـخْبَـرُ، ويُـجْـزٰى بـمـا قدّمَ ، وعَجّل من الأعمال التي من شأنها التأخير، وبما أَخَّرَ من الأعـمـال التي من شأنها التقديم، والتعجيل ، نبّه اللّٰهُ نَبِيَّهُ ﷺ عـلى أن التعجيل بالقرآن لـحفظه، وتحريك اللسان به لجمعه ليس عليك ، وإنما هو على ربّك ، وإنما عليك أن

تُصغِيَ إلى الوحي، وأن تَعِيَ ما ينزل عليك من الآيات والأحكام ، فلا يُناسِبُ لك أن تُقَدِّم ما ليس عليك، وهوالتعجيل بالقرآن، و تحريك اللسان به لحفظه، وأن تُؤَخِّرَ ماعليك ، وهو الإصغاءُ إلى الوحي، ووَعْيُهُ ، وتفهُّمُه . واللّٰه أعلم .

(١) الإتقان: ١٤١/٢
(٢) البرهان: ٤٨/١

إفادة

وههنا فائدة بصدد المناسبة بين الآيات ذَكَرَهَا الإمامُ السيوطي ناقلاً عن بعض المتأخرين ، وهو هذا :

" الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن، هو أنك تنظر الغرض الذي سِيُقَتُ له السورة ، و تنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدَّمات، و تنظر إلى مراتب تلك المقدَّمات في القُرب والبُعد من المطلوب، وتنظرعند إنجرار الكلام في المقدَّمات إلى ما يَسْتَتْبِعُهُ من استشراف نفس السامع إلى الأحكام ، واللوازم التابعة له، التي تقتضي البلاغةُ شفاءَ الغليل بدفع عناءِ الاستشراف إلى الوقوف عليها . فهذا هو الأمرُ الكلي المُهَيمِنُ على حكم الربط بين جميع القرآن ، فإذا عَقَلْتَه تَبَيَّنَ لك وجهَ النظم مفصَّلاً بين كل آية وآية في كل سورةٍ " (١).

المناسبة بين السُوَر

وهذا الذي ذكرناه يتعلق بالمناسبة في الآيات ، وأما المناسبةُ بين السُور فقالوا: إذا اعتبرتَ افتتاحَ كلّ سورةٍ وجدتَه في غاية المناسبة لِمَا ختم به السورة قبلها ، ثم هو يَظْهَرُ تارةً ويَخفٰى أخرى.

وإليك أمثلةً من هذا و هذا ، أما الأول وهو المناسبة الظاهرة كافتتاح سورة البقرة بقوله: ﴿ **الٓمٓ ذٰلِکَ الْكِتٰبُ** ﴾ فإنه إشارةٌ إلى "الصراط المستقيم " الذي وقع في قوله تعالى: ﴿ **اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ** ﴾ من سورة الفاتحة ، وكافتتاح سورة الحديد بقوله ﴿ **سَبَّحَ لِلّٰهِ مَا فِيْ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ [الحديد :١] فإنه مناسبٌ لختام سورة الواقعة بقوله ﴿ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّکَ الْعَظِيْمِ** ﴾[الواقعة:٩٦]

وأما الثاني وهو المناسبة الخفية كسورة الكوثر وسورة الماعون ، فإنّ في الـمـاعون وصف اللّٰه تعالى المنافقَ بأربعة أمور : البُخل، وترك الصلاة، والرياء ، و مـنـع الـمـاعـون ، و ذَكَـرَ فـي الـكـوثر في مقابلتها أربعةَ أمور : في مقابلة البخل "الـكـوثـرَ" وهو الخير الكثير، و في مقابلة ترك الصلاه " فَصَلِّ " وفي مقابلة الرياء " لـربِّك" أي لرضاه،وفـي مـقـابـلة منع الماعون "وانْحَرْ" ، وأراد به التصدُّق بلحوم الأضاحي .

إفادة

ونقل السيوطي عن بعض العلماء:" أن لترتيب وضع السُور في المُصحف أسبـابـاً تـطلع على أنه توقيفيٌّ صادرٌ عن حكيم ، أحدُها : بحسب الحُروف كما فـي الحواميم ، والثاني : موافقةُ أول السورة لآخرما قبلها كآخر الحمد في المعنے وأول البـقـرـة، والثـالـث : لـلتـوازُن في اللفظ كآخر " سورة اللهب "وأول سورة الإخـلاص ، والـرابـع: لـمشـابهة جـملة السورة لجملة الأخرى كسورة الضُحٰى وسورة ألم نشرح " (١).

فصل

المكى والمدنى

لا يـخـفٰـى أن مـن السُّـوَر والآيـات ما هي مكيّة وما هي مدنيّة ، والمكيّة منسوبةٌ إلى مكة المكرمة والمدنية منسوبةٌ إلى المدينة المنورة .

تعريف المكى والمدنى:

وأما المعنى المراد بالمكي والمدني فأن للعلماء فيذلك ثلاثةُ أقوال :

الأول :وهـو أشهـرُهـا :أن الـمـكّي ما نزل قبل الهجرة وإن كان نزوله بالمدينة ؛ والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بمكة.

والثانى: أن المكّي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة؛ والمدني ما نزل بالمد ينة، وأما

---

(١) الإتقان:١٤١/٢

مـا نـزل فـي ضـواحـي مـكة مـن منىٰ وعرفات والحديبية فهو مكي؛ وما نزل في ضواحي المدينة من بَدْر وأُحد وسلع فهو مدني .

الثالث : أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة ؛ والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة (٢).

(١) الإتقان: ٢/ ١٤٣

(٢)انظر البرهان :١/ ١٨٧، والإتقان : ١/ ١٢، ومناهل العرفان : ١/ ١٣٥وبعده

والـقـول الأول هـو الـمشهـور وعليه جرى رسم الجمهور من المفسرين وغيرهم كما يظهر لمن ينظر في كتب التفسير.

ملحوظا ت

ثـم لا يَـفُـوُتُـنـا أن نُـنَبِّـهَ الـقـارئَ الـكريمَ إلى أنّ في صدد هذا الموضوع ملحوظاتٍ هامّةٍ لاينبغي إهمالُها:

الأولى: أنّ فـي بـعـض السُـور الـمـكّيّة آيـاتٍ نزلتُ بالمدينة ؛ وكذا في السُور الـمـدنية آيـات نـزلتُ بمكة . قال ابن الحصار: كل نوع من المكي والمدني منه آياتٌ مستثناةٌ ، وقد ذكر الأمثلةَ من النوعين العلامة السيوطيؒ في الإتقان.

الثانية: أن في العلم بالمكي والمدني فوائدَ:

١ -: أنـه يُـعْـلَمُ به المتأخِّرُ من السُّوَر والآيات نُزُولًا، وهو يُعِيْنُ على معرفة الناسخ من المنسوخ (١).

٢ -: قـال الشيخ الزرقاني: إنه يُعرَفُ به تاريخُ التشريع وتدرّجه الحكيم بوجهٍ عامٍ، وذلك يترتب عليه الإيمان بسُموّ السياسة الإسلامية في تربية الشُعُوب والأفراد .

٣ - : قـال الـزرقاني أيضاً: إن من فوائده الثقةَ بهذا القرآن وبوُصُوله إلينا سالماً من التـغيُّـر والتـحـريف، ويـدُلّ عـليـه اهتـمـام الـمسلمين به كل هذا الاهتمام حتىٰ ليـعـرفون، ويتناقلون ما نَزَلَ منه قبل الهجرة ؛ ومـا نَزَلَ بعدها؛ وما نَزَلَ بالحضر ؛ ومـا نَـزَلَ بـالسـفـر؛ ومـا نَـزَلَ بـالنهار؛ وما نَزَلَ بالليل؛ وما نَزَلَ بالشتاء؛ وما نَزَلَ بالصيف؛ وما نَزَلَ بالارض؛ وما نَزَلَ بالسماء إلى غيرذلك .(٢)

قـال الـراقـم : إن أمثـلة الآيـات الـحـضرية، والسفرية، والنهارية، والليلية، والشتـائية، والـصيـفية، والأرضية، والسـمـاوية، وغيـر ذلك مـذكـورةٌ في الإتقان

بشرح وبسط، فراجعه .

الثالثة: أنّه ليس لمعرفة المكّي والمدني طريق إلا السماع عن الصحابة و التابعين، بيدَ أنّ هُناك علاماتٍ وضوابطَ تُشِيرُ إلى ما نَزَلَ بمكّةَ ؛ وما

(١)البرهان : ١/ ١٨٧ والإتقان : ٢٢/١ و مناهل العرفان : ١/ ١٣٨

(٢) مناهل العرفان : ١/ ١٣٨

نَزَلَ بالمدينة، وهذا ما قاله الجعبري على ما حكاه السيوطي عنه : أن لمعرفة المكي والمدني طريقين ، سماعي وقياسي (١).

فالمراد بالسَّمَاعِي ما ورد عن الصحابة والتابعين من نزوله بأحدهما، وأما القِيَاسِي فهي علاماتٌ وضوابطُ تُشير إليه فقط ولا تَدُ لُّ ولا تَطَّرِدُ .

علامات يُعْرَفُ بها المكى والمدنى من السور

ومن تلك العلامات :

❁ ما قال مجاهد وعلقمة : كل سورةٍ فيها " ياأيها الناس" فهي مكية ؛ وكل سورةٍ فيها " ياأيها الذين آمنوا " فهي مدنية .

❁ ومنها ما قال عروة بن الزبيرؓ : كل سورةٍ فيها ذكرالفَرائِض والسنن ؛ فإنها نزلتُ بالمدينة ، وما كان فيها من ذكرالأمم والقرون فإنها نزلتُ بمكة .

❁ ومنها أن ما ذُكِرَ فيها لفظُ" كلّا " ،أوحروف هجائية ، أو فيها قصص الأنبياء فهي مكية سوى سورة البقرة وآل عمران ، وما فيها سجدة أو ذكر المنافقين فهي مدنية (٢).

ولكنّ في إجراء هذه العلامات والضوابط على الإطلاق نظراً ظاهراً، لأننا نجد من السور المكية ما فيها" يَأيّها الذين آمنوا" كسورة البقرة ، وكذا نجد من السور المدنية ما فيها" يَأيّهاالناس" كسورة الحج على عكس ما سَبَقَ من العلامة، ولذا قال مكيٌّ كما في البرهان و الإتقان: هذا إنّما هو الأكثرُ وليس بعام .

فا ئدة: ذكرالإمام ابن شهاب الزهري في كتابه" تنزيل القرآن": أن عدد

مـا أُنـزِلَ بـمـكة خـمـسٌ و ثـمانون سورةً وعدد ما أُنزِلَ بالمدينة تسعٌ و عشرون سورةً (٣).

(١) الإتقان: ٢٣/١
(٢) انظرالإتقان: ٢٢/١-٢٣، مناهل العرفان: ١٥٩/١
(٣) تنزيل القرآن: ٢٩

فصل
ما يُوهِمُ التعارضَ والاختلافَ وموقفُ المفسِّر عنده

ومـا مـن شكّ أن كـلام اللّٰه تعالى لاريبَ فيه قطعاً ولا عيبَ فيه أصلاً، ومن ضـرورتـه أنْ لا يُـوجَد فيه التعارضُ والاختلافُ، لأن ذلك يُوجِبُ الريبَ، ويُسَبِّبُ العيبَ في الكلام، وكلام اللّٰه تعالى منزّهٌ عن ذلك، ولذا قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوْا فِيْهِ اخْتِلَافًا كَثِيْرًا** ﴾ [النساء:٨٢]

نـعـم إذا يتـجـوّلُ الـقـارئ والناظرُ في رياض القرآن الكريم قد يقع له ما يُوهِمُ التـعـارضَ، والاختـلافَ عـلـى الـرغم من أنه منزّهٌ عن ذلك، وذلك لأنه لا يكون من أصحاب النظر الدقيق، والفكرالعميق، ولايكونُ من أرباب المعرفة بوجوه الإعجاز، و أسـرار البلاغة. وأما أصحاب النظرالدقيق، والفكرالعميق، وأرباب المعرفة الصحيحة، والـذوق السـليـم، فليس عندهم ما يُوهِمُ التعارضَ، والاختلافَ، لا في الحقيقة، ولا فـي الـظـاهـر. فـالمفسّر في حاجةٍ ماسّةٍ إلى إزالة ما يُوهِمُ التعارض لِمنْ ليس له معرفةٌ صحيحةٌ، وذوقٌ سليمٌ، ونظرٌدقيقٌ.

فائدة

قـد أَفْـرَدَ هـذا الـمـوضـوعَ بـالتـصـنيف قـطرب كـمـا حكـاه الزركشي والسيـوطـي. وأفـرده أيضاً بالتصنيف الشيخ محمد أمين الشنقيطي وسمّاه "دفعُ إيهـام الاضـطـراب عن آيات الكتاب"، وصنّفَ فيه أيضاً أستاذي الشيخ العلامة أنورالمظاهري حفظه اللّٰه تعالى (الأستاذ بالجامعة أشرف العلوم بجنجوه) باللغة الأردية، وأسـماه "أنوارالدرايات لدفع التعارُض بين الآيات" وهو تصنيف لطيف

عظيم محيط بالموضوع ، وأظنّ أنه لم يسبق أحدٌ إلى مثله .

كلام الصحابة في هذا المبحث

وقد تكلّم فيه من الصحابة رضي الله عنهم ابن عباس ﷺ ، أخرج عبد الرزاق في تفسيره ومن طريقه الطبري في تفسيره عن سعيد بن جبير، قال :جاء رجلٌ إلى ابن عباس، فقال: رأيتُ أشياء تختلفُ عليّ من القرآن، فقالَ ابنُ عباس :ما هو، أشكٌّ ؟ قال : ليس بشَكٍّ ، ولكنّه اختلافٌ، قال : هات ما اختلف عليك من ذلك، قال: أسمَعُ اللّهَ يقول : ﴿ **ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوْا وَاللّٰهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِيْنَ** ﴾ [الأنعام:٢٣] وقال: ﴿ **وَلاَ يَكْتُمُوْنَ اللّٰهَ حَدِيْثًا** ﴾ [النساء:٤٢] فقد كَتَمُوا، وأسمَعُهُ يقول: ﴿ **فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَّلاَ يَتَسَاءَلُوْنَ** ﴾ [المؤمنون:١٠١] ثم قال: ﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلٰى بَعْضٍ يَّتَسَاءَلُوْنَ** ﴾ [الصافات:٥٠] وقال: ﴿ **أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُوْنَ بِالَّذِيْ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ** ﴾ حتى بلغ ﴿ **طَائِعِيْنَ** ﴾ [حمّ السجدة: ٩-١١] ثم قال في الآية الأخرىٰ: ﴿ **أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا** ﴾ إلى أن قال: ﴿ **وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحَاهَا** ﴾ [النازعات:٢٧-٣٠]. وأسمعه يقول: ﴿ **وَكَانَ اللّٰهُ** ﴾ ما شأنه يقول "وكان اللّٰه"؟

فقال ابن عباس : أمّا قوله: ﴿ **ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوْا وَاللّٰهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِيْنَ** ﴾ فإنّهم لمّا رَأَوا يومَ القيامة، وأن اللّٰه يَغفِرُ لأهل الإسلام ، و يَغفِرُ الذُّنوبَ ، ولا يغفرُ شِرْكاً ولا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره ، جَحَدَه المشركون رجاءَ أن يغفر لهم، فقالوا: ﴿ **وَاللّٰهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِيْن** ﴾ فختَمَ اللّٰهُ على أفواههم وتكلَّمَتْ أيديُهم، وأرجلُهم مما كانوا يعملون ، فعند ذلك ﴿ **يَوَدُّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَعَصَوُا الرَّسُوْلَ لَوْ تُسَوّٰى بِهِمُ الْأَرْضَ وَلاَ يَكْتُمُوْنَ اللّٰهَ حَدِيْثًا** ﴾ ،وأما قوله ﴿ **فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَّلاَ يَتَسَاءَلُوْنَ** ﴾ فإنه إذا نُفِخَ في الصُّور فصَعِقَ من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء اللّٰه، فلاأنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون، ثم نُفِخَ فيه أخرىٰ فإذا هم قيامٌ ينظرُون، وأقبَلَ بعضُهم على بعض يتساءَلُون، وأما قوله ﴿ **خَلَقَ الْأَرْضَ فِيْ يَوْمَيْن** ﴾ فإن الأرض خُلِقَتْ قبل السماء وكانت السماءُ دُخَاناً، فسَوّاهُنّ سبعَ سمٰواتٍ في يومين بعد خلق الأرض، وأمّا قوله ﴿ **وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحَاهَا** ﴾ يقول :جَعَلَ فيها جَبَلًا ، وجَعَلَ فيها نَهراً ،

وجَعَلَ فيها شجراً وجَعَلَ فيها بُحُوراً، وأما قوله ﴿وَكَانَ اللّٰهُ﴾ فإن اللّٰه كان ولم يـزل كـذلك، وهـو كـذلك عـزيزٌ حكيمٌ عليمٌ قديرٌ لم يزل كذلك ، فـما اختلف عليك من القرآن فهو يَشْبَهُ ما ذكرتُ لك، وإن اللّٰه لم ينزل شيئاً إلا وقد أصَابَ به الذي أرَادَ ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَالنَّاسَ لاَ يَعْلَمُوْنَ﴾[سبا:٣٦] (١)

(١) أخرجه عبد الرزاق في التفسير:١٦٠/١والطبري في التفسير:٩٦/٥، والبخاري في الصحيح في كتاب التفسير:٤٥٤٧، وأورده البغوي في المعالم:٤٣٠/١،وابن كثير:٩٣/٤

وروى ابـن جـريـر عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عَلٰى وُجُوْهِهِمْ عُمْيًا وَّ بُكْمًا وَّصُمًّا﴾ [الإسـراء:٩٧] وقـولـه: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُوْنَ النَّارَ فَظَنُّوْا﴾ [الـكهف:٥٣] وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّنْ مَّكَان بَعِيْدٍ سَمِعُوْا لَهَا تَغَيُّظًا وَّ زَفِيْرًا﴾ [الـفرقان:١٢] وقوله: ﴿وَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوْرًا﴾ [الـفـرقـان:١٣] قـال:أمّا قوله : "عُمْياً" فلا يرون شيئاً يسرّهم، وقوله:" بُكْماً " لا ينطقون بحجةٍ، وقوله:" صُمّاً " لايسمعون شيئاً يسرّهم(١).

وروى ابـن جـريـرعن ابن مسعود، وابن عباس، و عائشة، رضي اللّٰه عنهم فـي قـوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّٰهُ﴾ [البـقـرة:٢٠٤] قـالـوا: إنها منسوخة ، وكانت المحاسبة قبل أن تنزل ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البـقـرة:٢٠٦] فـلما نزلتْ نسخت الآيةَ التي كانت قبلها (٢).

كلام التابعين فى هذا المبحث

روى عبـد الـرزاق عن قتادة:جاء رجلٌ إلى عكرمة فقال:أرأيت قول اللّٰه تـعالى: ﴿هٰذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُوْنَ﴾ [الـمـرسلات:٣٥] وقوله ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُوْنَ﴾ [الـزمـر:٣١] قال: إنها مواقفُ، فأمّا موقفٌ منها فتكلّمُوا واخْتَصَمُوا، ثم خَتَمَ اللّٰه على أفواههم، فتكلَّمَتْ أيديهم وأرجلُهم فحينئذٍ لاينطقون(٣).

وروى ابـن جـرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكٰرٰى وَمَا هُمْ بِسُكٰرٰى وَلٰكِنَّ عَذَابَ اللّٰهِ شَدِيْدٌ﴾ [الحج:٢] عن الحسن : قال تَرَى النَّاسَ سُكَارٰى من الخوف، وماهم بِسُكَارٰى من شرب الخمر(٤).

وحكى البغوي في تفسيره عن الحسن قال في الآية ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ عَلٰى وُجُوْهِهِمْ عُمْيًا وَّ بُكْمًا وَّصُمًّا** ﴾ [الإسراء:٩٧] هذا حين يُسَاقُون إلى الموقف إلى أن يدخلوا النار . ونُقِلَ عن مقاتل: هذا حين يُقَالُ لهم : اخْسَؤُا

(١) الطبري:١٦٧/١٥- ١٦٨
(٢) تفسير الطبري: ١٤٦/٣
(٣) تفسير عبد الرزاق:١٦٢/١
(٤) تفسير الطبري:١١٥/١٧

فيها ولا تُكَلِّمُونِ، يصيرون بأجمعهم عُمْياً و بُكْماً و صُمّاً لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون(١).

طريق المعالجة عند التعارض

بقي ههنا سؤالٌ، وهو كيفَ يُعَالِجُ المفسِّرُ هذا الموضوعَ ومايكون موقفه عند ذلك ؟ فالجواب أنه إذا تَعَارَضَتِ الآيُ فلدفعه طرقٌ عديدةٌ ووجوهٌ متعدّدةٌ، فعلى المفسِّرأن يُعالِجَ هذا الموضوعَ باستخدام تلك الطُرُق والوجوه، ولكن ليس هُناك ما يجمع تلك الطرقَ والوجوهَ، فلذلك أني خُضْتُ في الموضوع والْتَقَطتُّ من غُرَر النقول من كلام العلماء الفحول أموراً تُرْشِدُكَ إلى تلك الطُرُق والوُجُوه ، وعَسٰى أن تجلوالعيونَ وتشفي النفوس، وذلك ما يلي :

١ - أن تُحْمَلَ إحدى الآياتِ على النازل متقدّماً، والأخرىٰ على النازل متأخِّراً، فيجري فيها النسخ على حسب شرائطه . ومثالُه قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِيْنَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُوْنَ أَزْوَاجًا وَّصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ** ﴾ [البقرة:٢٤٠]

وقوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِيْنَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُوْنَ أَزْوَاجًا يَّتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَّعَشْرًا** ﴾[البقرة:٢٣٤] فالأول منسوخٌ بالثاني.

٢ - الحملُ على اختلاف الأشخاص، كقوله تعالى: ﴿ **فِيْ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهٗ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّوْنَ** ﴾ [السجدة:٥] وقوله تعالى: ﴿ **فِيْ يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهٗ خَمْسِيْنَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ [المعارج:٤] فالأوّلُ في حق المؤمنين، والثاني في حق الكافرين.

يقول الشوكاني:" قيل في الجواب أن يوم القيامة مقداره ألف سنة من أيام الدنيا، ولكنّه باعتبارصعوبته وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف سنة، والعرب تَصِفُ كثيراً يوم المكروه بالطول، كما تصِفُ يوم السُّرُور بالقصر"(٢).

٣ - الحمل على اختلاف المواضع ، فإنّه قد يكون للشيء مواضع ومواقف، فمرّةً يذكرمنها واحداً، ومرةً يذكرالآخر. ومثالُه قوله تعالى: ﴿ **فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُم**

(١)معالم التنزيل:١٣٨/٣

(٢) فتح القدير: ٣٤٩/٤

يَوْمَئِذٍ وَّلاَ يَتَسَاءَ لُوْنَ﴾ [المؤمنون:١٠١] مع قوله تعالى: ﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلٰى بَعْضٍ يَّتَسَاءَ لُوْن**﴾ [الصافات:٥٠] ، فالأوّل في موقفٍ من مواقف القيامة ، فيتساءَ لُون ، والثاني في موقفٍ آخرَ منه، فلا يتساء لون.

و كقوله تعالى: ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهٖ إِنْسٌ وَّلاَ جَانٌّ** ﴾ [الرحمن:٣٩] مع قوله: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ**﴾ [الحجر:٩٢] قال عكرمة وقتادة :إنها مواقفُ ومواطنُ يُسُأَلُ في بعضها، ولا يُسُأَلُ في بعضها (١).

٤ - الحمل على اختلاف الأوقات، كما قال ابن عباس: وأما قوله ﴿ **فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَّلاَ يَتَسَاءَ لُوْن** ﴾ [المؤمنون:١٠١] فإنه إذا نُفِخَ في الصور فصعق من في السمٰوات ومن في الأرض إلا من شاء اللّٰه، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون، ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، وقد تقدّم .

٥- الحملُ على اختلاف الأحوال، فإنه قد يكون للشيء أحوالٌ مختلفةٌ و تطويراتٌ شتّٰى، كقوله تعالى في خلق آدم: ﴿ **خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ**﴾ [آل عمران:٥٩] ومرةً ﴿ **مِنْ حَمَأٍ مَّسْنُوْنٍ**﴾ [الحجر:٢٥] ومرةً ﴿ **مِنْ طِيْنٍ لَّازِبٍ**﴾ [الصافات:١١] ومرةً﴿ **مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾ [الرحمن:١٤] وهذه الألفاظ بظاهرها مختلفةٌ ومرجعُ معناها واحدٌ لأن الصلصال والحمأ والطين كلها أحوالٌ دَرِجَتْ من التراب التي خلق منها آدم عليه السلام .

وكذا قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام ﴿ **فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعٰى**﴾

[طه:٢٠] و ﴿ **فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِيْنٌ** ﴾ [الشعراء:٣٢] و ﴿ **تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ** ﴾ [النمل:١٠] والآيات بظاهرها متضادَّةٌ لأن الحيةَ عامٌ للكبير والصغير، والثُعْبَانُ هو الكبيرُ منها، بينما الجانُّ الصغيرُ منها، ولكن هذه الآيات ليستُ في الحقيقة متضادّةً، لأن المراد أن الحية التي كانتُ من معجزة موسى عليه السلام كان خَلْقُها خلقَ الثعبان العظيم، ومع ذلك كان اهتزازُها وحركتُها كاهتزاز الجان الصغير، وهومن عظيم قدرته ﷻ .

---

(١) المعالم للبغوي:٢٧٢/٤وروح المعاني:١١٤/٢٧

قال الزجاج: صارت العصا تَتَحَرَّكُ كما يَتَحَرَّكَ الجانّ وهي الحية البيضاء، وإنما شَبّهَهَا بالجانّ في خفّة حركتها، وشَبَّهَها في موضع آخر بالثُعبان لعظمها (١).

٦- الحمل على اختلاف جهتَي الفعل كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ رَمٰى** ﴾ [الأنفال:١٧] فأضيف الرمية إلى النبيا أولاً ، ثم نفى عنه، فالإضافة إليه على جهة الكسب والمباشرة ، والنفيُ عنه باعتبارالتأثير. قال الآلوسي البغدادي : والمعنى على ما قيل: وما فعلتَ أنتَ يا محمد تلك الرميةَ الـمُسْتَتْبَعَةَ لتلك الآثارالعظيمة حقيقةً، حين باشرتها صورةً، ولكن اللّٰه فَعَلَها وخَلَقَهاحين بَاشَرْتَها على أكمل وجهٍ حيث أوصَلَ بها الحصباء إلى أعْيُنِهِم جميعاً (٢).

٧- الحمل على الاختلاف في الحقيقة والمجاز، كقوله تعالى: ﴿ **وَتَرَى النَّاسَ سُكٰرٰى وَمَا هُمْ بِسُكٰرٰى وَلٰكِنَّ عَذَابَ اللّٰهَ شَدِيْدٌ** ﴾[الحج:٢]أَثْبَتَ لهم السُكْرَ مجازاً أي سُكارٰى من أهوال القيامة، ونفى عنهم ذلك باعتبارالحقيقة لأنهم لا يكونون سُكَارٰى من الشراب. قال الحسن : معناه ترى الناس سكارىٰ من الخوف، وما هم بسكارى من الشراب (٣).

٨- الحمل على اختلاف المعنٰى، كقوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوْا فَوَاحِدَةً** ﴾ [النساء:٣] مع قوله تعالى: ﴿ **وَلَنْ تَسْتَطِيْعُوْا أَنْ تَعْدِلُوْا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ [النساء:١٢٩] فالآية الأولى تُفْهِمُ إمكانَ العدل بين الزوجات،

بينما الثانية تَنفِيهِ . والجواب أن الأولىٰ تُحمَلُ على العدل في توفية الحقوق، وهو في مقدورالبشر، والثانية على العدل في الميل القلبي، وهو ليس في وُسعِه .

وكقوله تعالى: ﴿ **الٓرٰ كِتٰبٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَّدُنْ حَكِيْمٍ خَبِيْرٍ** ﴾ [هود:١] مع قوله: ﴿ **أَللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيْثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُوْدُ الَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُوْدُهُمْ وَ قُلُوْبُهُمْ إِلٰى ذِكْرِ اللّٰهِ** ﴾

(١) فتح القدير للشوكاني: ١٢٧/٤
(٢)روح المعاني:٩/ ١٨٥
(٣)معالم التنزيل:٣٧٣/٣ والمدارك:٩٥/٣

[الزمر:٢٣] وقوله : ﴿ **هُوَ الَّذِيْ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتٰبَ مِنْهُ اٰيٰتٌ مُّحْكَمٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتٰبِ وَاُخَرُ مُتَشٰبِهٰتٌ** ﴾ [آل عمران:٧] ، فالآية الأولى تُبَيِّنُ أن القرآن الكريم كله مُحْكَمٌ ؛ والآيةُ الثانيةُ تَقُولُ: أن القرآن كلَّه مُتَشَابِهٌ ؛ وأمّا الثالثةُ فتُصَرِّحُ بأن من الكتاب ما هو مُحكَمٌ ومنه ما هومُتَشَابِهٌ. فالآيات بظاهرها متعارضةٌ ، والجوابُ أنّ الأولى والثانية تُحمَلاَن على المعنى اللغوي، فإن المحكم في اللغة بمعنى المتقن ، والمتشابة بمعنى المتماثل، وأما الثالثةُ فتُحمَلُ على المعنى الاصطلاحي.

٩- الحملُ على اختلاف الشرط، وهو كقوله تعالى:﴿ **وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَّلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَّلاَ هُمْ يُنْصَرُوْنَ** ﴾ [البقرة:٤٨] مع قوله تعالى: ﴿ **لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** ﴾ [السبا:٢٣] فالأوّلُ محمولٌ على عدم الإذن، والثاني على الإذن، فلا تعارُض .

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِّزْرَ أُخْرٰى** ﴾[الإسراء:١٥] مع قوله: ﴿ **وَاتَّقُوْا فِتْنَةً لاَّ تُصِيْبَنَّ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا مِنْكُمْ خَاصَّةً** ﴾ [الأنفال:٢٥] وقوله : ﴿ **وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ** ﴾ [العنكبوت:٣١] وقوله: ﴿ **وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِيْنَ يُضِلُّوْنَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ [النحل:٢٥] فالآيةُ الأولى تَتَحَدَّثُ عن العذاب بأنه يختصُّ بالّذين ظَلَمُوا؛ ولا يُصِيبُ الذين لم يظلموا، بينما الآياتُ الأخَرُ على عكس ذلك تُصَرِّحُ بأن العذاب لا يختصُّ بالذين ظلموا منهم ؛ بل يعمُّهم وغيرَهم. والجوابُ عندي أن الأولى إذا كان

الرجل يُنكِرُ على المنكرات ويأْمُرُ بالمَعرُوفات ، ولايكون ظهيراً للظالمين والمجرمين، ولا يكون معاوناً لهم ، وأما الآيات الأخَر فمعناها إذا لم يُنكِرُ على المنكرات ولايأمُر بالمعروفات، ويكون ظهيراً للمجرمين ، فلا تعارُض.

وقال ابنُ كثير في تفسيرقوله تعالى:﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِّزْرَ أُخْرٰى﴾ما نصُّه:ولا مُنافاةَ بين هذا وبين قوله: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وقولِه:﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِيْنَ يُضِلُّوْنَهُمْ بغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فإنّ الدُعاةَ عليهم إثمُ ضلالتِهم في أنفسهم، و إثمٌ آخرُ بسبب ما أضَلُّوا مَنْ أضَلُّوا من غير أن ينقص من أوزار أولٰئك، ولا يحمل عنهم شيئاً (١).

(١) تفسير ابن كثير:٢٩/٣

١٠- الحملُ على اختلاف الاعتبار، ومن أمثلته قوله تعالى:﴿ وَاللّٰهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفّٰكُمْ﴾ [النحل:٧٠] وقوله: ﴿ قُلْ يَتَوَفّٰكُمْ مَلَکُ الْمَوْتِ﴾[السجدة:١١] وقوله :﴿ اَلَّذِيْنَ تَتَوَفّٰهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِيْنَ ﴾[النحل:٣٢] فإن هٰذه المجموعةَ من الآياتِ تظهرُ للقارئ كأنها متعارضة لأن فعل التوفِّي نُسِبَ في الآية الأولى إلى اللّٰـه تعالى؛ وفي الثانية إلى مَلَكِ الموت ؛ وفي الثالثة إلى الملائكة . والجوابُ ما قال الآلوسي : إن نسبة التوفّي إلى ملك الموت باعتبار أنه عليه السلام يُبَاشِرُ قبضَ الأنفس بأمره عزَّ وجلَّ؛ ونسبتُه إليه عزّوجلّ باعتبار أن أفعالَ العباد كلَّها مخلوقةٌ له جلّ وعلا ، لامدخلَ للعباد فيها سوَى الكسب، أوباعتبار أن ذلك بإذنه ومشيته؛ ونسبتُه إلى الرُسُل لِمَا أن ملكَ الموت لا يستقلُّ به بل له أعوانٌ يعالجون نزعَ الروح (١).

١١- الحملُ على اختلاف الإجمال والتفصيل، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَّقُوْلُوْا هٰذِهٖ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَّقُوْلُوْا هٰذِهٖ مِنْ عِنْدِکَ ، قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ ﴾ [النساء:٧٨] مع قوله ﴿ مَا أَصَابَکَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ وَمَا أَصَابَکَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَّفْسِکَ ﴾ [النساء:٧٩]

فقال في الآية الأولى : إنّ ما أصابنا من الحسنة والسيئة كل ذلك من عند اللّٰـه؛ وقال في الثانية: أنّ الحسنة من عند اللّٰه، والسيئة من عند أنفسنا، فتعارضتا، فالجواب أن الآية الأولى فيها شيء من الإجمال لأنها تشمل ما أصابنا من الحسنة

والسيئة بشكل مباشر وغيره ؛ والآية الثانية تُفَصِّلُ هذا الإجمال ، فَتَقُولُ: إن ما أصابنا من الحسنة هو من عند اللّٰه مباشراً، وأمّا ما أصابنا من السيئة فمن واسطة شرورأنفسنا.

بعض الآيات المتعارضة وكلام العلماء في ذلك

ومن المناسب في خاتمة هذا المَبْحَث أن نَذْكُرَ بعضَ الآيات المشكلة المتعارضة مع الكلام عليها من العلماء المفسِّرين:

۞ من ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُّؤْمِنُوْا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدٰى وَ**

(١)روح المعاني: ٢١/ ١٣٦

يَسْتَغْفِرُوْا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِيْنَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾ [الكهف:٥٥] هذه ممّا استشكلوه ، فإنّه يدُلُّ على حصر المانع من الإيمان في أحد هذين الأمرين: إتيان سنة الأوّلين أو إتيان العذاب ، مع أنه قال في موضع آخر ﴿**وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُّؤْمِنُوْا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدٰى إِلَّا أَنْ قَالُوْا أَبَعَثَ اللّٰهُ بَشَرًا رَّسُوْلًا**﴾[الإسراء:٩٤] فحصر المانع من الإيمان في أمرآخرغيرهما . قال السيوطي : أجاب ابن عبد السلام بأنّ معنى الآية الأولى : وما مَنَعَ الناسَ أن يُؤْمنُوا إلّا إرادة أنْ تَأتِيَهُم سُنّةُ الأولين من الخسف أوغيره، أو يَأتيَهُم العذابُ قُبُلًا في الآخرة ، فأَخْبَرَ أنّه أَرَادَ أنْ يُصيبَهم أحدُ الأمرين ، ولا شك أنّ إرادةَ اللّٰه مانعةٌ من وقوع ما يُنافِي المراد ، فهذا حصر في السبب الحقيقي؛ لأن اللّٰه هوالمانع في الحقيقة ، ومعنى الآية الثانية : ومَا مَنَعَ النَاسَ أن يُؤمِنُوا إلا استغراب بعثه بَشَراً رسُولًا، لأن قولهم ليس مانعاً حقيقياً بل عادياً، لجواز وجود الإيمان معه بخلاف إرادة اللّٰه تعالى، فهذا حصر في المانع العادي والأوّل حصر في المانع الحقيقي فلا تنافي(١).

ژ ومن ذلك قوله :﴿ **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرٰى عَلَى اللّٰهِ كَذِبًا**﴾ [الأعراف : ٣٧، يونس:١٧، الأنعام:١٤٤] مع قوله ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهٖ فَأَعْرَضَ عَنْهَا**﴾ [الكهف:٥٧،] وقوله ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّٰهِ أَنْ**

﴿يُذْكَرَ فِيْهَا اسْمُهُ وَسَعٰى فِيْ خَرَابِهَا﴾[البقرة:١١٤] وظاهرالآيات التعارضُ والتناقضُ، ويقفُ القارئ أمامَ هذه الآيات لايتمالكُ الاستعجابَ ؛ لأن الاستفهام لايُرَادُ به حقيقتُه ، وإنّمَا هو بمعنى النفي. والمعنى:لا أحدٌ أظلم ممّنْ ذُكِرَ، فيكونُ خبراً، فإذا أُخِذَتِ الآياتُ حينئذٍ على ظواهرها أدّى إلى التناقض. فالجواب عنه بوجوهٍ:

الأول : بتخصيص كلّ موضع بما يُفْهَمُ من صلته، فيقال: لا أحدٌ من المانعين أظلمُ ممّنْ مَنَعَ مساجدَ اللّٰه، ولا أحدٌ من المفترين أظلمُ ممّنْ افْتَرٰى على اللّٰهِ كَذِباً، فيَزُوْلُ التناقُض.

(١)الإتقان:٣٨/٢ -٣٩

والثاني: باعتبار السبق، فلمّا لم يسبق أحدٌ إلى مِثلِه حكم عليهم بأنهم أظلم مِمَّن جاءَ بعدهم سالكاً طريقتَهُمْ .

والثالث:بأن نفي الأظلمية لا يستدعي نفي الظالمية، وإذا لم يدلُّ على نفي الظالمية لم يلزم التناقض؛ لأن فيها إثباتَ التسوية في الأظلمية، وإذا ثبتتِ التسويةُ فيها لم يكن أحدٌ ممَّنْ وصف بذلك يزيد على الآخر؛ لأنهم يتساؤون في الأظلمية، وصَارَ المعنٰى :لا أحدٌ أظلمُ ممّن افترٰى، و مَنَعَ ونحوها، ولا إشكالَ في تساوي هٰؤلاء في الأظلمية .

والرابع: ما قال بعض المتأخّرين: هذا استفهام مقصود به التهويلُ والتفظيعُ، من غيرقصد إثبات الأظلمية للمذكورحقيقةً، ولا نفيها عن غيره(١).

۞ ومن ذلك قوله :﴿ **يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ، لاَيَضُرُّكُمْ مَّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة:١٠٥] مع الآيات التي تَفْرُضُ على المسلمين الأمرَبالمعروف والنهيَ عن المنكر وهي -كما لا يخفى - كثيرةٌ .

قال العلامة الآلوسي:

"وتوهم من ظاهر الآية الرخصة في ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر. وأجيب عنه بوجوهٍ : الأوّلُ: أن الاهتداء لايتم إلا بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر، وترك ذلك مع القدرة عليه ضلالٌ،

والثـانـي: أن الآية تسـليةٌ لـمـن يـأمُرُ ، ويَنهٰى ، ولا يُقبَل قولُه عند غلبة الفسق، وبعد عهد الوحي، والثالث :أنها للمنع عن هلاك النفس حسرةً وأسـفـاً عـلـى مـا فيه الكَفَرَةُ والفَسَقَةُ من الضلال، فقد كان المؤمنون يتـحسّـرون عـلـى الـكـفَـرَـةِ، ويتـمنّون إيمانَهم ، فنزلتْ، والرابع: أنها لـلـرخـصة في ترك الأمر ، والنهي إذا كان فيه مَفسَدة، و الـخامس: أنها لـلأمـر بـالثبات على الإيمان من غير مُبالاةٍ بنسبة الآباء إلى السفه، فقد قيل إن الرجل إذا أسْلَمَ قَالُوا له سَفّهتَ أبَاكَ، فنَزَلَتْ " (٢).

(١) انظر الإتقان: ٣٩/٢

(٢) ملخصاً من روح المعاني:٧/ ٤٦

فصل

التكرارُ في القرآن الكريم : حقيقتُه ، وفوائدُه

ومـن الـمـلائم النظرُ والبحثُ في ما وقع في القرآن الكريم من التكرار في مـواضـع شتّـى، وهـو مـمّا يظهرجليًّا لكل من يقرأ القرآنَ الكريمَ، وقد تكلَّمَ عليه الـعـلـمـاءُ فـي مـقـالاتهـم، وكتبهم، وتفاسيرهم ؛ حتى أفرده البعضُ بالتصنيف، ومنهم العلامةُ محمود بن حمزة الكرماني ، تكلّم على اسرارالتكرار في القرآن في تـصـنيف ، وأسُـمـاه " البـرهان في متشابه القرآن ". وأنا أذكر ههنا فوائدَ في هذا الصدد:

الفائدةُ الأولى

قبل الخوض في صلب الموضوع أُرِيدُ أن ألفت نظرَك إلى ما أُثِيرَتْ حول التـكـرار الـواقـع فـي الـقـرآن مـن الشُّبُهَـات الـركيكة من بعض الأذهان ، فإنهم استشكلوا هذا، ووجّهُوا إليه اعتراضاً، فيقولُون : إن التكرار مُخِلٌّ بالفصاحة، وإنّه يستثقلُ على القارئ ويُسْئِمُهُ ، وإنّه عبثٌ لا طائل تحتَه .

فـمن واجب الأمانة على أعناقنا أن نُبدّدَ ظلماتِ هذه الشبهات في ضوءِ ما

عـنـدنا من الدلائل العلمية والبراهين العقلية ، فنقول بعون اللّٰه تعالى: إنّ كلَّ ما قالُوا في هذا الصدد منحصرٌ في ثلاث شُبهات:

الأولى: قـولهـم إن التـكـرار مُخِلٌّ بالفصاحة ، والجواب أن قولَهم هذا لا يُلتفَتُ إليـه أصلاً، ولا يُـعتَـدُّ به قطعاً، لأنهم ليسُوا من أهل اللسان، وقد اعترف بفصاحة القرآن، وبلاغته، وبكونه في مرتبةٍ قاصيةٍ من الإعجاز أهلُ لسان عربي مبينٍ ، على حيـن أنهـم كـانـوا أحـرصَ الـناس على أن يَجِدُوا على القرآن مَطْعَناً وفيه مَغمزاً، فـلـو كـان التـكـرارُ مُخِلًّا بالفصاحة ونقصاً في البلاغة لأسْرَعُوا بالردّ عليه جهاراً ؛ وبـمـعارضته علنيةً ، ولكنهم- كما لايخفى -لم يُنكِروا عليه أصلاً ؛ ولـم يُعَارِضُوه قطعاً من هذه الناحية ، بالرغم من أن القرآن الكريم دعاهم إلى المُبَارَزَةِ، وطاوَلهم فـي الـمُـعـارَضَة، وتـحدّاهم أوّلًا إلى المعارضة بجميع القرآن ، ثم تنازل لهم إلى التـحـدّى بسـورـةٍ واحـدةٍ من مثله ، وهم على رغم هذه المطاولة لم يقدروا على المعارضة . أليس هذا أكبرَ شهادةٍ على أن التكرار ليس مُخِلًّا بالفصاحة ولا نقصاً في البلاغة ؟

الشبهة الثا نية: قـولُهـم إن التكرار يستثقلُ على القارئ ، والجواب عنه أن يُقَالَ: مـن لـم يذُقْ لـم يَدْرِ، فلو كانوا من أهل اللسان، أوممّن يمارس اللغةَ العربيةَ مطالعةً وقـراءـةً ، تعلّماً وتعليماً ، تأليفاً وتصنيفاً لَوَجَدُوا حلاوتَه وذَاقُوا لطافتَه، ولكن الذي يُثِيـرُالـحُـزنَ والـكـآبةَ أنهـم لايـعرفون اللغةَ العربيةَ ؛ بل ولايُحسِنُون تلاوةَ القرآن ، فـكيف يـجـدوا حـلاوتَـه ويـذوقُوا لطافتَه ؟ لذلك فنقول لهم ونطلب منهم : إن لم يـكـنُ عـنـدكم ذوقٌ صحيحٌ فانظروا نظرةً فاحصةً في كلام البلغاء، وحملة الأقلام تَجِدُوُهُ مملوءاً بالتكرار، وهو من مذاهب العرب كما يقوله العلماء .

يـقـول الـعـلامة ابـن قتيبة الـديـنوري في " تأويل مشكل القرآن" له :"من مـذاهـب الـعـرب التـكـرارُ لـلتـوكيـد والإفهـام،كـما أن من مذاهبهم الاختصار لـلتـخفيف والإيجاز، لأن افتنان المُتكلِّم والخطيب أحسن من اختصاره على فنٍّ واحدٍ " (١).

وقـال الإمام مسعود بن حسين الفرّاء البغوي:" قال أكثرُ أهل المعاني: إن

الـقـرآن نـزَلَ بـلسـان العرب وعلى مجاري خطابهم، ومن مذاهبهم التكرارُ إرادةَ التوكيد والإفهام ،كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادةَ التخفيف والإيجاز" (٢).

الشبهة الثـالثة: قـولُهـم : إن التـكرار عبثٌ لاطائلَ تحتَه ، والجواب عنه: أن هذا فـريةٌ بـلا مرية، ومن نتائج الجهل بالعلوم العربية ، والفنون الأدبية ؛ لأن العلماء الـمَهَرَة قد ذَكَرُوا في التكرار فوائدَ ، كما يأتي في الفائدة الثالثة، ويُعَدُّ هذا عند البلغاء من محاسن الفصاحة، والبلاغة ؛ حتى قالوا :إن التكرار أبلغ من التأكيد.

ومـع ذلك فـلا يـخـفى عليك أن التكرار المحض لا وجودَ له في القرآن؛ فإنه ليس فيه تكرار لفظ بعينه عقبَ الأول فقط، وإنمّا فيه التكرار بقدر مشترك

(١) تأويل مشكل القرآن:١١٧

(٢) معالم التنزيل:٤/٥٣٥

تارةً ، وبقدر مُغَاير أخرى.

قال شيخ الإسلام ابن تيميةؒ في تفسير سورة الكافرون:

" هـذا الـكلام الذي ذكره بإعادة اللفظ، وإن كان كلام العرب وغير العرب؛ فإنّ جميع الأمم يؤكّدُوْن ، إمّا في الطلب، وإمّا في الخبر بتكرار الـكـلام ، لكن ليس في القرآن من هذا شيءٌ، فإنّ القرآن له شأنٌ اخْتُصَّ بـه ، لايشبهـه كـلامُ البشـر،لا كـلامُ نبـيٍّ ولا غيـرِهِ . وإن كان نزل بلغة الـعـرب، فلا يقدر مخلوق أنْ يأتيَ بسُورةٍ ، ولا ببعض سورةٍ مثلِه، فليس في القرآن تكرارٌ للفظ بِعَيْنِه عقبَ الأوّل " (١).

الفائدةُ الثانية

إن مـعـنــى التكرار إعادة اللفظ أو مرادفِه لتقرير المعنى السابق، فإنْ أُعِيْدَ لا لتقرير المعنى السابق لم يكن تكراراً. فعلى هذا لايكون من التكرار ماجاءَ في قوله تـعالى: ﴿ **إِنِّـيْ أُمِـرْتُ أَنْ أَعْبُـدَ الـلّـٰهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّيْنَ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُوْنَ أَوَّلَ الْـمُسْـلِمِيْـنَ،قُلْ إِنِّيْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّيْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيْمٍ، قُلِ اللّٰهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِيْنِيْ فَاعْبُدُوْا مَا شِئْتُمْ مِّنْ دُوْنِهِ** ﴾ [الزمر: ١١- ١٤]

فإنّه أعَادَ قولَه " قُلِ اللّٰهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِيْنِيْ " بعد قوله " إِنِّيْ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّيْنَ " لا لتقرير الأول؛ بل لغرضٍ آخرَ؛ لأن معنى الأوّل الأمرُ بأنّ الرسول مأمورٌ بالعبادة للّٰه، والإخلاص له فيها ؛ و معنى الثاني أنه يَخُصُّ اللّٰهَ وحدَه دون غيره بالعبادة والإخلاص ، ولذلك قدّم المفعولَ على فعل العبادة في الثاني ؛ وأخّرَ في الأوّل ؛ لأن الكلام أوّلًا في الفعل؛ و ثانياً في مَنْ فُعِلَ لأجله الفعلُ (٢). وستأتي تتمّته قريباً إن شاء اللّٰه تعالى.

الفائدةُ الثالثة

من المُهِمِّ أن يُعْلَمَ أنّ للتكرار فوائدَ، ذَكَرَهَا الزركشي والسيوطي وغيرُهما:

۞ **التقرير** : قد قيل إن الكلام إذا تَكَرَّرَ تَقَرَّرَ، وقد نَبَّهَ اللّٰهُ تعالى على السبب

(١)فتاوىٰ ابن تيمية: ١٦ / ٥٣٦
(٢)البرهان:١٠/٣

الذي لأجله كرّر الأقاصيصَ والإنذاراتِ في القرآن بقوله : ﴿ **قَدْ صَرَّفْنَا فِيْهِ مِنَ الْوَعِيْدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ** ﴾ [طٰه:١١٣] وقد وقع في القرآن من هذا كثيرٌ ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُوْا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوْحٍ وَّ زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً، فَاذْكُرُوْا اٰلَاءَ اللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ** ﴾ [الأعراف:٦٩] قال أبو السعودؒ: هذا تكرير للتذكيرلزيادة التقرير(١).

ومنه قولُه تعالى: ﴿ **وَقَفَّيْنَا عَلٰى اٰثَارِهِمْ بِعِيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ اٰتَيْنٰهُ الْإِنْجِيْلَ فِيْهِ هُدًى وَّنُوْرٌ وَّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَّمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِيْنَ** ﴾ [المائدة:٤٢]

۞ **التاكيد:** وهو كثيرٌ في القرآن ، ومنه ما جاءَ في قوله تعالى ﴿ **اِذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوْكَ بِآيٰتِيْ وَلَا تَنِيَا فِيْ ذِكْرِيْ، اِذْهَبَا** ﴾[طٰه:٤٢] قال القرطبي : قال في أوّل الآية : اذْهَبْ، وقال هنا : اذْهَبَا، فقيل: أمَرَاللّٰهُ تعالى موسىٰ وهارونَ في هذه الآية بالنفوذ إلى دعوة فرعون، وخاطبَ أوّلاً موسى وحده تشريفاً له ثم كرّر للتاكيد(٢).

۞ زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول، كقوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِيْ اٰمَنَ يٰاقَوْمِ اتَّبِعُوْنِ أَهْدِكُمْ سَبِيْلَ الرَّشَادِ ، يٰا قَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا مَتَا عٌ ﴾ [المؤمن:٣٨ – ٣٩] فكرّر فيه النداءَ لذلك.

❁ اذا طال الكلام، وخشي تناسي الأوّل أعِيدَ ثانياً تطريةً له وتجديداً لعهده، كقوله تعالى: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ يَفْرَحُوْنَ بِمَا أَتَوْا وَ يُحِبُّوْنَ أَنْ يُّحْمَدُوْا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوْا، فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ [النساء:١٨٨] فأعَادَ قولَه "لا تحسبن" خشيةَ تناسي الأوّل. ومنه ﴿إِنِّيْ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَّالشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِيْنَ﴾ [يوسف:٤]

❁ **التعظيم والتهويل**: ومنه قوله تعالى:﴿ اَلْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:١–٣] وقوله: ﴿اَلْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١–٣] و قوله:﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِيْنِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِيْنِ﴾ [الواقعة:٢١] قال أبوالسعود

(١) تفسير أبي السعود:٢٣٩/٣
(٢) تفسير القرطبي:١٩٩/١١

المفسّر، والعلامة الآلوسي في تفسير﴿ اَلْحَاقَّةُ ، مَا الْحَاقَّةُ، وَمَا أَدْرٰكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ :" تاكيد لهولها وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات على معنى أن أعظم شأنها، و مدى هولها، و شدّتها ، بحيث لا تكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه، وكيفما قدرت حالها ، فهي وراء ذلك وأعظم و أعظم، فلا يتسنى الإعلام (١).

❁ **الوعيد والتهديد**: كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ﴾ [التكاثر: ٣-٤] قال الفرّاء : هذا التكرار على وجه التغليظ والتاكيد، وقال مجاهد: هو وعيد بعد وعيد (٢).

❁ **التعجّب**: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ٢٠] فأُعِيْدَ تعجُّباً من تقديره وإصابته الغرضَ على حدّ قولهم : قاتلَهُ اللّٰه ما أشْجعَه . قال البيضاوي: (هو) تعجب من تقديره استهزاءً به، أولأنه أقصٰى ما يمكن أن يُقَالَ عليه من قولهم : قاتلَه اللّٰه ما أشْجعَه، بلغ في الشجاعة مبلغاً يحق أن يُحْسَدَ(٣).

الفائدةُ الرابعة

ثـم لايـذهـب عـليك أن فـي الـقرآن آياتٍ تَكَرَّرَتْ في مواضع، ويُظَنُّ بها تـكـراراً، والـحـال أنّهـا ليسـتْ مـكـرَّرَةً، كما أشَرْنَا إلى ذلك قبلُ، وإنّما يُقَالُ له الترديدُ، ومن أمثلته ما يلي:

۞ قـوله تعالى: ﴿ اَللّٰـهُ نُوْرُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ، مَثَلُ نُوْرِهٖ كَمِشْكٰوةٍ فِيْهَا مِصْبَـاحٌ، اَلْـمِصْبَـاحُ فِيْ زُجَاجَةٍ، اَلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُّوْقَدُ ﴾ [الـنـور:٣٥] وقـع فيـه الترديد أربعَ مرّاتٍ، ومن ذلك قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن] وقوله:﴿وَيْلٌ يَّوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِيْنَ ﴾[المرسلات]

(١) تفسير أبي السعود :٢١/٩، روح المعاني:٤٠/٢٩

(٢) فتح القدير للشوكاني: ٤٨٨/٥

(٣) تفسير البيضاوي:٤١٣/٥

۞ قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَآيُّهَا الْكَافِرُوْنَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُوْنَ ،وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُوْنَ مَا أَعْبُدُ، وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُّمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُوْنَ مَا أَعْبُدُ ،لَكُمْ دِيْنُكُمْ وَلِيَ دِيْنِ ﴾ قـال المفسِّرُون: إن المعنى : لا أَعْبُدُ ما تعبدُوْن في حالي هذه، ولا أنتم في حـالـكم هذه عابدون ما أعْبُدُ ، ولا أنا عابدٌ ما عَبدْتُّم فيما أستقبل وكذلك أنتم ، فـنـفـى عنه وعنهم ذلك في الحال والاستقبال، وهذا في قوم بأعيانهم أعْلَمَ اللّٰهُل أنهم لايُؤمِنُون ، فلا يكون حينئذ تكراراً، وهذا قول ثعلب والزجاج (١).

۞ قوله تعالى:﴿ فَاذْكُرُوا اللّٰهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوْهُ كَمَا هَدَاكُمْ – إلى قوله– وَاذْكُرُوا اللّٰهَ فِيْ أَيَّامٍ مَّعْدُوْدَاتٍ ﴾ [البقرة: ١٩٨-٢٠٣]

فتَكَرَّرَ ذكرُ اللّٰه مراراً، ولكن المراد بكلّ واحدٍ من هذه الأذكار غير المراد بـالآخر، فإنّ المرادَ بالذكر في قوله:" فَـاذْكُرُوا اللّٰهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ " هوصلاةُ الـمغـرب والـعشـاء الـلتـان يُـجْـمَعُ بينهما بالمزدلفة ، والذكرفي قوله: " وَاذْكُرُوْهُ كَمَاهَدَاكُمْ " هـو الـذِكْـر الـمفعول عند الوقوف بمزدلفة غداةَ جَمْع ، و الذكر في قـولـه :" فَـاذْكُـرُوا الـلّٰـهَ كَذِكْرِكُمْ آبائَكُمْ" هوالذكرعند الجمرة بمنٰى، و الذكر في

قـولـه: " وَاذْكُرُوا اللّٰهَ فِيْ أَيَّامٍ مَّعْدُوْدَاتٍ " إمّا التكبيرُعند الجمرات أو التكبيرُ عقيبَ الـصـلـوات. وهـذا الـذي قُـلنا هو قولٌ في تفسير تلك الآيات، وفي تفسيرها أقوالٌ للعلماء كما يظهر لمن يطالع التفاسير(٢).

❁ قـولـه تعالى: ﴿**إِيَّـاكَ نَـعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ**﴾[الـفـاتحة:٤] فهذا ليس بتـكـرارٍ فـي الحقيقة؛ لأن ههنا عاملين مختلفين كلٌّ منهما يقتضي معمولاً ، فلذا ذَكَـرَ معمولَ كلّ واحد منهما، فعلى هذا لايتجه السوالُ عن وجه التكرار في مثل هـذا؛ لأن السُّـوَال عـن حـكـمة التكرار إنما يحسُن إذا خرج عن الأصل، وأمّا إذا وَافَقَ الأصلَ فلا ، والأصلُ ذكرُ كلّ واحد منهما، والحذف خلافه(٣).

فـالـحـاصل أن الآيات التي تكررّتُ ، فإن كان المراد بكلٌّ واحدٍ منها هوما أُرِيْدَ بالآخر فهو تكرارٌ ،وفيها من الفوائد ما ذُكِرَ، وإن كان المراد بكلّ واحدٍ منها

(١) انظر: زاد المسير:٢٥٤/٩، تفسير البيضاوي:٥٣٨/٥
(٢) انظر: زاد المسير:٢١٤/١-٢١٥، القرطبي:٢١٨/٢-٢٢٣
(٣) قاله في البرهان:١١/٣

غيرالمراد بالآخر، فهذا ليس بتكرارٍ في الحقيقة، ويسمّٰى بالترديد.

الفائدةُ الخامسة

ومن المُلائم أن يُعلَمَ أن اللّٰه تعالى قدكرَّرَ في القرآن الكريم ذكرَ القصص كـقـصة آدم، ومـوسـى، ونوح، وغيرهم من الأنبياء ، وأُمَمِهم. وذَكَرَ بعضُهم :إن الـلّٰـه ذَكَـرَ موسٰى في مئةٍ وعشرين مقاماً من كتابه الكريم. وقال ابن العربي: ذَكَرَ اللّٰهُ قصةَ نوح في خمس وعشرين آيةً، وقصةَ موسى في تسعين آيةً .

و حكى الإمام السيوطي: أنّه أَلَّفَ البدرُ بن جماعة كتاباً سمّاه [المقتنص في فوائد تكرار القصص] وذَكَرَ في تكرير القصص فوائدَ.

❁ **منها**: أنّ فـي كل موضع زيادة شيءٍلم يذكر في الذي قبله، أو إبدال كلمة بأخرى لنكتة ، وهذه عادةُ البلغاء.

❁ **ومنها**:أنّ الـرجلَ كان يسمع القصّةَ من القرآن، ثُمّ يعود إلى أهله، ثم يهاجر

بـعـده آخـرون يـحـكـون عنه ما نَزَلَ بعد صدور من تَقَدَّمَهُمْ، فلولا تكرارُ القصص لـوقعتْ قصة موسى إلى قوم ؛ وقصّة عيسى إلى آخرين ، وكذا سائر القصص، فأرَادَ اللّـهُ اشتـراك الـجـميـع فيهـا، فيكـون فيـه إفـادة لقوم، وزيـادة تـأكيد لآخرين.

❁ **ومنها** :أن فـي إبراز الكلام الواحد في فنونٍ كثيرةٍ و أساليبَ مختلفةٍ ما لا يخفى من الفصاحة .

❁ **ومنها:** أن الـدواعـي لا تتـوفّـرُ عـلـى نـقلها كتوفُّرِهَا على نقل الأحكام ، فلهذا كُرِّرَتِ القصص دون الأحكام.

❁ **ومنها:** أنـه تـعالى أَنْزَلَ هذا القرآنَ وعَجَزَ القومُ عن الإتيان بمثلِه ، ثم أوضح الأمرَ في عجزِهِم بأنْ كرّرَ ذِكرَ القصَّةَ في مواضع إعلاماً بأنّهم عاجِزُوْن عن الإتيان بمثله بأيّ نظمٍ جاءُوْا، وبأيّ عبارةٍ عَبَّرُوْا.

❁ **ومنها:** أنّه لمّا تَحَدَّاهُمْ قال: ﴿ **فَأْتُوْا بِسُوْرَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ** ﴾ [البقرة:٢٣] فلو ذُكِـرَتِ الـقصةُ في موضع واحدٍ، واكتفي بها، لقَال العربيّ: ائتُوْنا أنْتُم بسُورةٍ من مثله، فأنْزَلَهَا اللّٰهُ سبحانه وتعالى في تعداد السُّوَر، فعَالَجَهُمْ من كلّ وجهٍ .

❁ **ومنها** : أن القصّة الواحدة لمّا كُرِّرَتْ كان في ألفاظها في كل موضع زيادةٌ و نـقـصـانٌ وتـقـديـمٌ وتأخيرٌ؛ وأتتْ على أسلوبٍ غير أسلوب الأخرى؛ فأفَادَ ذلك ظهـورَ الأمـر الـعجيب في إخراج المعنى الواحد في صُوَرٍ مُتَبَاينةٍ في النظم ؛ وجلبَ الـنـفـوس إلـى سَـمَـاعِهـا، لِـمَـا جُبِـلَتْ عليه من حُبّ التنقّل في الأشياء المُتَجدِّدة واسْتـلذاذها بها؛ وإظهارَخاصّة القرآن حيث لم يحصل مع تكرير ذلك فيه هُجُنَةٌ في اللفظ ولا مللٌ عند سماعه ، فبَايَنَ ذلك كلامَ المخلوقين(١).

❁ **ومنها:** مـا سَـنَـحَ لي من الفيّاض الحقيقي، وهو:أنّه ما من شكٍّ أنّ القرآنَ الكريمَ ليس كتابَ التاريخ والوقائع، وبالتالي ليس من وظيفته استيعابُ القصص، وسـردُ الـوقـائـع من أوّلها إلى آخرها ، كما هو دأب التأريخي والأخباري. وإنّما هوكتابُ هدايةٍ وإصلاحٍ وتزكيةٍ وتربيةٍ، يُرِيْدُ أن يُنْشِئَ إنساناً كاملاً ، وأمةً كاملةً لِيـعيـشَ ولِتـعيـشَ حيـاةً نموذجيةً للمجتمعات البشرية الأخر، فاقتضتِ الحكمةُ

الإلٰهيةُ أن تُكـرِّر القـصـص بـعباراتٍ شتّى، وبأساليبَ عديدةٍ لتكون من أدوات الهداية ووسائل الإصلاح للبشر، و لذلك فالقرآن الكريم يُطنب قصةً في مقام، و يُـوجزُها في آخر؛ ويُقَدِّمُ من أجزاء الواقعة أمراً، أو أموراً في موضع، ويُؤَخِّرُها في مـوضـع آخـر؛ ويَـذْكُـرُهـا بـعبارةٍ في موضع وبأخرى في موضع آخر، ويُحَدِّثُها بـأسـلـوبٍ فـي مـوضـعٍ، و بآخرَ في موضع آخر. وإنّما يفعل كذلك لِيدُلَّ على حِـكَـم دقيـقةٍ وأسـرارٍ لـطيـفةٍ، تُرشِدُ الإنسانَ إلى طريق الاعتبار وسبيل الاتّعاظ، فلولم تُكَرَّرُ لما حصل ذلك. والله أعلم.

الفائدةُ السادسة

وههنا يتّجهُ إلينا سؤالٌ: وهو ما الحكمةُ في عدم تكرير قصّةِ يوسف عليه السلام، ولِمَاذَا ساقَهَا اللّٰه تعالى مَساقاً واحداً في موضع واحدٍ؟

وقد أجابَ عنه العلماءُ بأجوِبَةٍ عديدةٍ:

(١)الإتقان:٢/٨٨-٨٩، وأيضاً البرهان:٣/٢٧-٢٩

الأوّل: أن فـي قـصة يـوسف تشبيـبَ النِسْوَة به، وحالَ امرأة ونسوة افتتنّ بأبدع الناس جَمَالاً، فنَاسبَ عدم تكريرها لِمَا فيه من الإغضاء والستر.

الثاني: أنهـا اختـصـت بحصول الفرج بعد الشدَّةِ، بخلاف غيرها من القصص، فـإنّ مـآلهـا إلـى الـوبال كقصة إبليس، وقوم نوح، وهود، وصالح، وغيرهم، فلمّا اختصّتُ بذلك اتّفقتِ الدَّواعِي على نقلها لخروجها عن سمت القصص.

والثـالـث:قـال الأستـاذ الإسـفـرائـنـي :إنّـما كرّر اللّٰهُ قصصَ الأنبياء، وساقَ قصة يـوسف مسـاقـاً واحداً، إشارةً إلى عجز العرب، كأن النبي ﷺ قال لهم :إن كان من تلقاءِ نفسي فافْعَلُوا في قصة يوسف ما فَعَلْتُ في سائر القصص(١).

والرابع:قال الإمام السيوطي: قلتُ: وظَهَرَ لي جوابٌ رابعٌ، وهو أن سورة يوسف نـزلـتُ بسبب طلب الصحابة أنْ يقصَّ عليهم كما رواه الحاكم، فنزلتُ مبسوطةً تـامةً، ليـحـصـل لهـم مـقصود القصص من استيعاب القصّة، وترويح النفس بها،

والإحاطة بِطرُفَيْها .

والخامس: قال السيوطي: وجوابٌ خامسٌ، وهو أقوى ما يُجَابُ به : أن قصص الأنبياء إنّما كُرِّرَتْ لأن المقصود بها إفادةُ إهلاك من كذّبُوا رُسُلَهم، والحاجةُ داعيةٌ إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفَّار للرسول ﷺ ، فكلّما كذّبُوا نزلتْ قصةٌ مُنْذِرَةً بحلول العذاب كما حلّ على المُكذِّبين ، وقصةُ يوسف لم يُقْصَدُ منها ذلك (٢).

قال الراقم: وهو الجواب عن عدم تكرير قصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وقصة موسى مع الخضر، وقصة الذبيح.



(١)البرهان:٣/٢٩-٣٠

(٢)الإتقان:٢/٨٩

فصل
قواعدُ مهمّة
تمسُّ إليها الحاجة فى التفسير

عندما نتكلّم عمّا لا بُدَّ للمُفسّر الذي يكونُ بصدد فهم مراد اللّٰه تعالى من كتابه الشريف ، فإنّ أذْهَانَنا سرعانَ ما تتّجهُ إلى قواعدَ يَسْتَخْدِمُهَا المُفسّر فيما هو بصدده . نعم لابُدَّ لمن يفسِّرالقرآنَ الكريمَ من معرفة القواعد المُهمّة، التي يحتاج إليها في فهم مرادات اللّٰه تعالى من كلامه الشريف ، كما أنه لابُدَّ في تناوُل علمٍ من العلوم من معرفة أُسَسِهِ العامّة، و مميزاته الخاصّة ؛ حتى يكون الطالب له على بَصرٍ وإدراكٍ ، ولكي يَسِيْرَ في سيره بمعرفةٍ وفُطُونةٍ . واذا كان القرآن الكريم قد نزل بلسان عربيٍ مبينٍ كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنٰهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ**﴾ [يوسف: ٢] فهذه القواعد المُحتاجَة في التفسير ترتكز على

معرفة قواعد اللغة العربية ، وأُسَسِهَا؛ وفهم بلاغتها ومُميّزاتها ؛ وتذوّق طرازها و أسلوبها ؛ وإدراك أسرارها ورُمُوزها . وعلى ذلك فهذه القواعد في الأصل قواعد العربية لا شطط ولا وكس ، إلا أننا نستطيع أن نجمع منها ما هو أهمّ منها بالإيجاز والاختصار .

ثم الموضوع على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية والخطورة لتعلّقه بالكشف والإيضاح عن مرادات اللّه تعالى من كتابه الكريم ، فلذا تكلّم عليه العلماء في موضعه ، وممّن تكلّم عليه العلامةُ الزركشي في" البرهان"، والإمامُ السيوطي في "الإتقان" ، والإمامُ الشاه ولي اللّه المحدث الدهلوي في رسالته " الفوز الكبير في أصول التفسير"، وأنا أُلخِّصُ من كلامهم فإنه ما لا يدرك كله لا يترك كله .

١ –الضمائر

أصل

الأصل في الضمير هو الاختصار، فهو يُغني عن ذكر ألفاظٍ كثيرةٍ، ولهذا قامَ قولُه تعالى ﴿ **أَعَدَّ اللّٰـهُ لَهُمْ مَّغْفِرَةً وَّأَجْرًا عَظِيْمًا** ﴾ [الأحزاب:٣٥] مقامَ عشرين كلمةً لوأُتِيَ بها مظهرةً، وكذا قوله تعالى: ﴿**وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ إلخ**﴾ [النور:٣١] فإنّ فيها خمسةً وعشرين ضميراً .

أصل

الأصل تقديم المرجع لضمير الغائب ، فإنّ ضمير المتكلّم والمخاطب يفسِّرها المشاهدةُ، وضمير الغائب عارٍ عن هذا الوجه من التفسير، فكان الأصل تقديم مرجعه ليُعْلَمَ المرادُ بالضمير قبل ذكره ، وعلى هذا فالمرجع الذي يعود إليه ضميرالغيبة يكون على أنواع:

- قد يكون ملفوظاً به سابقاً عليه مطابقاً له ، كقوله تعالى:﴿ **وَنَادٰى نُوْحٌ ابْنَهٗ**﴾ [هود: ٤٢] وهو الأكثر الأغلب .
- وقد يكون مُتضَمّناً له، كقوله تعالى: ﴿ **اِعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى**﴾

[المائدة: ٨] فإنّ ضمير" هو" يعود على العدل الذي يتضمّنه لفظ " اعدلوا".

❁ وقد يكون دالًّا عليه بالالتزام، كقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] فضمير الغائب عائدٌ إلى القرآن، وهو وإن لم يكن له ذكرٌ قبلَه، إلا أن الإنزال يدلُّ عليه التزاماً.

❁ وقد يكون المرجع متأخِّراً لفظاً لا رُتبةً ، كقوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيْفَةً مُّوْسٰى﴾ [طٰه: ٦٧] فضمير "نفسه" يعودُ إلى موسى، وهومتأخّرٌ لفظاً لا رتبةً .

❁ وقد يكون متأخراً لفظاً و رتبةً، كما في باب ضمير الشأن والقصة ، و باب نِعْم و بِئس وأمثالها ، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ [الأنبياء: ٩٧]

❁ وقد يكون متأخّراً دالًّا عليه بالالتزام ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُوْمَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، وكقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦] فأُضْمِرَ الروحُ في الأولى، والنفس في الثانية، لدلالة الحلقوم والتراقي عليهما.

❁ وقد يعود الضمير على اللفظ دون المعنى، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَّلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهٖ إِلَّا فِيْ كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١] فالضمير في "عمره" عائدٌ إلى لفظ" معمّر" دون معناه ، لأن المراد به معمّرآخر، وهو غيرالأول .

❁ وقد يعود إلى بعض ما تقدّمَ كما في قوله تعالى: ﴿ وَبُعُوْلَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] والضمير يعود إلى المطلّقات في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوْءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وهو عام في المطلّقات الرجعيات وغيرهن ؛ ولكن المراد بهن المطلّقات الرجعيات فقط.

❁ وقد يعود الضمير إلى المعنى فقط، كقوله تعالى في آية الكلالة : ﴿ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: ٧٦] ولم يتقدم لفظ مثنى يعود ضمير " كانتا " إليه ، فالوجهُ فيه - كما قال الأخفش - : إن الكلالة تقعُ على الواحد والاثنين والجمع، فثُنِّيَ الضميرُ الراجع إليها حملاً على المعنى.

۞ وقد يُذكَرُ شيئان، ويُعادُ الضميرُ إلى أحدهما، والغالب كونه الثاني، نحو ﴿ اسْتَعِيْنُوْا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ وَإِنَّهَا لَكِبِيْرَةٌ ﴾[البقرة:١٥٣] فأُعِيدَ الضميرُ للصلاة على أحد الأقوال.

۞ وقد يُثَنَّى الضميرُ ويُعادُ إلى أحد المذكورين، نحو: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا الُّلوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج اللؤلو والمرجان من البحر الملح دون العذب على ما اشتهر على الألسنة.

۞ قد يجيء الضمير متّصلاً بشيء، وهو لغيره، نحو: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِيْنٍ ﴾ [المؤمنون:١٢] والمراد بالانسان آدم، ثم قال: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنٰهُ نُطْفَةً ﴾ فهذه لولده؛ لأن آدم لم يُخلَق من نطفةٍ، وهذا باب الاستخدام.

۞ وقد يعود الضميرُ على مُلابِس ما هو له نحو: ﴿ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحٰهَا ﴾ [النازعات:٤٦] والمراد ضُحىٰ يومِها، لا ضُحىَ العشية نفسها لأنه لا ضُحىٰ لها.

۞ وقد يعود الضمير على غير مشاهد محسوس، كقوله: ﴿ إِذَا قَضٰى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ ﴾ [البقرة:١١٧] فضمير "لَهُ" عائدٌ على الأمر، وهو إذْ ذاك غيرُ موجودٍ.

أصل

الأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا أن يكون مضاف و مضاف إليه، فالأصل عوده للمضاف؛ لأنه المُحدَّثُ عنه، نحو: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوْا نِعْمَةَ اللّٰهِ لاَ تُحْصُوْهَا ﴾ [إبراهيم:٣٤] أي النعمة، وقد يعود على المضاف إليه، نحو ﴿فَقَالُوْا هٰذَا إِلٰهُكُمْ وَ إِلٰهُ مُوْسٰى فَنَسِيَ﴾ [طٰه:٨٨] فضمير "نَسِيَ" يعود إلى موسىٰ لا إلى اِلٰه.

أصل

الأصل توافُق الضمائر في المرجع لأن رجوع بعضها إلى شيء، وبعضها إلى آخر، فيه هُجُنَة يُؤدِّيُ إلى تنافُرالنظم الذي هو أم إعجازالقرآن، ومراعاته من أهم ما يجب على المفسّر. ومثالُه قوله تعالى: ﴿ لِتُؤْمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهٖ وَ تُعَزِّرُوْهُ وَتُوَقِّرُوْهُ وَتُسَبِّحُوْهُ ﴾ [الفتح:٩] الضمائر كلُّها للّٰه تعالى، ومَنُ فرّقَ

الضمائرَ فَقَدْ أَبْعَدَ ، وقد يخرج عن هذا الأصل كما في قوله تعالى:﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيْهِـمْ مِّـنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٢] فإنّ ضمير" فيهم" لأصحاب الكهف و ضمير "منهم" لليهود.

أصل

ضمير الفصل ضميرٌ بصيغة المرفوع ،مطابقٌ لِمَا قبله تكلّماً وخطاباً و غيبةً، وإفراداً و تثنيةً و جمعاً ، وإنّما يقع بعد مبتدءٍ أو ما أصله المبتدأ، وقبل خبر كذلك اسماً ، نحو ﴿**أُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ**﴾[البقرة:٥] ﴿ **وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّوْنَ**﴾ [**الصّٰفات:١٦٥**] وله ثلاثةُ فوائدَ : الأول: الإعلام بأنّ ما بعده خبرٌ لا **تابعٌ** ، والثاني: التأكيدُ، ولذا قيل:إنّه لا يجمع بينه وبين التاكيد ، فلا يقال: زيد نفسه هو الفاضل، والثالث: الاختصاص .

أصل

ضميرُ الشأن والقصة، ويُسَمّٰى ضميرُ المجهول، وهذا الضمير يُخالِفُ القياسَ من خمسة أوجُهٍ:أحدُها :عوده على ما بعده لا قبله لزوماً، والثاني: مرجعه لا يكون إلا جملةً ، والثالث: أنه لايُتْبَعُ بتابع ، فلا يُؤكَّد، ولا يُعطَفُ عليه، ولا يُبدَلُ منه ، والرابع :أنّه لا يَعْمَلُ فيه إلا الابتداءُ أو ناسخُه، والخامس: أنه ملازمٌ للإفراد ، فلا يُثَنّٰى ولا يُجْمَعُ .

وفائدته الدلالةُ على تعظيم المُخْبَرعنه وتفخيمه بأن يُذْكَرَ أولاً مُبهَماً ثم يُفَسَّر. وقال ابن هشام: متى أمكن الحملُ على غير ضميرالشأن فلاينبغي أن يُحمَلَ عليه.

أصل

جمع العاقلات لا يَعُوْدُ عليه الضميرُ غالباً إلا بصيغة الجمع، سواء كان جمعَ القلّة أو الكثرة ، نحو:﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ** ﴾ [البقرة:٢٣٣] و ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ** ﴾ [البقرة:٢٢٨] وقد يَرِدُ المفردُ كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَهُمْ فِيْهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ** ﴾ [البقرة:٢٥]

وأما غير العاقل فالغالب في جمع الكثرة الإفرادُ، وفي جمع القلة الجمعُ ، وقد

اجْتَمَعَا في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ عِـدَّةَ الشُّهُوْرِ عِنْدَ اللّٰهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِيْ كِتَابِ اللّٰهِ يَـوْمَ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذٰلِكَ الدِّيْنُ الْقَيِّمُ ، فَلاَ تَظْلِمُوْا فِيْهِنَّ أَنْفُسَكُمْ** ﴾ [التوبة:٣٦] فأعاد ضمير "منها أربعةٌ حُرُم" بصيغة الإفراد على الشهور و هي للكثرة ، ثم قال: فلا تظلموا فيهن، فأعاد ضمير "فيهن" جمعاً على أربعة حرم، وهي للقلة .

أصل

إذا اجتمع في الضمائرمراعاة اللفظ والمعنى بُدِئَ باللفظ ثم بالمعنى، وهذا هوالجادة في القرآن. قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّقُوْلُ اٰمَنَّا بِاللّٰهِ وَبِالْيَوْمِ الْاٰخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِيْنَ** ﴾ [البقرة:٧] فأفرد الضمير في" يقول" باعتبار اللفظ، ثم جمع في" وما هُم" باعتبار المعنى.

وأما إذا حُمِلَ أوّلًا على المعنى فهل يجوز الحمل بعدَه على اللفظ؟ فقال ابن حاجب في أماليه:إذا حُمِلَ على المعنى ضَعُفَ الحملُ على اللفظ بعدَه، لأنّ المعنى أقوى، فيَضْعُفُ بعد اعتبارالقوي الرجوعُ إلى الأضْعَف ؛ ولكن أُوْرِدَ عليه ما جاء في القرآن من الحمل على اللفظ بعد الحمل على المعنى في مواضع ، وقال محمود بن حمزة في كتاب العجائب: ذَهَبَ بعضُ النحويين إلى أنه لا يجوز الحمل على اللفظ بعد الحمل على المعنى ، وقد جاء في القرآن بخلاف ذلك .

وما جاءَ في القرآن من الحمل على اللفظ بعد الحمل على المعنى، فمنه قوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ يَّعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِيْنٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوْنَهُمْ عَنِ السَّبِيْلِ وَ يَحْسَبُوْنَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُوْنَ حَتّٰى إِذَا جَاءَ نَا**﴾ [الزخرف:٣٦ – ٣٨]، فأعاد الضمير أوّلًا في "يَعْشُ" و" لَهُ" باعتبار اللفظ ، ثم أعَادَ ثانياً في " أنّهُم يَصُدُّوْنَهُمُ " و" يَحْسَبُوْن" وما بعده باعتبار المعنى، ثم قال: "حتى إذا جاء نا " فرجع إلى اللفظ بعد الانصراف إلى المعنى.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوْا مَا فِيْ هٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُوْرِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلٰى أَزْوَاجِنَا** ﴾ [الأنعام:١٣٩] فرُوْعِيَ المعنى أوّلًا في "خالصة " ثم رُوْعِيَ

اللفظ في قوله "محرّم" .

ومنـه قوله تعالى: ﴿**خَـالِـدِيْـنَ فِيْهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللّٰهُ لَهُ رِزْقًا**﴾ [الطلاق : ١١]، فرُوُعِيَ في " خالدين" معنى " الذين" المذكور قبلَه، ثم رُوُعِيَ اللفظ في "له" (١).

٢-التذكير والتانيث

قاعدة

الـمؤنث الحقيقي لا تُحذَفُ تاؤُه من فعله غالباً إلا إن وقع فصل ، وكلّما كَثُرَ الـفـصـل حَسُـنَ الـحـذفُ، ولـكـن الإثبات أولى ما لم يكن جمعاً ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا **جَـاءَ كَ الْمُؤْمِنٰتُ**﴾ [**الممتحنة**: ١٢] **بـخـلاف المؤنث اللفظي فإنّ الحذف فيه مع الفصل أحسَنُ ، نحو قوله تعالى:**﴿ **فَمَنْ جَاءَ هُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهٖ**﴾ [**البقرة**: ٢٧٥] و﴿ **قَدْ كَـانَ لَكُمْ آيَةٌ**﴾ [**آل عمران**: ١٣] **وإن كَثُـرَ الـفـصـل ازْدَادَ حُسْـناً ، نحو قوله تعالى:** ﴿**وَأَخَـذَ الَّـذِيْنَ ظَلَمُوْا الصَّيْحَةُ**﴾ [**هود**: ٦٧] **والإثبـات أيـضاً حَسَنٌ نحو** ﴿ **وَأَخَذَتِ الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا الصَّيْحَةُ** ﴾ [**هود**:٩٦].

(١) **انظر:البرهان**:٤/٢٣-٤٢، **الإتقان**:١/٢٤٤-٢٤٧

قاعدة

كـل أسـمـاء الأجـنـاس يجوزُ فيها التذكيرُ حملاً على الجنس، والتانيثُ حـملاً على الجماعة، كقوله تعالى: ﴿**أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴾ [الحاقة:٧] وصف الـنـخـل بـالتـانيـث حملاً على الجماعة، وقوله تعالى:﴿**أَعْـجَـازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ** ﴾ [القمر: ٢٠] وصفه بالتذكيرحملاً على الجنس ، وكذا فيما يلي من الأمثلة:

- ﴿**اَلسَّـمَـاءُ مُـنْـفَطِـرٌ بِـهٖ**﴾ [الـمزمل:١٨] و ﴿ **إِذَا السَّـمَـاءُ انْشَقَّـتْ**﴾ [الانشقاق:١]
- ﴿ **جَـاءَ تْهَـا رِيْحٌ عَاصِفٌ** ﴾ [يـونس:٢٢] و ﴿ **وَلِسُـلَيْـمَـانَ الـرِّيْحِ عَاصِفَةً** ﴾ [الأنبياء:٨١]

قاعدة

قد يُذَكَّرُ المؤنّثُ على التأويل بمُذَكَّرٍ ، وقد يُؤَنَّثُ المُذَكَّر على التأويل بمُؤنَّث، وله في القرآن أمثلةٌ :

۞ قوله تعالى:﴿**وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا**﴾ [قٓ:١١] وهو على تأويل البلدة بمكان ، وإلا لقَالَ: ميتةً.

۞ وقوله:﴿ **فَلَمَّا رَاَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هٰذَا رَبِّيْ** ﴾ [الأنعام:٧٨] هو على تأويل الشمس بالطالع .

۞ قوله:﴿ **اَلَّذِيْنَ يَرِثُوْنَ الْفِرْدَوْسِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ**﴾ [المؤمنون:١١] فأُنِّثَ الفردوسُ ، وهو مذكرٌ حَمْلاً على معنى الجَنَّةِ.

۞ قوله:﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [آل عمران:١٨٥] ذَكَرَ أبو البقاء:أنّ التانيث في ذائقة باعتبار معنى"كلّ" لأنّ معناها التانيثُ لأنّ كلّ نفس نفوسٌ(١).

٣- التعريف و التنكير

من المُهِمّ للمُفسّر أن يَعْلَمَ أنّه قد يقع الاسم في الكلام نكرةً ، و قد يقع معرفةً، ولكلٍّ وِجهةٌ يُنَاسِبُه، ولكلٍّ مقامٌ لا يليق بالآخر:

(١) انظر:الإتقان:٢٤٧/١-٢٤٨، البرهان:٣٦٦/٣-٣٧١

قاعدة فى التنكير

أمَّا التنكير فله مقاماتٌ:

١ - إرادةُ الوحدة ، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِيْنَةِ**﴾ [القصص:٢٠] أي رجل واحد .

٢ - إرادة النوع ، كقوله تعالى: ﴿ **وَعَلٰى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾ [البقرة:٧]أي نوع من الغشاوة.

٣ - إرادتهما معاً ،كقوله: ﴿ **وَاللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَّاءٍ**﴾ [النور:٤٥] أي كل نوع من أنواع الدواب من أنواع الماء ؛ وكل فرد من أفراد الدواب من أفراد النُطَف.

٤ – التعظيم، كقوله تعالى:﴿ **فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللّٰهِ**﴾ [البقرة: ٢٧٩] أي حرب عظيمة .

٥ – التكثير، كقوله تعالى: ﴿ **قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا**﴾ [الشعراء:٤١] أي أجراً كثيراً وافراً .

٦ – التعظيم والتكثير معاً ، كقوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ يُّكَذِّبُوْكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ**﴾ [آل عمران:١٨٤] أي رُسُلٌ عظامٌ ذوعددٍ كثيرٍ.

٧ – التحقير، كقوله تعالى: ﴿ **مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ**﴾ [عبس:١١] أي من شيء حقير مهين.

٨ – التقليل، كقوله تعالى: ﴿ **وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّٰهِ أَكْبَرُ**﴾ [٧٢] رضوانٌ قليلٌ من اللّٰه أكبرُ من الجنّات.

٩ – التجاهل، كقوله نقلاً عن الكفار:﴿ **هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلٰى رَجُلٍ يُّنَبِّئُكُمْ**﴾ [سبا:٧] كأنّهم لايعرفونه.

١٠ – قصد العموم كقوله:﴿**ذٰلِكَ الْكِتٰبُ لاَ رَيْبَ فِيْهِ** ﴾ [البقرة:٢] أي ليس فيه ريب.

تلك عشرة كاملة.

قاعدة فى التعريف

وأما التعريف فله أيضاً مقامات:

❁ ليس بخافٍ أنه قد يكون التعريف بالعَلَمِيَّة، وله أسبابٌ:

١– لإحضاره في ذهن السامع إبتداءً باسم يُختَصُّ به، نحو: ﴿ **قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص:١]

٢– لتعظيمه كقوله تعالى:﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُوْلُ اللّٰهِ**﴾ [الفتح:٢٩]

٣– لإهانته كقوله: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِىْ لَهَبٍ وَّ تَبَّ** ﴾ [اللهب:١]

❁ وقد يكون التعريف بالإشارة، وهو لأسبابٍ:

١- لبيـان حاله في القرب ، كقوله تعالى: ﴿ **هٰذَا خَلْقُ اللّٰهِ فَأَرُوْنِيْ مَاذَا خَلَقَ الَّذِيْنَ مِنْ دُوْنِهٖ** ﴾ [لقمان:١١]

٢- لبيان حاله في البُعد، كقوله تعالى:﴿ **وَأُولٰئِکَ هُمُ الظّٰلِمُوْنَ** ﴾[النور:٥].

٣- لقصد تحقيره بالقُرب، كقوله: ﴿ **وَمَا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَّلَعِبٌ**﴾ [العنكبوت:٦٤]

٤- لقصد تعظيمه بالبُعد، كقوله تعالى: ﴿**ذٰلِکَ الْكِتٰبُ لَا رَيْبَ فِيْهِ** ﴾ [البقرة:٢]

٥- لِلتَّنبيهِ بعد ذكر المشار إليه بأوصافٍ قبله على أنه جديرٌ بما يَرِدُ بعده من أجلها، كقوله تعالى: ﴿**أُولٰئِکَ عَلٰى هُدًى مِّنْ رَّبِّهِمْ وَأُولٰئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُوْنَ** ﴾ [البقرة:٥]

۞ والتعريفُ قد يكون بالموصول، وأسبابه :

١- كراهةُ ذكْرِه إمّا سِتراً عليه ، أو إهانةً له ، أو لغيرذلك ، نحو : ﴿ **وَالَّذِيْ قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا**﴾ [الأحقاف:١٧] ، وقوله تعالى: ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِيْ هُوَ فِيْ بَيْتِهَا** ﴾ [يوسف:٢٣].

٢- إرادة العموم، كقوله تعالى:﴿ **إِنَّ الَّذِيْنَ قَالُوْا رَبُّنَا اللّٰهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوْا**﴾ [حم سجدة:٣٠].

٣- إرادة الإختصار، نحو قوله تعالى: ﴿ **يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لاَ تَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ اٰذَوْا مُوْسٰى فَبَرَّأَهُ اللّٰهُ مِمَّا قَالُوْا**﴾ [الأحزاب: ٦٩] إذْ لو عدّد أسماءَ المُؤذِين لطالَ الكلامُ .

۞ والتعريف قد يكون بالألف واللام، وهو لأمور:

١- للإشارة إلى معهود خارجي، كقوله : ﴿ **مَثَلُ نُوْرِهٖ كَمِشْكٰوةٍ فِيْهَا مِصْبَاحٌ اَلْمِصْبَاحُ فِيْ زُجَاجَةٍ وَالزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ**﴾ [النور:٣٥]

٢- أو معهود ذهني، كقوله : ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللّٰهُ عَنِ الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ يُبَايِعُوْنَکَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾ [الفتح:١٨]

٣- أو معهود حضوري ،كقوله: ﴿ اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ﴾ [المائدة:٣] فإنها نزلت يوم عرفة .

٤- أو لاستغراق الأفراد، كقوله: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِيْ خُسْرٍ ﴾ [العصر:٢]

٥- أو لتعريف الماهية، نحو ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]

۞ والتعريف إن كان بالإضافة فله وجوهٌ :

١- قصد الاختصار،وأمثلته كثيرة وظاهرة.

٢- تعظيم المضاف ، كقوله : ﴿إِنَّ عِبَادِيْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٣]

٣- قصد العموم ، نحو: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِيْنَ يُخَالِفُوْنَ عَنْ أَمْرِهٖ﴾ [النور:٦٣] أي كل ما أَمَرَ اللّٰهُ به.

۞ وقد يكون التعريف بالإضمار لأن المقام مقام المتكلم أو الخطاب أو الغيبة.

قاعدة

إذا ذُكِرَ الاسمُ مرّتين فلهُ أربعةُ أحوال؛ لأنّه إمّا أن يكونا معرفتين أو نكرتين، أو الأول نكرةً والثاني معرفةً، أو بالعكس:

۞ فإن كانا معرفتين فالمراد بالاسم الثاني هو الأول غالباً ، نحو : ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيْمَ صِرَاطَ الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:٥]

۞ وإن كانا نكرتين فالمراد بالثاني غيرالأول غالباً، نحو : ﴿ اَللّٰهُ الَّذِيْ خَلَقَكُمْ مِّنْ ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفًا وَّ شَيْبَةً﴾[الروم:٥٤] فإنّ المراد بالضُعف الأوّل حالةُ النطفة ؛ وبالثاني حالةُ الطفولية؛ وبالثالث حالةُ الشيخوخة .

۞ وإن كان الأول نكرةً والثاني معرفةً ، فالمراد بالثاني هو الأول حملاً على العهد ، نحو:﴿ فِيْهَا مِصْبَاحٌ اَلْمِصْبَاحُ فِيْ زُجَاجَةٍ ﴾ [النور:٣٥]

۞ وإن كـان الأول معرفةً والثاني نكرةً فلا يُطلَقُ فيه القولُ؛ بل يَتوَقَّفُ المرادُ علـى القرائن، فتارةً تقوم القرينةُ على التغايُر بين الأول والثاني، نحو: ﴿ **يَوْمَ تَقُوْمُ السَّـاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُوْنَ مَا لَبِثُوْا غَيْرَ سَاعَةٍ** ﴾ [الروم:٥٥] وتارةً تقومُ القرينةُ علـى الاتّحاد بينهما ، نحو: ﴿ **وَلَـقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِيْ هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُوْنَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا** ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨](١) .

٣-الإفراد والجمع

الفائدة الأولى:

لا يـخفى أن بعض الألفاظ لم يأتِ في القرآن إلا مفرداً، و بعضها لم يأتِ إلا مـجـمـوعاً ، وهناك ألفاظٌ وقعتْ مفردةً و مجموعةً جميعاً، وهذا لإفادة معنى خاصٍ أو لإشارةٍ معيّنةٍ ، ونَذْكُرُ منها البعضَ تذكرةً وتبصرةً للطالبين .

۞ مـن ذلك السـمـاء والأرض: فـإنّ الأرض لـم تـأتِ فـي الـقرآن إلا مفردةً بخلاف السماء ، فإنّها ذُكِرَتْ تارةً بصيغة الإفراد، وتارةً بصيغة الجمع ، والوجهُ: أن الأرض تُـجْـمَـعُ عـلـى أرضـون وهو ثقيل، ولهذا لمّا أُرِيْدَ جمعُها جُمِعَتْ في صـورة من الروعة لـيـس لـهـا مثـال، وهـو في قوله تعالى: ﴿ **اَلـلّٰهُ الَّذِيْ خَلَقَ سَبْعَ**

(١)انظر:الإتقان: ٢٤٨/١-٢٤٩،البرهان:٨٧/٤-٩٣

سَمٰوٰتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]

وأمـا السـماءُ فحيثُ أُرِيْدَ العددُ أُتِيَ بصيغة الجمع الدالّة على سِعَةِ العظمة والـكثرة، نحو: ﴿ **سَبَّـحَ لِـلّٰهِ مَا فِيْ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الـحديد :١] وحيثُ أُرِيْـدَتِ الـجهةُ أُتِـيَ بـصيـغة الإفـراد ، نـحـو: ﴿ **وَفِــي السَّـمَــاءِ رِزْقُـكُـمْ**﴾ [الذاريات:٢٢]

۞ ومـن ذلك الـنـورُ والـظُـلُـمَـاتُ: فـإنّ الـنورَ لم يأتِ في القرآن إلا مفرداً، والـظُـلُـمـاتُ لـم يـأتِ إلا جـمعاً ؛ لأن الظُلُمات هي طُرُقُ الباطل، وهي مُتعدّدة مُتشـعّبة ؛ والـنـورُ هـو طريق الحق، والحقُّ واحدٌ، قال تعالى: ﴿ **اَلـلّٰهُ وَلِيُّ الَّذِيْنَ**

آمَنُوْا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْٓا أَوْلِيَاءُ هُمُ الطَّاغُوْتُ يُخْرِجُوْنَهُمْ مِّنَ النُّوْرِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧]

❁ ومن ذلك سبيلُ الحقّ وسبيلُ الباطل: فإنّ الأوّل حيثُ وَقَعَ في القرآن فإنّه مفردٌ ؛ والثاني حيثُ وقع وقع جمعاً، قال اللّه تعالى: ﴿ **وَلاَ تَتَّبِعُوْا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيْلِهِ**﴾ [الأنعام:١٤٥] والوجهُ أنّ طريق الحقّ واحدٌ، وطريقُ الباطل متعدّدٌ .

❁ ومن ذلك ولي المؤمنين وأولياء الكفار: قال اللّه تعالى:﴿**اَللّٰهُ وَلِيُّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوْرِ وَالَّذِيْنَ كَفَرُوْٓا أَوْلِيَاءُ هُمُ الطَّاغُوْتُ يُخْرِجُوْنَهُمْ مِّنَ النُّوْرِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ [البقرة:٢٥٧] لأنّ وليَّ المؤمنين هواللّه تعالى ، وهو واحدٌ أَحَدٌ لا شريكَ له ولا مثيلَ له ،بينما أولياءُ الكفار – وهم معبوداتُهم الباطلةُ – كثيرُون.

❁ ومنها النّارُ والجنّةُ : فإنّ النّارحيثُ وَقَعَتُ وَقَعَتُ مفردةً ؛ وأما الجنّةُ فقد وَقَعَتُ مفردةً ومجموعةً جميعاً ، لأنّ الجنان مختلفة الأنواع فحَسُنَ جمعُها ، و النّارمادّةٌ واحدةٌ، فجيء بالإفراد، والوجهُ الثاني فيه: أن الجنة رحمةُ اللّه، فنَاسَبَ الجمع إشارةً إلى كثرة وسعة رحمة اللّه تعالى، والنارعذاب، فنَاسَبَ الإفرادُ، كما قال:﴿ **رَحْمَتِيْ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف:١٥٦]

❁ ومن ذلك الريحُ : فإنّها جاءَ تُ إفراداً وجمعاً، فحيث ذُكِرَتُ في سياق الرحمة جُمِعَتُ ؛ وحيثُ ذُكِرَتُ في سياق العذاب أُفْرِدَتُ؛ لأنّ رياح الرحمة مختلفة الصفات والهيئات والمنافع ، وأمّا ريح العذاب فإنّها تأتي من وجهٍ واحدٍ، ولا معارض لها ولا دافع .

نعم خرج عن هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿ **وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيْحٍ طَيِّبَةٍ** ﴾ [يونس :٢٢] حيث وَقَعَتُ مفردةً، والمراد ريح الرحمة، والقياس أن يقول:برياح طيبة ، ووَجَّهَهُ العلماءُ بأمرين: أحدُهما لفظي وهوالمقابلة في قوله تعالى: ﴿**جَاءَتْهَا رِيْحٌ عَاصِفٌ**﴾ [يونس :٢٢] ، والثاني معنوي وهوأن إتمام الرحمة هناك إنّما يحصل بوحدة الريح ؛ لأن السفينة لا تسير إلا بريحٍ واحدةٍ من وجهٍ واحدٍ، وإن اختلفت عليها الرياح كان سببَ الهلاك.

❁ ومن ذلك إفراد السمع وجمع البصر : قال تعالى: ﴿ **خَتَمَ اللّٰهُ عَلٰى قُلُوْبِهِمْ وَعَلٰى سَمْعِهِمْ وَعَلٰى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَّلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيْمٌ**﴾ [البقرة:٥] و الوجه في ذلك أن السمع غلب عليه المصدرية، فأُفْرِدَ بخلاف البصر؛ فإنّه اشتهر في الجارحة وهي العين، والوجه الثاني أن متعلق السمع الأصواتُ وهي حقيقةٌ واحدةٌ، فناسَبَ الإفرادُ ؛ ومتعلق البصر الألوانُ وهي مختلفةٌ فنَاسَبَ الجمعُ.

❁ ومن ذلك الألبابُ، فإنّه لم يأتِ في القرآن إلا جمعاً، قال اللّٰه تعالى: ﴿**إِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَذِكْرٰى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ** ﴾ [الزمر:٢١] والوجه في ذلك أن مفرده ثقيل لفظاً، وعند الاحتياج إلى صيغة الإفراد جيءَ بمرادفه كالقلب، كما في قوله تعالى:﴿ **إِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَذِكْرٰى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ**﴾ [ق:٣٧]

❁ ومن ذلك المشرق والمغرب، جيء تارةً بالإفراد ،كقوله تعالى: ﴿ **وَلِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**﴾ [البقرة:١١٥] وتارةً بالجمع ، كقوله : ﴿ **رَبُّ الْمَشٰرِقِ وَ الْمَغٰرِبِ**﴾ [المعارج:٤٠] وتارةً بالتثنية ، كقوله : ﴿ **رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**﴾ [الرحمن:١٧] فحيثُ أُفْرِدَ المشرقُ والمغربُ أُرِيْدَ بهما الجهةُ نفسُها؛ وحيثُ جيء بالجمع أُرِيْدَ بهما التعددُ باعتبار فصل الخريف، والربيع، والصيف والشتاء ؛ فإن مواقعَ الطلوع والغروب تَتَفَاوَتُ في هذه الفصول الأربعة ، وحيث جيء بالتثنية أريدُ من هذه المواقع الاثنين(١).

(١) انظر البرهان:٤/٦-٢١، الإتقان:١/٢٥٢-٢٥٣

الفائدة الثانية

إن لفظ " البارّ "حيثُ وَرَدَ في صفة الآدميين قيل في جمعه: الأبرار، كما في قوله تعالى :﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيْمٍ**﴾ [المطففين:٢٢] وحيثُ وَرَدَ في صفة الملائكة قيل: بَرَرَة ، كما في قوله تعالى: ﴿ **بِأَيْدِىْ سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ** ﴾ [عبس:١٥-١٦]

وقال بعضهم : لفظ الأخ حيثُ وَرَدَ في النسب قيل في جمعه: إخوة كما جاء : ﴿ **وَإِنْ كَانُوْا إِخْوَةً وَّرِجَالاً وَّ نِسَاءً**﴾ [النساء: ١٧٦] وحيثُ وَرَدَ في

الصداقة قيل: إخوان ، كقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوْا اٰبَاءَ هُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِيْ الدِّيْنِ ﴾ [الأحزاب:٥]

ولكن أُورِدَ على الأوّل قولُه تعالى: ﴿ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِيْ إِخْوَانِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] فإنّه في النسب ؛ وأُورِدَ على الثاني قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُوْنَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠] فإنّه – كما هو ظاهر– في الصداقة (١).

الفائدة الثالثة

قال الإمام السيوطي: ألّفَ أبو الحسن الأخفش كتاباً ذَكَرَ فيه جمعَ ما وَقَعَ في القرآن مُفرداً ؛ ومُفرَدَ ما وَقَعَ جَمعاً، وأكثرُه من الواضحات ، ثم ذَكَرَ السيوطي أمثلةً ممّا يخفى ذلك ، وأنا أذْكُرُها مع الإشارة إلى الآيات التي وقعتِ اللفظةُ فيها، مع زياداتٍ منّي مُلتقِطاً من كلام غيره من العلماء، وهي هذه :

❁ المَنّ في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوٰى ﴾ [البقرة:٥٧] لا واحدَ له.

❁ السَّلْوٰى في الآية المذكورة، لم يُسْمَع له واحد .

❁ النصارٰى، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَالَّذِيْنَ هَادُوْا وَالنَّصَارٰى ﴾ [البقرة:٦٢] قيل: جمع نصراني، وقيل: جمع نصير، وقيل جمع نصران.

❁ العَوانُ في قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُوْلُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَّلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذٰلِكَ ﴾ [البقرة:٦٨] قيل: جمعُه عَوْن على وزن فَعْل كقول الشاعر :

طوال مثل أعناق الهوادي ❁ نواعم بين أبكار وعَوْن

❁ الهَدْيُ، كما في قوله: ﴿ حَتّٰى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة:١٩٦] لا واحدَ له ، قلتُ: هذا إذا كان مصدراً بمعنى المفعول، وقيل : هو جمع هَدْيَة كجدي وجَدْيَة.

---

(١) البرهان:٣٢/٤ ، الإتقان:٢٥٣/١

❁ الإعصارُ في قوله :﴿ **فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيْهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ** ﴾ [البقرة:٢٦٦] جمعُه أعاصير.

❁ الأنصار ،كما في قوله: ﴿ **وَمَا لِلظّٰلِمِيْنَ مِنْ أَنْصَارٍ** ﴾[البقرة:٢٧٠] واحدُه نصير.

❁ الأزلام ،كما في قوله: ﴿ **وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوْا بِالْأَزْلَامِ ذٰلِكُمْ فِسْقٌ**﴾ [المائدة:٣] واحدُها زَلَم كجَمَل، ويُقَال: زُلَم بالضم كصُرَد.

❁ مِدْرارًا كما في قوله تعالى:﴿**وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِّدْرَارًا**﴾ [الأنعام:٦] جمعُه مَدَارِير .

❁ أسَاطِيرُ، كما في قوله: ﴿**يَقُوْلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْٓا إِنْ هٰذَا إِلَّآ أَسَاطِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ**﴾ [الأنعام:٢٥] واحدُه أسُطُورة، وقيل: واحدُه إِسْطَار، وقيل: إِسْطِير، وقيل: أسْطُور، وقال الأخفش: لا واحدَ له كأبابيل .

❁ الصُوْرُ ،كقوله : ﴿ **وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِيْ الصُّوْرِ**﴾ [الأنعام:٧٣] قيل: هوجمع واحدُه صورة، وقيل: هو واحدٌ جمعُه الأصوار.

❁ فُرادىٰ في قوله: ﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمُوْنَا فُرَادٰى كَمَا خَلَقْنَا كُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [الأنعام:٩٤] جمعُ فرَد بفتح الراء، وقيل : بسكون الراء، على خلاف القياس؛ كأنّه جمع فَردان كسَكران، وقال الراغب : إنه جمع فريد كأسير وأسارى.

❁ قِنْوانٌ في قوله: ﴿ **وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ** ﴾ [الأنعام:٩٩] جمع قِنو، وتثنيته أيضاً قنوان ، ولا يُفَرِّقُ بين المثنّٰى والجمع إلا الإعراب.

❁ صِنوانٌ كما في قوله: ﴿ **وَجَنّٰتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَّ زَرْعٌ وَّنَخِيْلٌ صِنْوَانٌ وَّغَيْرُ صِنْوَانٍ**﴾ [الرعد: ٤] جمع صِنو، وهو أيضاً يُثَنّٰى على وزن واحدِه كقِنوان.

❁ الحَوَايَا في قوله: ﴿**إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُوْرُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا**﴾ [الأنعام:١٤٦] جمع حاوية، كزاوية وزوايا، ووزنُه فواعل، وقيل:جمعُ حاوياء كقاصعاء و قواصع، ووزنُه أيضاً فواعل، وقيل: جمع حويّة، كظريفة وظرائف، ووزنُه فعائل .

❁ نَشْرًا ،كما في قوله:﴿ **وَالنّٰشِرٰتِ نَشْرًا**﴾ [المرسلات:٣] جمع نشور .

❁ عِضِين في قوله : ﴿ **اَلَّذِيْنَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِيْنَ**﴾ [الحجر: ٩١] جمع عِضَة،وكانت في الأصل عِضْوَة ، فنَقَصَتِ الواوُ .

❁ عِزين في قوله:﴿**عَنِ الْيَمِيْنِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِيْنَ** ﴾[المعارج:٣٧] جمعُ عِزَة، وهو في الأصل كانت عِزْوَة .

❁ المَثَاني ،كما في قوله:﴿ **وَلَقَدْ اٰتَيْنٰكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِيْ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيْمَ**﴾ [الحجر:٨٧] جمع مَثْنٰى.

❁ تَارَةً كما في قوله: ﴿ **وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرٰى**﴾ [طه:٥٥]جمعُها تارات و تِيَر .

❁ أيْقَاظاً في قوله: ﴿ **وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَّ هُمْ رُقُوْدٌ**﴾ [الكهف:١٨]جمع يَقِظ بكسرالقاف ،كأنُكاد ونَكِد ، وقيل: بضَمّها كأعْضَاد و عَضُد.

❁ الأرائك ،كما في: ﴿ **مُتَّكِئِيْنَ فِيْهَا عَلَى الْأَرَائِكِ** ﴾[الكهف:٣١] جمعُ أَرِيْكَةٍ ،كما قال غيرواحدٍ .

❁ سَرِيّ في قوله: ﴿ **قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا** ﴾ [مريم:٢٤] جمعُه سُرْيان، ويأتي جمعه على أسْرِيَة.

❁ آناء ،كقوله: ﴿ **يَتْلُوْنَ اٰيٰتِ اللّٰهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُوْنَ**﴾ [آل عمران: ١١٣] جمعُ أنى كعصا، وقيل: جمع إنٰى كمِعٰى، وقيل:جمع أُني بفتح فسكون، أوبكسر، فسكون ، كقِرُد، وقيل: جمعُ إنْوَةٍ كفِرقَة.

❁ الصَيَاصِي في قوله : ﴿ **وَأَنْزَلَ الَّذِيْنَ ظَاهَرُوْهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيْهِمْ**﴾ [الأحزاب:٢٦]جمع صِيُصَة أو صِيُصيَّة.

❁ مِنُسَأة في قوله: ﴿ **إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهٗ** ﴾ [سبا:١٤] جمعُها مَنَاسِي.

❁ الحَرُور، في قوله: ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمٰى وَالْبَصِيْرُ وَلاَ الظُّلُمٰتُ وَ لاَ النُّوْرُ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُوْرُ**﴾ [فاطر:١٩-٢١] وهو فَعُوْل من الحَرّ، وجمعُه

الحُرُوُر بالضُمّ.

❁ غَـرَابِيُب في قوله: ﴿ **وَمِـنَ الْـجِبَـالِ جُدَدٌ بِيْضٌ وَّحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيْبُ سُوْدٌ**﴾ [فاطر: ٢٧] جمع غرُبيُب.

❁ أتُراب، كما في قوله : ﴿ **وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ**﴾ [ص:٥٢] جمع ترُب.

❁ الآلاء، كما فى قوله: ﴿ **فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾ [الرّحمٰن:] جمع إلىً كمِعىً وأمعاء، وقيل: جمع ألى كقفى.

❁ التـرَاقِي فى قوله: ﴿ **كَلَّا إِذَا بَـلَغَتِ التَّرَاقِيَ**﴾ [الـقيامة:٢٦] جمع تَرُقُوَةٍ بفتح التاء، وضمّ القاف.

❁ الأمُشَـا ج في قوله: ﴿**إِنَّـا خَـلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ**﴾ [الدهر:٢] جمع مشيج، ومِشُج، كأخدان جمع خَدِين وخِدُن بمعنى الصَّدِيق.

❁ ألفافًا في قوله: ﴿ **لِنُخْرِجَ بِهٖ حَبًّا وَّنَبَاتًا وَجَنّٰتٍ أَلْفَافًا** ﴾ [النبأ:١٥-١٦] جـمـع لِفٍّ بـالكسر، وقيل: لُفّ بالضم . وقال غيرُ واحد : لا واحدَ له، كالأوزاع والأخياف . وقال الكسائي وأبو عبيد : جمع لفيفٍ كشَريفٍ و أشُرافٍ.

❁ العِشَـار في قوله: ﴿ **وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ** ﴾ [التـكـوير:٤] جمع عشرٌ ، وقيل: جمع عُشَراء ، كنفاس ونُفَسَاء.

❁ الـخُنَّس في قوله: ﴿ **فَلاَ أُقْسِـمُ بِالْخُنَّسِ**﴾ [التـكوير:١٥] جمع خَانِسَةٍ، وقيل: جمع خَانِسٍ .

❁ الـكُنَّس في: ﴿ **وَالْـجَوَارِ الْكُنَّسِ**﴾ [التـكوير:١٦] جمع كانِسَةٍ، وقيل: جمع كانِسٍ .

❁ الزَّبَانِيَة في:﴿ **سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ** ﴾ [العلق:١٨]جمع زِبُنِيّة بالكسر كعِفُريّة ، وقيل: جمع زابن ، وقيل:جمع زباني، وقيل: لا واحدَ له من لفظه كعباديد .

❁ أشُتَـاتًا في: ﴿ **يَـوْمَ يَـصْـدُرُ الـنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**﴾ [الزلزال:٦] جمع شَتّ و شَتِيُتٍ.

❁ أبَابِيُل في: ﴿ **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيْلَ**﴾ [الفيل:٣] لا واحدَ له، وقيل:

واحدُه إبُّول مثل عِجُّول، وقيل: إبِّيل مثل إكليل، وقيل: إبَّال.

الفائدةُ الرابعة

مقابلة الجمع بالجمع تارةً يقتضي مقابلةَ كُلّ فردٍ من هذا بكُلِّ فردٍ من هذا، كقوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوْا أَصَابِعَهُمْ فِيْ اٰذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ**﴾ [نوح:٧] أي استَغشى كلُّ منهم ثوبَه، وتارةً يقتضي ثبوتَ الجمعِ لكُلِّ فردٍ من أفراد المحكوم عليه، نحو: ﴿**فَاجْلِدُوْهُمْ ثَمَانِيْنَ جَلْدَةً**﴾ [النور:٤] أي اجلِدُوا كلَّ واحدٍ منهم ذلك العددَ. وأما مقابلة الجمع بالمُفرَد، فالغالبُ أن لا يقتضي تعميم المفرد، وقد يقتضيه، كقوله تعالى: ﴿**وَعَلَى الَّذِيْنَ يُطِيْقُوْنَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِيْنٍ**﴾ [البقرة:١٨٤] أي على كل واحدٍ منهم لكل يوم طعامُ مسكين(١).

٥-فروق دقيقة في ألفاظ يُظَنُّ بها الترادفُ

وَقَعَ في كلام اللّه تعالى ألفاظٌ يَتَوَهَّمُ واهِمٌ بالنسبة إليها أنّها مُترادِفَةٌ، وليستْ من ذلك في شيءٍ؛ بل يكون فيها من دقيق الفرق ما يبهر العقولَ، ويُنبِئُ عن البلاغة، كما يقول الإمام ابن تيمية:إن التَرادُف في اللغة قليل، وأمّا في القرآن إمّا نادِرٌ، وإمّا معدُومٌ، وقلَّ أن يُعبّر عن لفظ واحد بلفظ واحد يُؤَدِّي جميعَ معناه؛ بل يكونُ فيه تقريبٌ لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن(٢).

و قال الزركشي:" على المُفَسِّر مراعاةُ الاستعمالات، والقطعُ بعدم الترادُف ما أمكنَ، فإنّ للتركيب معنى غير معنى الإفراد، ولهذا مَنَعَ كثيرٌ من المفسرين وقوعَ أحدِ المترادفين موقعَ الآخر في التركيب، وإن اتفقُوا على جوازه في الإفراد "(١).

فلْنَذْكُرْ هنا من ألفاظٍ يُظَنُّ بها الترادفُ طرفًا يسيرًا يُوجِبُ البصيرةَ للطالبين:

---

(١) انظر: الإتقان:٢٥٤/١، البرهان:٣/٤

(٢) فتاوى شيخ الإسلام:٣٤١/٣١

۞ **الخشيةُ والخوفُ** : إنّ بينهما فرقاً من وجهين: الأول:أنّ الخشية فوقَ الخوف؛ لأنّها ماخوذةٌ من قولهم:شَجَرَةٌ خَاشِيَةٌ، أي يابسَةٌ ، وهو فواتُ الشيء بالكُلية ، بينما الخوفُ من قولهم: ناقةٌ خَوُفَاءُ أي بها داءٌ، وهو نقصٌ لا فواتٌ ، على هذا فالخشية أعلى من الخوف، ولذا خُصَّتِ الخشيةُ باللّه تعالى في قوله: ﴿**يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخَافُوْنَ سُوْءَ الْعَذَابِ**﴾ [الرعد:٢١] والوجه الثاني:أن الخشيةَ تكونُ من عظم المَخْشِي وإن كان الخَاشِي قويّاً ، بينمَا الخوفُ يكون من ضُعف الخائف وإن كان المخوف أمراً يسيراً.

۞ **الشُحّ والبخل والضنّ**: الشُّح أشدُّ البخل ، قال الراغب: الشح بخل مع حرص، وأمّا الضنّ فَفَرَّقَ العسكري بينه وبين البُخل بأنّ الضنّ يكون بالعارية، بينما البخلُ يكون بالهِبَة، ولهذا يُقَالُ: هوضَنِيْنٌ بعلمه، ولا يُقَالُ: هو بخيلٌ بعلمه؛ لأنّ العلم لايُمْكِنُ أن يهَبَ به، فإنّ الموهوب لا يكونُ باقِياً في المِلْك بعد الهِبَة، وإنّما العلم يُعَارٰى .

۞ **السبيلُ والطريقُ** : فالسَبِيل أغلبُ وُقُوعاً في الخير؛ والطريقُ لا يكادُ يُرَادُ بِهِ الخير إلا مُقْتَرِناً بوصفٍ أو إضافةٍ تُخْلِصُه لذلك.

۞ **جاءَ و أتىٰ**: فالأوّلُ يُقَالُ في الجَوَاهِر والأعْيَان ؛ والثاني في المعاني والأزمان،كما قال تعالى: ﴿**وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيْرٍ**﴾ [يوسف:٧٢] وقال: ﴿**أَتٰى أَمْرُ اللّٰهِ**﴾ [النحل:١].

۞ **المدّ والإمداد**: قال الراغب: أكثرُ ما جَاءَ الإمدادُ في المحبوب نحو: ﴿**وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ**﴾ [الطور:٢٣] والمَدّ في المكروه نحو: ﴿**وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**﴾ [مريم:٧٩].

۞ **سَقىٰ وأسْقىٰ**: إنّ " سَقٰى" من الثُلاثي المجرّد يُسْتَعَمَلُ لِمَا لا كُلفةَ فيه، ولذا ذُكِرَ في شراب الجنّة نحو: ﴿**وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُوْرًا**﴾ [الدهر:٢١] و أنّ" أسْقٰى" لِمَا فيه كُلفةٌ ، ولذا ذُكِرَ في ماء الدّنيا ، نحو: ﴿**لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا**﴾[الجن:١٦] وقال الراغب: الإسقاء أبلغُ من السقي لأنّ الإسقاء أنْ تجعل

(١)البرهان:٧٨/٤

له ما سقى منه ويشرب، والسقي أنْ تُعْطِيَهُ ما يَشْرَبُ.

۞ **عَمِلَ و فَعَلَ**: إنّ الأوّل لِـمَـا كان مع امتداد الزمان، نحو: ﴿ **يَعْمَلُوْنَ لَهُ مَا يَشَاءُ** ﴾ [سبا:١٣] ونحو: ﴿ **مِـمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيْنَا** ﴾ [يٰسٓ:٧١] لأنّ خلق الأنعام، والثمار، والزروع يكون بامتداد الزمان، والثاني على عكسه يكون لِمَا كان بالسُرْعَة، نحو: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيْلِ** ﴾ [الفيل:١] ونحو: ﴿ **كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ** ﴾ [الفجر:٦] لأنّها إهلاكاتٌ وَقَعَتْ دفعةً .

على هذا قال اللّٰه تعالى: ﴿ **وَاعْمَلُوْا صَالِحًا** ﴾ [المؤمنون:٥١] لأنّ المقصود المصابرةُ على الأعمال الصالحة ، لا الإتيانُ بها مرةً أو بسُرعةٍ ، وأمّا قوله تعالى: ﴿ **وَافْعَلُوْا الْخَيْرَ** ﴾ [الحج:٧٧] فإنّ المقصود به ههنا الامتثالُ بالسُرعَة، ولذا جاء بلفظ الفعل .

۞ **القُعُوْدُ والجُلُوْسُ**: فالأوّل لِمَا فيه لبثٌ بخلاف الثاني، ولهذا اسْتُعْمِلَ الأوّلُ في قوله تعالى: ﴿ **فِيْ مَقْعَدِ صِدْقٍ** ﴾ [القمر:٥٥] لأنّه لا زوالَ له ، والثاني في قوله: ﴿ **تَفَسَّحُوْا فِيْ الْمَجَالِسِ** ﴾ [المجادلة:١١] لأنّه يُجْلَسُ في المجلس زماناً يَسِيراً .

۞ **التمامُ والكمالُ**: قيل: الإتمام لإزالة نقصان الأصل، والإكمال لإزالة نقصان العوارض. وقال العسكري: الكمالُ اسمٌ لاجتماع أبعاض الموصوف به، والتمام اسمٌ للجزء الذي يَتِمُّ به الموصوفُ .

قلتُ: على هذا فالإكمال فوق الإتمام، ويكون بعد تمام شيء، وقد اجْتَمَعَا في قوله تعالى: ﴿ **اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِيْ وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيْنًا** ﴾ [المائدة:٣]

۞ **الإعطاءُ والإيتاءُ**: قال الجُوَيْنِي: إنّ الإيتاء أقوىٰ من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنّ الإعطاء له مطاوعٌ، تقول: أَعْطَانِيْ فَعَطَوْتُ ، ولا يُقَالُ: آتاني فأتيتُ، وإنّما يُقَالُ: فأخَذْتُ، والفعل الذي له مطاوعٌ أضعف في إثبات مفعوله من الفعل الذي لا مطاوعَ له؛ لأنه يدلّ على أنّ فعل الفاعل كان موقوفاً على قبول في المحل، لولاه ما ثَبَتَ المفعول، ولهذا يصحُّ : قَطَعْتُهُ فانْقَطَعَ، أو ما انْقَطَعَ ، ولا

يـجوز : ضَرَبْتُهُ فانْضَرَبَ، أو فمَا انْضَرَبَ، لأنّ هذه الأفعال إذا صدرتُ من الفاعل ثَبَتَ لها المفعول في المحلّ .

ولذا قال تعالى :﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَّشَاءُ**﴾ [البقرة:٢٦٩] لأنّ الحكمة إذا ثبتتُ فـي المحلّ دامتُ، وقال: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾ [الكوثر:١] لأنّ النبي ﷺ و أمتـه يَـرِدُوْنَ عـلـى الحوض وُرُوْدَ النازل؛ ويَتْرُكُون ذلك عمّا قريبٍ؛ ويَنْتَقِلُون إلى ما هو أعظمُ منه.

۞ **السَنة و العام**: قـال الـراغـب: الغالبُ استعمال السَنة في الحول الذي فيه الشدّة والجدب، ولهذا يُعَبَّرُ عن الجدب بالسَنَة، والعام ما فيه الرُخاء والخضب (١).

٦-قواعدُ في السُّوال والجواب

ومـن الـمُهـمّ أنّ مـن أسـاليب الكلامِ السُّوالُ والجوابُ عنه ، ولهُ مزيةٌ على غيـره مـن الأساليب لقُوّة تأثيره في النفوس كما هو مُشاهَدٌ ، وقد وقع هذا في كلام اللّه تعالى، وفي هذا الصدد قواعدُ يُوجِبُ فهمُها البصيرةَ، وهي هذه:

۞ الأصـل فـي الـجـواب أنُ يـكـونَ مُـطـابِـقـاً لـلسُّوال كما جاء في القرآن: ﴿**يَسْئَلُوْنَكَ مَاذَا يُنْفِقُوْنَ، قُلِ الْعَفْوَ**﴾ [البـقـرة:٢١٩] فالسُّوالُ كان عن الشيءِ الذي يُنْفَقُ في سبيل اللّه، فأجَابَ بأنّه العَفْوُ أي ما زَادَ عن حاجيَاتِهم وفَضُلَ منها.

۞ وقـد يـعـدل فـي الـجـواب عمّا يقتضيه السُّوالُ تنبيهاً على أنّه كان من حقّ السُّـوال أن يـكـون كـذلك ، ويُسَـمِّيهِ السَّكّاكِي الأسلوبَ الحكيمَ. ومثالُه ما قال تـعـالى إخباراً عن قصّة موسى و فرعون، وهو قولُه: ﴿ **قَالَ وَمَا رَبُّ الْعٰلَمِيْنَ، قَالَ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** ﴾ [الشعراء:٢٢-٢٣] لأنّ سُوال فرعون كان عن ماهية ربّ العالمين، وهو خطأٌ فاحشٌ في حقّ الباري تعالى،ولذا عَدَلَ عنه إلى

(١)انظر:البرهان:٧٨/٤ -٨٧،الإتقان:٢٥٤/١- ٢٥٦

الجواب الصواب ببيان الوصف المُرْشِدِ إلى معرفته تعالى.

۞ وقـد يـجـيءُ الجواب أعمَّ من السُّوال للحاجة إليه في السوال المطروح ،

ومثالُه قوله: ﴿ **قُلْ مَنْ يُنَجِّيْكُمْ مِّنْ ظُلُمٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُوْنَهُ تَضَرُّعًا وَّخُفْيَةً ، لَئِنْ أَنْجٰنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الشّٰكِرِيْنَ، قُلِ اللّٰهُ يُنَجِّيْكُمْ مِّنْهَا وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُوْنَ** ﴾ [الأنعام:٦٢-٦٤] وقولُه: ﴿ **وَمَا تِلْكَ بِيَمِيْنِكَ يٰمُوْسٰى قَالَ هِيَ عَصَايَ، أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلٰى غَنَمِيْ وَلِيَ فِيْهَا مَاٰرِبُ أُخْرٰى** ﴾ [طه:١٧] زَادَ في الجواب استلذاذاً بخطاب اللّٰه تعالىٰ.

۞ وقد يجيءُ الجوابُ أنقصَ من السُّوال لاقتضاء الحال، كقوله تعالى: ﴿ **قَالَ الَّذِيْنَ لا يَرْجُوْنَ لِقَائَنَا إئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ، قُلْ مَا يَكُوْنُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِيْ** ﴾ [يونس:١٥] فأجَابَ عن سُؤالهم عن التبديل دون الاختراع لوجهين: الأوّل لِمَا قالَ الزّمخشري من أن تبديل القرآن في إمكان البشر ، وأما الاختراع فلا، فطوّى ذِكرَه للتنبيه على أنّه سُؤال محال ، والثاني : ما قال الإمام الزَّرْكَشِيُ: من أنّ التبديل أسهلُ من الاختراع، و قد نَفٰى إمكانَه، فالاختراع أولى بالنفي.

۞ قد يعدل عن الجواب أصلاً إذا كان السائل مُتَعَنِّتاً ، نحو قوله تعالى : ﴿ **يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الرُّوْحِ قُلِ الرُّوْحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّيْ** ﴾ [بني إسرائيل :٨٥] فعَدَلَ عن الجواب لأنّ اليهود إنّمَا سَأَلُوا النّبيَ ﷺ عن الروح تعجيزاً و تغليظاً ، إذِ الروحُ يُطَلَقُ على الإنسان، والقرآن، وعيسٰى، وجبريل، وصنفٍ من الملائكة ، فقصد اليهود أنْ يسألوه، فبِأَيِّ جواب أجَابَ قالُوا: ليس هو، فأجاب اللّٰه تعالى عن ذلك مجُملًا، وعَدَلَ عن أصل الجواب.

۞ الأصل في الجواب أن يكونَ مُشَاكِلاً للسوال، فإن كان جُملةً اسميةً فينبغي أن يكون كذلك ، وهو الأصل في الجواب المقدَّر، إلا أن ابن مالك قال في قولك :زيدٌ في جواب من قَرَأَ؟ إنّه من باب حذف الفعل جرياً على عادتهم في الأجوبة إذا قصدوا تَمَامَها، قال اللّٰه تعالى: ﴿ **مَنْ يُّحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيْمٌ، قُلْ يُحْيِيْهَا الَّذِيْ أَنْشَأَهَا** ﴾ [يس: ٧٥] قال: فلمّا أتى بالفعلية مع فوات مشاكلة السوال عُلِمَ أن تقديرالفعل أولى .

۞ **قال الراغب**: إذا كان السوال للتعريف تعدّى إلى المفعول الثاني تارةً بنفسه، وتارةً بـ "عَنْ"، وهو الأكثر ، نحو ﴿ **وَيَسْئَلُوْنَكَ عَنِ الرُّوْحِ** ﴾ وإذا

كـان الاستدعاءِ مالاً ، فإنّه يَتَعَدّى بنفسه، وبـ "مِنْ"، والأوّل أكثرُ، نحو ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوْهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوْهُنَّ مِنْ وَّرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب:٥٣] ونحو ﴿وَاسْأَلُوْا مَا أَنْفَقْتُمْ ﴾ [الممتحنة:١٠] و ﴿وَاسْأَلُوْا اللّٰهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾[النساء:٣٢][١].

٧- قاعدة

فى الخطاب بالاسم والفعل

والمشهور عند البيانيين أنّ الاسم يدُلُّ على الثبوت والاستمرار، بينما الفعلُ يدلُّ على التجدّد والحُدُوث ، على هذا فلا يَحْسُنُ وضعُ أحدهما موضعَ الآخر، وإليكَ أمثلةً من القرآن الكريم :

١- قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيْدِ ﴾ [الكهف:١٨] جِيءَ بالاسم وهو قوله: بَاسِطٌ ، ولو قِيْلَ: "يَبْسُطُ "بالفعل لم يُفِدِ الغرضَ المقصودَ ؛ لأنّه يُؤْذِنُ بمزاولة الكلب البسطَ، وأنّه يتجدّد له شيئاً بعد شيءٍ، فباسطٌ أشعر بثبوت الصفة له.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ ﴾ [فاطر:٣] جِيءَ بالفعل، وقيل: يَرْزُقُكُمْ، فلو قيل: رازقُكم لَفَاتَ المقصودُ؛ لأنّ الغرض أنْ يُنَبَّهَ على أن رزق اللّٰه يتجدّدُ شيئاً بعد شيءٍ .

٣ - قال تعالى: ﴿وَجَاءُوْا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَّبْكُوْنَ ﴾[يوسف:١٦] فجاءتِ الحالُ في صورة المضارع ؛ إذِ المرادُ أنْ يُفِيدَ أنّهم آخِذون في البُكاء، يُجَدِّدُوْنَه شيئاً بعد شيء .

٤ - قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [الأنعام:٩٥] قال الإمامُ الرازي: لمّا كان الاعتناءُ بشأن إخراج الحَيِّ من الميت أشَدَّ أتى فيه بالمضارع لِيَدُلَّ على التجدُّد .

---

(١)انظر:الإتقان:٢/٢٥٧-٢٥٩، البرهان:٤/٤٤-٤٨

قال الراقم المفتاحي عفا اللّٰه عنه: لمّا كان الحيّ له أحوالٌ مُتجدِّدةٌ كما هو مشاهدٌ ، أتى بفعل المضارع، فإنّ فعلَ إخراج الحيِّ من الميّت يَمُرّ بهذه

الأحوال المتجدّدة من كونه نطفةً، ثم علقةً، ثم مضغةً، ثم لحماً ، إلى غير ذلك من الأحوال، فناسَبَ له الفعل بخلاف إخراج الميّت من الحيّ؛ فإنّه يَكُونُ دفعةً غالباً، فنَاسَبَ له ما يَدُلُّ على الثبوت من الاسم.

ثم لا يعزبنَّ عنكم أن هذه القاعدة أنْكَرَهَا.... كما حكى الزركشي والسيوطي .. أبوالمطرف بن عمرو، وحَكَمَ عليها بالغرابة، وقال: إن الاسم إنّما يدل على معناه فقط، أمّا كونُه يثبت المعنى للشيء فلا. ثم أَوْرَدَ أمثلةً من القرآن، ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُوْنَ﴾[المؤمنون :١٥] و قوله :﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ تُبْعَثُوْنَ﴾ [المؤمنون :١٦] وغيرهما .

فائدة

قال ابن عطية: سبيلُ الواجبات الإتيانُ بالمصدر مرفوعاً ، كقوله تعالى: ﴿اَلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ، فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوْفٍ أَوْ تَسْرِيْحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:٢٢٩] وقوله:﴿ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوْفِ وَ أَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ [البقرة:١٧٥] وسبيلُ المندوبات الإتيانُ به منصُوباً، كقوله تعالى: ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[محمد:٤]

وقال أبو حيان: الأصل فيه قوله تعالى: ﴿ قَالُوْا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ﴾ [الذاريات:٢٥] فإن التسليم أوّلاً مندوب ، فجيء بالمصدر منصوباً ؛ و رَدُّ السلام واجبٌ، فجِيءَ به مرفوعاً، والوجه في ذلك أن الجملة الإسمية أثبَتُ و آكَدُ من الفعلية (١).

٨-قواعد في العطف

۞ العطف على ثلاثة أقسام:

١ - عطف على اللفظ وهو الأصل والكثير، كقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِيْنُوْا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ﴾ [البقرة:١٥٣] فعطف الصلوٰة على الصبر لفظاً.

(١) انظرالبرهان:٦٦/٤-٧٢ ، والإتقان:٢٥٩/٢-٢٦١

٢ - عطف على المحلّ كقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوْا فِيْ هٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَّ يَوْمَ

الْقِيٰمَةِ ﴾[هود : ٦٠] قيل: إن "يَوْمَ القِيَامَةِ" عطفٌ على محلّ "هذه".

٣ – عطف على المعنى، وأسْمَاهُ البعضُ عطفاً على التوهُّم، كقوله ﴿ **إِنَّا زَيَّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِيْنَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطٰنٍ مَّارِدٍ**﴾ [الصٰفٰت:٦] قيل: إن "حفظاً" عطف على معنى "إنا زينا السماء الدنيا" لأن المعنى: إنا خلقنا الكواكبَ في السماء الدنيا زينةً للسماء وحفظاً من كل شيطان مارد.

۞ اخْتُلِفَ في جواز عطف الخبر على الإنشاء وعكسه ، فمَنَعَهُ أكثر البيانيّين، وأجازه جماعةٌ منهم ، وخالفهم كثير من النحويين ،كابن خروف ،والصفار وابن عمرو ، واستدلُّوا عليه بقوله:﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا**﴾ [البقرة:٢٥] حيث عطف على قوله : ﴿ **أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ** ﴾ وبقوله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِيْنَ**﴾ [الصف:١٣] حيث عطف على قوله: ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوْبَكُمْ** ﴾[الصف:١٢]ولكن الزمخشري نازعهم في ذلك وقال فى الأولى بأنّه ليس المعتمد بالعطف الأمر، حتّى يطلب له مشاكل ؛ بل المراد عطف جملة ثواب المؤمنين على جملة ثواب الكافرين ، وقال فى الثانية بأن العطف على تؤمِنُون ؛ لأنّه بمعنى " امنوا "، حكاه السيوطي وقال: و رُدَّ بأنّ الخطاب به للمؤمنين، و بـ "بَشِّر" للنبي، وبأن الظاهر في " تؤمنون" أنه تفسير للتجارة لا طلب ،وقال السكاكي : الأمران معطوفان على "قل" مقدرةً قبل "يأيّها "، وحذف القول كثير.

۞ اخْتُلِفَ في جواز عطف الإسمية على الفعلية وعكسه ، فالجمهور على الجواز، ومنعه البعض، فعلى هذا يصحّ عطف قوله تعالى:﴿**وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**﴾ [الانعام:١٢٠] على قوله: ﴿**وَلاَ تَأْكُلُوْا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّٰهِ عَلَيْهِ**﴾ [سوره انعام ١٢٢] وهو اختيار الحنفية.

۞ وكذا اخْتُلِفَ في جواز العطف على معمولي عاملين ، فمَنَعَهُ سيبويه، والمبرّد، وابن سراج، وابن هشام ، وجوّزه الأخفش، والكسائي، والفرّاء، والزّجاج ، خُرِّجَ عليه قوله تعالى:﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وِالْأَرْضِ لَاٰيٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِيْنَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ اٰيٰتٌ لِّقَوْمٍ يُّوْقِنُوْنَ، وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ**

اللّٰهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَ تَصْرِيْفِ الرِّيٰحِ اٰيٰتٌ لِّقَوْمٍ يَّعْقِلُوْنَ ﴾ [الجاثية:٣-٥] على قول من قرأ " آياتٍ " بالنصب ،وهي قراءة الأعمش والجحدري و حمزة والكسائي، فقوله"واختلافِ الليل والنهار" إلى قوله " اٰيٰتٍ لقوم يعقلون "من العطف على معمولي عاملَين ، فالعاملان هما " إنّ " و " في" وأقيمت الواو مقامهما، فعَمِلَتِ الواوُ الجرَّ في" اختلاف الليل والنهار" والنصبَ في "اٰياتٍ لقوم".

۞ واخْتُلِفَ أيضاً في جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار ، فأكثرُ البصريين على المنع، بينما الكوفيون على الجواز، وخَرَّج عليه المُجيزُون قراءةَ حمزة في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوْا اللّٰهَ الَّذِيْ تَسَاءَ لُوْنَ بِهٖ وَ الْأَرْحَامَ**﴾ [النساء:١] بالجرّ عطفاً على الضمير المجرور في "به"، وقال أبو حيان: والذي نختاره جواز ذلك لوُرُوده في كلام العرب كثيراً نظماً و نثراً (١).

٩-قواعد في العدد

۞ العدد إذا اشْتُقَّ منه اسمُ الفاعل كقولنا : رابعة وخامسة وسابعة وغيرها فله استعمالان :

١- أحدهما أن يُرَادِ به واحد من ذلك العدد ، فهذا يُضَافُ للعدد الموافق له ، نحو رابعُ أربعةٍ وخامسُ خمسةٍ ، كقوله تعالى: ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ**﴾ [التوبة : ٤٠] ، ولا يجوز إطلاق هذا في حقّه تعالى ، ولهذا أنكر اللّٰه تعالى على من يقول ذلك ، فقال: ﴿ **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّ اللّٰهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ** ﴾ [المائدة:٧٣]، وليس في هذه الصورة إلا الإضافة خلافاً لثعلب ؛ فإنه أجاز "ثالث ثلاثة " بالتنوين.

٢- والثاني أن يكون بمعنى التصيير ، وهذا يُضَافُ إلى العدد المُخَالِف له في اللفظ بشرط أن يكون أنقصَ منه بواحدٍ ،كقوله تعالى: ﴿ **مَا يَكُوْنُ مِنْ نَجْوٰى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ** ﴾ [المجادلة :٧] والمعنى : رابعُ ثلاثةٍ ،و سَادسُ خمسةٍ ، وهذا يجوز إطلاقه عليه تعالى .

(١)انظر الإتقان:٢/ ٢٦١-٢٦٣، والبرهان:٤/ ١٠١-١١٧

۞ إن ما يُضَافُ إليه العددُ من الثلاثة إلى العشرة حقُّه أن يكون من أسماء الأجناس أو من أسماء الجمع ، وحينئذٍ يجوز أن تدخل عليه " مِنْ " الجارّةُ ، كقوله تعالى : ﴿ **فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ** ﴾ [البقرة:٢٦١] ويجوز إضافته ، كقوله: ﴿ **وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ** ﴾ [النمل:٤٨] وإن كان غيرَهما من الجموع أُضِيفَ إليه الجمعُ على مثال جمع القلة من التكسير ، وعلّته أن المضاف موضوع للقلّة ، فتلزم إضافته إلى جمع قلة طلباً لِمُناسَبة المضاف إليه المضافَ في القلّة ، كقوله تعالى:﴿ **سَبْعَةُ أَبْحُرٍ** ﴾ [لقمان:٢٧]

وقد استشكل على هذه القاعدة قوله تعالى : ﴿ **وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ** ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فإن "قروء" جمع كثرة وقد أضيف إلى الثلاثة ، ولو جَاءَ على القاعدة لقيل: ثلاثة أقراء" بلفظ جمع القلة.

وأجيب عنه بوجوهٍ : الأول: بأنّ وزن "فَعل" بالفتح يُجمَع غالباً على "فُعُول" ، وأمّا جمعُه على" أفعال " فشاذٌ، فاخُتِيرَ هنا جمع الكثرة على خلاف القياس إيثاراً للفصيح ، فأشبه ما ليس له إلا جمع الكثرة كما يقال: ثلاثة دراهم ، قاله ابن مالك،الثاني : أنه إنما أُضِيفَ إليها جمع الكثرة نظراً إلى كثرة المتربّصات ؛ لأن كل واحدةٍ تتربّص ثلاثةَ قروء ، فعلى هذا أنه القلة بالنسبة إلى كل واحدٍ من المطلقات، قال الزركشي: حكاه في البسيط عن أهل المعاني . الثالث: أنه على حذف مضاف ، أي ثلاثة أقراء قروء،الرابع: أن الإضافة نعتٌ في تقدير الانفصال ، لانه بمعنى "من " التي للتبعيض ، والمعنى:ثلاثة أقراء من قروء.

۞ أن ألفاظ العدد بمنزلة النصوص ، ولهذا لايدخلها تاكيد ؛ لأن التاكيد في الأصل لدفع المجاز في الكلام حيث أُطْلِقَ الكُلّ وأُرِيدَ به البعض منه ، وهذا منتفٍ في العدد، وأورد على هذه القاعدة آيات لم تجرِ هذه القاعدة فيهن ، ومنها قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ** ﴾ [البقرة:١٩٦] والجواب : أن التاكيد هنا ليس لدفع نقصان أصل العدد ، بل لدفع نقصان الصفة. (١)

(١) انظر البرهان:٤/١١٨-١٢٠

الباب الرابع

فصل

شروطُ المفسّر و آدابُه

بِمَ أنّ للقرآن الكريم في بلاغته و بيانه أسلوباً فذّاً معجزاً ؛ و استدلالاً بسيطاً عميقاً؛ و أمثالاً خَلّابةً جَذّابةً ؛ وحِكَماً بالغةً ، وقِصَصاً مُختارةً ، يَجِبُ على من هو بصدد تفسيره أنْ يكونَ ماهراً في العلوم الشرعية الإسلاميّة، و بارعاً في الفنون العربية الأدبية، و مُتَيَقِّظاً ، ومُتْقِناً، و ضابطاً فيما يقوله في القرآن الكريم، لذلك فالعلماء بَيَّنُوا شروطاً عديدةً، وآداباً كثيرةً لِمَنْ يتصدّى للتفسير. وأنا أشير إلى أطراف من مقاصدها كراهةَ الإطالة، و خوفاً من الملالة . وأكثرُها من الإتقان للسيوطي، والبرهان للزركشي، وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، و مَبَاحِث في علوم القرآن للشيخ منّاع القطّان، إلا أني لم التزم إيرادَ عباراتهم بعينها؛ بل تارةً لَخَّصْتُها ، وتارةً فَصَّلْتُها بتعبيرات منّي حسبَ ما اقتضى المقام .

شروط المُفَسِّر

۞ يجب على من يَتَصَدّى للتفسير أنْ يعرفَ خمسةَ عشرَ علماً على وجه الإتقان والكمال ؛ و هي : اللغة والنحو، والتصريف، والاشتقاق، والمعاني، و البيان ، والبديع، والقراءات، وأصول الدين، وأصول الفقه ، وأسباب النزول ، و القصص، والناسخ والمنسوخ، والفقه، والأحاديث المُبَيِّنَة لتفسير المجمل و المبهم ، وعلمُ الموهبة . وقد مرّ منّا تحقيقُ و تفصيلُ هذه العلوم .

قال العلامة الزمخشري: و هذه العلوم التي لا مندوحةَ للمفسر عنها، و إلا فعِلْمُ التفسير لا بدَّ له من التبحُّر في كل العلوم (١).

(١)أبجد العلوم : ١٥٧/٢

وقـال الإمـام الـنـووي: ويـحرم تفسيرُه بغير علم، والكلامُ في معانيه لمن ليس من أهلها، والأحاديث في ذلك كثيرة، والإجماع منعقد عليه (١).

۞ ومن شروط المفسّر أن يكون صحيحَ الاعتقاد، وأنْ يلزم سنةَ الدين، فإنّه إنْ كـان فـاسدَ العقيدة ومُتَّهَماً بهوىً لايُؤتَمَنُ على الدنيا ، فكيف فيما يَقُولُ في أسـرار الـلّٰـه تعالى و مراداته ؟ ولأنّه لا يُؤتَمَنُ أنْ يَبْـغِـيَ الفتنةَ ، و يُغِرَّ الناس بِلَيِّهٖ، وخِـداعـه كدأب الباطنية ، وغلاة الـرافـضة ، ولا يُـؤتَـمَنُ أن يَحْمِلَه هواه على تـحـريف الـنـصوص، والخيانة في الأخبار، لتُوَافِقَ هواه و بدعتَه، ولِيصدُّ الناس عن اتباع السلف، و لزومِ طريق الهدى .

۞ ويـجـب أن يـكـون اعتـمـادُه في التفسير على النقل عن النبي ﷺ ، و عن أصـحـابـه رضـي الـلّٰـه عـنهـم، ومَنْ عَاصَرَهُم من التابعين، ولا يَعْدِل عن مذاهب الصحابة والتابعين في التفسير.

قـال الإمـام ابـن تيـميةؒ : وبـالـجـمـلة مَنْ عَدَلَ عن مذاهب الصحابة، و التـابعين ، و تفاسيرهم إلى ما يُخَالِفُ ذلك كان مُخْطِئاً بل مُبْتَدِعاً ؛ أنّهم كانوا أعلم بتفسيره و معانيه ،كما أنّهم أعلمُ بالحقّ الذي بَعَثَ اللّٰهُ به رسولَه.

۞ يَـجـبُ عـليه أن لا يُحاوِلَ الإقدامَ على التفسير بمجرّد الرأي والعقل؛ فـإنّــه مـزلّة الأقـدام، وقـد قـال الـلّٰـهُ تعالى: ﴿ **وَلاَ تَـقْفُ مَـا لَيْـسَ لَکَ بِـهٖ عِلْمٌ** ﴾ [بـني إسرائيل:٣٦] وقال: ﴿ **وَأَنْ تَـقُـوْلُـوْا عَلَى اللّٰهِ مَا لاَ تَعْلَمُوْنَ** ﴾ [البقرة:١٦٩]

۞ ولا يجترئ على التفسير بمجرّد الهوٰى من غير هُدىً من اللّٰه و رسوله ، و لا يُـخـضِـع مـعـانـي الـقرآن أمامَ ما يهواهُ نفسُه، و يُوَسْوِسُ به ، فإنّه هو دأبُ الضّالين والمُضلّين، كما نُشَاهِد ذلك في أهل البدعة والهَوٰى.

۞ وعليه أن يجتنب من البدعة والفسق، قال الزركشي:

" اعـلـم أنّـه لا يحصل للناظر فهمُ معاني الوَحْي حقيقةً، ولا يظهر له أسـرارُ الـعلم من غيب المعرفة، وفي قلبه بدعةٌ ، أوإصرارٌ على ذنب ، أو في قلبه كبرٌ ، أو هوًى ، أو حبُّ الدنيا ، أوكان غيرَ متحقّق الإيمان ، أو

(١)التبيان في آداب القرآن :٨٥

ضعيفَ التحقيق، أو معتمداً على قولِ مفسّرٍ ليس عنده إلا علمٌ بظاهر، أو راجعاً إلى معقوله ، و هذه حِجَبٌ ومَوانِعُ " (١).

۞ ويجب الاحتراز عن التفاسير الغريبة ، فلا يَذْكُرُ منها شيئاً إلا على سبيل التعجّب والإنكار، ومثالُه قولُ من قال في" حٓمٓ عٓسٓقٓ " : إن الحاء حرب عليّ و معاوية ؛ والميم ولاية المروانية ؛ والعين ولاية العبّاسيّة ؛ والسين ولاية السُفيانيّة؛ والقاف قُدوة مهدي.

ومن ذلك ما نقل ابن فُورَك في قوله تعالى : ﴿ **وَلَـٰكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيْ** ﴾ [البقرة : ٢٦٠] إنّ إبراهيم عليه السلام كان له صديق وَصَفَهُ بأنّه قلبُه، والمعنى : ليسكن هذا الصديق إلى هذه المشاهدة إذا رآها عياناً . وهذه هفواتٌ لا يجوز أن يُفَسَّرَ القرآنُ على مقتضاه ، فالواجبُ الحذرُ عن مثلها .

آداب المفسر:

هذه شروط يتوجّب على المُفَسِّر أنُ يلحظها ، وأما الآداب فهي ما يلي:

۞ من آداب المفسّر صحةُ المقصد، و حُسُن النية. وقد قال النبي ﷺ : إنّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّات (٢).

فلا يرغب في الدنيا و متاعها؛ لأنّه إذا رَغِبَ فيها لا يُؤْمَنُ عليه أن يَتَوَسَّلَ به إلى غرض من أغراض الدنيا الدنيّة ، فيَصُدُّه عن صواب قصده ، و يُفسِدُ عليه صحةَ عمله.

۞ ومن آدابه التفكُّروالتدبُّر في معاني القرآن وأسراره. وهو أصل الوقوف عليها، فمن لم يَتَدَبَّرُ و يَتَفَكَّرُ لا حَظَّ له من معاني القرآن و أسراره.

۞ ومن آدابه أنُ يكونَ مُصغِياً إلى كلام ربّه ، مُلقِياً السمعَ، و هو شهيد القلب لمعاني القرآن ، ناظراً إلى قدرته ، ومُعَظِّماً له ، ومُفْتَقِراً إلى التفهُّم بحالٍ مستقيمٍ ، و قلبٍ سليمٍ ، و بدعاءٍ ، و تضرُّعٍ، و تَمَسُكُنٍ ، و انتظارٍ للفتح عليه من الفتّاح العليم .

(١) البرهان:٢/١٨٠-١٨١
(٢) رواه البخاري:١، ومسلم:٣٥٣٠، و الترمذي:١٥٧١، والنسائي:٧٤و غيرهم

۞ ومـن آدابــه أنْ يَـكُـوُنَ حَسَـنَ الـخُـلـق ، مُؤدَّباً بالآداب الإسلاميّة ، مُهذَّباً بـالأخـلاق الـفـاضـلة، فإنّ المفسِّر في موقف المُؤدِّب ، ولا تَبْلُغُ الآدابُ مَبلَغَها في النفس إلا إذا كانَ مِثالًا يُحتَذٰى في الخُلُق والفضيلة.

۞ ومن آدابه أنْ يَمُتَثِلَ ما يدعو إليه القرآنُ الكريمُ ، فإنّ العلم يَجدُ قبولاً مِمّن يـمتثـلُ ، و يَـعـمَـلُ وفـقَ ما يدعو هو إليه أضعافَ ما يجِدُ من سموّ مَعَارِفِه، و دقّة مَبَـاحِثِـه ، وكثيـراً مـا يصدُّ الناسَ عن تلقّي العلم من بحرٍ زاخرٍ في المعرفة والعلم لَسُوُءِ سلوكِه ، وعدمِ تطبيقِ العمل مع علمِه .

۞ ومـن آدابـه تـحـرِّي الصدق ، والضبط في النقل والرواية ، فلا يتكلّمُ ، ولا يَكْتُبُ إلا عن تَثَبُّتٍ لِما يرويه حتّٰى يكون في مأمن من التصحيف، واللحن .

۞ ومـن آدابــه أن يَتَـرَفَّـعَ عـن سَـفَـاسِـفِ الأمور، ولا يَغْشٰى أعتـابَ الجـاه، والسلطان ، كالسائل المتكفّف.

۞ ومـن آدابـه التـواضعُ، و لِيُنُ الجانِب ، فإنّ التصلّف العلمي حاجزٌ حصينٌ يَـحُـول بيـن الـعالم والانتفا ع بِعِلْمِهِ ، ومع ذلك فلاينبغي له أن يعرض عن حسن السـمـت الـذي يـكسـب لـه هَيْبَةً ووَقَـاراً ، فاللائق بمقامه الجليلِ هو الجمعُ بين التواضع، والوقار من غير إفراط وتفريط.

فصل

مَنُهَـجُ التفسير

وممّا يدعو إلى الاعتبار والاهتمام بعد تحلية المفسّر بالشروط التي لا بُدَّ مـنهـا، وبعد تزيينه بالآداب التي يُرُغَبُ فيها، أنْ ينهج مَنهَجَ الصواب والسداد في التفسير، لينال المراد يقيناً أوغالباً . والمنهج الصواب في ذلك هوما يلي:

۞ أن يـطـلـبَ التفسيرَ أوّلًا من القرآن الكريم، فما أُجمِلَ في مكان فقد فُسِّرَ فـي موضع آخر، وما اخُتُصِرَ في مكان، فقد بُسِطَ في موضع آخر، فإنْ أعْيَاه ذلك

طَلَبَهُ من أنوار السُّنة ، و في استبصار سيرة النبي ﷺ، فإنّها شارحةٌ للقرآن، فإنْ لم يجدُ في ذلك فالأهمّ أن يرجع إلى أقوال الصحابة، فإنّهم أعْلَمُ بالقرآن من غيرهم، وهُم نُجُوم الملّة و هُداةُ الأمة ، فإنْ لم يجد عندهم ما يكشف المرادَ فالرُجُوع إلى منْ عَاصَرَهُم من التابعين أهَمُّ وآكدُ .

۞ وإذا تَعَارَضَتُ أقوالُ الصحابة أوأقوالُ التابعين فعليه أن يطلب التوفيق بينها ، فإن أمكن الجمعُ بينها فَعَلَ، وإن لم يُمكِن رَدَّ الأمرَ إلى ما ثَبَتَ فيه السمعُ، فإن لم يجد سَمعاً ، وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما، رَجَّحَ ما قَوِيَ الاستدلالُ فيه .وإن تَعَارَضَتِ الأدلّة في المراد عَلِمَ أنّه قد اشْتَبَهَ عليه، فيُؤمِنُ بمراد اللّٰه تعالى، ولا يَتَهَجَّمُ على تعيينه، وينزله منزلةَ المُجمَل قبل تفصيله، والمتشابهِ قبل تعيينه.

۞ ولا يجترئ على تفسير المتشابهات بمجرّد الرأي والعقل ، فإنّه لا مَسَا غَ للاجتهاد في تفسيره ؛ ولا طريقَ إلى ذلك إلا بالتوقيف بِنَصٍّ من القرآن، والسُّنة ، أو إجما عِ الأمة على تأويله .

۞ وإنْ لم يجدُ التفسيرَ في الكتاب، والسُّنة، وأقوال الصحابة والتابعين وَجَبَ عليه أن يجتهدَ في ذلك حَسْبَ ما في وُسْعه من الطاقة ، فيبدأ بالعلوم اللفظية ، وأوّلُ ما يجب البداية به منها تحقيقُ الألفاظ المفرد ة ، فيتكلّم عليها من جِهَة اللُّغة ، ثم التصريف ، ثم الاشتقاق، ثم يتكلّم عليها بحسب التركيب ، فيبدأ بالإعراب، ثم بما يتعلق بالمَعَانِي، ثم بالبَيان، ثم بالبديع ، ثم يُبَيِّنُ ما هو المعنى المراد بالآية ، ثم يتكلّم على ما يتعلق بالاستنباط من الآية، ثم ما يتعلق بالإشارة .

۞ وينبغي له أن يُبَيِّنَ سببَ النزول إن كان هناك، وأن يَذْكُر المناسبةَ بين الآيات والسُّور، وأمّا البحثُ في أنّه بأيّهما يُبْدَأُ ؟ فالتحقيقُ ما قاله الزركشي من أنّه إن كان وجه المناسبة مُتَوَقّفاً على سبب النزول، فالأولى أن يقدّم ذكرَ السبب؛ لأنه حينئذٍ من باب تقديم الوسائل على المقاصد ، وإن لم يتوقّف وجهُ المناسبة على ذلك فالأولى تقديم وجه المناسبة (١).

۞ ويجب عليه أن يَتَحَرّى في التفسير مطابقةَ المفسَّر، وأن يحترزَ في

(١) البرهان: ١/٣٤

ذلك من نقصٍ عمّا يحتاج إليه من إيضاح المعنى المفسَّر، أوأن يكون في المعنى زيادة لا يليق بالغرض، أوأن يكون في المفسر زيغ عن المعنى المفسَّر، و عدول عن طريقه؛ حتى يكون غيرَ مناسب له، ولو من بعض أنحائه؛ بل يجتهد في أن يكون وفقَه من جميع أنحائه (١).

۞ وعلى المفسِّر مراعاة الوضع الحقيقي، ومراعاة التأليف، وأن يوافق بين المفردات، و تلميح الوقائع، فعند ذلك تتفجر ينابيعُ الفوائد (٢).

۞ وعلى المفسِّر أن يكون محطّ نظره مراعاةُ نظم الكلام الذي سيق له، و إن خالفَ أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوّز في الكلام، فالمفسِّر يراعي الاستعمالات في الألفاظ التي يُظَنُّ بها الترادف، وأن يقطع بعدم الترادف ما أمكن، فإن للتركيب معنىٰ غير معنى الإفراد.

۞ وان كان اللفظ يحتمل معنيين فصاعداً فعليه الاعتماد على الدلائل، و الشواهد، دون مجرّد الرأي، فإن كان أحد المعنيين أظهرَ وَجَبَ الحَملُ عليه، إلا أن يقوم دليلٌ على أن المرادَ هو الخفي، وإن استويا في الظهور والخفاء، و الاستعمال فيهما حقيقةً فهو على أنواع:

الأول: أن يكونَ استعمالُه في أحدهما حقيقةً لغويةً أو عُرفيةً؛ و في الآخر حقيقةً شرعيةً، ففي هذا الحملُ على الشرعية أولى، إلا أن يدُلَّ دليل على إرادة اللغوية كما في قوله تعالى: ﴿ **وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾ [التوبة: ١٠٣]

والثاني: أن يكون استعماله في أحدهما عُرفيةً، وفي الآخر لُغَويةً، ففيه الحملُ على العُرفية أولى.

والثالث: أن يتّفق المعنيان في الاستعمال لغةً أو عرفاً أو شرعاً، وهذا أيضاً على ضربين: الأول: أن يتنافى اجتماعهما، ولم يمكن إرادتهما جميعاً باللفظ الواحد، كالقرء للحيض والطهر، فعلى المفسّر أن يجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالّة عليه، فما ظَهَرَ له فهو مراد الله تعالى في حقّه غالباً، وإن لم

(١) انظر:البرهان:١٧٦/٢
(٢) البرهان: ١٧٦/٢

يظهر له شيءٌ، فهل يُتَخَيَّرُ في الحمل على أيّهما شَاءَ، أو يأخُذ بالأغلظ حكماً أو بالأخفّ؟ ففيه أقوالٌ، والثاني :أن لا يتنافيَا ويمكن إرادتهما جميعاً، ففيه الحملُ عليهما واجبٌ عند المحقّقين إلا أن يدلّ دليل على إرادة أحدهما (١).

۞ ويجب عليه أن يجتنبَ من ذكر عِلَلِ النحو، و دلائل أصول الفقه، و مسائل الفقه، ودلائل أصول الدين ، و غيرهما كما شحن بعض المفسرين تفاسيرَهم بهذه العلوم ، والأصل أن يُؤْخَذَ من ذلك مسلّماً في علم التفسير دون استدلال عليه .

۞ ويجب عليه أن لا يَذْكُرَ ما لم يَثبُت من أسباب النزول وأحاديث الفضائل، و كذا لا يَذكُر حكاياتٍ لا تُناسِب و تواريخ إسرائيلية.

قلت: والمراد بما لم يثبت من الأحاديث ما لم يثبت على وجهٍ صحيحٍ ولا حسنٍ ولا ضعيفٍ، فانّ الأحاديث الضعيفة لها الاعتبار في الفضائل، ولكنّ لها شروطاً لاعتبارها، كما هي مذكورة في كتب الأصول، فعلى المفسّر أن يراعيَ تلك الشروط. وقد ألّفتُ في أحكام الأحاديث الضعيفة تاليفاً لطيفاً، فراجعه إن شئتَ التفصيل، وكذا المراد بالأخبار الإسرائيلية ما تُخَالِفُ القرآنَ والحديثَ، و تُخالِفُ ما هو ثابتٌ في الإسلام ، وأما الأخبار الإسرائيلية التي لا تُخالِف ذلك ، فلا بأس بإيرادها إن كان في تلك الأخبار عبرةٌ و حكمةٌ ، وقد تَنَاوَلْنَا الموضوعَ فيما سَبَقَ بتحقيق و تفصيل.

(١) الإتقان:٢٣٣/٢

الخاتمة

فصل

تدوين التفسير و مراحله

التفسير فی عهد النبی ﷺ

التفسير وظيفة النبی ﷺ

ليس خفيّاً على مسلمٍ أنّ القرآن الكريم كتابٌ عربيٌّ خالصٌ، و نزل على نبيٍّ عربيٍ، و بواسطته على قوم عرب . وحيثُ أنّ الكلام العربي يشتمل على الحقيقة والمجاز، والتصريح و الكناية ، والإيجاز والإطناب ، والإجمال والتفصيل، والإبهام والتبيين، وما أشبه ذلك من أصناف الكلام، وأساليب البيان، فالقرآن الكريم العربيّ أيضاً يحتوي على كلّ ذلك من صنوف الكلام، و أساليب البيان على حدٍّ سَوِيٍّ ، و يستخدم في أساليبه : الحقيقةَ والمجازَ، والإيجازَ والإطنابَ ، و الكنايةَ والصراحةَ، وغيرَ ذلك، على نحو ما تستخدمها العربُ في مُحاوَرَاتِهم وأسَالِيبِهم، غيرَ أنّ القرآن الكريم يفُوقُ و يَعلُو غيرَه بوُجُوهٍ إعجازيةٍ ذكرها العلماء في موضعه .

انطلاقاً مما قلنا يَبدو واضحاً : أن من الطبيعي أن يفهم النبي ﷺ القرآنَ الكريمَ من حيث هو كلامٌ عربيٌّ ، نزل بلسانه و في أسلوبه ، وبالإضافة إلى ذلك تَكَفَّلَ اللّٰه لرسوله ﷺ بالحفظ والجمع في قلبه ، ثم بالقراءة والبيان ، حيث قال: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنُهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**﴾ [القيامة

:١٧-١٩] و وَلّاه مَنصبَ التعليم حيثُ قال تعالى : ﴿ **قَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلٰى الْمُؤْمِنِيْنَ إِذْ بَعَثَ فِيْهِم رَسُوْلاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوْ عَلَيْهِمْ اٰيٰتِهٖ وَيُزَكِّيْهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلُ لَفِىْ ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ**﴾ [آل عمران:١٦٤]

فالنبي ﷺ بُعِثَ لأجل تعليم القرآن، وهو منصبه الجليل ووظيفته العظيم، وقد قَامَ بواجبِه قياماً حَسَناً ، وفَسَّرَ القرآنَ الكريمَ حسبَ ما شاء اللّٰه تعالى من كلامه وآياته ، فالذي يرجع إلى كتب التفسير وإلى كتب السُّنة، يرىٰ ما جاء عن النبي ﷺ في هذا الصدد من تفسير الآيات، وتوضيح الإجمال، و تبيين الإبهام، و تحقيق المراد، وغير ذلك ، وقدْ مرَّ بك من أمثلته طرفٌ في باب مصادر التفسير ، فلا معنى لإعادته .

هل النبى ﷺ تناول جميع القرآن بالبيان ؟

ومن الجدير بالذكر ههنا أنّه قد اختلفتِ الآراءُ بين العلماء : هل النبيﷺ تناول جميعَ القرآن بالبيان والتفسير، أو بَيَّنَ من ذلك أقَلَّ قليلٍ لا اعتدادَ به ، و لا قيمة له ؟

فذهب الذاهبون إلى أحد الطرفين الخارجين عن حد التوسُّط والاعتدال؛ إمّا إلى الإفراط، وإمّا إلى التفريط.

القول الأول وأدلّته

فمِنْ زاعِمٍ يزعم أن النبي ﷺ بَيَّنَ لأصحابه جميعَ معاني القرآن كما بَيَّنَ لهم ألفاظَه، ومن قائلٍ يقول: إنّه لم يُبَيِّنْ من معاني القرآن إلا القليلَ والنادرَ ، فالأوّل مختارُ الإمام ابن تيمية ؛ فإنّه قال في "مقدمة التفسير" : " يجب أن يُعْلَمَ أنّ النبي ﷺ بَيَّنَ لأصحابه معاني القرآن كما بَيَّنَ لهم ألفاظَه(١).

وربما يُسْتَدَلُّ عليه بوُجُوهٍ :

الأول : بقوله تعالى: ﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ** ﴾[النحل:٤٤] فالآية تُعْطِيْنَا أنّ البيان من وظائف النبيﷺ ، وعليه أن يتناول جميع معاني القرآن، فلا بُدَّ أن يكونَ قد تَنَاوَلَه كُلَّه بالبيان و التفسير، وإلا كان

مُـقـصِـراً فـي أداءِ مـا كـان مـن مسئـوليـاتــه ، وهو لا يُتَصَوَّرُ أصلاً في حقّ من هـومعصوم .الثا نى: بما رُوِيَ عن أبي عبد الرحمن السلمي أنّه قال: حَدَّثَنَا الذين كانوا يُقرءُونَنَا القرآنَ ، كعثمان بن عفان، وعبد اللّٰه بن مسعود، وغيرهما : أنّهم

(١) فتاوى ابن تيمية : ٣٣١/١٣

كـانوا إذا تَعَلَّمُوا من النبي ﷺ عشـرَ آيـاتٍ لم يُجاوزوها حتّى يَتَعَلّمُوا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا: فتعلّمْنَا القرآنَ والعلمَ والعملَ جميعاً(١).

الثالث : بـما أخْرَجَه أحمد، وابن ماجه عن عمر أنّه قال: مِنْ آخرِ ما نَزَلَ آيةُ الربا، وإنّ رسول اللّٰه ﷺ قُبِضَ قبلَ أنْ يُفَسِّرَها(٢).

قـال السيـوطـي تـوجيهاً للاستدلال به : فَدَلَّ فَحْوَى الكلام على أنّه كان يُـفَسِّـرُ لهـم كلَّ ما نَزَلَ، وإنّه إنّما لم يُفَسِّر هذه الآيةَ لسُرعة موته بعدَ نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص وجهٌ(٣).

النقد على هذا القول:

فهذه أدلّةٌ مجموعةً ربما يُسْتَدَلُّ بها على أن النبي ﷺ فَسَّرَ في زمانه القرآنَ كُلَّهُ، و تناوله بالبحث إفراداً و تركيباً ، ولكنّ في الاستدلال بها على هذا المُدَّعىٰ نظراً ظاهراً :

أمّـا أوّلًا فلأنّ قوله تعالى : ﴿ **لِتُبَيِّـنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [النحل :٤٤] غـايةُ ما يَدلُّ هوعليه أنّ النبي ﷺ كـان مـن وظيفته أنْ يُفَسِّرَ من القرآن مَا أُشْكِلَ عـليهـم فهمه، وليس فيه ما يدُلُّ على أنّ من وظيفته أن يُفَسِّر كلَّ معانيه، ما أُشْكِلَ منه وما لم يُشْكَلْ، وما دَعَتْ إليه الحاجة وما لم تَدْعُ .

وأمّـا ثانياً فلأنّ ما قال السلمي عن عثمان وابن مسعود وغيرهما من أنّهم كانُوا إذا تَعَلَّمُوا من النبي ﷺ عشرَ آيات من القرآن لم يُجَاوِزوها حتىٰ يتعلّمُوا ما فيهـا، فهـذا لا يُـفِيـدُ الـمُدَّعىٰ لأن كلّ ما فيه : أنّهم كانوا يَتَعَلّمُون من القرآن عن النبي ﷺ ما أُشْكِلَ عليهم إذا احْتَاجُوا إليه ، فأينَ هو من هذا المُدَّعىٰ ؟

وأمّا ثالثاً فلأنّ قول عمر أيضاً لايدلُّ على ما هم بصدد إثباته ، لأنّ غايةَ ما يُـفِيـدُه : أنّ هذه الآية كانتْ ممّا أُشْكِلَ على الصحابة فهمُها، وكان لابدَّ لهم من

الرجوع إلى النبيﷺ ، ولم يَتَيَسَّرُ لهم ذلك لِمَا قُبِضَ قبلَ ذلك.

(١) التفسير لابن كثير:٤/١، والقرطبي:٢٩/١، وفتاوى ابن تيمية:٢٣١/١٣
(٢) أحمد :٢٣٨، وابن ماجه:٢٢٦٧
(٣) الإتقان:٢٦٤/٢

والقول الثانى وأدلّتُه

والقول الثاني هو ما ذَهَبَ إليه الخُوَيْنِي فإنّه قال– على ما حكاه عنه السيوطي في الإتقان: وأمّا القرآن فتفسيره على وجه القطع لا يُعْلَمُ إلا بأنْ يُسْمَعَ من الرسول ﷺ ، و ذلك مُتَعَذَّرٌ إلا في آيات قلائل(١).

ومن أدلّة من ذَهَبَ إلى هذا القول

١– ما رُوِيَ عن عائشة ﵂ : قالت: ما كان رسول اللّٰه ﷺ يُفَسِّرُ شيئاً من القرآن إلا آيا بعدد ،عَلَّمَه إياهنّ جبريلُ (٢).

٢– ما قالوا: إنّ رسول اللّٰه ﷺ دَعَا لابن عباس ﵄ بقوله : اللّٰهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّيْنِ وعَلِّمْهُ التَّأوِيْل، فلوكان رسول اللّٰه ﷺ بَيَّنَ لأصحابه جميعَ القرآن من ناحية تفسيره وتفهيمه ، لَمَا كان لتخصيصه ابنَ عباس بالدعاء له أيَّة فائدةٍ ؛ لأنّه يلزم حينئذٍ استواءُ الصحابة كُلِّهم في معرفة تأويل القرآن .

النقد على القول الثانى

ولكن هذهِ الأدِلَّة أيضاً لا تخلو عن نظر و بحث ، ويُمْكِنُ أن تَحلُقَ جَوّ البحث، فإنّ الأوّل فيه مجالُ البحث من حيث الإسناد، ومن حيث المعنى جميعاً:

أمّا من ناحية الإسناد ؛ فإنّ فيه جعفر بن محمد الزبيري، وهو مِمَّن تَكَلَّمَ فيه المُحدّثُون، قال البخاري: لا يُتَابَعُ في حديثه ، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث(٣).

وقال ابن جرير الطبري: فيه من العلّة التي في إسناده التي لايجوز معها الاحتجاج به لأحدٍ مِمَّنْ عَلِمَ صحيحَ سند الآثار وفاسدَها في الدين ؛ لأنّ راويه

مِمَّن لا يُعْرَفُ في أهل الآثار (٤).

(١) الإتقان: ٢٢٣/٢
(٢) انظر: مسند أبي يعلى :٢٣/٨، وتفسير الطبري : ٦٣/١، وابن كثير: ٨/١ و القرطبي: ٣١/١
(٣) انظر تفسير ابن كثير: ٨/١
(٤) تفسير الطبري: ٦٤/١

وأمّا من ناحية المعنى؛ فإنّه لا دليلَ فيه على ما يدّعُون من أنّ النبي ﷺ ما كان يُفَسّرُ من القرآن شيئاً إلا آيات قلائل،لأنّ من المُمْكِن أن يكون المعنى، على ما قال ابن عطية – :أنّه ما كان يُفسِّر من مغيبات القرآن، ومن مُجْمَلِه، ونحوِ هذا، مِمّا لا سبيل إليه إلا بتوفيقٍ من اللّٰه (١).

وقال ابن جرير في تفسير هذا الحديث وما أشبه ذلك ما ملخّصُه: إنّ المرادَ بهذه الآيات القلائل ما لايُعْلَمُ تأويلُه إلا بالتوقيف عن اللّٰه تعالى، وهذا تأويل صحيح للحديث؛ فإنّ من القرآن ما اسْتَأْثَرَاللّٰهُ تعالى بعلمِه، ومنه ما يعلمُه العلماءُ، ومنه ما تَعلَمُه العربُ من لغاتها، ومنه ما لا يُعْذَرُ أحدٌ في جهالته(٢).

قال الراقم: وقد خطر لي بالبال: أنّ مراد عائشة ؓ أن النبي ﷺ لم يُفَسِّر شيئاً من القرآن برأيه إلا آيات قلائل، وليس المراد أنّه لم يُفَسِّر شيئاً من القرآن مُطلقاً، وجاء هذا المعنى صريحاً في رواية أبي يعلى، ولفظه: أنّ النبي ﷺ كان لا يُفَسِّرُ شيئاً من القرآن برأيه إلا آيا بعدد ،عَلَّمَهُنّ جبريل(٣).

فحاصلُه : أن النبي ﷺ إنّما كان يُفَسِّر القرآنَ بوحي من اللّٰه ، فكمَا أن لفظ القرآن من اللّٰه كذلك معناه أيضاً من اللّٰه لا بالرأي من عند نفسه ، إلا آيات قلائل، لأن النبي ﷺ كان مُجَازاً في الاجتهاد كما هو رأي الجمهور، ففَسَّرَ بعض الآيات من القرآن حسبَ ما أدّى إليه اجتهادُه ، على هذا فلا دليل فيه على ما ذَهَبَ إليه أصحابُ هذا القول، كما لا يخفى على من تَفَكَّرَ و تَدَبَّرَ .

أعدل الأقوال فى الباب

والذي نحتفظُ به ونختارُ من الرأي هو ما بين هذين القولين من الرأي الوسط، وإليه جَنَحَ أكثرُ العلماء ، ومُجمله : أنّ النبي ﷺ – لا شكّ – بَيَّنَ من معاني القرآن حَظّاً وافراً، وطرفاً كثيراً ، و لٰكن لم يُبَيِّنْ جميعَ معانيه. والوجهُ في

ذلك : أنّ القرآن على أنحاءٍ أربعةٍ كما ذكرنا فيما سبق عن ابن عباس ﵄ ،

(١) القرطبي: ٣١/١
(٢) الطبري: ٦٣/١
(٣) رواه أبو يعلى في مسنده:٢٣/٨

الأوّل: ما خَصَّهُ اللّٰه تعالى بعلمه ، والثاني: ما لايُعْذَرُ أحدٌ بجهالته ، والثالث: ما تعرفه العربُ، والرابع: ما يعلمه العلماء ، فالنبي ﷺ إنّما كان يُفَسِّرُ الكثيرَ من النوع الرابع ، أو بعضَ ما أخفَاهُ اللّٰهُ تعالى عن عامّة الناس من المغيبات ، لأنّ اللّٰه تعالى أمَرَه ببيانِهِ للناس ، وأما النوعُ الأوّلُ وهو ما استأثر اللّٰه تعالى بعلمه ، فلا سبيلَ إليه لأحدٍ من الخلائق، ولا يمكن للنبي ﷺ أن يُبَيِّنَه ، وأما النوعُ الثاني فلا ضرورةَ لتفسيره ،حيثُ أنّه تَتَبَادَرُ إلى معرفته الأفهامُ،ولا يُعْذَرُ أحدٌ بجهالته ، وأما الثالث فلم تكن الحاجةُ تَمُسُّ إلى تفسيره وبيانه ، لأنّهم كانوا من العرب، و القرآنُ نَزَلَ بلسانِهم وأُسلُوبِهِمُ .

هذه هي المرحلة الأولى من مراحل التفسير ، نَجِدُ فيها النبيَّ ﷺ يُفَسِّرُ و يُوَضِحُ القرآن الكريم ، إمّا عن طريق ما أفاضه اللّٰه تعالى من بركات و ثمرات الوحي ، وإمّا عن طريق ما مَنَحَهُ اللّٰه تعالى إيّاه من العقل الكامل، والفهم البالغ، ومن المُؤَهَّلات السامية ، والعلوم العالية ، والمعارف الشريفة .

وقد جَمَعَ الشيخُ السيوطيُ ؒ في الإتقان ما ورد عن النبي ﷺمن تفسير آيات اللّٰه تعالى ، وقال في آخره: هذا ما حضرني من التفاسير المرفوعة المصرّح برفعها، صحيحها، و حَسَنِها، و ضعيفها، و مُرْسَلِها ، ومُعْضَلِها ، ولم أُعوِّلُ على الموضوعات، والأباطيل(١).

بيدَ أنّ هذه التفاسير المنقولة عن النبي ا لم تُدَوَّنُ ولم تُرَتَّبُ آنذاك، ولكنّها كانتُ محفوظةً في صدور الصحابة بواسطة قوة الحفظ، والاستظهار الموهوب لهم من اللّٰه تعالى، وكانت الصحابة يتسابقون إلى مدارستها، و تفهُّمِها، ثم إلى إشاعتها، و تبليغِها إلى جيل من الأجيال الصاعدة، وإلى قرن من

القرون الآتية ، و إلى طبقة من الطبقات الناشئة.

---

(١) الإتقان: ٢٦٣/٢

التفسير فى عهد الصحابة

الصحابة أعرف بالقرآن

ثـم بـعـد غـروب شـمـس الـنبـوـة يـجيء عهد الصحابة رضي اللّٰه عنهم أجـمـعيـن، و من المعلوم و المسلّم : أنّهم كانوا أعرفَ الناس بلغة القرآن– وهي اللغة العربية الفُصحىٰ– لكون القرآن عربياً خالصاً ، وهي لغتُهم الوطنية، وكذلك كـانـوا أعـرفَ الناس بوجوه إعجازه، وأعلمَهم بأسرار بلاغته ، وهذا الذوقُ فيهم كـان عـن فـطـرتهـم الـعربية الصافية ، وسليقتهم السليمة السامية ، و تمهُّرهم في الـفنون البيانية ، والصناعة الأدبية . وإضافةً إلى ذلك أنّهم كانوا أعرفَ مِن غيرهم مِـمّن بعدهم بأحوال العرب وعاداتهم ، وبكوائف اليهود والنصارىٰ و رُسُوماتهم وقـتَ نزول القرآن الكريم ، وهو مِمّا يُعِيُنُ على فهم المرام ، والوصول إلى مغزى الـكـلام ، وبـالإضـافة إلـى ذلك فـأنّهـم كـانـوا أمةً يـضـرب بها المثل في الذكاء ، والألمعية، وقوة الحافظة، وصفاء الطبع، وسيلان الذهن، وحدة الخاطر .

فعلى هذا نستطيع أن نعتقدَ ونقولَ : إن الصحابة أحقُّ أن يُقَالَ فيهم : إنّهم أعرفُ بالقرآن، ومعانيه ، ومراداته ، مِمّن جَاءَ بعدَهم .

لماذا احتاجوا إلى التفسير

ومـع ذلك كلِّه فبِمَ أن القرآن الكريم – كما تقدم – يحتوي على الحقيقة والـمـجاز، والإيجاز والإطناب، والكناية والصراحة، وغير ذلك ؛ وبمَ أنه يتضمّن مـن الـوجـوه الإعـجـازية مـا أَعُجَزَ العربَ العرباء، وأصحابَ البلاغة عن أن يأتُوا

بـمِثْـلِـه، و بـمـا يُـدانيـه، ويُسـاويـه في البلاغة والفصاحة ؛ وينتظم من الأساليب البـلاغية مـا أَخْرَسَ كلَّ لَسَّان وثَرْثَار، وأَسْكَتَ كلَّ معارض و مكابر، و هدم كل مـجـادل و مهـاتـر؛ و بَهَـرَهُم بقوة بيانه وأَخَذَ عليهم مشاعرَهم بسطوة سلطانه ؛ وأَلْجَأَ جهابذةَ العلم وعباقرةَ الفن إلى الاستسلام والخضوع أمامَ القرآن و بلاغته، – بـذلك كـلِّـه– تَـلَـجَّـؤُوا – أي الصحابة– في فهم مرادات اللّٰه تعالى من كلامه وآياته إلى بيان الرسول ﷺ، وإلـى ما لا بدّ منه من البحث والنظر في العربية وغير ذلك فيما أُشْكل عليهم فهمُه.

ثـم مـن الـواضح لمنْ له نظرٌ في التاريخ والسيرة أنّ الصحابة كلَّهم لم يـكُوُنُوا في درجةٍ وَاحدَةٍ بـالـنسبة لفهم القرآن ، بل نَجِدُ مراتبَهم تَتَفَاوَتُ، و درجـاتِهـم تَتبَـايَـنُ بـالـنسبة لذلك ، والمرجعُ في ذلك إلى تفاوُتهم في القوّة الـعـقـلية والـقـوـة الـعلمية، وتفاوُتهم في معرفة الظروف والملابسات، التي أحـاطـتْ بـمـعـانـي القرآن الكريم ، وكذا تفاوُتهم في معرفة معاني مفردات الـقـرآن، فإنّهم كانوا لا يتساوُوُن في ذلك ؛ بل نَجِدُ من بينهم مَنْ خَفِيَ عليه بعضُ معاني مفرداته ، بينما نجد فيهم مَنْ رُزِق له في ذلك فهمٌ ثاقبٌ بالغٌ .

وهـذا أميـر الـمـؤمـنيـن عـمر بن الخطاب ﷺ يـقـوم عـلـى الـمنبر و يقرأ: ﴿**وَفَـاكِهَةً وَّأَبًّا**﴾ [عبس: ٣١] ثـم يـقـول: ما الأبّ ؟ أي لا أدري . و مرةً يقوم على المنبر فيقرأ : ﴿ **أَوْيَأْخُذَهُمْ عَلٰى تَخَوُّفٍ** ﴾ [الـنحل:٤٧] و يسُأل عنه على المنبر، فيقول له رجلٌ من بني هذيل : التخوُّف عندنا التَنَقُّص، ثم أنشده:

تـخوّفَ الرَّحْلُ منها تَامِكاً قرِداً ۞ كـما تخوّف عودَ النبعة السَّفَنُ

فـقـال عمر: أيها الناس تمسّكوا بدواوين شعركم في جاهليتكم ، فإنّ فيه تفسيرَ كتابكم(١).

وهـذا ابـن عبـاس، وهـو مـن بيـن الـصـحـابة معروفٌ باسم مفسّرالقرآن وتـرجمان القرآن ، يقول: كنتُ: لا أدري ما فاطر السمٰوات ؟حتّٰى أتاني أعرابيان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما :أنا فطرتُها، والآخر يقول :أنا ابتدأتُها(٢).

الصحابة يأخذون التفسير عن الرسول ﷺ

لأجل ذلك فإنّ الصحابة كانوا يحتاجون إلى النبي ﷺ فيما يُشكل عليهم من معاني القرآن، فكان الواحد منهم إذا واجهتُه الصعوبةُ بالنسبة لفهم القرآن رَجَعَ إلى النبي ﷺ في حَلّ الإشكال، وتوضيح الإبهام،وتفصيل الإجمال،وماأشْبَهَ

(١) انظر : الموافقات: ٥٧/٢- ٥٨
(٢) الطبري:١٥٩/٧،و الدر المنثور:١٥٥/٣،و فتح القدير:١٠٦/٢، وروح المعاني:١١٠/٧

ذلك ، والنبي ﷺ كان يُبَيِّنُ له ما خَفِيَ عليه . وإليك بعضَ الأمثلة في هذا الخصوص :

١- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية : ﴿ **اَلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا وَلَمْ يَلْبِسُوْآ إِيْمَانَهُمْ بِظُلْمٍ** ﴾ [الأنعام:٨٣] شَقَّ ذلك على الناس، فقالوا: يا رسولَ اللّٰه ! وأيُّنا لا يظلم نفسه ؟ قال: إنّه ليس الذي تَعْنُون ، ألم تَسْمَعُوا ما قال العبد الصالح: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ**﴾[لقمان:١٣]، إنّما هو الشرك(١).

٢- أخرج الترمذي و صحّحه، وابن ماجه عن أبي ثعلبة الخشني قال: سألتُ خَبِيراً عن هذه الآية : ﴿ **يٰٓـأَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة:١٠٥] قال : سألتُ عنها رسولَ اللّٰه ﷺ قال: بل ائتمروا بالمَعروف، و تناهوا عن المنكر، حتّى إذا رأيتَ شُحّاً مُطاعاً، وهوىً مُتَبَعاً، ودُنيا مُؤثَرَةً، وإعجابَ كلَّ ذي رأيٍ برأيه ، فعَلَيْك بخاصّة نَفْسِك ودَع العَوَام(٢).

٣- رُوِيَ عن أبي الدرداء ، و واثلة بن الاسقع، وأنس رضي اللّٰه عنهم :أن رسول اللّٰه ﷺ سُئِلَ عن ﴿**اَلرّٰسِخُوْنَ فِى الْعِلْمِ** ﴾ [آل عمران:٧] فقال: من بَرَّتْ يمينُه، وصدق لسانُه،وعفَّ بطنُه وفرجُه، فذاك من الراسخين في العلم(٣).

٤- أخرج الحاكم و صحّحه عن أنس قال: سُئِلَ رسولُ اللّٰه ﷺ عن قول اللّٰه تعالى: ﴿ **وَالْقَنَاطِيْرِ الْمُقَنْطَرَةِ**﴾[آل عمران:١٤] فقال: القنطار ألفُ أوقية(٤).

٥- أخرج الحاكم و صحّحه عن أنس أيضاً قال: سُئِلَ رسولُ اللّٰه ﷺ عن قول اللّٰه تعالى:﴿ **مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيْلاً** ﴾ [آل عمران:٩٧] ما السبيلُ؟ فقال : الزادُ والراحلةُ(٥).

٦- أخرج ابن مردويه عن أنس قال: جاءَ رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ

(١) رواه أحمد:٣٤٠١،و مسلم: ١٧٨، والترمذي :٢٩٩٣
(٢) رواه الترمذي:٢٩٨٤، وابن ماجه:٤٠٠٤
(٣) أخرجه القزويني في أخبار قزوين :٢٧٩/٢، والطبراني في الكبير :١٥٢/٨، والديلمي: ٢٨٨/٢، والطبري:١٨٥/٣
(٤) الإتقان:٢٤٦/٢
(٥) الإتقان: ٢٤٦/٢

اللّه! ذَكَرَ اللّهُ الطلاقَ مرّتين، فأينَ الثالثة؟ قال: فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَانٖ(١).

٧- أخرج ابن جرير بسندٍ جيّدٍ عن عمرو بن قيس الملائي عن رجل من بني أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء، قال: قيل يا رسولَ اللّهِ ! ما العدلُ؟ قال: العدل الفديةُ. قال السيوطي: مرسلٌ جيّدٌ عضده إسناد متّصل عن ابن عباس موقوفاً (٢).

وهنا أنا لستُ بسبيل الإحصاء، وإنّما ذكرتُ ما ذكرتُ على سبيل النموذج والمثال، فالحاصل أن الصحابة كانوا يأخذون التفسير عن النبي ﷺ فيما يُشْكِلُ عليهم فهمُه، وواجهتْه الصعوبة في إدراكه، وأمّا الذي لم يُشْكِلَ عليهم، فسلكوا فيه طريق الرأي والاجتهاد مستعينين على ذلك بمعرفتهم بأوضاع اللغة، و أحوال العرب وعاداتهم، وأحوال اليهود والنصارى وقتَ نزول القرآن، و بمعرفة أسباب النزول، وما أحاطَ بالقرآن من ظروف وملابسات، وما أشبه ذلك من الأمور التي تُعِيْنُ على فهم المراد بالآيات من القرآن .

مزايا تفسير الصحابة

ولا يعزبنّ عنكم أنّ التفسير في عصر الصحابة يمتاز بالمزايا العديدة، و الخصائص المتعدّدة، وهي على ما يلي :

الأولى : أنّهم لم يحتاجوا إلى تفسير جميع القرآن، بل كانوا يُفَسِّرُوْن منه ما أشْكل عليهم فهمُه وغَمُضَ دركُه، وإنّما فُسّرَ جميعُ القرآن بعد زمانهم، حيثُ احتاج إليه الناس لتزايد الغموض والإشكال عندهم بالنسبة لفهم القرآن .

الثانية:أنّهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالي من معانيه بالطريق الساذج ؛ ولا يلزمون أنفسهم بتفهّم معانيه تفصيلاً ؛ ولا يتكلّفون في تفسيره تكلّفَ الفلاسفة والمناطقة ، فيكتفون أن يفهموا من مثل قوله تعالى: ﴿ **وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**﴾ [عبس : ٣١] بأنّه تعداد لنعم اللّٰه تعالى على عباده .

(١) الإتقان:٢/٢٤٦
(٢) الإتقان:٢/٢٤٥

الثالثة : لم يكن بينهم كثير الاختلاف في تفسير الآيات و فهم معانيها ، كما ظَهَرَ ذلك بعد زمانهم ، وما كان بينهم من الاختلاف، فأكثره يرجع إلى اختلافُ تنوّع، لا اختلاف تضاد.

كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية

" كان النزاع بين الصحابة في تفسير القرآن قليلاً جدّاً ، وهو وإن كان بين التابعين أكثر منه بين الصحابة ، فهو قليل بالنسبة إلى ما بعدهم، وغالبُ ما يصحّ عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد (١).

الرابعة : كثيراً ما كانوا يقتصرون على توضيح المعنى اللغوي الذي فَهِمُوه بأخصر لفظٍ ، مثل قولهم في تفسير قوله تعالى:"غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ" أي " غير متعرض لمعصية " .

الخامسة: كانوا يذكرون أسبابَ النزول والملابسات التي تُعِيْنُ على فهم كلام اللّٰه تعالى ، ولقد قال عبد الله بن مسعود ﷺ -كما أخرج ابنُ جرير الطبري و غيرُه عنه- : والذي لا إلٰه غيره ما نَزَلَتْ آيةٌ من كتاب اللّٰه إلا وأنا أَعْلَمُ فِيمَنْ نَزَلَتْ و أينَ نَزَلَتْ، ولو أعلمُ مكانَ أحدٍ أعلم بكتاب اللّٰه منّي تناله المطايا لأتيتُه (٢).

السادسة : لم يُدَوَّنْ شيءٌ من التفسير في هذا العصر ؛ وكان جلُّه عن ظهر القلب ، وكانت هذه التفاسير تُرْوٰى مَنْثُوْرَةً لآيات متفرقةٍ ، كما كان شأن الحديث ؛ بل اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكلَ الحديث ، وجزءاً من

أجزائه ، و فرعاً من فروعه ، ولم يتّخذ التفسير له شكلاً منظماً ، وأمّا تدوينُه فلم يكن إلا في القرن الثاني.

(١) فتاوىٰ ابن تيمية: ١٣/٣٣٢-٣٣٣

(٢) تفسير الطبري: ١/٦٠

التفسير فى عهدالتابعين

وبعد انصرام عهد الصحابة جاء عصر التابعين، ومن هنا بدأت للتفسير مرحلة ثالثة لعبتُ دوراً حاسماً في ازدهار و تقدّم علوم التفسير. ومن المعلوم أنّ التابعين هم الذين أخذوا وتلقّوا الحديثَ، والتفسيرَ، والفقهَ ، وسائرَ العلومِ الدينية والإسلامية ، عن الصحابة ، وهم أفضلُ مِمّن بعدهم علماً ، و فقهاً، و صدقاً، وأمانةً ، و ورعاً ، و زهداً . وقد أعطاهم اللّٰه تعالى من الذكاء والحافظة ما لا نظير له في أقوام العالم ،حتّى كان الرجل منهم ربما يحفظ كلَّ ما يسمعه لأوّل مرّةٍ مهما كثر وطال ، وإلى جانب ذلك كانوا راضين بقليل المعاش وكفافها من غير ميل إلى رغادة العيش وهناء ة الحال، فهم في هذه الحيا ة الهادئة الوادعة ، وتلك العيشة القاصدة الراضية ، كانوا يُضَحُّون بكلِّ أوقاتهم في سبيل العلم والفضيلة ، و يبذلون كلَّ مجهوداتهم في طريق نشر القرآن والسُّنة ، فصاروا بُحُوراً متلاطمةَ الأمواج ، و جِبَالاً ناطِحَةَ السحاب. وقد بَرَزَ منهم أعلامٌ أثباتٌ ، و اشتهروا بالتفسير، و تكلّموا فيه ، وفي علومه ، و أوضحوا ما خَفِيَ وغَمُضَ من معاني القرآن ومعارفه .

و مصادرهم في صدد التفسير خمسة : **الأول**: كتاب اللّٰه حيث أنه يُفَسِّرُ بعضُه بعضاً ، **والثانى**: تفاسيرُ النبي المنقولة عن طريق الصحابة ﷺ ، **والثالث** : تفاسير الصحابة التي أدّى إليها اجتهادُهم ، **والرابع** : ما رُوِيَ عن اليهود

والنصارىٰ من الإسرائيليات ، **والخامس** : ما فَتَحَ اللّٰهُ عليهم عن طريق الاجتهاد.

مميزات التفسير في عهد التابعين

يمتاز التفسيرُ في هذه المرحلة الثالثة التي يتّصل بعهد التابعين بالمميزات الآتية:

الأول : من المعلوم بوضوح أنّ عصر التابعين من القرون التي قال عنها النبي ﷺ: ﴿ **خَيْرُكُمْ قَرْنِيْ ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ** ﴾ (١). لذلك فإنّ غالبهم كانوا لا يَتَعَمَّدُوْن الكذبَ ، فالتفاسير المرفوعة إلى النبي ﷺ والموقوفة على الصحابة ، التي نُقِلَتْ إلينا عن طريق التابعين فهي مِمّا يسكن إليها النفس ، بيدَ أنّ غالبَ ما وَصَلَتْ إلينا من التفاسير عنهم مراسيلُ ، كما ذكرنا من قبل ، وذكرنا أيضاً قاعدةً في كيفية المعالجة مع المراسيل (٢).

والثاني: أنّه لا يُوجَدُ في تفاسيرهم ما وُجِدَ في تفاسير مَنْ بعدهم من حمل ألفاظ القرآن على ما اعْتَقَدُوْه من النظريات المُنْحَرِفَة ، ومن تفسير القرآن بمجرّد ما يسوغ أن يُرَادَ به من اللغة العربية من غيرنظر إلى المُخاطَب بالقرآن والمُتَكَلِّم به والمنزَّل عليه (٣).

والثالث: أنّه لا يُوْجَدُ فيها ما يُحْكَمُ عليه بالتفسير بالرأي ، وأمّا الذي رُوِيَ عن مجاهد، و قتادة، وغيرهما من التابعين في تفسير القرآن، فليس من هذا القبيل قطعاً؛ بل هو من فصيلة التفسير باللغة أو بالعلوم الشرعية ، ولا يُقَالُ لمثل هذا : التفسيرُ بالرأي ، كما تقدم في فصل التفسير بالرأي.

والرابع : لم يكنْ بينهم اختلافٌ كثيرٌ من ناحية التفسير كما قد كَثُرَ ذلك في أزمنة آتية ، وإنّما كان جُلّ اختلافهم من قبيل اختلاف تنوُّعٍ لااختلاف تضادٍ ، و الاختلافُ بينهم في التفسير وإن كان بالنسبة لمنْ قبلَهم من الصحابة كثيراً ، فهو بالنسبة لمن بعدهم قليلٌ (٤).

والخامس : لم يَزَلِ التفسيرُ محتفظاً بطابعِ التلقّي والرواية ، ولم يُدَوَّنْ ، و لم يُرَتَّبْ إلى عهد التابعين، وإنّما كانوا يَتَنَاقَلُوْن بطريق الرواية عن ظهر قلوبهم ، كما

كان شأن التفسير في عهد الصحابة .

ومع تلك الـمـميزات نَجِدُ – مع الأسف– في هذه المرحلة للتفسير أنّه

(١)رواه البخاري:٢٤٥٧، ومسلم:٤٦٠٣، والترمذي:٢١٤٧، وأبو داؤد:٤٠٣٨، والنسائي:٣٧٤٩، وأحمد:٨٩٧٩
(٢)انظر: مقدمة التفسير لابن تيمية في فتاواه : ١٣/ ٣٤٦،و ٣٥٠
(٣)انظر: مقدمة التفسير لابن تيمية في فتاواه : ١٣/ ٣٤٦،و ٣٥٠
(٤)فتاوى ابن تيمية: ٣٣٢/١٣

قد دَخَلَتِ الإسرائيلياتُ في الإسلاميات و تَسَرّبتُ إليها، وأُلِّفَتُ رواياتٌ تَتَضَمَّنُ القصصَ التاريخية مع مزيجٍ من الحوادث المتخيّلة ، التي تُشْبِعُ نهمةَ المستمعين، و تُثِيرُ إعجابَهم ، وتُرِيُحُ فضولَهم ؛ ولكنّها لا تُرْوِي الغليلَ ولا تشفي العليلَ، كما قد ذكرنا ذلك كلّه فيما تقدّم .

التفسير فى عصور التدوين

الخُطْوَة الأولى

إنّ التفسير كما قد رأينا لم يكن مُدَوَّناً ولا مُرَتَّباً في كتب و صحائف إلى عهد الصحابة والتابعين ، نعم هناك أجزاء منسوبة إلى التابعين ، رووها عن الصحابة، كصحيفة ابن أبي طلحة ، رواها عن ابن عباس ﵄، قال الإمام أحمد : بمصر صحيفة في تفسير روَاهَا علي بن أبي طلحة ، لو رَحَلَ رجلٌ فيها إلى مصرَ قاصداً، ما كان كثيراً.وقال ابن حجر : وهذه النسخة كانت عند أبي صالح كاتب الليث ، رواها عن معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهي عند البخاري عن أبي صالح ، وقد اعْتَمَدَ عليها في صحيحه كثيراً فيما يُعلّقُه عن ابن عباس، وقال قومٌ : لم يسمع ابن أبي طلحة من ابن عباس التفسيرَ ؛ وإنما أخَذَهُ عن مجاهد أو سعيد بن جبير . قال ابن حجر: بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير في ذلك(١).

وكذا نَجِدُ جزءاً أو أجزاءً لجماعةٍ من التابعين ، منهم أبو روق عطية بن

الحارث الهمداني، ومحمد بن ثور عن ابن جريج ، و إسماعيل السُدّي عن ابن مسعود وابن عباس . وكذا ثبتتُ نسخةٌ كبيرةٌ عن أبي بن كعب ، يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب . قال السيوطي: وهذا إسناد صحيح ، وقد أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم منها كثيراً، و كذا الحاكم في مستدركه ، وأحمد في مسنده (٢).

---

(١) انظر الإتقان :٢٤١/٢،و فتح الباري:٤٣٨/٨
(٢) انظر: الإتقان: ٢٤١/٢

ولكن هذه النُسَخ التفسيرية لم تكنُ حافلةً و شاملةً لجميع آيات القرآن، لذلك لم يُعَدَّ هذا العملُ تدويناً مُستقلاً، وإنّما كان التدوين المستقل للتفسير بعد عصرهم ، وإنّما كان جُلُّ التفسير آنذاك يتناقل بطريق الرواية كما كان شأن الحديث.

ثم بعد ذلك سَارَالتفسيرُ قدماً إلى الأمام حين أخَذَ الحديثُ النبوي مقامَه من التدوين ، بيدَ أنّه كان حينئذ يُعَدّ باباً من أبواب الحديث ، ولم يُفْرَدُ له تأليفٌ خاصٌ يُفَسَّرُ فيه القرآنُ سورةً سورةً و آيةً آيةً من مبدئه إلى منتهاه ؛ بل حيثُ دُوّن وجُمِع الحديث، دُوّن وجُمِع بجوار ذلك في تلك الكتب الحديثية ما كان منتشراً من التفاسير المنسوبة إلى النبي ﷺ و إلى الصحابة و التابعين، ومِمَّنْ جَمَعَ ذلك :

- الإمام يزيد بن هارون السُلّمي (المتوفى: ١١٧ هـ)
- الإمام شعبة بن الحجاج (المتوفى: ١٦٠ هـ)
- الإمام وكيع بن الجراح (المتوفى: ١٩٧ هـ)
- الإمام سفيان بن عيينة (المتوفى: ١٩٨ هـ)
- الإمام عبد الرزاق بن همام (المتوفى: ٢١١ هـ)
- الإمام عبد بن حميد (المتوفى: ٢٤٩ هـ)

وغيرهم من أئمة الحديث والتفسير، فكان جَمْعُهُم للتفسير في الحقيقة جَمْعاً لِبابٍ من أبواب الحديث.

الخُطُوَة الثانية

ثـم خـطـا التفسيرُ خُطُوَ ةً ثـانيةً ، وذلك حيـن احُتَـلَّ مـقـامَه من التدوين مُسُتقلاً ، وانفصل عن الحديث ، وجُمِعَ ودُوِّنَ في كتبٍ مستقلةٍ باسم التفسير، و وُضِـعَ التـفسيـرُ لـجـميـع القرآن سورةً سورةً و آيةً آيةً ،على ترتيب المصحف، و مِمَّنُ قامَ بهذا العمل المجيد، ومِمَّنُ تمّتُ هذه البُطولةُ على أيديهم:

- الإمام ابن ماجه (المتوفىٰ: ٢٧٣ هـ)
- الإمام ابن جرير الطبري(المتوفىٰ: ٣١٠ هـ)
- الإمام أبو بكر بن المنذر (المتوفىٰ: ٣١٨ هـ)
- الإمام ابن أبي حاتم (المتوفىٰ: ٣٢٧ هـ)
- الإمام أبو الشيخ بن حبان(المتوفىٰ: ٣٦٩ هـ)
- الإمام أبو عبد اللّٰه الحاكم (المتوفىٰ: ٤٠٥ هـ)
- الإمام أبو بكر بن مردويه (المتوفىٰ: ٤١٠ هـ)

وغيـرهـم من الأئمة . قـال الإمـام السيـوطـي : وهـذه كلها مُسُنَدَةٌ إلى الصحابة ، والتابعين، وأتباعهم، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير، فإنّه يتعرّض لتـوجيـه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط ، و يفوقها بذلك (١).

الخطوة الثالثة

ثم إذا ألقينَا نظرةً سريعةً على وقائع التاريخ يَبُدُو لنا واضِحاً : أنّ التفسير لـم يـقف هـهـنا ؛ بل نَجدُه يتقدّم خُطُوَ ةً أخـرىٰ بـعد ذلك ، فتُؤَلَّفُ في التفسير تـأليـفـاتٌ، وتُـصَـنَّفُ فيـه تـصنيفاتٌ ، ولكنّ الذين قاموا بهذا العمل اختصروا الأسـانيـدَ، واقتـصـروا عـلـى نـقـل الأقوال عن الصحابة ، والتابعين، و غيرهـم ، ولـكـنّهـم لـم يـنُسَبـُوا لقائليها، ومِنُ هنا جاء التباسُ الصحيح بغيره، و اختلاطُ الـحـق بـالبـاطـل بـحيث صارَ الناظرُ فيها يَظُنُّها كلَّها صحيحةً . وكذا دَخَلَتِ الإسـرائيـليـات فـي التفاسير ، و في الإسلاميات ، كما قد ذكرنا في بابه . وفي

هـذه الـمـرحـلة نَـجِدُ من التفسير بالرأي والاجتهاد قد كَثُرَ، وانْتَشَرَ في أوساط الـمفسّرين ، وهذا وإن كان غالبه بالرأي المحمود، لم يَخْلُ من التفسير بالرأي الـمـذموم . وكذا اسْتُنبِتَتْ نواةُ الخلاف المذهبي و ظَهَرَتْ في هذه المرحلة ، وذلك لِـفُشُـوّ الـمذاهب المختلفة في العقيدة كالخروج، والاعتزال، والتشيُّع، والإرجـاء، والـقـدر، والـجبر، وغير ذلك ، وكان فيمن تَـصَـدّٰى للتفسير في ذاك الـعـصـر مـنْ كـان يَـنْتَحِلُ إلى هذه المذاهب، وبالتالي ظَهَرَ و فَشٰى من التفاسير ما يَحْمِلُ في طيّاتِها وحواشيها هذه الأفكارَ والنظرياتِ .

---

(١)الإتقان: ٢/٢٤٣

قال الإمام السيوطي عن هذا العصر :

" ثـم أَلَّفَ فـي التـفسيـر خـلائـقُ ، فـاختـصـروا الأسانيدَ ، و نقلوا الأقـوالَ تَتْرٰى، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل ، ثم صار كـلُّ مـن يَسْـنَـحُ له قولٌ يُورِده ، ويخطُر بباله شيءٌ يَعْتَمِد ، ثم ينقل ذلك عـنـه مـن يـجيء بعده ظانًّا أنّ له أصلاً غيرَ ملتفتٍ إلى تحرير ما وَرَدَ عن السـلف الـصالح ، ومَنْ يُرجَعُ إليهم في التفسير حتّى رأيتُ من حكى في تفسير قوله تعالى : ﴿ **غَيْرِ الْمَغْضُوْبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّيْنَ** ﴾ نحو عشرة أقـوال، وتـفسيـرهـا بـاليهود والنصارىٰ هو الوارد عن النبي ﷺ و جميع الـصحابة، والتابعين، وأتباعهم حتىٰ قال ابن أبي حاتم : لا أعلم في ذلك اختلافاً بين المفسرين " (١).

الخُطوَةُ الرابعة

ثـم نـجـد التـفسيـر يسيـرُ قـدمُـه إلـى الأمام ، ويصطبغ بألوانٍ مختلفةٍ من الثـقـافـات الـعـلـمية، والـفـلـسـفية، ومـن العقائد المذهبية، والنظرياتٍ الجديدة، والاصـطـلاحات الحادثة ؛ لأن الذين تصدّوا لذلك في ذاك العصر فَسَّرُوْا القرآن عـلـى وفـق ما لهم من الهوايات والمُيولِ إلى شيءٍ من هذه الاتّجاهات ، و تأوَّلُوا الـقـرآنَ حسـبَ مـا أدّى إليـه اجتهادُهم ، سواء كان لهم في ذلك سَلَفٌ أو لا، و فَسَّـرُوْا حسـبَ مـا اعْتَـنَـقُـوْه من العقيدة والفكرة ، فجاءَ التفسير من هذه الناحية

بألوانٍ منوّعةٍ وطوابعَ مختلفةٍ.

قال الإمام السيوطي عن هذا العصر وعن هذا التدرّج في التفسير:

" ثم صنّف بعد ذلك قومٌ بَرَعُوا في علوم، فكان كلٌّ منهم يقتصر في تفسيره على الفنّ الذي يغلب عليه ، فالنحْوِي تراه ليس له همٌّ إلا الإعراب، وتكثير الأوجه المُحْتَمِلَة فيه ، ونقل قواعد النحو، ومسائله ، و فروعه ، و خلافياته كالزجاج ، والواحدي في البسيط ، و أبي حيان في البحر والنهر ؛ والإخباري ليس له شغلٌ إلا القصص ، و استيفائها،

(١)الإتقان:٢/٢٤٣

والإخبار عمّنْ سَلَفَ ، سواءٌ كانت صحيحةً أو باطلةً كالثعلبي ؛ و الفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمّهات الأولاد ، وربما استطرد إلى إقامة أدلّة الفروع الفقهية التي لا تعلُّقَ لها بالآيات ، و الجواب عن أدِلّة المخالفين كالقرطبي؛ وصاحب العلوم العقلية خصوصاً الإمام فخر الدين قد مَلَأَ تفسيرَه بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخَرَجَ من شيء إلى شيء حتّى يقضي الناظر العجبَ من عدم مطابقة المورد للآية . قال أبو حيّان في البحر : جَمَعَ الإمام الرازي في تفسيره أشياءَ كثيرةً طويلةً لاحاجة بها في علم التفسير ، ولذلك قال بعض العلماء : فيه كلُّ شيء إلا التفسير؛ والمُبْتَدِعُ ليس له قصد إلا تحريف الآيات و تسويتها على مذهبه الفاسد ، بحيث أنه متّى لاح له شاردةٌ من بعيد اقتنصها ،أو وَجَدَ موضعاً له فيه أدنى مجالٍ سَارَعَ إليه (١).

فصل
طبقات المفسرين

ممّا لا بد أن يؤخذ بعين الاعتبار أنّ اللّه تبارك وتعالى اخْتَارَ لتفسير كلامه، و تبيين مراده ، منْ كانتْ عنده مواهبُ و مؤهلاتٌ لحمل هذه الوظيفة العظيمة ، ومن له لياقةٌ وصلاحيةٌ لحيازة هذا المنصب الجليل، ومنْ كان مُسْتَوى علمِهِ عالياً وفائقاً على أقرانه وأمثاله ، ومن جَدّ وجَاهَدَ في سبيله ، ولم

يَـدَّخِـرُ الجُهدَ والوسعَ في هذا المجال، واحتَلَّ الأوّلويةَ في هذا المضمار. كيف لا وهـو كـلام اللّـه تبارك وتعالى الذي ﴿ **لايَـأْتِيْـهِ الْبَـاطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَامِنْ خَلْفِهٖ، تَنْزِيْلٌ مِنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ** ﴾

الطبقة الأولى

الصحابة

وكـان أوّل مصداقه الصحابة رضي اللّٰه عنهم، الذين كانوا بالتفقّه والتعلّم مُغرمين، وبالبحث والتنقيب مُولعين، و بكلام اللّٰه ورسوله مشغوفين.

(١) الإتقان:٢/٢٤٤

فـاشُتَهَـرَ مـنهـم عشرةٌ : وهم الخلفاء الأربعة، وعبد اللّٰه بنُ مسعود، وعبد اللّٰـه بن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد اللّٰه بـن الزبير. وهناك من تكلّم في التفسير من الصحابة غيرُ هؤلاء: كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وعبد اللّٰه بن عمر، وجابر بن عبد اللّٰه، وعبد اللّٰه بن عمرو بن العاص، وعـائشة رضـي اللّٰـه عنهم، غيرَ أنّ ما نُقِلَ عنهم في التفسير قليلٌ جِدّاً، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول في القرآن ما كان للعشرة المذكورين.

أمّـا الـخـلـفـاء فـأكثـرُ من رُوِيَ عنه منهم: عليُ بن أبي طالب، والرواية عن الثـلاثة نـزرة جدّاً. فالمحفوظ عن أبي بكر ﷺ فـي التـفسير آثارٌ قليلةٌ جداً لا تكاد تـجاوز العشرةَ، وأما علي ﷺ فـرُوِيَ عنه الكثيرُ، وكان السببُ في ذلك تقدّم وفاة الـخلفاء الثلاثة، واشتغالهم بأمور الخلافة، و بمَهَامّ الفتوحات، ومع ذلك أنّه كان فـي وَسَـطِهـم كثيرٌ من علماء الصحابة وفقهائهم الذين كانُوا عالِمِيْن بكتاب اللّٰه، واقِـفِيْن على اسراره، عارِفِيْن بمعانيه و أحكامه مِمّا جَعَلَ الحاجةَ إلى الرجوع إليهم في التفسير غيرَ كبيرة (١).

وسـنتـكـلّـم فيـمـا يـلي عن المُكْثِرِيْن من الصحابة في التفسير نظراً لكثرة الـرواية عـنهـم فـي التفسير، وهم عليٌّ بن أبي طالب، وعبدُ اللّٰه بن مسعود، و عبدُ اللّٰه بن عباس، وأبيٌّ بن كعب.

❁ أمير المؤمنين عليٌّ بن أبى طالب ﷺ

هو أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب ﵁ ، وقد امتازَ من بين الصحابة بخُصُوبَة الفكر و غزارة العلم، وقد عاشَ ﵁ بعد الخلفاء الثلاثة حتّى اشتدّتِ الحاجةُ للناس إلى مفسّر يُفسّر لهم القرآنَ الكريم ، لأنّ رُقُعَة الإسلام إلى زمانه قد اتّسَعَتْ ، ودُخول الأعَاجِم فيه قدكَثُرَ ، فلاجَرَمَ كان ما نُقِلَ عن علي بن أبي طالب أكثرَ ممّا نُقِلَ عن غيره .

رُوِيَ عن معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال: شَهِدتُ علياً ﵁ يخطب ويقول : سَلُوُنِيُ ، فواللّهِ لا تسألوني عن شيءٍ إلا أخبرتُكم ،

(١)الإتقان:٢٣٩/٢، مناهل العرفان : ١٨/٢ ، والتفسير والمفسرون : ٦٣/١

سَلُوُني عن كتاب اللّه ، فواللّهِ ما من آيةٍ إلا وأنا أعلَمُ ، أبِلَيْلٍ نَزَلَتْ أم بنهارٍ ؟ أفي سهلٍ أم في جبلٍ؟ (١)

وأخرج ابنُ سعد وأبو نعيم عن علي ﵁ قال: واللّهِ ما نزلت آيةٌ إلا وقد علمتُ فِيْمَ أُنْزِلَتْ و أينَ أنزِلَتْ ؟ إنّ ربّي وَهَبَ لي قلباً عَقُوُلاً، و لِساناً سَئوُوُلاً (٢).

وممّا لا بدّ من الاعتناء به في هذا المقام أنّ ما صحّ عن علي ﵁ في التفسير قليلٌ بالنسبة لِمَا وُضِعَ عليه ، والآفةُ فيه من الشيعة المُتَطَرِّفَة الذين تَجَاوَزُوا الحدَّ في حُبّ علي بن أبي طالب ﵁ ، وأفْرَطُوا في مدحه . وقصدُهم بذلك ترويجُ مذهبهم الباطل وظنِّهم الفاسد ، وهذا هو الوجه في عدم اعتماد أصحاب الصحاح على ما رُوِيَ عنه من التفسير.

وأمّا ما صَحَّ و ثَبَتَ عنه فهو من طريق الأثبات من أهل بيته، أو من أصحاب ابن مسعود، كعبيدة السلماني، و شُرَيح وغيرهما.

وممّا تجدرُ إليه الإشارةُ أنّ من أهمّ وأصحّ الطُرُق عن علي بن أبي طالب ﵁ هو الذي اعُتَمَدَ عليه الأئمةُ ، وهوما يلي:

١ – قال عليٌّ بن المديني، وعمرو بن علي الفلاس، و سليمان بن حرب : أصحُّ الأسانيد محمد بن سيرين عن عبيدة عن علي ، ثم اختلف سليمان و ابن المديني : فقال سليمان :أجودُها أيوب السختياني عن ابن سيرين ، وقال ابن المديني: عبدُ

اللّه بن عون عن ابن سيرين(٣).

قلتُ: وعبيدة هـذا هو عَبيدة (بفتح العين) بن عمرو السلماني من تلامذة عبد اللّه بن مسعود، وسيأتي ترجمته.

٢- قال عبد الرزاق وابن أبي شيبة : أصحّ الأسانيد: الزُّهري عن علي بن

(١) الإصابة :٥٠٩/٢، وتهذيب التهذيب:٣٣٨/٧، و الإتقان:٢٣٩/٢

(٢) حلية الأولياء :٦٨/١، و الطبقات الكبرىٰ لابن سعد: ٢٢٨/٢

(٣) انظر:مقدمة ابن الصلاح: ٧ ، و تدريب الراوي:٣٥/١، و فتح المغيث:١/ ٣٦،وعلوم الحديث للحاكم: ٦٨، تهذيب التهذيب:٧٨/٧

الحسين عن أبيه عن علي(١).

٣- قال الحاكم: أصح أسانيد أهل البيت : جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي إذا كان الراوي عن جعفر ثقةً (٢).

قال السيوطي: هذه عبارة الحاكم ، ووافقه من نقلها وفيها نظر، فإنّ الضمير في جدّه إن عاد إلى جعفر، فجدُّه عليٌّ لم يسمع من علي بن أبي طالب، أو إلى محمد فهو لم يسمع من الحسين (٣).

٤- وقال أحمد بن حنبلؒ : ليس بالكوفة أصحُّ من هذا الإسناد : يحيى بن سعيد القطان عن سفيان الثوري عن سليمان التيمي عن الحارث بن سويد عن علي(٤).

٥- عبد الرحمن الأعرج عن عبيد اللّه بن أبي رافع عن علي ، قال الترمذي : سمعتُ سليمان بن داوٗد الهاشمي يقول: هذا عندنا مثل حديث الزهري عن سالم عن أبيه (٥).

❁ عبد اللّٰه بن مسعود رضي الله عنه

وممّن رُوِيَ عنهم التفسيرُ من الصحابة ، وبَرَز منهم في ذلك عبدُ اللّه بن مسعود رضي الله عنه ، وقد رُوِيَ عنه- كما يقوله السُّيوطي- أكثرُ ممّا رُوِيَ عن علي رضي الله عنه .

وأخرج ابنُ جرير الطبري و غيره عن ابن مسعود ﷺ قال: والذي لا إله غيره ما نَزَلَتُ آيةٌ من كتاب اللّٰه إلا وأنا أعْلَمُ فِيمَنْ نَزَلَتْ و أينَ نَزَلَتْ، ولو أعلمُ مكانَ أحدٍ أعلم بكتاب اللّٰه منّي تناله المطايا لأتيتُه (٦).

(١) انظر: معرفة علوم الحديث: ٦٧، فتح المغيث:١/ ٣٦ ، مقدمة ابن الصلاح: ٧ ،تدريب الراوي:٣٥/١ ، رسائل في علوم الحديث للنسائي:٦٨

(٢) انظر: معرفة علوم الحديث للحاكم: ٦٩، والنكت على ابن الصلاح لابن حجر: ٢٥٦/١

(٣) تدريب الراوي: ٣٨/١

(٤) النكت على ابن الصلاح لابن حجر : ٢٥٥/١، و تدريب الراوي: ٣٩/١

(٥) الجامع للترمذي، كتاب الدعوات ، باب ما جاء عند افتتاح الصلاة بالليل،وانظر أيضاً النكت على ابن الصلاح : ٢٥٦/١

(٦) تفسير الطبري: ٦٠/١

و أيضاً أخرج عن مسروق قال: كان عبد اللّٰه يقرأ علينا السورةَ ، ثم يُحدِّثُنا فيها و يُفَسِّرُها عامةَ النهار (١).

وعن مسروق قال: وجدتُ أصحابَ محمد ﷺ مثلَ الإخاذ يُرْوِي الواحدَ، والإخاذ يُرْوِي الاثنين، والإخاذ يُروِي العشرةَ ، والإخاذ يُروِي المائةَ، والإخاذ لو وَرَدَ عليه الناسُ أجمعُون لأصدرهم ، وإنّ عبد اللّٰه بن مسعود من تلك الآخاذ (٢).

وأخرج أبو نعيم عن أبي البختري قال: قالوا لعلي ﷺ: أَخْبِرُنَا عن ابن مسعود ﷺ ؟ قال: علم القرآن والسُّنة، ثم انتهىٰ وكفىٰ بذلك علماً (٣).

من هذه الآثار يتّضحُ لنا من مقدار حرص ابن مسعود على تفهُّم كتاب اللّٰه، والوقوف على معانيه ، والإحاطة بعلومه ما لا يخفىٰ.

ومن رُوَاتِه مسروقُ بن الأجدع الهمداني، وعلقمة بن قيس النخعي، و الأسود بن يزيد، و غيرهم. وأمّا الطُرُق المروية عنه ،التي اعتمد عليها الأئمةُ فما يلى :

١ - قال ابن المبارك، ووكيع، والعجلي: أرجح الأسانيد وأحسنها : سُفيان بن سعيد الثوري عن منصور بن المعتمر عن إبراهيم بن يزيد النخعي عن علقمة بن قيس النخعي عن عبد اللّٰه بن مسعود ﷺ (٤).

٢- قال يحيى بن معين: أصحّ الأسانيد: الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله رضي الله عنه(٥).

٣- الأعمش عن أبي الضُحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وهذه الطريق من أصحّ الطُرُقِ وأسْلَمِهَا، وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه (٦).

---

(١) تفسير الطبري: ٦٠/١
(٢) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي: ١٦١/١، تفسير القرطبي: ٣٥/١
(٣) الإتقان: ٢٣٩/٢
(٤) معرفة علوم الحديث للحاكم: ٧٠، والنكت على ابن الصلاح: ٢٥٣/١
(٥) معرفة علوم الحديث: ٦٨، مقدمة ابن الصلاح: ٧، والتقريب للنووي مع التدريب: ٣٥/١، وفتح المغيث: ٣٧/١، و تهذيب التهذيب: ٢٢٥/٤
(٦) التفسير والمفسرون: ٨٧/١

٤- طريق مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود، وهذه أيضاً طريقٌ صحيحةٌ لا يعتريها الضعف، وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه أيضاً (١).

٥- طريق الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود، وهذه أيضاً طريقٌ صحيحةٌ يُخْرِجُ البخاري منها (٢).

٦- طريق سفيان عن منصور عن إبراهيم عن عبد الله بن مسعود، وهذه الطريق أيضاً صحيحةٌ، قال عبد الله بن هاشم: خرج علينا وكيع يوماً، فقال: أيّ الإسنادين أحبُّ إليكم؟ الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله، أو سفيان عن منصور عن إبراهيم عن عبد الله بن مسعود؟ فقلنا: الأعمش؛ فإنّه أعلى. فقال: بل الثاني؛ فإنّه عن فقيهٍ عن فقيهٍ عن فقيهٍ عن فقيهٍ، والآخر عن شيخٍ عن شيخٍ، وحديثٌ يتداوله الفقهاء خيرٌ من حديث يتداوله الشيوخ (٣).

٧- طريق السُّدي الكبير عن مُرَّة الهمداني عن ابن مسعود رضي الله عنه، وهذه الطريق يُخْرِجُ منها الحاكمُ في مستدركه، و يُصَحِّحُ ما يُخْرِجُه، وكذا يُخْرِجُ ابنُ جرير منها في تفسيره أشياءً (٤).

❁ أبيُّ بن كعب رضي الله عنه

ومِنَ المُبَرِّزِيْن من الصحابة في علوم القرآن والتفسير أُبّي بن كعب رضي الله عنه،

وهـو أيـضاً من المُكْثِرِيْن في التفسير ومن المشهورين في القراءة ، وهو من أعلم الـصحابة بكتاب اللّٰه تعالى حتّى كان عُمَر رضي الله عنه يسألُه عن النوازل ، و يَتَحَاكَمُ إليه في المُعْضَلات ، و قال له النبي ﷺ: لِيُهَنِّئكَ العلم يا أبا المنذر(٥) .

وأمّا الطُرُق الصحيحة التي رُوِيَتُ عنه فقليلةٌ جدّاً، على حين أنّه كَثُرَتِ الـروايةُ عنه في التفسير، وذلك لأنه كغيره من الصحابة لم يسلم من الوضع عليه ، فالطريق الصحيحة عنه :

---

(١) التفسير والمفسرون: ٨٧/١
(٢) التفسير والمفسرون: ٨٧/١
(٣) سير أعلام النبلاء: ١٥٨/٩ ،المدخل إلى السنن الكبرى: ٩٥/١، معرفة علوم الحديث: ١١/١
(٤) انظر الإتقان: ٢٤٢/٢، و التفسير والمفسرون: ٨٩/١
(٥)الإصابة: ١٩/١

١- طريق أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال السيوطي : فعن أُبَيّ نسخةٌ كبيرة يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عنه ، وهذا إسنادٌ صحيحٌ ، وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم منها كثيراً، وكذا الحاكم في مستدركه وأحمد في مسنده (١).

قلتُ: كذا قال : وهذا إسنادٌ صحيحٌ ، وقد تكلّم الأئمةُ في أبي جعفرالرازي هذا ، قال أحمد: ليس بقويٍّ في الحديث ، وعن ابن معين قال مرةً : كان ثقةً ، وقال مرةً: يكتب حديثه ، ولكنه يخطىء، وقال علي بن المديني: هو ثقة عندنا ، وقال عمرو بن علي: فيه ضعفٌ، وهو من أهل الصدق سيء الحفظ ، وقال أبو زرعة : شيخٌ يَهِمُ كثيراً (٢).

على هذا فالأَوْلى عندي أن يُقَالَ: إنّ هذا إسنادٌ حَسَنٌ . واللّٰه أعلم.

٢- طريق وكيع عن سفيان عن عبد اللّٰه بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبي بن كعب رضي الله عنه، وهذه يُخَرِجُ منها الإمامُ أحمد في مُسنده، و هو أيضاً على شرط الحسن ؛ فإنّ عبد اللّٰه بن محمد هذا وإن كان صدوقاً فقد تكلّم فيه من جهة حفظه(٣).

۞ عبدُ اللّٰه بن عباس رضي الله عنه

ومِـمَّـن بَـرَزَ مـن الـصـحـابة فـي التـفسير عبد اللّٰه بن عباسص، وهو أكثر الـصـحابة تفسيراً، وهو ترجمانُ القرآن كما جاءَ عن ابن عباس نفسِهِ أن النبي ﷺ قال: نعم ترجمان القرآن أنتَ (٤).

ودَعَا له النبيُّ ﷺ بقوله : اللّٰهم فَقِّهُهُ في الدين وعَلِّمُهُ التأويل(٥).

ورُوِيَ أنّ رجلاً أتـى ابـنَ عـمـر يسـأله عن قوله تعالىٰ ﴿ أَنَّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ

(١) الإتقان: ٢٤٢/٢

(٢) انـظـر: تهـذيـب التهـذيـب: ٥٧/١٢، وسيـر أعـلام الـنبـلاء:٣٤٧/٧، والمغني في الضعفاء:٥٥٠/٢

(٣) انـظـر:الـجـرح والتعديل: ١٥٣/٥، والضعفاء والمتروكين: ١٤٠/٢، والكامل لابن عدي:٢٨/٤، وتهذيب التهذيب: ١٤/٦-١٥

(٤) رواه الديلمي في مسند الفردوس :٢٥١/٤

(٥) رواه أحـمـد:٢٢٧٤،والـلـفـظ لـه والبـخـاري:٨٠، و١٤٠، ومسـلـم:٤٥٢٦، والترمذي:٣٧٦٠

كَـانَتَـا رَتْـقًـا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبيـاء:٣٠] فـقـال: اذْهَـبْ إلى ابن عباس، ثم تعال، فأخبرني، فذهب فسأله ، فقال : كانت السموات رتقاً لا تُمطِرُ وكانتِ الأرض رتقاً لا تُـنبِـتُ ، فـفتق هذه بالمطر و هذه بالنبات . فرجع إلى ابن عمر فأخْبَرَه ، فقال: قد كـنـتُ أقُـوْلُ مـا يُـعْجِبُنِي جراءةُ ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمتُ أنّه أُوْتِيَ علماً (١).

وفـضـائـلُه كثيرةٌ ، ذَكَـرَ طـرفـاً مـنـهـا ابـن حـجرالعسقلاني في الإصابة، والسيـوطـي فـي الإتـقـان، وأمّـا التفسير المنقول عنه فهو كثيرٌ لا يُحصىٰ ولذلك وجوهٌ عديدةٌ :

١- تأخُّر زمانه حتى اشتدّتْ حاجة الناس إلى من يُؤْخَذُ عنه التفسير .

٢- اتّساع دائرة الإسلام وكثرة دخول الأعاجم فيه.

٣- تفرُّغ ابن عباس للنشر والدعوة والتعليم .

وأمّـا الـطُّـرُقُ الـمـروية عنه في التفسير فكثيرةٌ ، ولكن تجب الحِيْطَةُ فيما عُزِيَ إلى ابن عباس رضي الله عنه مـن التـفسيـر، فإنّه قدكثر عليه فيه الدسُّ والوضعُ ، ولقد

قال الخليلي في كتابه: " الإرشاد ":

"وهـذه التـفاسير لكتاب اللّٰه الطوال التي أسندوها إلى ابن عباس غيرُ مـرضيّة ، ورُوَاتُها مجاهيلُ ، كتفسير جُوَيْبِر عن الضحاك عن ابن عباس، وعـن ابـن جريج في التفسير جماعةٌ رووا عنه ، وأطولُها ما يرويه بكر بن سهـل الـدميـاطـي عن عبد الغني بن سعيد عن موسىٰ بن محمد عن ابن جريج ، وفيه نظر (٢).

وأمّا الطُرُق الصحيحة الجيّدة عنه فما يلي:

١- طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وهذه الطريق مـن جيّـد الـطُـرُق التـي رُوِيَـتُ عـنه، قال الإمام أحمد : بمصرَ صحيفةٌ في تفسير، رواهـا عـلي بن أبي طلحة ، لو رَحَلَ رجلٌ فيها إلى مصرَ قاصداً ، ما كان كثيراً، وفي

(١) الإصابة: ٣٣٢/٢، الإتقان: ٢٤٠/٢

(٢) الإرشاد للخليلي: ٣٩١/١ - ٣٩٢

رواية قال : من رَحَلَ من طالبي التفسير لتحصيلها لا يُعَدُّ كثيراً (١).

وقـال ابـن حـجـر : وهـذه الـنسـخة كانتُ عند أبي صالح كاتب الليث ، رواهـا عـن مـعـاوية بـن صـالـح عـن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وهي عند البـخـاري عـن أبي صالح، وقد اعْتَمَدَ عليها في صحيحه كثيراً فيما يُعَلِّقُه عن ابن عباس،وقال قوم : لم يسمع ابن أبي طلحة من ابن عباس التفسير ، وإنّما أخذه عن مـجـاهـد أو سـعيـد بن جبير ، قال ابن حجر: بعدَ أن عُرِفَتِ الواسطةُ وهو ثقةٌ فلا ضيرَ في ذلك(٢).

٢- طـريـق قيـس عـن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه ، و هذه أيضاً من جيد الطرق عن ابن عباس رضي الله عنه ، وهي على شرط الشيخين، و كثيراً ما يُخْرِجُ منها الفريابي والحاكم في مستدركه (٣).

٣- طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت عن عكرمة أوسعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه،وهـي طـريق جيّدة ، وإسناده حَسَنٌ، وقد أخرج منها ابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم كثيراً ، وفي معجم الطبراني الكبير منها أشياء (٤).

ويقول الخليلي في الإرشاد :

"ورَوٰى محمد بن ثور عن ابن جريج أي عن ابن عباس نحوَ ثلاثةِ أجزاءٍ كبارٍ، وذلك صحّحُوه ، ورَوَى الحجاج بن محمد عن ابن جريج نحوَ جزءٍ ، وذلك صحيح متفق عليه؛ وتفسير شبل بن عباد المكي عن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ﵄ قريب إلى الصحة ؛ وتفسير عطاء بن دينار يُكْتَبُ و يُحْتَجُّ به ؛ وتفسيرُ أبي روق نحو جزء صحّحوه ؛ وتفسير إسماعيل السُّدي (أي السُّدي الكبير) يورده بأسانيد إلى ابن مسعود وابن عباس ؛ ورَوٰي عن السُّدي الأئمةُ مثل الثوري وشعبة ، لكن التفسير الذي جَمَعَهُ رواه أسباط بن نصر، و أسباط لم يتّفِقُوا عليه ،

(١) طبقات المفسرين لأحمد الأدنروى:٢٤/١، والإتقان:٢٤١/٢

(٢) الإتقان :وانظر فتح الباري:٤٣٨/٨

(٣) الإتقان:٢٤٢/٢

(٤) الإتقان:٢٤٢/٢

غير أن أمثل التفاسير تفسير السُّدي ، فأمّا ابن جريج فإنّه لم يقصد الصحةَ، وإنّما رَوٰى ما ذُكِرَ في كل آيةٍ من الصحيح والسقيم، وتفسير مقاتل بن سليمان فمقاتل في نفسه ضعّفُوه ، وقد أدرك الكبارَ من التابعين ، والشافعي أشَارَ إلى أن تفسيره صالح " (١).

قيمة التفسير المنسوب إلى ابن عباس ﵄

ومـمّا يلائم الموضوعَ أنّ يُعْلَمَ أنه يُنْسَبُ إلى ابن عباس جزءٌ كبيرٌ فيالتفسير ، ويُطْبَعُ هذا الجزء منسوباً إلى ابن عباس ، باسم " تنوير المقياس من تفسير ابن عباس" ، وهو مِنُ جمع محمد بن يعقوب الفيروزآبادى صاحب القاموس المحيط، ولكن الطريق التي رُوِيَ عنها هذا التفسيرُ إلى ابن عباس ضعيفةٌ جداً، حتّى أُطْلِقَ عليه أنّه من سلسلة الكذب ، فإنّه رُوِيَ هذا التفسير عن محمد بن مروان السُّدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، كما هو مذكورفيه عند الكلام عن البسملة ، وقد قال الأئمة من أهل الحديث : وأوهٰى طُرُق ابن عباس طريق الكلبي عن أبي صالح عنه ، فإنّ

انضمّ إلى ذلك رواية محمد بن مروان السُّدي الصغير فهي سلسلة الكذب لا سلسلة الذهب (٢).

فالواجب الحِيُطَةُ والحذرُ في انتسابه إلى ابن عباس ﷺ، فإنّه يَبْدُوُ لمن ألقىٰ نظرةً فاحصةً على ذلك التفسير المنسوب إلى ابن عباس أنّه من دسيسة الوضّاعين، بالرغم من أنّ له قيمةً علميةً في دوائر علمية في الغالب بصرف النظر عن وضعه، والدليل على وضعه على ابن عباس أنّه ذُكِرَتُ فيه أقوالٌ في التفسير نجد ونلمس فيها التناقضَ ظاهراً، ولا يمكن بينها التطبيق والتوفيق، و هذا أكبرشهادةٍ على وضعه على ابن عباس، واللّه أعلم.

عبد اللّه بن عمرو بن العاص ﷺ

وهو من الصحابة الذين اشتهروا وبَرَزُوا في التفسير، وله فضائلُ كثيرةٌ ليس هذا موضع ذكرها، وروى أحمد والبغوي من طريق واهب

(١) الإرشاد للإمام الخليلي: ٣٩٢/١ - ٣٩٨
(٢) انظر:تدريب الراوي: ١٨١/١، والإتقان: ٢٤٢/٢، كشف الظنون: ٤٢٩/١

المعافري عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص ﷺ قال: رأيتُ فيما يَرَى النائمُ كأنّ في إحدى يدي عسلاً وفي الأخرى سمناً، وأنا ألعقُهما، فذكرتُ ذلك للنبى ﷺ فقال: تقرأ الكتابين: التوراةَ والقرآنَ، وكان يَقُرَأُهما. قال ابن حجر:في سنده ابن لهيعة (١).

وقد ذكرنا في ما سبق كلامَ ابن حجر في " نكته على ابن الصلاح ": أنّ عبد اللّه بن عمرو بن العاص حصل له في وقعة اليَرُمُوك كُتُبٌ كثيرةٌ من كُتُب أهل الكتاب، فكان يُخبِرُ بما فيها من الأمور المغيبة حتّى كان بعض الصحابة ربما قال له: حَدِّثُنَا عن النبي ﷺ ولا تُحَدِّثُنَا عن الصحيفة (٢).

وقال هو في فتح الباري شرح البخاري: إنّ عبد اللّه قد ظفر في الشام بحَمَلٍ من كُتُب أهل الكتاب، فكان ينظر فيها ويُحدِّثُ منها، فتَجَنَّبَ لأخذٍ عنه لذلك كثيرٌ من أئمة التابعين (٣).

وإيّـاك أن تـفهـم مـن هذا ما يجعلك تخوض مع الخائضين في عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص ﷺ، والذين سَلَكُوه في سلك الذين تَظَاهَرُوا بالإسلام، ثمّ كادوا لـه شـرَّ الـكيـد، و مَـكـرُوا للمسلمين؛ حتى ضَلَّلُوهُم ، نـعـوذ بـاللّٰه من سوء الظنّ بالصحابة والسلف الصالح . قال الواقدي: ماتَ بالشام سنةَ خمس وستين (٤) .

الطبقة الثانية

التابعون

والـطبـقة الثـانية مـن أهـل التـفسيـر هي طبقة التابعين رحمهم اللّٰه تعالى، ونستطيع أن نُقسّمهم على طبقاتٍ ثلاثٍ، الأولى :طبقة أهل مكة ، والثانية : طبقة أهل المدينة ، والثالثة : طبقة أهل العراق .

(١)الإصابة:١٩٣/٤
(٢) النكت على ابن الصلاح : ٢/ ٥٣٢- ٥٢٣
(٣) فتح الباري:٢٠٧/١
(٤) انظر ترجمته في الإصابة:١٩٢/٤-١٩٣

طبقة أهل مكة المُكرّمة

لا يـخفى عليكم أنّه كان أَقَامَ ابن عباس ﷺ مـدرسةً بمكة المكرمة لنشر عـلـوم الـقـرآن والـحـديـث ، وكـان هـو يجلس فيها لأصحابه يُفَسِّرُ لهم القرآنَ الـكـريـم، و يُـحـدِّثُ لهـم الأحاديثَ النبوية ، وكان له تلاميذ من أعلام التابعين، فـكانوا يتعلّمون منه التفسيرَ وعلومَه ؛ و يسمعون منه الأحاديثَ النبويةَ ؛ ويروون لـمـن بـعدهم ما تعلّموا وسَمِعُوا وحَفِظُوا عنه . ومن أشهر رجال هذه المدرسة : سـعيـد بـن جبيـر ، ومـجـاهد بن جبر ، و عكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، وطاؤس بن كيسان اليماني ، وغيرهم من الأعلام الأثبات الثقات .

قـال ابـن تيمية: وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة ؛ لأنّهم أصحاب ابـن عبـاس ،كمجاهد، وعطاء بن أبي رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاؤس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم (١).

وها نحن نَذْكُرُ طرفاً من فضائل أشهر رجال هذه المدرسة ليتّضح لنا مكانتَهم في التفسير ومقدار الثقة بهم والاعتماد عليهم .

سعيد بن جبير ؒ

هوأبو محمد أو أبو عبد اللّه ، سعيد بن جبير بن هشام الأسدي ، سمع جماعةً من الصحابة ، وقُتِلَ شهيداً في شعبان سنةَ خمس و تسعين، وله تسع و أربعون سنةً على الأشهر، كان أحدَ الأعلام، فقيهاً، فاضلاً ، عابداً، ورعاً، ثقةً ، حجةً ، ويُقَالُ له :جهبذ العلماء؛ حتى أنّ ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه، كان يقول: أليس فيكم سعيد بن جبير؟

وقال عمرو بن ميمون عن أبيه: ماتَ سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحدٌ إلا وهو محتاجٌ إلى علمه، وقرأ القرآن على ابن عباس . قال سعيد بن جبير: ربما أتيتُ ابنَ عباس، فكتبتُ في صحيفتي حتى أملأها ؛ ثم كتبتُ في نعلي حتى أملأها ؛ ثم كتبتُ في كفّي(٢).

(١) فتاوىٰ: ٣٤٧/١٣

(٢)انظر: تذكرة الحفاظ: ٧٦/١ ، سيرأعلام النبلاء: ٣٢١/٤ -٣٤٠، وتهذيب التهذيب :٤/ ٢- ١٤

مجاهد بن جبر ؒ

هوأبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي، المُقْرِي، المفسّر، كان أحدَ الأعلام الأثبات ، كانت ولادته سنة إحدى وعشرين من الهجرة ؛ و وفاته سنة أربع و مائة على الأشهر، وكان من أوعية العلم ، سمع سعداً ، و عائشةَ ، و أبا هريرة ، وأمَ هاني ، وعبدَ اللّٰه بن عمر، وعبد اللّٰه بن عباس، ولزمه مدةً ، وقرأ عليه القرآن ، وعَرَضَ عليه القرآنَ ثلاثَ عرضاتٍ يَقِفُ عند كلِّ آيةٍ يسأله : فيمَ نزلتُ؟ وكيف نزلت ؟

وعن الفضل بن ميمون سمعتُ مجاهداً يقول: عرضتُ القرآنَ على ابن عباس ثلاثين مرةً، و قال قتادة :أعلم ممّن بقي بالتفسير مجاهد . وقال ابن جريج :لأن أكون سمعتُ من مجاهد أحبّ إلى من أهلي و مالي . وقال عبد السلام بن حرب عن مصعب :كان أعلمهم بالتفسير مجاهد ؛ وبالحج عطاء . و قال ابن

حِبَّان: كـان فـقيهاً، ورعاً، عابداً، متقنا، وقال ابن سعد : كان ثقةً ، فقيهاً، عالماً ، كثيرَ الحديث.

وكـان مـجـاهد من أوثق أصحاب ابن عباس، وإن كان أقلَّ روايةً عنه في التـفسيـر، لـذلك نـجـد الأئـمة كـالإمـام الشـافـعي، والإمام البخاري، وغيرهم ، اعتَـمَـدُوا عـلى تفسيره. وكذا نَجدُ الإمامَ البخاريَ يَنقُل في صحيحه من تفسيره أشيـاءً كثيـرةً ، وهذا من أكبر شهادة على ثقاهة مجاهد وعدالته عنده . وقد وَثَّقَه الأئـمةُ مـن أئـمة هـذا الشـأن كـابن معين، و أبي زرعة، والثوري، والعجلي، وابن حبـان ، وابـن سـعـد، وغيـرهـم . ومع ذلك كله فكان بعض الأجلة من العلماء لا يـأخـذ بتـفسيـره، والاعتـذارُ منهم في ذلك يُؤخَذُ ممّا نُقِلَ عن أبي بكر بن عياش قال: قلتُ للأعمش ما لهم يقولون تفسيرمجاهد ؟ قال: كانوا يرون أنّه يَسْأَلُ أهلَ الكتاب.

وقـال الذهبي: ومن أنكر ما جاء عن مجاهد في التفسير في قوله تعالى: ﴿ **عَسٰى أَنْ يَّبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقَامًا مَحْمُوْداً** ﴾ [الإسراء:٧٩] قال: يجلسه معه على العرش.

وهـذا هو غاية ما أُخِذَ على تفسيره: الأوّل أخذه من أهل الكتاب، والثاني مـاجـاءَ عـنـه مـخـالفاً لِمَا عليه السَلَف . وأما صِدقُه، و ثقاهته، وأمانته، و إمامته، فـمسلَّم لا كلام فيه لأحدٍ . لذا قال النباتي كما في الميزان للذهبي : ذُكِرَ مجاهد فـي كتاب الضعفاء لابن حبان، ولـم يَذْكُرُهُ أحدٌ ممّن أَلَّفَ في الضعفاء، ومجاهد ثقة بلا مدافعة (١).

عكرمة رحمه الله مولى ابن عباس

هو أبو عبد اللّٰه عكرمة البربري المدني الهاشمي مولى ابن عباس ، روى عن مولاه ، وعائشة ، وأبي هريرة ، وعـقبة بن عامر، وأبي سعيد، وعلي بن أبي طالب ، وغيـرهـم . قال العباس بن مصعب المروزي : كان عكرمة أعلم شاكردى (كلمة فارسية معناها تلاميذ) ابن عباس بالتفسير وكان يدور البلدان يتعرض .

وقـال داوُد بـن أبـي هـنـد عـن عـكـرمة : قرأ ابن عباس هذه الآية : ﴿ **لِمَ تَعِظُوْنَ قَوْمًا اللّٰهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيْدًا** ﴾ [الاعراف:١٦٣] قال ابن

عباس: لم أدرِ نجا القوم أو هَلَكُوا ، قال: فما زلتُ أبَيِّنُ له حتى عرف أنهم قد نجوا ، فكساني حلةً.

وقال الفرزدق بن جواس : كنّا مع شهر بن حوشب بجرجان ، فقَدِمَ علينا عكرمةُ ، فقلنا لشهر: ألا نأتيه ؟ فقال: ائتوه ، فإنّه لم يكن أمة إلا كان لها حبر، و أن مولى ابن عباس حبر هذه الأمة . وقال جريرعن مغيرة : قيل لسعيد بن جبير : أتعلم أحداً أعلمَ مِنُك ؟ قال : نعم ، عكرمة.

وعن قتادة قال : كان أعلم التابعين أربعة :عطاء ، و سعيد بن جبير، وعكرمة ، و الحسن . وعنه قال: أعلمهم بالتفسير عكرمة، وقال الشعبي: ما بقي أحدٌ أعلم بكتاب اللّه من عكرمة . وقال الحبيب بن أبي ثابت : اجتمع عندي خمسة : طاؤس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة ، وعطاء ، فأقبل مجاهد وسعيد بن جبير يلقيان على عكرمة التفسير، فلم يسألاه عن آية إلا فسّرها ، فلما نفد ما عندهما جَعَلَ يقول: أُنْزِلَتُ آية كذا في كذا ، و أُنْزِلَتُ آية كذا في كذا . وقال زيد بن الحباب سمعتُ سفيان الثوري بالكوفة يقول: خذوا التفسير عن أربعة ، فذكر فيهم عكرمة، وقال يحيى بن أيوب المصري : سألني ابن جريج هل كتبتم عن عكرمة ؟

(١)ميزان الاعتدال :٢٥/٦- ٢٦ ،تهذيب التهذيب: ٤٢/١٠- ٤٣ ،تذكرة الحفاظ: ٩٢/١

فقلت : لا ، قال : فاتكم ثلثا العلم .

وقد اختلف في توثيقه وتضعيفه أئمةُ الجرح والتعديل، فمنهم من يضعِّفُه ولا يَرُوِيَ له، ومنهم من يوثِّقُه ويَرُوِي له. وأما أقوال من وَهَّاهُ فمدارُها على ما قال الحافظ ابن حجر على ثلاثة أشياء: على رميه بالكذب ، وعلى الطعن فيه بأنّه كان يَرٰى رأيَ الخوارج ، وعلى القدح فيه بأنّه كان يقبل جوائزَ الأمراء، فهذه الأوجه الثلاثة التي يدورُ عليها جميعُ ما طُعِنَ به فيه، ولكن الحق الذي لا محيدَ عنه هو أنه لا أساسَ لهذه المطاعن من الصحة . وقد أجاب عنها جماعةٌ من الأئمة والعلماء ؛ وصنّفُوا في الذبّ عن ذلك كأبي جعفرالطبري، ومحمد بن نصر المروزى ، و أبي عبد اللّه بن مندة ، و أبي حاتم بن حبان، و ابن عبد البر، وغيرهم، وذَكَرَ كلامَ هؤلاء الأئمة في الذبِّ عن هذه المطاعن الحافظُ ابنُ

حجر العسقلاني في كتابه "تهذيب التهذيب"، ولخّصه في "الهدي الساري مقدمة فتح الباري" فإن شئتَ التفصيلَ والتحقيقَ فراجع إليهما .

وأما الذين وثّقوه و صدّقوه فهم كثيرون ،كما قال المروزي : أجمع عامة أهل العلم على الاحتجاج بحديث عكرمة واتفق على ذلك رؤساء أهل العلم بالحديث من أهل عصرنا، منهم أحمد بن حنبل، واسحق بن راهويه، وأبو ثور، و يحى بن معين . ولقد سألتُ إسحاق عن الاحتجاج بحديث عكرمة ، فقال: عكرمة عندنا إمام أهل الدنيا، وتعجّبَ من سوالي إيّاه، وقال البخاري : ليس أحد من أصحابنا إلا احتجّ بعكرمة . وقال عثمان الدارمي : قلتُ لابن معين : أيما أحبُّ إليك عكرمة عن ابن عباس أو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عنه ؟ قال: كلاهما ، ولم يختر، قلتُ: فعكرمة أو سعيد بن جبير ؟ قال: ثقة ، ثقة ، ولم يختر .

وقال ابن مندة : أمّاحال عكرمة في نفسه فقد عَدَّلَه أمّةٌ من التابعين ومن بعدهم ، وروى عنه منهم زيادة على سبعين رجلاً من خيار التابعين ورفعائهم، و هذه منزلة لا تكاد تُوجَدُ منهم لكبيرأحد من التابعين ، على أن منْ جَرَحَه من الأئمة لم يُمسِكْ عن الرواية عنه ، ولم يستغن عن حديثه ، وكان حديثه متلقّى بالقبول قرناً بعد قرن إلى زمن الأئمة الذين أخرجوا الصحيح ، على أن مسلماً كان أسوأُهم رأياً فيه، وقد أخرج له مع ذلك مقروناً .وكذا وثّقه ابن المديني، و أبو حاتم ، والعجلي ، وابن سيرين ، والنسائي ، وابن حبان ، والطبري ، وابن عبد البر، وغيرهم من الأئمة المجتهدين من أهل هذا الشان.

وجملة القول فيه أنه أمينٌ صادقٌ ثقةٌ في روايته، ومقدم من بين أصحابه في علمه وفهمه ، ولا سيما في العلم بكتاب الله تعالى(١).

❁ طاؤس بن كيسان

هو أبو عبد الرحمن طاؤس بن كيسان اليماني الحميري الجندي، روى عن العبادلة الأربعة ، وعن عائشة ، وأبي هريرة ، و زيد بن أرقم ، وغيرهم، و روى عنه ابنه عبد اللّه ، و وهب بن منبه ، و سليمان التيمي الزهري، و مجاهد، و غيرهم ،وحكى عبد الملك بن ميسرة عنه قال: أدركتُ خمسين من الصحابة،

ووثّقَه ابن معين و أبو زرعة . وقال ابن حِبّان: كان من عُبّاد أهل اليمن و من سادات التابعين ، و كان حجّ أربعين حجةً ، و كان مستجابَ الدعوة .

ويظهر من كلام عبيد الله بن أبي زياد من تلاميذ ابن عباس أن طاوساً كان من خواص ابن عباس، وقال عمرو بن دينار : ما رأيتُ أحداً مثل طاؤس، وشهد له ابن عباس بالجنة . وعن طاؤس أنّه كان يذكر عن ابن عباس: الخلع طلاق، فأنكره سعيد بن جبير، فقال طاؤس: لقد قرأتُ القرآنَ قبل أنْ تُوُلَدَ، ولقد سمعتُه وأنتَ إذ ذاك همُّك لقمُ الثريد. وقال المحدثون :إن روايته عن عائشة وعثمان مرسلة [٢].

۞ عطاء بن أبى رباحؒ

هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح المكي القرشي مولاهم . روى عن جابر بن عبد الله ، وأسامة بن زيد ، و أوس بن الصامت ، وأياس بن خليفة البكري ، و زيد بن أرقم ، ورافع بن خديج ، وحكيم بن حزام ، وأبي هريرة ، وعائشة

(١) انظر: تهذيب التهذيب :٧/ ٢٣٥ - ٢٤١، و الهدي الساري:٤٢٥-٤٣٠، و تذكرة الحفاظ:١/ ٩٥ -٩٦

(٢) انظر ترجمته في تهذيب الكمال:١٣/ ٣٥٧–٣٦٧، طبقات ابن سعد :٥/ ٥٤٠، وتهذيب التهذيب:٥/ ٨–١٠، تذكرة الحفاظ:١/ ٩٠

أم المؤمنين ، وغيرهم رضي الله عنهم ، وقد روى عنه خلق كثير منهم ابنه يعقوب بن عطاء ، و مجاهد بن جبر، وهو من شيوخه ، وليث بن أبى سليم ، ويونس بن عبيد البصري، وأبوعمرو بن العلاء المقري النحوي ، وغيرهم .

وهو ثقة مجمع على ثقته ، وكان أدرَكَ مائتين من أصحاب النبى ﷺ ، و قال عمر بن سعيد : إنّ أمّه أرسلتُه إلى ابن عباس تسألُه عن شيءٍ، فقال: يا أهلَ مكة ! تجتمعون عليّ وعندكم عطاء؟ وقال عمر بن سعيد أيضاً عن أمّه: قَدِمَ ابن عمر مكةَ فسألوه ، فقال:أتجمعون لي يا أهل مكة المسائلَ، وفيكم ابن أبي رباح ؟ وقال محمد بن عبد اللّه بن عمرو: ما رأيتُ مفتياً خيراً من عطاء ، إنما كان مجلسه ذكر اللّه لا يفتر، وهم يخوضون ، وإن تكلّم أو سُئِلَ عن شيء أَحْسَنَ الجوابَ.

وكان ثقةً، فقيهاً، عالماً، كثيرَ الحديث، قال أبو جعفر :ما بقي أحد على وجه الأرض أعلم بمناسك الحج من عطاء بن أبي رباح، وكان على جانبٍ عظيمٍ من الورع والتقوى، قال ابنه يعقوب : ما رأيتُ أبي يتحفّظ في شيء ما يَتَحَفَّظُ في البيوع، وقال سلمة : ما رأيتُ أحداً يريد بهذا العلم وجهَ اللّٰه غير هٰؤلاء الثلاثة :عطاء، وطاؤس، ومجاهد . وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي :كان عطاء بن أبي رباح عبداً أسودَ لإمرأةٍ من أهل مكة، وكان أنفُه كأنّه باقلاة . قال : وجاءَ سليمانُ بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه، فجلسُوا إليه وهو يُصَلِّي، فلمّا صلّى انفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج، وقد حَوَّلَ قفاهُ إليهم، ثم قال سليمان لابنيه : قُومَا، فقامَا، فقال: يا بني! لا تَنِيَا في طلب العلم ؛ فإنّي لا أنسٰى ذُلَّنَا بين يدي هذا العبد الأسود .

وقال أحمد بن محمد: كانتِ الحلقةُ في الفتيا بمكة في المسجد الحرام لابن عباس، وبعد ابن عباس لعطاء بن أبي رباح . وماتَ في سنة أربع عشرة ومائة، وقيل : سنة خمس عشرة بمكة (١).

---

(١)انظر ترجمته في الطبقات الكبرى:٤٦٧/٥-٤٧٠، تهذيب الكمال :٦٨/٢٠-٨٢، صفوة الصفوة:٢١٢/٢

۞ ابن أبي مليكةؒ

وهو الإمام شيخ الحرم أبو بكر عبد اللّٰه بن عبيد اللّٰه بن أبي مليكة القرشي المكي، روى عن جدِّهِ، وعائشةَ، وأمِّ سلمة، وعبد اللّٰه بن عمرو بن العاص، وابن عباس، وابن عمر، وطائفةٍ . وحَدَّثَ عنه عمرُو بن دينار، وأيوب، وابن جريج، وجرير بن حازم، وغيرهم . وتَوَلّٰى قضاءَ مكة وطائف لعبد اللّٰه بن الزبيرؓ، وكان مؤذّن الحرم في عهده أيضاً .

قال الذهبي: كان إماماً، فقيهاً، حجةً، فصيحاً، مُفَوِّهاً، متّفقاً على ثقته،ووثّقه أبو زرعة وأبو حاتم، وقال العجلي: مكي تابعي ثقة . وقال ابن حبان: رأى ثمانين من الصحابة، توفى سنة سبع عشرة ومائة (١).

طبقة أهل المدينة المنوّرة

لا نحتاج ههنا إلى ذكر مكانة المدينة المنوّرة علماً و عملًا في عصرالنبيﷺ ، وفي عصور الصحابة ، والتابعين . فلا شكّ أنّها كانتُ إذ ذاك مهبط الوحي الإلهي ؛ و مسكن الرسول العربي المدني، وكان هناك كثير من الصحابة يتعلّمون منه؛ ويُعلّمون الناسَ بعده الكتابَ والسُّنةَ ؛ فكانوا يجلسون لأتباعهم يعلّمونهم كتابَ اللّٰه و سنةَ رسوله ﷺ ، فقامت بها مدرسة التفسير تتلمّذ فيها كثيرٌ من التابعين ، وكان مِمَّنُ أقامَ مدرسةً لـلتفسير بالمدينة المنوّرة أبي بن كعب الصحابي المشهور القارئ المُقْرِيرضي الله عنه.

فأبي بن كعب هو المؤسّس لمدرسة المدينة كما كان ابن عباس مؤسِّساً لمدرسة مكة المكرمة ،وأرى أنُ أذكرَ نبذةً من أحوال مشاهير رجالها على ترتيبِ وفياتهم ، وهم ثلاثة : زيد بن أسلم ، و أبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظي .

❁ أبو العالية

هو رفيع بن مهران الرياحي، أدْرَكَ الجاهليةَ ، وأسُلَمَ بعد وفاة النبي ﷺ بِسَنَتَيُن في خلافة الصديق ، وكان عبداً لامرأةٍ من بني رياح بطن من تميم ، روى

(١)تذكرة الحفاظ:١/١٠١-١٠٢، تهذيب التهذيب: ٢٦٨/٥، سيرأعلام النبلاء:٨٨/٥-٩٠

عن علي ، وابن مسعود، وأبي موسى، وأبي أيوب ، و أبي بن كعب، و ثوبان، و حذيفة ، وابن عباس ، وابن عمر، و أبي هريرة ، و عائشة ، وغيرهم . وروى عنه خالد الحذّاء، و داؤد بن أبي هند، و محمد بن سيرين، وحفصة بنت سيرين، و ثابت البناني ، وقتادة ، ومنصور، و جماعةٌ .

قال ابن أبي داؤد : لم يكن أحدٌ بعد الصحابة أعلمَ بالقرا ء ة من أبي العالية، وقد قرأ القرآن الكريم على أبي بن كعب وغيره . وقال أبو عمروالداني : أَخَذَ أبو العالية القراءَةَ عرضاً عن أُبيّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وابن عباس، و يقال : قرأ على عمر.

وعن حفصة عن أبي العالية : قال : قرأتُ القرآنَ على عهد عمر ثلاث

مـرات، وعـن أبـي خلدة عن أبي العالية : قال :كنتُ آتي ابنَ عباس، فيَرْفَعُنِيُ على السـريـر، وقـريـش أسفل من السرير، فتغامز بي قريش ، وقالوا: يُرُفَعُ هذ العبدُ على السـريـر؟ فـفـطـن بهم ابنُ عباس، فقال: إنّ هذا العلمَ يزيد الشرف شرفاً ؛ ويجعل المملوكَ على الأسرّة.

وبـعـد ما تعلّم تصدّى لإفادة الـعـلـم إلا أنّه لم يكن له رواة ، فذَهَبَ أكثر علمه كما قال أبوداؤد. ووَجُهُهٗ عندي ما قال عاصم الأحول : كان أبو العالية إذا اجتمع إليه أربعةٌ قَامَ و تَرَكَهُمُ.

وثّـقـه الأئـمةُ من أهل هذا الشان، قال اللالكائي : مجمع على ثقته، وقال ابـن عدي : له أحاديث صالحة ، وأكبرما نُقِمَ عليه حديثُ القهقهة في الصلاة ، و كـلُّ من رواه غيره فمدارُهم و رجوعُهم إلى أبي العالية ؛ والحديثُ له و به يُعُرَفُ، ومن أجل هذا الحديث تكلّموا في أبي العالية ، و سائر أحاديثه مستقيمة صالحة. ومات في خلافة الحجاج، وقال أبو خلدة : سنةَ تسعين وهو الصحيح (١).

(١) ترجمته في التاريخ الكبير: ٣٢٦/٣، تهذيب التهذيب:٢٤٦/٣،تهذيب الكمال : ٢١٥/٩-٢٢٠، تذكرة الحفاظ:٦١/١،سير أعلام النبلاء:٢٠٧/٤-٢١٣،الكامل لابن عدي:١٦٢/٣-١٧٠

محمد بن كعب القرظيؒ

هو محمد بن كعب بن سليم أبو حمزة أو أبو عبد اللّٰه القرظي المدني ، قال يـعـقـوب بن شيبة : وُلِدَ في آخرخلافة علي بن أبي طالب سنةَ أربعين . و قال قتيبة : بـلـغني أنه رأى النبيَّ ﷺ، وقـال أيـضـاً : بَـلَغَنِيُ أنه وُلِدَ في حياة النبى ﷺ، قال ابن حجر: ما قال قتيبة لاحقيقة له ، وإنّما الذي وُلِدَ في عهد النبي هو أبوه .

رَوٰى عـن الـعبـاس، و عـلـي، و ابـن مسـعـود، و عـمرو بن العاص، وأبي الـدرداء، وأبـي ذر، ويُـقَـالُ: إنّ الجميع مرسلٌ، وعن فضالة بن عبيد، والمغيرة بن شـعبة ، و مـعـاوية ، وأبـي هـريرة ، وابن عباس ، و ابن عمر، وغيرهم . ورَوٰى عنه أخوه عثمان ، و الحكم بن عيينة ، و يزيد بن أبي زياد ، وابن عجلان ، وعاصم بن

كـليـب ، وغيـرهـم . و كان تابعياً جليلاً، عالماً بالقرآن ، كثيرَ الحديث ، صالحاً، تقياً ، ورعاً ، ثقةً كبيراً.

قـال ابـن حجر:جاء عن النبي ﷺ مـن طُـرُقٍ أنّـه قال: يَخرُجُ من الكاهنَين رجـلٌ يدرس القرآنَ دراسةً لا يدرسها أحدٌ يكون بعده ، قال ربيعة :كنّا نقول: هو مـحـمـد بـن كـعب، والكاهنان قريظةُ والنضيرُ، وقال عون بن عبد اللّه : ما رأيتُ أحداً أعلم بتأويل القرآن منه .

وشـغـفُـه وحبُّـه بـالقرآن وتفسيرِه يظهر ممّا جاءَ عنه قال: لأنْ أقرأ في ليلتي حتى أصبـح " إذا زلـزلـت الأرض زلـزالهـا " و " القارعة " لا أزيد عليهما ، وأتفكر فيهما، و أتـردّدُ أحـبُّ إلـيّ مـن أن أهـذّ الـقرآنَ هَذًّا . وقالت له أمُّه : يا بني ! لو لا أعْرِفُك طيباً صـغيـراً ، وطيبـاً كبيـراً لـقـلـتُ: إنّك أذنبتَ ذنباً مُوْبِقاً لِمَا أراكَ تصنع بنفسك في الليل والـنهـار، قـال:يـا أمّـاه ! ومـا يؤمنني أن يكون اللّٰه قد اطّلَعَ علي، وأنا في بعض ذنوبي فـمـقتـني، فقال: اِذْهَبُ لا أغفر لك ، مع أنّ عجائب القرآن ترد بي على أمور حتى أنه ينقضي الليل ، ولـم أفرغ من حاجتي .

قال ابن حبان :كان من أفاضل أهل المدينة علماً و فقهاً ؛ وكان يقصُّ في الـمسـجـد ، فسـقـط عـليـه وعلى أصحابه سقفٌ، فماتَ هو وجماعةٌ معه تحتَ الهـدم . وقـال محمد بن الفضيل البزار: كان لمحمد بن كعب جلساء ،كانوا من أعلم الناس بتفسير القرآن ، وكانوا مجتمعين في مسجد الربذة ، فأصابتهم زلزلة ، فسـقط عليهم المسجد، فماتوا جميعاً. واخْتُلِفَ في سنة وفاته ، فقيل : مات سنة ثماني عشرة ومائة من الهجرة ، وقيل: سبع عشرة ، وقيل وقيل.....(١)

۞ زيد بن أسلم

وهـو زيـد بن أسلم أبو أسامة ويقال : أبو عبد اللّٰه العدوي المدني ، مولى عـمـر بـن الـخطاب ، كان من كبار التابعين ، روى عن أبيه ، وعبد اللّٰه بن عمر، و أبـي هـريرة ، وعائشة ، وجابر بن عبد اللّٰه ، و ربيعة بن العباد ، وأنس ، و سملة بن الأكـوع ، و عـلـى بن الحسين ، وعبد الرحمن بن وعلة ، و أم الدرداء ، و غيرهـم. وقيـل: إن روايتَه عن سعد بن أبي وقاص، وأبي أمامة ، وزياد ، وأبي سعيد مرسلةٌ.

وروى عنـه أولاده الثلاثة أسامة ، و عبد اللّٰه ، وعبد الرحمن ، ومالك بن أنس، و أيـوب السـختيـانـي ، و جـريـر بن حازم ، وجماعةٌ. كان عالماً بتفسير القرآن، و فـقيهـاً ، جـليلاً، قـدوـةً ، حجةً ، وثّقه الأجلّةُ من أهل هذا الشأن كالنسائي، وأبي حاتم، وأبي زرعة ، وأحمد، وابن سعد، وابن خراش .

قـال البخاري في التاريخ الكبير : إن علي بن الحسين كان يجلس إلى زيد بـن أسـلـم ؛ ويَتَـخَـطّـى مـجـلسَ قومِه ، فقال له نافع بن جبير بن مطعم : تَتَخَطّى مـجـالـسَ قـومك إلـى عبـدِ عمر بن الخطاب ؟ فقال: إنّما يجلس الرجل إلى من يَـنْفَعُه في دينه . وقال الواقدي: وكان له حلقة للعلم في مسجد رسول اللّٰه ﷺ، و قال : له كتاب تفسيرٍ روى عنه ابنه عبد الرحمن ، وكان من العلماء العاملين.

نـعـم قـد يُنسَبُ إليه القولُ بالتفسير بالرأي ، كما قد حكى ابن حجر : أنّ حمّاد بن زيد روى عن عبيد اللّٰه بن عمر أنّه قال: لا أعلمُ به بأساً إلا أنّه يُفَسِّرُ برأيه القرآنَ ويكثر منه .

قلتُ: والـذي أختـارُ فـي الـجـواب عـنـه : أنّ التفسير بالرأي منه ما هو محمود؛ ومنه ما هو مذموم ،كما قد حَقَّقْنَاهُ في الفصول الماضية ، وقولُ عبيد اللّٰه بن عمر هذا لا يمكن أن يحمل على التفسير بالرأي المذموم ؛ لأن من يُفَسِّر

(١) تهـذيب الكمال: ٣٤٧/٢٦، تهذيب التهذيب:٣٧٣/٩،صفوة الصفوة :١٣٢/٢، سير أعلام النبلاء:٦٥/٥-٦٨

الـقـرآنَ بـالرأي على هذا المعنى لا يُوَثَّقُ قطعاً بل يُجْرَحُ ، وقد وثّقه هو بقوله : لا أعـلـم بـه بـأسـاً، وهـو مـن الفاظ التوثيق ، فلا جرم أنه يُحْمَلُ على أنه كان يُفَسِّرُ الـقـرآنَ بـالـرأي الـذي هـو محمود ، وهو ليس بطعن في شيء ، فلا يُعَدُّ هذا منه مَطْعناً ومَغْمزاً في ثقته وعدالته.

فإن قلتَ: فإذا كان هذا ليس بطعنٍ فيه ، فما معنى إنكاره عليه هذا ؟ فهلْ هـذا إلا طـعن منه ؟ قلتُ: كلّا؛ بل يُحْمَلُ هذا الإنكارُ على أنّ عبيد اللّٰه كان مِمَّنْ يَتَـوَرَّعُـونَ عـن الـقول في القرآن برأيهم كغيره من الصحابة والتابعين ، ولذا أنكر عـليـه هذا بمحض اقتضاء الورع ، وإلا لَمَا حكم عليه بالثقة والعدالة . فافهم حقَّ الفهم .

وقال ابن عجلان: ما هبتُ أحداً قطُّ هَيْبَتِي زيدَ بن أسلم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال أبو حازم: لقد رأيتنا في مجلس أبيك أربعين حبراً فقهاءَ، أدنى خصلة منا التواسي بما في أيدينا، وما رأيتُ في مجلسه مُتَمَارِيَيْن ولا مُتَنازِعَيْن في حديثٍ لا ينفعُهما. مات في خلافة أبي جعفر في أولها، وقال غير واحد: مات سنة ست و ثلاثين و مأئة (١).

❁ نافع بن هرمز رحمه الله

وهو الفقيه المحدّث أبو عبد الله نافع بن هرمز أو كاؤس المدني مولى عبد اللّٰه بن عمر. رَوٰى عن ابن عمر، وأبي هريرة، وأبي لبابة بن المنذر، و أبي سعيد، ورافع بن خديج، و عائشة، وأم سلمة، وجماعةٍ. وحدّثَ عنه أولادُه أبو عمر، وعمر، وصالح بن كيسان، ويحيى بن سعيد الأنصاري، و يونس بن عبيد، والزهري، و أيوب السختياني، وجرير بن حازم، وخلق كثير.

وكان تابعياً، كثيرَ الحديث، ثقةً، وثقه الأجلَّةُ من أئمة الحديث مثل العجلي، وابن خراش، والنسائي، وغيرهم. قال أحمد بن صالح: كان نافع حافظاً، ثبتاً له شأن. وقال الإمام مالك: كنت إذا سمعتُ من نافع يحدّث عن عبد الله بن عمر

(١) انظر ترجمته في التهذيب التهذيب: ٣٤١/٣-٣٤٢، التاريخ الكبيرللبخارى: ٣٨٧/٣، سيرأعلام النبلاء: ٣١٦/٥، تهذيب الكمال: ١٢/١٠-١٧، جامع التحصيل: ١٧٨/١

لا أُبالي أنْ لا أسمعه من غيره. وقد أثنى عليه مولاه عبد الله بن عمر حيث قال: لَقَدُ مَنَّ اللّٰه علينا بنافع. ماتَ سنةَ سبع عشرة ومائة، وقال أبو عبيد: سنة تسع عشرة ومائة (١).

❁ عروة بن الزبير رحمه الله

هو الإمام الفقيه المحدّث أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام الأسدي المدني، روى عن أبيه الزبير بن العوام، وأخيه عبد الله، و أمه أسماء بنت أبي بكر، وخالته عائشة، وعلي بن أبي طالب، وحكيم بن حزام، و زيد بن ثابت، و ابن عباس، وابن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعن خلق كثير. وروى عنه

أولاده عبد الله ، وعثمان ، وهشام ، ومحمد ، ويحيى، وسليمان بن يسار، و أبو بردة بن أبي موسى ، وصالح بن كيسان ، والزهري، وغيرهم .

قال ابن سعد: كان ثقةً ، كثيرَ الحديث ، فقيهاً، عالماً، ثبتاً، ماموناً. وقال العجلي: مدني، تابعي، ثقة ، وكان رجلاً صالحاً لم يدخل في شيءٍ من الفِتَن . و قال قبيصة بن ذويب: كان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة أعلم الناس . وعَدَّه أبوالزناد في فقهاء المدينة السبعة . وقال ابن عيينة : كان أعلم الناس بحديث عائشة عروة ، وعمرة ، والقاسم . وقال هشام بن عروة : ما سمعتُ أبي يقول في شيءٍ قط برأيه . وعن حميد بن عبد الرحمن بن عوف :لقد رأيتُ الأكابرَ من أصحاب النبيا وأنّهم يسألونه من قصة ذكرها . وقال هشام :كان أبي يصوم الدهر، ومات صائماً . وقال ابن شوذب : كان عروة يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف ؛ ثم يقوم به في الليل .

قال خليفة : في آخرخلافة عمر يقال وُلِدَ عروةُ ، وقال مصعب الزبيري: وُلِدَ عروةُ لِستٍّ خلون من خلافة عثمان، والأول أصحّ . وأمّا وفاته فقال ابن المديني : مات سنة إحدى أو اثنتين و تسعين ، وقيل: سنة أربع و تسعين (٢).

---

(١) تهذ يب الكمال:٢٩٩/٢٩،تهذيب التهذيب: ٣٦٨/١٠-٣٦٩

(٢) تذكرة الحفاظ:٦٢/١،تهذيب التهذيب:١٦٣/٧-١٦٤، تهذ يب الكمال:١٢/٢٠-٢٤

۞ كعب الأحبار

ومِمّن لا ينسى مثله في هذا الصدد التابعي الكبيرأبو إسحاق كعب بن ماتع المعروف بكعب الأحبار، أدرك زمان النبي ﷺ ولم يره ؛ وأسلم في خلافة أبي بكر أو في خلافة عمر، وهو الراجح كما قال ابن حجر . وصحب عمر، و أكثرالرواية عنه ، وروى عن صهيب ، وحدث عنه جماعة من الصحابة منهم ابن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وأبو هريرة ، وخلائق من التابعين.

وكان كثيرَ العلم ؛ حتى قال معاوية: ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء؛ و إن كان عنده علم كالثمار؛ وإن كنا فيه لمُفَرِطِيَن . وذكر أبو الدرداء كعباً، فقال :

إن عنـد ابن الحميرية لَعِلْماً كثيراً. وقال معاوية أيضاً: إن كان لمن أصدق هؤلاء المـحدثين عن أهل الكتاب؛ وإن كنا مع ذلك لَنَبْلُوُ عليه الكذبَ. قال ابن حجر: أَوَّلَهُ بعضُهم: بأنّ مراده بالكذب عدم وقوع ما يُخبِرُ به أنّه سيَقَعُ لا أنّه يكذب .

ثـم لا يـخفى أن كعباً كان يحدّث عن الكُتُب القديمة ، ومن الإسرائيليات، والـكُتُـب التـفسيـرية مشـحونةٌ بها كما يظهر لمن يطالع كتبَ التفسير. أخرج ابن عسـاكـر مـن مسـند محمد الروياني – على ما حكاه ابن حجر في الإصابة – : من طـريـق ابـن لهيعة عن أبي الأسود قال: إن كلَّ ما تذكرون عن كعب بما يكون، أنّه يـكـون، إنْ كان قَالَ لكم إنه مكتوبٌ في التوراة فـقـد كذبكم – إلى أن قال– إنّما الذي يُحَدِّثُ به كعب عمّا يكون من كتب أنبياءِ بني إسرائيل وأصحابهم ،كما أنتم تُحَدّثُون عن نبيّكم و أصحابه .

وكـان مـن مسـلـمة أهـل الـكتاب، وكان على دين اليهود ، فأسلم وقدم الـمـديـنة ، ثـم خرج إلى الشام وسكن حمص، وتوفي بها سنة ثنتين و ثلاثين في خلافة عثمان(١).

۞ وهب بن منبه

ومِـمّـن لا يُنْسٰى مثلُه المفسّرُ الشهير التابعي الجليل وهب بن منبّه اليماني

(١) انـظـر تـرجمته في تهذيب الكمال:١٨٩/٢٤– ١٩٣، تهذيب التهذيب :٣٩٣/٨، الإصابة: ٦٤٧/٥– ٦٥١، تهذيب الأسماء:٣٧٧/٢

الـصنعاني، وهو يروي عن ابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة ، وأبي سعيد ، وعبد الـلّٰه بن عمرو، وجابر، وأنس، وأخيه همام بن منبه ، وغيرهم . وعنه ابناه عبد اللّٰه، وعبد الرحمن ، و ابن أخيه عبد الصمد .

وهـو ثـقة ، ثبت ، كثير الحديث ، وثّـقه الجمهور، قال العجلي: ثقة تابعي كـان عـلـى قـضاء صنعاء . وقال النسائي وأبو زرعة : ثقة ، وضعّفه عمرو بن علي الفلاس، وقال الذهبي : وروايته للمُسْنَد قليلة ؛ وإنما غزارة علمه في الإسرائيليات ومن صحائف أهل الكتاب .

قال المثنى بن الصباح : لَبِثَ وهب بن منبه أربعينَ سنةً لم يسب شيئاً فيه الروح ؛ ولبث عشرينَ سنةً لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً، وقال مسلم الزنجي: لبث وهب أربعين سنةً لا يرقُدُ على فراشٍ؛ وعشرين سنةً لم يجعل بين العتمة والصبح وضوءاً، قال أحمد : وكان يُتَّهَمُ بشيء من القدر، ثم رَجَعَ ، وقال غيرُ واحد : إنّه ماتَ سنة عشر و مائة(١).

طبقة أهل العراق

ومـمّا لا بُدّ من الإشارة إليه أنّ العراق بعد ما فُتِحَ على يد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ و بعد ما مُصِّرَتِ الكوفةُ والبصرةُ سنة ١٧ من الهجرة بأمر أمير المؤمنين ، صار مُسْتَقَرّاً لكثيرٍ من الصحابة ، وبَعَثَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه عبدَ اللّٰه بن مسعود رضي الله عنه إلى الكوفة ، لِيُعَلِّمَ أهلَها القرآنَ، و يُفَقِّهَهُم في الدين ؛ و نزل بالكوفة عددٌ كثيرٌ من أجلّة الصحابة رضي الله عنهم ، حتى قال العجلي في معرفة الثقات: نَزَلَ بالكوفة ألف وخمس مأئة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ونَزَلَ قرقيسيا (وهو ثغرمن ثغور الكوفة) ستُّمائةٍ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٢).

ومـمّن نزل بالكوفة عبدُ اللّٰه بن مسعود، وعبد اللّٰه بن عباس، والحسن بن

(١) تهذيب التهذيب:١١/١٤٧، سير أعلام النبلاء: ٤/٥٤٤-٥٥٧، الطبقات لابن سعد:٥/٥٤٣

(٢) معرفة الثقات:٢/٤٤٨

علي، وسعد بن أبي وقاص، ووليد بن عقبة، وخباب بن الأرت، وعمار بن ياسر، وشدّاد بن الهاد، وأبو الطفيل بن عمرو، وحذيفة بن اليمان، والمغيرة بن شعبة ، وغيرهم (١).

وقال الإمام أحمد في العلل ومعرفة الرجال بسنده عن ابن سيرين قال: أدركتُ بالكوفة أربعةَ آلاف يَطْلُبُون العلمَ ، ليس فيهم إبراهيم (٢).

فأصْبَحَتِ الكوفةُ مستقراً و مسكناً للصحابة ، ومن الطبيعي أن تكونَ مستقراً للتابعين وأتباعهم ؛ لأنّ أصحاب علي، وابن مسعود، وغيرهما كان

عـددهم في غاية الكثرة ؛ حتى امتلأت بالقُرّاء، والفقهاء، والمحدثين، بحيث أبْلَغَ بـعـضُ ثقاتِ أهل العلم – على ما حكاه العلامة الشيخ زاهد الكوثري في مقدمته عـلـى نـصـب الـراية – عـددَ مَنْ تَفَقَّهَ على ابن مسعود و علىٰ أصحابه نحوَ أربعة آلاف عالم ، ولَسْنَا بحاجةٍ إلى سرد أسمائهم لأن أمرهم في غاية الشهرة .

وحـكـى الرامهرمزي و السيوطي عن ابن سيرين قال: قدمت الكوفة وبها أربعة آلاف يطلبون الحديث (٣).

فـالـحاصل أن الكوفة قد صارتُ معدنَ العلوم والحكم ؛ و مخزنَ الإيمان والإسـلام ، ولذلك قال عمر بن الخطاب ﷺ : " بالكوفة وجوهُ الناس" ، و كَتَبَ هـو إلـى أهـل الـكـوفة مُـوجّهاً إليهم خطابه بقوله: "إلى أهل رأس الإسلام" وفي رواية بـقوله : "إلى رأس العرب ". وقال ﷺ : الـعراقُ بها كنز الإيمان؛ وهـم رمح الـلّـه؛ يجزون ثغورهم ؛ ويمدون الأمصار، وقال علي ﷺ: الكوفةُ كنزُ الإيمان، و حـجةُ الإسـلام ، وسيفُ الـلّـه ، ورمـحُـه يـضـعـه حيث شاء، والذي نفسي بيده لينتصرنَّ اللّٰه بأهلها في شرقي الأرض وغربها كما انتصر بالحجاز (٤).

هـذه هـي الـكـوفة التـي كـانـتُ مـنبـع علوم القرآن والحديث المتلاطم الأنـوار؛ و مـخـزن الـفـقـه الإسـلامى المحافظ للأسرار، ولكن ممّا يؤسف له أن

(١) انظر الطبقات لابن خياط:١٢٦/١ وما بعده، والطبقات لابن سعد :٥/٦ وما بعده
(٢) العلل ومعرفة الرجال:٤٤٩/٢
(٣) المحدث الفاصل:٤٠٨/١، طبقات الحفاظ:٢٧/١، تدريب الراوي:٤٠٠/٢
(٤) الطبقات لابن سعد:٥/٦،معجم البلدان للحموي:٤٩٢/٤

بـعـض الناس يجتهدون في الانتقاص من قدرها؛ والانتساب إليها ما لا أساس له مـن الـعـلـم والبـرهـان جهلاً أو عـصبيةً ، ولَسْـنَـا نَخُوْضُ هنا في أقوالهم ؛ وفي الاشتغال بجوابهم، فإنّ في كتب الأئمة ما يُغْنِيْنَا عن ذلك، وإلى اللّٰه المشتكىٰ.

ثـم لِيُـعْـلَـمُ أنّ من بين من نَزَلَ الكوفةَ وتَوَطَّنَهَا و علا صيتُه شرقاً و غرباً عبد الـلّٰه بن مسعود ﷺ ، فـكـانـتُ هـناك حلقته العلمية ، وهى مدرسة له ، وكان يُلْقِيْ الدروس من الكتاب والسُّنة ؛ فيأخذ عنه أصحابه .

وكان ممّن اشتهر في التفسير من أصحابه خمسةٌ، وهم علقمة بن قيس، و

مسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد ، و مُرَّة الهمداني، و عَبيدة السلماني، واشتهر من غير أصحاب ابن مسعود في التفسير عامر الشعبي، و الحسن البصري، وقتادة ابن دعامة السدوسي. ويجدر بنا أن نتكلّم عن كلِّ واحدٍ منهم .

لطيفة: عن ابن سيرين قال: كان أصحاب عبد اللّٰه بن مسعود رضي الله عنه خمسة كلُّهم فيه عيبٌ: عبيدة السلماني أعور؛ ومسروق بن الأجدع أحدب ؛ وعلقمة بن قيس أعرج ؛ وشريح كوسج ؛ والحارث أعور(١).

علقمة بن قيس

هو الإمام الحجة المجتهد الكبير علقمة بن قيس بن عبد اللّٰه أبو شبل النخعي الكوفي، فقيه العراق وعالمها و مُقْرِئها ، وُلِدَ في حياة النبي ﷺ ولحق الجاهليةَ ، سَمِعَ من عمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وأبي الدرداء، وأَخَذَ عنه إبراهيمُ، وإبراهيم بن سويد النخعي، والشعبي، وطائفةٌ. وجوّد القرآن على ابن مسعود، و تَفَقَّهَ عليه، ولَازَمَه حتّى رأسَ في العلم والعمل، وتَصَدّٰى بعد علي وابن مسعود رضي الله عنه للإمامة والفتيا.

وكان من أنبل أصحاب عبد اللّٰه بن مسعود، وقال ابن مسعود: ما أقرأ وأعلم شيئاً إلا وعلقمة يَقْرَأُهُ ويَعْلَمُه، قال قابوس بن أبي ظبيان : قلتُ لأبي: لأيّ شيءٍ كنتَ تَدَعُ الصحابةَ ؛ وتأتي علقمةَ ؟ قال: أدركتُ ناساً من أصحاب النبى ﷺ

(١) تهذيب الكمال في ترجمة علقمة بن قيس: ٣٠٤/٢٠

وهم يسألُون علقمةَ ويستفتونه . وقيل لابن مسعود :ما علقمة بأقرئنا؟ قال بلى واللّٰهِ إنه لأقرأُكم.

وقال علقمة: كنتُ رجلاً قد أعطاني اللّٰه حسن الصوت بالقرآن؛ وكان ابن مسعود يرسل إلي، فأقرأ عليه، فإذا فرغتُ من قراءتي قال: زِدْنَا فداك أبي وأمّي، فإنّي سمعتُ رسولَ اللّٰه ﷺ يقول:حسن الصوت زينة القرآن.

قال الإمام الذهبي: كان فقيهاً، إماماً، بارعاً، طيبَ الصوت بالقرآن، ثبتاً فيما يَنْقُلُ ، صاحبَ خير وورع ، كان يشبه ابنَ مسعود في هَدْيِه ودلِّه وسمته

وفضله.

ومـاتَ فـي ولاية عبيـد اللّٰه بن زياد في خلافة يزيد بن معاوية سنةَ اثنتين و ستين(١).

۞ مسروق بن الأجدع

وهو الإمام الفقيه المجتهد العابد أبوعائشة مسروق بن الأجدع بن مالك بـن أمية الهـمداني الكوفي. أخذ عن عمر، وعلي، و ابن مسعود، وأبي بن كعب، ومعـاذ بن جبل. وعنه الشعبي، وأبو الضُّحى، وأبواسحاق، وخلقٌ كثيرٌ. قال أبو السـفـر: ما وَلَدَتُ همدانية مثلَ مسروق، وقال الشعبي: ما رأيتُ أطلبَ للعلم منه، وقال: كان مسروق أعلمَ بالفتوى.

وكـان مـن عبـاد أهـل الـكوفة. قال أبو اسحاق: حج مسروق فلم ينم إلا سـاجـداً عـلـى وجهه. وقال أنس بن سيرين عن امرأة مسروق: كان يصلّي حتى تورّم قدماه.

وهو ثقة جليل وثقه الأئمة من أهل هذا الشأن، ومناقبه كثيرة. قال العجلي: تـابعي ثقة، وكان أحد أصحاب عبد اللّٰه الذين يقرؤون و يفتون، وكان ورعاً، تقياً. ورُوِيَ: أن خالد بن أسيد بعث إلى مسروق بثلاثين ألفاً، فأبي أن يقبلَها. ورُوِيَ عن

(١) تـذكرة الحفاظ: ٤٨/١، سير أعلام النبلاء: ٦١-٥٣/٤، تهذيب الكمال: ٣٠٧-٣٠٠/٢٠، تهذيب التهذيب: ٢٤٥-٢٤٤/٧

أبـي الـضـحـى: أنّ مسـروقـاً شـفـع لرجل شفاعةً، فأهُدى له جاريةً فَغَضِبَ، وقال: لوعلمتُ أنّ هذا في نفسك ما تكلّمتُ فيها، وما أتكلّمُ فيما بقي أبداً. مات بالكوفة سنةَ اثنتين و ستين، أو ثلاث و ستين(١).

۞ الأسود بن يزيد

وهـو الإمـام الـفـقيـه الـزاهـد أبـوعـمرو الأسود بن يزيد بن قيس النخعي الـكوفي، أخذ عن عبد اللّٰه بن مسعود، وبلال، ومعاذ، وحذيفة، وعائشة، وطائفةٍ سَـوَاهُـم. وحـدّثَ عنه ابنُه عبد الرحمن، و إبراهيم، وأبوإسحاق السبيعي، وكان

علـى أمرٍ كبيرٍ من الاجتهاد في العبادة والحج ؛ حتى رُوِيَ عن ميمون أبي حمزة : سَـافَـرَ الأسـود بن يزيد ثمانينَ حجةً وعمرةً لم يجمع بينهما. وقال إبراهيم: كان الأسـود يـختـم الـقـرآن فـي رمـضـان فـي كل ليلتين، وكان يختم القرآن في غير رمضان في كل ستٍّ ليال. قال ابن عون: سُئِلَ الشعبي عن الأسود بن يزيد، فقال : كـان صـوّامـاً، قـوّامـاً، حجّاجاً . قال الذهبي: وهو نظير مسروق في الجلالة والعلم والثـقة، وعـن علقمة بن مرثد : كان الأسود يجتهد في العبادة ؛ ويصوم حتى يخضرّ ويـصـفـرّ، فـلـما حضر بكى، فقيل له : ما هذا الجزع؟ قال:مالي لا أجزع ، لو رأيت بـالـمـغـفـرة من الله لأهمني الحياء ممّا قد صنعتُ ، وكان مُخَضْرَماً أدْرَكَ الجاهليةَ والإسلامَ. ومات سنة خمس و ستين أو قريباً منه (٢).

مُرَّة الهمداني

وهـو الإمام الفقيه أبو إسماعيل مرة بن شرحبيل الهمداني الكوفي، ويقال له مُرّة الطيب ومُرّة الخير لعبادته وخيره وعلمه، وهو مُخَضْرَمِي كبير الشان، رَوٰى عـن أبـي بـكـر، وعمر، وابن مسعود، وأبي ذر، وأبي موسى الأشعري، و جماعةٍ، وعـنه أسلم الكوفي، وعطاء بن السائب، و زبيد اليامي، وحصين بن عبد الرحمن، وغيرهم . وكان له شأنٌ عجيبٌ في أمرالعبادة، قال الحارث الغنوي: أنه سجد للّٰه

(١) تهذيب التهذيب : ١٠٠/١٠، تذكرة الحفاظ: ٤٩/١، الطبقات لابن سعد:٧٦/٦

(٢) تـذكـرة الـحـفـاظ: ٥٠/١-٥١، سيـر أعـلام الـنـبـلاء: ٥٠/٤-٥٣، تهـذيـب التهـذيـب : ٢٩٩/١ ،تهذيب الكمال:٢٣٣/٣

حتّٰى أَكَلَ الترابُ جبهتَه، وقال عطاء بن السائب :رأيتُ مصلّٰى مرّة الهمداني مثلَ مَبْـرَكِ البـعير. وقال:كان يُصَلِّي في اليوم والليلة ستَّ مئة ، وقيل: كان يُصَلِّي ألفَ ركـعة . وقـال العلاء بن عبد الكريم:كنا نأتي مرّة الهمداني فيخرج الينا؛ فنَرٰى أثرَ السـجـود فـي جبهتـه وكـفيه و ركبتيه وقدميه، قال: فيجلس معنا هُنَيْئَةً ، ثم يقوم فإنّما هو ركوع و سجود.

وهذا هوالوجه في عدم نشرعلمه، ولقد صدق الذهبي حيث قال: ما كان هـذا الـولـي يـكاد يَتَفَرَّغُ لنشر العلم، ولهذا لم تكثر روايته، وهل يُرَادُ من العلم إلا

ثمرته.

ووثقه الأئمة، وقال يحيى : ثقةٌ ، وقال العجلي ثقة تابعي . قال ابن سعد: وتوفي زمان الحجاج، وكذا قال أبو حاتم، وقال غيره: توفي سنة ستّ و سبعين(١).

عبيدة السلماني

وهو الإمام الفقيه أبو عمرو عبيدة بن قيس أو عبيدة بن عمرو السلماني الهمداني الكوفي ، تابعي جليل أَدْرَكَ حياةَ النبيّ ﷺ وأسلم قبل وفاته ﷺ بسنتين ولم يرَه، سَمِعَ عمرَ، و علياً، وابنَ مسعود، وابنَ الزبير، وطائفةً . و روى عنه الشعبي ، وإبراهيم النخعي ، وأبو حصين ، ومحمد بن سيرين ، وسعيد بن أبي هند، وغيرهم .

وكان عبيدة على أمرٍ كبيرٍ من العلم والعبادة ، رُوِيَ عن محمد بن سيرين : سألتُ عبيدة السلماني عن تفسيرآيةٍ من كتاب اللّٰه ، فقال: عليك باتّقاء اللّٰه ، والسداد، فقد ذَهَبَ الذين يعلمون فِيمَ نَزَلَ القرآن . وقال ابن سيرين: كان أصحاب عبد اللّٰه بن مسعود خمسةً ، فمنهم من يُقدِّم عبيدةَ ، و منهم من يُقدِّم علقمةَ.

قال الخطيب: وكان من أصحاب عبد اللّٰه وعلي، وكان أحد أصحاب عبد اللّٰه الذين يقرؤون ويفتون ، وكان شريح إذا أشكل عليه الشيء قال:إن ههنا

(١) سير أعلام النبلاء:٧٥/٤،حلية الأولياء:١٦٢/٤-١٦٩تهذيب التهذيب :٧٠/١٠

رجلاً في بني سلمان فيه جرأة، فيُرْسِلُهُم إلى عبيدة. وقال ابن سيرين: ما رأيتُ رجلاً أشدَّ توقِّياً من عبيدة. وقال سفيان: كان عبيدة يُوازِي شريحاً في العلم والقضاء. ومات سنة اثنتين و سبعين، ويُقَالُ: في زمان المختار(١).

عامر بن شراحيل الشعبى

وهوالإمام الحافظ الفقيه أبوعمروعامربن شراحيل ، ويُقَالُ : شراحبيل ، والأول هو المشهور، الشعبي الهمداني الكوفي. وُلِدَ في أثناء خلافة عمرض، و روى

عن علي، ويُقَالُ مرسلٌ، وعن عمران بن حصين، وجرير بن عبد اللّه، وأبي هريرة ، وابن عباس، و عائشة، و ابن عمر، وعدي بن حاتم، والمغيرة بن شعبة، وخلق. وحدّث عنه إسماعيلُ بن أبي خالد، وأشعث بن سوار،وداؤد بن أبي هند، وزكريا بن أبي زائدة، والأعمش، وأبوحنيفة ، وهو أكبر شيخ للإمام أبي حنيفة وخلقٌ .

عن منصور بن عبد الرحمن عن الشعبي : أدركتُ خمس مائة من أصحاب النبيا. وقال الحاكم في علوم الحديث: ما سَمِعَ من عائشة، ولا ابن مسعود، ولا من أسامة، ولا من علي، ولا من معاذ، ولا من زيد بن ثابت.

وقال مكحول: ما رأيتُ أعلمَ من الشعبي. وعن أبي حصين : ما رأيتُ أحداً قطُّ أفقهَ من الشعبي، وعن أبي مجلز: ما رأيتُ أحداً أفقهَ من الشعبي، لا سعيد بن المسيب، ولا طاؤس، ولا عطاء، ولا الحسن، ولا ابن سيرين . وقال عاصم الأحول: ما رأيتُ أحداً أعلم بحديث الكوفة والبصرة والحجاز من الشعبي. وقال ابن سيرين: ألزم الشعبي، فلقد رأيته يُستَفْتٰى والصحابة متوافرون .

وعن ابن المديني: قيل للشعبي: من أين لك هذا العلم كلُّه؟ قال: بنفيِ الاعتماد، والسيرِ في البلاد، وصبرٍ كصبر الجماد، و بكورٍ كبكور الغراب . وقال ابن عيينة: العلماء ثلاثة : ابنُ عباس في زمانه؛ والشعبي في زمانه؛ والثوري في زمانه. وعن عبد الملك بن عمير : مَرَّ ابن عمر بالشعبي وهو يُحَدِّثُ بالمغازي، قال : شَهِدُتُّ القومَ ، ولَهذا أحفظُ لها وأعلمُ بها مني.

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب:١١٧/١١-١١٩،الطبقات لابن سعد:٩٣/٦-٩٥، تهذيب التهذيب:٧٨/٧

ومن أقواله اللطيفة ما حكى عيسى الحناط عنه، قال: إنما كان يَطْلُبُ هذا العلم من جَمَعَ النُسُكَ والعقلَ ، فإنْ كان عاقلاً بلا نُسُكٍ ، قيل:هذا لا ينالُه، وإن كان ناسكاً ولم يكن عاقلاً ، قيل: هذا أمر لا ينالُه إلا العقلاء ، ثم قال: لقد رأيتُ اليومَ يطلبه من لا عقلَ له ولا نُسُكَ .

وكان الشعبي محتاطاً في التفسير، قال زكرياء بن أبي زائدة : كان الشعبي يَمُرُّ بأبي صالح، ويأخُذُ بأُذُنه ويقول: تُفَسِّرُ القرآنَ وأنت لا تقرأ القرآنَ،

وروى ابن جرير عن صالح بن مسلم قال: مَرَّ الشعبي على السدي وهو يُفَسِّرُ القرآنَ فقال: لأنْ يُضْرَبَ على إستك بالطبل خيرٌ لك من مجلسك هذا.

قال الواقدي : مات سنة خمس و مائة ، وقال طائفة من المؤرخين :مات سنة أربع ومائة (١).

الحسن البصرى

وهو الإمام المُحدِّث الجليل الفقيه النبيل أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسارالبصري، وُلِدَ لِسَنَتَيْن بَقِيَتَا من خلافة عمر، وأمّه خيرمولاة أم سلمة رضي الله عنها ، رأى علياً، و طلحةَ، وعائشةَ رضي الله عنها، وروى عن عمر، وسعد بن عبادة ، وأبي بن كعب، ولم يُدْرِكْهُم ، وعن أبي هريرة، وعثمان، وعلي، وابن عمر، وابن عباس، وعثمان بن أبي العاص، ومعقل بن يسار، وخلق من الصحابة والتابعين ، و حَدَّثَ عنه حميد الطويل، وأيوب ، وقتادة ، وبكر بن عبد اللّٰه المزني، وجرير بن حازم ، وخالد الحذاء ، وعطاء بن السائب ، وعثمان البَتِّي، ويونس بن عبيد، و منصور بن زاذان، وآخرون .

قال ابن سعد: كان الحسن جامعاً،عالماً رفيعاً، فقيهاً ، ثقةً، مامو ناً، عابداً، ناسكاً ، كثيرَ العلم ، فصيحاً ، جميلاً ، وسيماً، وكان ما أسند من حديثه وروى عمّنْ سَمِعَ منه فهو حجة ، وما أرْسَلَ فليس بحجةٍ .

وكان له شأن عجيب في العلم والزهد ، قال أنس بن مالك: سَلُوُا

(١)تذكرة الحفاظ:١/٧٩-٨٨، سير أعلام النبلاء:٤/٢٩٥-٣١٨، تهذيب التهذيب :٥/٥٨-٥٩، تهذيب الكمال :١٤ / ٢٨ - ٤٢

الحسنَ، فإنّه حَفِظَ ونَسِيْنَا، وقال قتادة: ما جالستُ فقيهاً إلا رأيتُ فضلَ الحسن عليه، وقال أيوب: ما رأتْ عيناي رجلاً قطّ كان أفقهَ من الحسن . وقال بكر المزني: من سَرَّه أن ينظر إلى أعلَمِ عَالَمٍ أدركناه في زمانه ، فلينظر إلى الحسن، فما أدركنا الذي هو أعلم منه. وقال أبوهلال: كنتُ عند قتادة ، فجاءَ خبر بموت الحسن، فقلتُ: لقد كان غمس في العلم غمسةً ، فقال قتادة: بل نبت فيه وتحقّبه

و تشرّبه .

وقـال أبـو جـعـفـر البـاقر: ذاك الذي يشبه كلامُه كلامَ الأنبياء . قال حزم الـقـطـعـي : رأيـتُ الـحسـن قَدِمَ مكةَ ، فقام خلفَ المقام ، فصلّى فجاء عطاء، و طـاؤس، و مـجـاهـد ، وعـمـرو بن شعيب ، فجَلَسُوا إليه. وقال أبو بردة : ما أشبه الـحسـن إلا بـنبـي . وقـال إبراهيم بن موسى اليشكري : ما رأيتُ أطولَ حزناً من الحسن، ما رأيتُه إلا حسبتُه حديثَ عهدٍ بمصيبة .

و كـلامه يدلُّ على فقاهته و بصيرته وعلى زهده وتقواه ، قال عمران القصير: سـألـتُ الـحسـنَ عن شيء فقلت: إن الفقهاء يقولون كذا و كذا، فقال: وهل رأيتَ فـقيهـاً بعينِك ، وإنّما الفقيه الزاهد في الدنيا؛ البصير بدينه ؛ المداوم على عبادة ربه . وحـكـى أبو نعيم عن الحسن البصري قال: إن المؤمن يصبح حزيناً، ويُمْسِي حزيناً، ويـنـقـلب باليقين في الحزن، ويكفيه ما يكفي العنيزة: الكفُّ من التمر، والشربةُ من الـمـاء. وذكـر أبـو مـروان عـن الحسن قال: يحقّ لمن يعلم أن الموت مورده ؛ وأن السـاعة مـوعـده ؛ والـقيام بين يدي اللّٰه مشهده، أنْ يَطُولَ حزنُه . وتوفي رحمه اللّٰه سنةَ عشر و مائة من الهجرة ، وهو ابن ثمان و ثمانين سنة (١).

قتادة بن دعامة

هـو الإمـام الـمفسر الجليل أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي الأكمه، و كان عربيَّ الأصل ؛ وسَكَنَ البصرةَ ، يَرْوِيُ عن أنس ، وأبي الطفيل ،وابن سيرين ، و

(١) حـلية الأوليـاء:١٣٢/٢، سيـر أعـلام الـنبـلاء:٥٦٣/٤، تـذكـرة الحفـاظ:٧١/١،تهذيب التهذيب:٢٣١/٢-٢٣٥

عـكـرمة ، وعـطـاء بـن أبـي ربـاح ، وسـعيـد بن المسيب، وابن أبي مليكة ، والحسن البـصري ، وغيرهم . وروى عنه أئمةُ الإسلام كأيوب السختياني ، وابن أبي عروبة ، و معمر بن راشد ، والأوزاعي ، ومسعر بن كدام ، وشعبة بن الحجاج ، وحماد بن سلمة، وآخرين .

وكان من أوعية العلم، وقد مَنَحَهُ اللّه تعالى من قوة الحافظة ما يُدْهِشُ الأذهانَ ويُضْرَبُ به المثلُ، كما رُوِيَ عن عمرو بن عبد اللّه، قال: قَدِمَ قتادةُ على سعيد بن المسيب، فجَعَلَ يَسْأَلُه أيّاماً وأكثرَ، فقال له سعيد: أكُلُّ ما سألتَني تحفظُه؟ قال: نعم، سألتُك عن كذا فقلتَ فيه كذا؛ وسألتُك عن كذا فقلتَ فيه كذا؛ حتّى رَدَّ عليه حديثاً كثيراً، فقال سعيد: ما كنتُ أظنُّ أن اللّه خلق مثلك. وقال قتادة نفسه: ما سمعتُ أذناي شيئاً قطُّ إلا وَعَاهُ قلبي.

وكان أشدَّ توقِّياً من القول بالرأي، قال همّام سمعتُ قتادة يقول: ما أفتيتُ بشيء من رأيي منذ عشرين سنةً، وعن أبي عوانة: منذ ثلاثين سنةً، وعن أبي هلال: منذ أربعين سنةً.

وكان له في علوم التفسير تفوُّقٌ و إتقانٌ؛ حتى طار صيته في الآفاق، وقد قال هو: ما في القرآن آيةٌ إلا وقد سمعتُ فيها شيئاً. وقال أبو حاتم: سمعتُ أحمدَ بن حنبل وذكر قتادةَ، فأطْنَبَ في ذكره، فجَعَلَ ينشرمن علمه، وفقهه، و معرفته بالاختلاف والتفسير، وجَعَلَ يقولُ: عالم بتفسير القرآن واختلاف العلماء، ووَصَفَهُ بالفقه والحفظ، فقال: قل ما تجد من يتقدّمه، وأمّا المثلُ فلَعَلَّ.

قال الذهبي: هو حجة بالإجماع إذا بَيَّنَ السماعَ، فإنه مدلِّسٌ معروفٌ بذلك،قال: وكان يرى القدرَ، نسأل اللّهَ العفوَ، ومع هذا فما توقّفَ أحد في صدقه، وعدالته، وحفظه، ولعلّ اللّه تعالى يعذر أمثاله ممّن تلبس ببدعة يريد بها تعظيمَ الباري وتنزيهَه. ثم قال: إن الكبير من أئمة العلم إذا كَثُرَ صوابه؛ وعلم تحريه للحق؛ واتّسعَ علمه؛ وظَهَرَ ذكاؤه؛ و عُرِفَ صلاحه، و ورعه، واتّباعه، يُغْفَرُ زَلُّه لِلّه، ولا نُضَلِّلُه، ونطرحه وننسي محاسِنَه، نعم لا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك. قلتُ: وهي قاعدة حسنة يجب أن تُحْفَظَ. وكان مولده سنةَ ستين، واخْتُلِفَ في سنة وفاته، فقيل: سنة سبع عشرة ومائة، وقيل: سنة ثماني عشرة ومائة (١).

۞ محمد بن سيرين

وهـو الإمـام الـربّاني شيخ الإسلام الزاهد الفقيه أبو بكر محمد بن سيرين البـصري مولى أنس بن مالك . سَمِعَ أبا هريرة، وعمران بن حصين، و ابن عباس، وابـن عـمـر، وطائفةً، وحَدَّثَ عنه أيوب ، وجرير بن حازم ، وابن عون ، و مهدي بن ميمون، ويونس، وغيرهم .

قـال الإمـامُ الـذهبـي: وكـان فقيهاً، إماماً ،غزيرَ العلم، ثقةً، ثبتاً، علّامةً في الـفقه، و رأساً في الورع . وقال ابن جرير الطبري: كان فقيهاً، عالماً، ورعاً، أديباً، كثيـرَ الـحـديث، صدوقاً، شهد له أهل العلم والفضل بذلك وهو حجةٌ. وقال ابن عون: لم تَرَ عيناايَ مثلَ ابن سيرين. وقال أبو قلابة :رأيتُ ابنَ سيرين فما رآه أحدٌ إلا ذَكَرَ اللّٰهَ تعالى.

وكان صاحبَ ورعٍ واتقاءٍ ، قال الأشعث: كان محمد بن سيرين إذا سُئِلَ عن شيءٍ من الفقه الحلال والحرام تَغَيَّرَ لونُه وتَبَدَّلَ، كأنه ليس بالذى كان. وقال بـكـر بن عبد اللّٰه المزني: من سَرَّه أن ينظر إلى أورع أهل زمانه، فلينظر إلى محمد بـن سيـريـن ، فـوالـلّٰـه ما أدركنا من هو أورع منه، وقال مورق العجلي : ما رأيتُ رجلاً أفقهَ في ورعه ، ولا أورعَ في فقهه من محمد بن سيرين.

وعـن هشـام قال: أوصى أنس بن مالك ﷺ أن يـغسّـله محمد بن سيرين، فـقيـل لـه فـي ذلك وهـو محبوس، فقال: أنا محبوس، فقيل: اسْتَأْذَنّـا الأميرَ فأذِنَ لك، فـقـال: إن الأمير لـم يحبسني، وإنّما حبسني الذي له الحق، فأذِنَ له صاحبُ حقّ، فخرج فغسّله. وعن ابن شوذب: كان محمد بن سيرين يصوم يوماً، ويُفطِرُ يوماً ، وكان الذي يُفطِرُ فيه يَتَغَدّى فلا يَتَعَشّى، ثم يَتَسَحَّرُ ويصبح صائماً.

ومـع هـذا الـورع والـزهـد لـم يـكـن جـافـيَ الطبيعة ؛ بل كان كثيرَ المزاح والـضـحك ، كـمـا قال يوسف بن عطية : رأيتُ ابنَ سيرين قصيراً عظيمَ البطن، له وفـرةٌ يفرق شعره ، كثيرَ المزاح والضحك ، يخضب بالحنا. و قالت أم عباد : كنّا نسمع بكاؤه في الليل، وضحكه في النهار. وتُوُفّيَ في شوال سنة عشرومائة (١).

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٥/٢٧٠-٢٨٣، تهذيب التهذيب:٨/٣١٥-٣١٩،تهذ يب الكمال:٢٣/٤٩٩-٥١٧

المفسرون المختلف فيهم و الضعفاء

ثـم لا بـدَّ فـي هذا الصدد من التلويح بالمفسِّرين المختلف فيهم والضعفاء، ليكون الطالبُ على بصيرةٍ. ولا يخفى أن عدد الذين أشرنا إليهم كثير لا يُحصىٰ إلا أن ما لايُدرَكُ كلُّه لا يُترَكُ كلُّه ، فعلينا أن نذكر طائفةً من هذا، وطائفةً من هذا.

ابن جريج

وهـو أبـوالـوليـد عبـد الملك بن عبد العزيز المكي، كان من أوعية العلم، مـفسـراً ، مـحـدثـاً، واخُتُلِفَ في توثيقه، والأكثرون على أنه ثقة ؛ بل قال الحافظ الـذهبـي: مـجـمـع عـلى ثقته . وضعّفه أبو زرعة، ويحيى بن سعيد. وكان مُدَلِّساً قبيـحَ التـدليـس، قـال الدارقطني: تجنّب تدليسَ ابن جريج، فإنّه قبيح التدليس، لا يُـدَلِّسُ إلا فما سَمِعَه من مجروح، وقال يحيى بن سعيد :كان ابن جريج صدوقاً، فـإذا قـال حـدَّثَنِي فهو سماع، وإذا قال أنبأنا أوأخُبَرَني فهو قراءة ، وإذا قال: قَالَ فهو شبه الريح (٢).

الضحاك بن مزاحم

وهـوأبـو الـقاسم الضحّاك بن مزاحم الهلالي الخراساني، يروي عن عددٍ من الصحابة ، ولـم يَثْبُتُ له سماع من أحدٍ من الصحابة ، وما رواه عن ابن عباس، وأبـي هـريـرة ، وغيـرهم ، ففى ذلك كلِّه نظرٌ، وإنما لقي سعيد بن جبير بالري، و أخذ عنه التفسير، واشتهر بالتفسير،وثّقَه أكثرُ الأئمة وضَعّفَه يحيى بن سعيد،

(١) حلية الأولياء:٢٦٣/٢ - ٢٨٠،تذكرة الحفاظ:٧٧/١-٧٨،سير أعلام النبلاء : ٦٠٤/٤ - ٦٢٢ ، تهذيب التهذيب:١٩٠/٩-١٩١

(٢) سير أعلام النبلاء:٣٢٥/٦-٣٣٦،تهذيب التهذيب :٣٥٧/٦ ، ميزان :٤٠٤/٤

و قال : كان شعبة لا يُحدِّثُ عن الضحاك (١).

عطية العوفى

هـو عطية بن سعد بن جنادة العوفي الكوفي ، هو تابعي شهير، روى عن ابن

عباس، وأبي سعيد، وابن عمر، وغيرهم . ضَعَّفَه الجمهور من الأئمة المحدثين، وقال ابن معين: صالح، وقال ابن سعد: ثقة إن شاء الله، وله أحاديث صالحة، وقال أحمد بلغني أن عطية كان يأتي الكلبي، فيأخذ التفسير عنه. وكان يُكَنِّيُ بأبي سعيد، فيقول: قال أبو سعيد، يعني يُوُهِمُ أنّه أبو سعيد الخدري، وقال الحافظ ابن حجر: صدوق يخطئ كثيراً، وكان شيعياً مُدلِّساً من الثالثة (٢).

الربيع بن أنس

وهو الربيع بن أنس البكري الحنفي يَرُوِيُ عن أنس بن مالك، وأم سلمة زوج النبي ﷺ ولم يدركها، وأبي العالية، والحسن البصري، وغيرهم . اختلف فيه أقوال الأئمة، فقال العجلي: بصري صدوق، وقال أبو حاتم: صدوق، وهو أحبُّ إليّ في أبي العالية من أبي خلدة، وقال النسائي: ليس به بأس، وقال ابن معين: كان يَتَشَيَّعُ فيُفْرِطُ، وقال ابن حبان في الثقات: الناس يتّقون من حديثه ما كان من رواية أبي جعفر عنه؛ لأن في أحاديثه عنه اضطراباً كثيراً (٣).

السُدِّى الكبير

وهو إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السُّدِّي، روى عن أنس، وابن عباس، وعنه شعبة، والثوري، والحسن بن صالح، وغيرهم، واخْتُلِفَ في توثيقه وتضعيفه، وثّقَه أحمد، ويحيى القطان، وضعّفه ابن معين، وإبراهيم النخعي، وأبو زرعة . وقيل لإبراهيم :أن السُّدي قد أعطي حظاً من علم القرآن، فقال: قد

(١) تهذيب التهذيب:٢٩٧/٤-٢٩٨، ميزان الاعتدال:٤٤٦/٣

(٢) ميزان الاعتدال:١٠٠/٥-١٠١، تهذيب التهذيب:٢٠١/٧، تقريب:٣٩٣/١

(٣) تهذيب الكمال: ٦١/٩-٦٢، تهذيب التهذيب :٢٠٧/٣، التقريب:٢٠٥/١

أعُطِيَ حظّاً من جهل بالقرآن، وقال الجوزجاني: كذّاب شتّام (١).

السُّدّى الصغير

وهو محمد بن مروان السدي الكوفي وهو السُّدي الصغير، وهو ضعيفٌ

عـنـد الأئـمة ، فَتَـرَكُوه ، واتّهمه بعضهم بالكذب. وقال ابن عدي : ليس بثقة ، و قال : وعامة ما يرويه غير محفوظ ، الضعف على رواياته بَيِّنٌ (٢).

مقاتل بن سليمان

هـو أبـو الـحسـن مـقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي الخراساني صاحب التـفسيـر ، أثنٰى على تفسيره بعضُ الأئمة ، فقال الشافعي : الناس عيال على مقاتل فـي التـفسيـر، وقـال عبـا د بن كثير : ما بَقِيَ أحدٌ أعلمُ بكتاب اللّٰه منه . وقال ابن الـمبـارك : مـا أَحْسَـنَ تـفسيـره لو كان ثقةً . و الجمهور من الأئمة ضعّفوه ، قال البخاري : منكر الحديث، وقال ابن معين: ليس بثقة،وقال عمرو بن علي : كذّاب . قال ابن حجر: كذّبُوه ، و هجروه ، ورُمِيَ بالتجسيم (٣).

الكلبى

وهـو أبـو الـنـضـر مـحمد بن السائب بن بشر الكلبي الكوفي المفسّر، كان مُتَّهَماً بالكذب و التشيُّع . قال سليمان و ليث بن أبي سليم : كان بالكوفة كذّابان : أحـدُهـمـا الـكلبي ، قال ابن معين : ليس بشيءٍ ، وقال البخاري : تَرَكَه يحيى ، وابـنُ مهـدي. وقال أبو حاتم :مجمعون على ترك حديثه ، هو ذاهب الحديث، لا يُشْتَـغَلُ به ،وقال ابن عدي: له أحاديث صالحة، وخاصةً عن أبي صالح، وهو مـعروف بالتفسير، وليس لأحدٍ أطول من تفسيره، وحَدَّثَ عنه ثقات من الناس ، ورضوه في التفسير، وأما الحديث ففيه مناكير ، وقال الجوزجاني: كذّاب ساقط،

(١) تهذيب التهذيب: ١/ ٢٧٤-٢٧٥،ميزان الاعتدال:٣٩٥/١-٣٩٦
(٢) الكامل لابن عدي: ٢٦٣/٦، ميزان الاعتدال:٣٢٨/٦، تهذيب التهذيب:٣٨٧/٩
(٣) تهذيب التهذيب:٢٤٩/١٠-٢٥٣،تقريب: ٥٤٥/١،ميزان الاعتدال:٥٠٦/٦

و قال الأصمعي عن قرة بن خالد : كانوا يرون أن الكلبي يزرف يعني يكذب (١).

عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

وهـو عبـد الـرحـمـن بـن زيـد بـن أسـلـم العدوي المدني، ضعّفـه جمهور

الـمُـحَـدّثيـن ؛ حتـى قال ابن الجوزي: أجْمَعُوا على ضعفه ، وقال ابن عبد الحكم : سـمـعـتُ الشـافـعـي يقول: ذَكَرَ رجلٌ لمالكٍ حديثاً مُنْقَطِعاً، فقال: اذْهَبْ إلى عبد الـرحـمـن بن زيد يُحَدِّثْكَ عن أبيه عن نوح عليه السلام . وقال ابن سعد: كان كثيرَ الـحـديـث ، ضـعيفاً جدّاً. وقال ابن خزيمة : ليس هو مِمَّن يَحْتَجُّ أهلُ العلم بحديثه لسُوء حفظه ، هو رجلٌ صناعته العبادةُ والتقشُّف، وليس من أحلاس الحديث (٢).

فصل

تعريف وجيز بأهمّ وأشهر التفاسير

حيـثُ أنّه ينبغي لمنْ يَتَصَدّى لتحصيل التفسيروعلومه أن تكون عنده معرفةٌ بـأهـم وأشهـر التفاسير المدوَّنة المتداولة لدى العلماء الأعلام ، نرى من الملائم هنا أن نُـعْرِضَها بتعريفٍ وجيزٍ ، بيدَ أنه لا يخفى أنه لا يمكن أن يُسْتَقْصٰى جميعُ الكتب الـمـؤلّفة في الباب ، ولذا فإنَّنَا نقتصر على بعض الكتب التفسيرية التي لاقَتِ التقديرَ والشهرةَ عند أرباب العلم والفضل، فإنّه مالا يُدْرَكُ كُلُّه لا يُتْرَكُ كُلُّه.

١ –جامع ا لبيان فى تفسير القرآن

هـو تفسيرألّفَه الإمامُ المحدِّث الحجة أبوجعفر محمد بن جرير الطبري ، وُلِـدَ رحمه اللّٰه بطبرستان سنة ٢٢٤هـ ، ورَحَلَ في طلب العلم وهوابن اثنى عشر سنةً ، وطوّف في الأقاليم ، وصار إماماً في التفسير والتاريخ ، وجَمَعَ من العلوم ما لـم يُشـاركـه فيهـا أحـدٌ مـن أهل عصره ، فكان عالماً بالقران ، بصيراً بالحديث، فـقيهـاً فـي الأحـكـام ، عـارفـاً بـأقـوال السلف من الصحابة والتابعين ، ناقداً في الرجال، خبيرًا بعلل الحديث. قال ابن خزيمة : ما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير، ومات ببغداد سنة عشر وثلاث مائة (٣١٠)(١).

وتـفسيـره هـٰذا يُـعْتَبَـرُ مـن أهـمّ وأقـدم التفاسير، فله أوّلية من ناحية تقدُّم

---

(١) تقريب: ٤٧٩/١، تهذيب التهذيب: ١٥٧/٩–١٥٨

(٢) تهذيب التهذيب: ١٦١/٦، ميزان الاعتدال: ٢٨٢/٤–٢٨٣

الـزمـان ، وأوّلية من ناحية الصناعة ، و يُعَدّ عند المفسّرين مرجعاً أوّلياً نظراً إلى ما فيـه مـن التـزام إيـراد الأحـاديث والآثار ؛ واستنباط الأحكام والمسائل ؛ وتوجيه الأقـوال والـروايـات ؛ وإيـراد الـقـراءات ؛ والتـمييـز بيـن الصحيح والسقيم ؛ و الاجتناب عن مطاوعة البدع واتباع الأهواء .

قـال ابـن تيـمية : وأمـا التـفـاسير التي في أيدي الناس فأصحُّها تفسير ابن جرير الطبري ، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ؛ وليس فيه بدعة ؛ و لا ينقل عن المتّهمين كمقاتل بن بكير والكلبي(٢) .

وتفسيرهُ هذا يَقَعُ في ثلاثين جزءاً من الحجم الكبير، وقد كان أوسع عمّا هو عليه الآن ، وقد سَلَكَ المؤلّفُ في هذا التفسير مسلكاً وهو :

١ – أنّه إذا أراد أن يُفَسِّرَ الآيةَ يقول: القولُ في تاويل قوله تعالى كذاوكذا ، ثم يـأخُذُ يُفَسِّرُ الآيةَ ، ويستشهد على ذالك التفسير بما جاءَ عن النبي ﷺ و الصحابة في تفسيرالآية بسندِه .

٢ – وإذا كـان فـي تفسير الآية قولان أوأكثر، فإنه يعرض كلَّ ما قيل فيها ، ثم يستشهـد عـلـى كـل قول بما جاءَ عن الصحابة والتابعين ، ثم إمّا يتعرض لتوجيه الأقوال أو لترجيح بعضها على بعض .

٣ – قـد يتـعرض لناحية اللغة والإعراب في الآية إنْ دَعَتِ الحال إلى ذلك ، لا سيـما إذا كان مادةُ الـلـفـظ مـختلفاً ، ويستشهد على ذلك بالآثار عن الصحابة والتابعين ، أو بالأقوال عن الماهرين ، أو بالأشعار عن الشعراء الجاهليين .

---

(١)طبقات المفسرين للسيوطي:٩٦ -٩٧، طبقات المفسرين للأدنروي:٤٨-٥٠

(٢)فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٣٨٥/١٣

٤ – قد يَتَعَرَّضُ لاستنباط الأحكام والمسائل الفقهية التي يمكن أن تُؤُخَذَ من الآية الكريمة، وألفاظها ، ويُوُرِدُ الأدلّةَ عليها تارةً إجمالاً، و تارةً تفصيلاً.

وله ميزات عديدة

١- التـزم صـاحبه أن يُورِدَ في تفسير الآيات ما وَرَدَ عن النبى ﷺ وأصحابه من التـفسيـر الـمـاثور ، والتزم أيضاً ذكرَ الأسانيد إلا أنّه في الأغلب لا يَتَعَقَّبُها بتصحيح وتضعيف ، وقد يَتَعَرَّضُ لتصحيحها وتضعيفها.

٢- التـزم أن لا يُـفَسِّـرَ الآياتِ بمجرّد الرأي ؛ بل يُشَدِّدُ الإنكار على أصحاب الـرأي الـمستـقـليـن في التفكير، القائلين بحُرِّيَّة الفكر في التفسير، ولا يخرج عن مذاهب الصحابة والتابعين والسلف الصالح في تفسير الآية.

٣- ولا يذكر فيه مالا طائل تحته ، ولا يَهُتَمُّ بالأمور التي لا تعني ولا تفيد .

٢-معالم التنزيل

ألّـفَـه الإمـام الـمـحـدث الـفقيه أبو محمد حسين بن مسعود الفرّاء البغوي الـمتـوفـى سـنةَ :٥١٦ هـ ، تَفَقَّهَ على القاضى حسين، وسَمِعَ الحديثَ منه. وكان البـغـوي إمـاماً في التفسير، والحديث، والفقه ، وكان ورعاً، تقياً ، زاهداً، عابداً، وله من المناقب ما لا يُحصٰى(١).

وكتابه "معالم التنزيل" قالَ فيه صاحبُ كشف الظنون:هو كتاب متوسّط فـي التـفسيـر، نـقـل فيـه عـن الـصـحـابة والتـابعين ومن بعدهم ما وَرَدَ في تفسير القران(٢).

وقـال الـخـازن فـي مـقـدمة تـفسيـره واصـفـاً لـمعالم التنزيل : إنه من أجلِّ التـصـانيف في التفسير، وأعلاها، وأنبلها، وأسناها، جامع للصحيح من الأقوال، عارٍ عـن الشبهة والتـصـحيف والتبـديـل ، مُـحَـلّى بالأحاديث النبوية ، مُطَرَّزٌ بالأحكام الشـرعية ، مُـوَشّـى بـالـقـصـص الـغـريبه وأخبار الماضيين العجيبة ، مُرصَّع بأحسن

(١) انظر ترجمته في طبقات المفسرين للسيوطى:٤٩-٥٠

(٢) كشف الظنون:١٧٢٦/٢

الإشارات ، مُخرَّج بأوضح العبارات، مفرَّغ في قالب الجمال بأفصح المقال (١).

وقـال الإمـام ابـن تيـمية : وقـد سُـئِـلَ عـنه أيّ التفاسير أقربُ إلى الكتاب والسـنّة ، الـزمـخشري ، أو القرطبي ، أم البغوي ، أم غير هٰؤُلاء ؟ قال: أما التفاسير

المسئول عنها، فأ سلمُها من البدعة ، و الأحاديث الضعيفة ، البغوي لكنّه مختصرٌ مـن تـفسيـر الثـعـلبـي، و حَـذَفَ مـنه الأحاديثَ الموضوعةَ ، والبدعَ التي فيه ، و حَذَفَ أشياء غير ذلك (٢).

وطريقة مؤلّفه

١ – أنـه يتـعـرّضُ لتـفسيـر الآية بـلـفـظٍ موجزٍ ، وينقل ما جاءَ عن النبى ﷺ و أصـحابه في التفسير من الأحاديث والآثار، ولكن لا يذكر الأسانيد غالباً ، والسِّرُّ فـي ذلك أنـه ذكر إسنادَه إلى كلِّ من يروي عنه في مقدمة تفسيره فلا حاجة إلى إعادته .

٢ – أنّـه يتـحـرَّى الصوابَ والصحيحَ في ما يُرْوٰي عن الرسول ﷺ ، و يُعْرِضُ فـي الأغـلب عن المناكير والأباطيل ، إلا أنّه في بعض الأحيان يَتَسَاهَلُ في ذلك، و يروي عن الكلبي وغيره من الضعفاء .

٣ – وقـد يُـوْرِدُ بـعـض الإسـرائيـليـات من غير أن يتعقب عليها ، ولذا – كما أرٰى– قـال الـكتاني في الرسالة المستطرفة : إنه يُوْجَدُ فيه (أي في تفسير البغوي) من المعاني والحكايات ما يحكم بضعفه ووضعه(٣).

٤ – لا يتـعـرّض فـي الأغلب لمباحث الإعراب، ونكت البلاغة ، ويَتَحَاشَى الـعـلـومَ التـي لا صـلـةَ لهـا بـعـلـم التفسير، نَعَمْ قد يَتَطَرّقُ إلى الصناعة اللغوية و النحوية لكشف السترعن وجه المعاني المرادة ، إذا دعتِ الحالُ إلى ذلك.

٥ – وأحيـانـاً يـذكـر مـا أُوْرِدَ عـلـى ظـاهـر الـنـظـم القرآني من الإشكالات والشبهـات ، ثـم يُـجِيْـبُ عـنهـا بـمـا يشفي العليلَ ، و يُرْوِيُ الغليلَ من الاقتضاء الصناعية أو العقلية .

---

(١) التفسير والمفسرون: ٢٣٦/١
(٢) فتاوى شيخ الإسلام: ٣٨٦/١٣
(٣) الرسالة المستطرفة: ٨٧

٣– تفسير القرآن العظيم

ألّـفه الإمام الجليل الحافظ الناقد عماد الدين أبوالفداء إسماعيل بن عمرو بـن كثيـر الـدمشـقي ، وُلِدَ سنةَ ٧٠٠ هـ ، و تُوُفِّيَ سنةَ ٧٧٤ هـ ، وكان إماماً في

التفسير، والحديث، والتاريخ، وقدوةَ العلماء الراسخين، والحفاظ الناقدين، وعمدةَ أهل المعاني والعلوم . سَمِعَ من ابن السويدي، و ابن الشحنة، والآمدي ، وابن عساكر، وغيرهم، ولَازَمَ المِزي ؛ وأَخَذَ عن ابن تيمية ؛ و فُتِنَ بحُبِّه؛ وامُتُحِنَ بسببه (١).

وتفسيره من أشهر وأهمّ ما دُوِّنَ في التفسير المأثور ، قال السيوطي في طبقات الحفاظ : وله التفسير الذي لم يؤلَّف على نمطه مثله.

وأما الأمور التي يمتاز بها فهي

١ – أنّه يُفَسِّرُ الآيةَ بعبارةٍ سهلةٍ ، ويَهُتَمُّ بتوضيح الآية بآيةٍ أخرى، ويُقارِن بين الآيتين لتبيين المعنى و تحقيق المراد . وهذا التفسيرأكثر سرداً للآيات المناسبة في المعنى الواحد.

٢ – أنّه يذكرالأحاديث والآثار الواردة في تفسير الآية مُسْنَدَةً إلى أصحابها مع الكلام عليها جرحاً و تعديلاً حسبَ ما يقتضيه نظر المحدث الناقد، فيُضَعِّفُ بعضَ الروايات و يُصَحِّحُ بعضاً آخرعلى ما تقتضيه صناعة الحديث.

٤ – أنه يُنبِّهُ في الغالب على ما وَقَعَ في التفسير المأثور من المنكرات التي دخلتُه من باب الإسرائيليات ، ويحذّر منها على وجه الإجمال تارةً ، وعلى وجه التعيين والبيان تارةً أخرى .

٣ – أنّه إذا كان في تفسير الآية أقوالٌ ؛ فإنه يُرَجِّحُ بعض الأقوال على بعض، مع إيراد الأدلّة على ما يذهب إليه من تلك الأقوال .

٤ – أنّه يَدخُلُ في المناقشات الفقهية عند ما يفسّر آيةً من آيات الأحكام ، و يذكر أقوالَ العلماء، و مذاهبَهم تارةً تفصيلاً و تارةً إجمالاً ، ويُورِد أدلّتَهم ، و لكنّه مع هذا مُقتصِدٌ في ذلك كُلّه.

(١)انظر ترجمته في ذيل تذكرة الحفاظ: ١/٥٧-٥٩،طبقات الحفاظ للسيوطى: ١/٥٣٤

٤ – الدرّ المنثور فى التفسير المأثور

هو من تأليفات الإمام الحافظ جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد السيوطي الشافعي . وُلِدَ رحمه اللّٰه تعالى في رجب سنة:

٨٤٩ هــ ، و تُوُفِّيَ سنةَ: ٩١١ هــ ، أخذ عن شيوخ كثيرين، ونالَ الإمامةَ في العلوم العديدة ، والفنون الكثيرة ، حتّى قيل : إنه كان أعلمَ أهل زمانه بعلم الحديث و فنونه ، وبَلَغَ عددُ مؤلفاته ما يزيد على خمس مائة مؤلَّفٍ .

وتفسيره هذا المُسَمّى " بالدر المنثور" يقع في سبعة مجلدات ، و قد عني بجمع ما ورد في التفسير من الأحاديث والآثار عن النبي والصحابة وعن التابعين غيرَ أنه لم يتحرّ الصواب والصحيح ؛ بل جمع كل ما وجد في التفسير صحيحاً أو ضعيفاً أو باطلاً . وهذا تفسيرلخّصَه مؤلِّفُه من كتابه الآخَر في التفسير الموسوم بـ" ترجمان القرآن " كما قال هو في مقدمة " الدر المنثور" ، وإليك نصّه :

" فلمّا ألَّفتُ كتاب " ترجمان القرآن" ... وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ ... وتمّ بحمد الله في مجلدات ، فكان ممّا أوردتُه فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرّجة منها واردات، رأيتُ قصورَ أكثر الهمم عن تحصيله ، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد و تطويله ، فلخّصتُ منه هذا المختصر مقتصِراً فيه على متن الأثر، مُصدّراً بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر" (١).

قلتُ: سَلَكَ فيه العلامة السيوطيُّ طريقَ الجمع من دواوين الرواية ؛ لأنه كان رَجُلاً مُغْرَماً بالجمع و كثرة الرواية ، ثم هو – كما أشرنا قبل– لم يتحرّ الصحّةَ فيما جمع في هذا التفسير ؛ بل جَمَعَ فيه كلَّ ما جاءَ في التفسيرالمأثور صحيحاً كان أو ضعيفاً أو باطلاً ، وخَلَطَ بين الحق والباطل كما هو دأبه في أكثر كتبه . ولذا فعلى الباحث والناظر فيه أن لا يَقْبَلَ كُلَّ ما يجد فيه من غير إجراء عمل التحقيق .

(١) مقدمة الد ر المنثور:٣

٥– مفاتيح الغيب

هو لمؤلِّفه الإمام أبي عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسين بن على التميمي الرازي المتوفّى سنةَ : ٦٠٦ هـ، جَمَعَ كثيراً من العلوم،

و نَبَغَ فيها، وصارَ إماماً في كثير من العلوم الشرعية والعقلية ، لا سيما في التفسير، والـكلام ، واللغة . قال ابن خلكان: شهرته تُغْنِي عن استقصاء فضائله ؛ و تصانيفُه في علم الكلام و المعقولات سائرة (١).

وتـفسيـره "مـفـاتيـح الـغيـب" المعروف بـ" التفسير الكبير" جمع فيه من الـعـلـوم والأصـول ، ومـن الاستـنبـاطـات والـمـعـاني، ومن المباحث الفياضة ، والـنـكـات الـغـريبة ، مـا يـمتاز بها عن غيره من التفاسير ، إلا أنه خرج بذلك عن التـفسيـر وعـلـومـه . ولـذا نـقل السيوطي عن أبي حيان : جمع الإمام الرازي في تـفسيـره أشياء كثيرةً طـويـلةً لاحـاجة بهـا فـي عـلـم التفسير ، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير(٢).

و بـالـرغـم مـن ذلك لا يُـنْـكَرُ أنّه كتاب أشبه ما يكون بموسوعة في علم الكلام والعلوم الكونية الطبيعية ، إلا أنّه لم يُكمّله، كما قال ابن خلكان: جمع فيه كـل غـريـب وهـو كبيرجداً لكنه لم يُكمّله ، وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن مـحـمـد الفمولي تكملةً له ، وتوفِّيَ سنةَ: ٧٢٧ هـ، وقاضي القضاة شهاب الدين بن خليل الدمشقي كمل ما نقص منه أيضاً (٣).

وأما ميزاته فنُجْمِلُها فيما يلي من الأمور:

١ – أن الإمـام الـرازي يـذكـر فيه المناسبةَ بين الآيات بعضها مع بعض؛ وبين السُّـوَر بعضها مع بعض، بل كثيراً ما يذكر أكثرَ من مناسبةٍ ، وهو علمٌ لطيفٌ جدّاً قـلَّ من تنبّه لذلك . ولقد قال هو – كما كحاه الزركشي والسيوطي– إنّي رأيتُ جمهُورَ المفسرين مُعْرِضِينَ عن هذه اللطائف غيرَ مُتَنبِّهين لهذه الأسرار.

(١) طبقات المفسرين للسيوطي: ١١٥

(٢) الإتقان:٢٤٤/٢

(٣) كشف الظنون: ١٧٥٦/٢

٢ – أنـه يُكْثِرُ من الاستطراد إلى العلوم الرياضية، والطبيعية، وغيرها من العلوم الـحـادثة ، عـلـى الوجه الذي كانت هي في عهده ، ويعرض من أقوال الفلاسفة، والمناطقة ما يناسب الآيةَ في نظره . ثم هو قد يُنَازِعُهم في تلك العلوم والأقوال ،

وقد يُوَافِقُهم فيها إذا كانتُ توافق مع مذهب أهلِ السنة ، إلا أنه كان في إيراد الإشكالات من المخالفين وتقرير دلائلهم نشيطاً قوياً ؛ وفي الجواب عنها من أهل السنة والجماعة ، وفي إيراد أدلّتهم متكاسلاً ومقصراً ، و لذا قال ابن حجر : وكان يُعابُ بإيراد الشبهة الشديدة ، وبقصر في حلِّها ؛ حتى قال بعض المغاربة يُورِدُ الشبهةَ نقداً، و يحلّها نسيئةً ، ونُقِلَ عن سراج الدين المغربي أنه كان يقول : يورد شبهةَ المخالفين في المذهب والدين على غاية ما يكون من التحقيق ، ثم يُورِد مذهبَ أهل السنة والحق على غاية من الوهاء(١).

٣- أنّه يذكر مذاهبَ العلماء والفقهاء في المسائل الفقهية ، مع إيراد الأدلة إلا أنه يرجح في الغالب ما ذَهَبَ إليه الإمام الشافعي لكونه شافعياً.

٤- أنّه يذكر المسائلَ الأصولية ، والمسائلَ النحوية ، والبلاغيةَ ، استطراداً ، إلا أنّه قليل بالنسبة إلى ما يذكره من المسائل الكونية والفلسفية .

٦- أنوار التنزيل و أسرار التأويل

للقاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي، المتوفّى سنةَ :٦٨٥ هـ أو سنة :٦٩١ هـ . وكان إماماً ، مبرزاً، نظاراً ، صالحاً، متعبداً ، كثيرَ العلم ، وغزيرَ العلم، وله مصنفات جليلة في العلوم المختلفة (٢).

ومِن أهمّ ما صَنَّف كتابُ التفسير أسماه" أنوار التنزيل و أسرار التأويل" جَمَعَ فيه بين التفسير والتأويل ، وهو في الأصل مختصر من تفسير الكشّاف للزمخشري، ولكنه حَذَفَ منه ما كان فيه من النزغة الاعتزالية ، ومع هذا لم يسلم في بعض المواضع من الوقوع فيما وقع فيه الزمخشري من الانحراف عن مسلك أهل الحق والسُّنة ، كقوله : حملُ الملائكة العرشَ ليس على الحقيقة ؛ بل هو مجاز عن حفظهم وتدبيرهم للعرش .

(١) لسان الميزان: ٤٢٨/٤

(٢) انظر ترجمته في كشف الظنون:١٨٧/١

قال في كشف الظنون: وتفسيره هذا كتابٌ عظيم الشأن غنيٌّ عن البيان، لخّص فيه من الكشّاف ما يتعلق بالإعراب والمعاني، والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلق بالحكمة، والكلام، ومن تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق، وغوامض الحقائق، ولطائف الإشارات الخ(١).

وأما ميزاته فنقولُ:

١ – أنّه يُورِدُ ما بلغه من عظماء الصحابة، و علماء التابعين، ومن بعدهم، من السلف الصالحين في تفسير الآيات من كلام اللّٰه العزيز، ولا يذكر من الإسرائيليات إلا بالإشارة إلى ضعفها.

٢ – أنّه يهتمُّ أحياناً بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها؛ بل ربما يذكر الشاذَّ. والوجه فيه – كما نرى – هو عدم الاهتمام بذكر المتواتر، لا عدم العلم كما يقوله البعض.

٣ – أنه يتعرض للصناعة النحوية، وما يتعلق بالمعاني، والبيان، وما يتعلق بالاشتقاق، عند كثير من الآيات إلا أنه لا يُوَسِّعُ فيه كما توسّع صاحب الكشّاف؛ بل يكتفي منه على قدر الضرورة.

٤ – أنه يعمل فيه رأيَه وعقلَه حتى يستنبط من كلام اللّٰه تعالى نكتاً بارعةً، و لطائف رائعةً، ثم يوردها في أسلوبٍ رشيقٍ، ونمطٍ وجيزٍ، وعبارةٍ دقيقةٍ قد لايهتدى إلى حقيقتها إلا ذوبصيرةٍ ثاقبةٍ، وفطنةٍ نيّرةٍ.

٥ – وقد يتعرض للمسائل الفقهية بدون توسّعٍ و استفاضة، ويميل في الأغلب لتأييد مذهب الإمام الشافعي وترويجه لكونه مقلِّداً له.

٦ – أنه قد يتعرض للمسائل الكلامية، ويهتك الأستار عن أسرارالمعقولات، وغوامض الحقائق، ولطائف الإشارات باعتدالٍ و توسّطٍ.

(١) كشف الظنون: ١/١٨٧-١٨٨

٧ – أنه إذا مَرَّ بآيةٍ من الآيات التي فيها ذكرُ نعماء اللّٰه تعالى، ومظاهرالكون، فإنّه يخوض في مباحث الكون، والطبيعة، حسبَ ما سلك الإمام الرازي في مثل

هذه الآيات.

انتباه: قال في كشف الظنون : وأما أكثر الأحاديث التي أوردها في أواخر السُّوَر، فإنّه لكونه مِمَّن صفت مرآة قلبه ، وتعرض لنفحات ربه ، تَسَامَحَ فيه ، و أعْرَضَ عن أسباب التجريح والتعديل، ونَحَا نحوَ الترغيب(١).

٧- البحر المحيط

صنّفَه العلامةُ الشهيرالإمام الجليل أثيرالدين أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن علي الأندلسي الشهير بأبي حيّان المتوفى سنةَ :٧٤٥ هـ . وقرأ القرآنَ على الخطيب عبد الحق بن علي، ثم على الخطيب أبي جعفر بن الطباع ، ثم على الحافظ أبي الأحوص ، وسمع من كثير من العلماء ، فصار إماماً في العلوم الكثيرة من اللغة ، والنحو، والتصريف، والتفسير، و الحديث، وتراجم الرجال ، وغيرها(٢).

قال الذهبي :" هو الإمام العلامة ، ذوالفنون ، حجة العرب ، عالم الديار المصرية ، وصاحب التصانيف البديعة ، وله عملٌ جيّدٌ في هذا الشأن ، وكثرة طلب، وقال العلائي : كان علامةً كثيرَ النقل والاطلاع جدّاً إلى ما لا يُوُصَفُ، لكنّه ظاهر التصرّف جامدٌ في البحث ، وكان لسانه مسترسلًا في الوقيعة في الناس جدّاً إلى آخر عمره ، لا يَتَوَرَّعُ عن ذكر أحدٍ، سواء كان من أئمة الإسلام المتقدمين، أو المتأخرين" (٣).

وتفسيره هذا متداول بين أهل العلم ، و يُعَدُّ عندهم مرجعاً أوّلياً نظراً إلى ما فيه من ذكر وجوه الإعراب ، وتحقيق اللغات ، والإشارة إلى ما يتعلق بعلم البيان ، والمعاني ، والبديع ، والتفسيرالمأثور، والتوجيه بين الأقوال التفسيرية ، والقراءات المختلفة ، والمباحث الفقهية ، وأقوال الفقهاء الأربعة مع إيراد الأدلة على مذاهبهم ، وغير ذلك من العلوم والمباحث .

(١) كشف الظنون:١٨٧/١
(٢) انظر ترجمته في ذيل تذكرة الحفاظ:٢٥-٢٦، الوفيات للسلامي:٤٨٣/١-٤٨٤
(٣) ذيل تذكرة الحفاظ:٢٥/١-٢٦

٨- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

مـؤلِّفُ هـذا التـفسير هو الإمام أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي المتوفّى:٩٨٢ هـ ، وكان من بيتٍ عُرِفَ أهلُه بالعلم والفضل ، تَلَمَّذَ لكثير من العلماء الأجلَّة ، واستفاد منهم علماً جَمًّا ، فطار صيته شرقاً و غرباً، وصار إماماً في التفسير، وغيره من العلوم .

وكتابه هذا في التفسير المُسمَّى " بإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " غايةٌ في بابه ، ونهايةٌ في حسن الصوغ ، وجمال التعبير، وفيه من أسرار البلاغة القرآنية ، والنكات البديعة ، والإشارات اللطيفة ، والفوائد البهية ما ليس في غيره . وله من الشهرة و المنزلة بين أهل العلم ما لم ينل غيره ، وهو كتاب نفيس ليس بالطويل المُمِلِّ ولا بالقصير المُخِلِّ، ووقع له التلقّي بالقبول من العلماء الفحول، و شهد له كثير منهم بأنه كتاب لم يبلغ غيره من الكتب المدونة في التفسير إلى ما بَلَغَه من رتبة الاعتبار (١).

ولها من المزايا ما يلي:

١ – منها أنه يكثر مؤلِّفه فيه من أسرار البلاغة القرآنية، ويهتمّ بالكشف عنها غايةَ الاهتمام ؛ حتى يظهر سرُّ إعجازه في نظمه و أسلوبه ، وكذا نلحظ عليه أنّه يتعرض أحياناً للناحية النحوية إذا كانت الآية تحتمل وُجُوهاً من الإعراب .

٢ – منها أنّه كثيراً ما يهتمّ بإبداء وجوه المناسبة بين الآيات من غير إسهاب و إطناب ، كما أنه يتعرض أحياناً لذكر القرء ات المختلفة بدون توسّعٍ و إفراطٍ فيه .

٣ – منها أنه لا يكثر من ذكر الإسرائيليات، وإن دعتُ إلى ذكرها من مصلحةٍ لايذكرها إلّا مقروناً بالإشارة إلى ضعفها . ولذا فإنّه لا يعقب عليها بعد ذكرها في الغالب ، لعلّه يكتفي بهذه الإشارة. وقد يتساهل في ذلك ويَرُوِيُ بعضَ القصص عن الضعفاء كالكلبي، وغيره من غير تعقّب عليها، ولكنّه قليل

(١) انظر كشف الظنون:٦٥/١

بالنسبة لما يتعقّب عليها بالإشارة.

٤ – منها أنه لايُكثِرُ من ذكر الخلاف بين الفقهاء؛ ولا يُوْلِعُ بذكر المسائل الفقهية، والمناقشات المذهبية، نعم يتعرض لذلك على سبيل الإجمال والإيجاز.

٥ – منها أنه لا يخلط التفسيرَ بما لا يتّصل به من العلوم الكونية، والرياضية، والفلسفية، وغيرها، وكذا لا يُسْرِفُ فيما يضطرّ إليه من التكلم عن بعض النواحي العلمية؛ بل يكتفي منها على قدر الضرورة.

٩– روح المعاني

وهو من تأليفات الإمام المفسّر المحقق أبي الثناء شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي المتوفّى سنة: ١٢٧٠هـ، وكان شيخَ العلماء في العراق، و آيةً من آيات اللّه العظام، ونادرةً من نوادر الأيام. جَمَعَ كثيراً من العلوم والفنون، و صارعلامةً في المنقول والمعقول، وإماماً في الفروع والأصول (١).

وتفسيره "روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" من أهمِّ ما صُنِّفَ في الباب، وأجلِّه وأوسعِه وأجمعِه، أفْرَغَ مؤلِّفُه فيه كلَّ ما كان في وُسْعِه، وبَذَلَ كلَّ مجهوداته ليكون هذا التفسير جامعاً لآراء السلف الصالح روايةً و درايةً، مشتملاً على أقوال الخلف بكلِّ أمانةٍ و عنايةٍ، حاوياً على الأشتات من العلوم، وعلى الأطراف من الفنون، وناظماً فيه ما يفهم بطريق العبارة و ما يفهم بطريق الإشارة.

وأما الميزات فهي ما يلي

١ – أنّه يَتَعَرَّضُ مؤلفُه فيه غالباً لإبداء المناسبة بين الآيات، بعضها ببعض، وبين السُّوَر بعضها ببعض، ويكثر من ذلك، وقد يذكر في ذلك وجوهاً عديدةً.

(١) التفسير والمفسرون:٢/٣٥٢-٣٦١

٢ – أنّه كثيراً ما يتعرض لمباحث اللغة، والنحو، والتصريف، والعلوم البلاغية

بـحيـث ينكشف المراد؛ و يظهر سرُّ الإعجاز، ويُكثِر من الكلام في مسائل النحو وصناعته، ويَتَوَسَّعُ في ذلك إلى حدٍّ يكاد يخرج تفسيره عن وصف كونه تفسيراً، ويستشهـد عـلـى الـمـعـانـي الـلغوية، وعلى القواعد النحوية، و الأصول الصرفية بأشعار العرب ، وهو شديد العناية بذلك.

٣ – قـد يـذكـرالـقراء ات المختلفة ، ولكنّه لا يتوسّع فيه ، ولا يتقيد بالمتواتر منها، و يُوَفِّقُ بينها توفيقاً حَسَناً، إذا دعتِ الحاجةُ إليه.

٤ – ويُـوُرِدُ أسبـابَ الـنـزول لـلآيـات التـي أنـزلـتُ عـلى السبب من كتب الأحـاديـث والتـفسيـر ، وإذا كـان في سبب النزول أقوال يُحَاكِمُ بينها، فيُصَحِّحُ بـعـضهـا، و يُضَعِّفُ بعضَها. ويلتزم أن يفسّرالآيات على وفق ما جاءعن النبي ، و أصحابه ، وماجاءَعن السلف .

٥ – يستـوفـي الـمـذاهـب الـفـقهية، وأدلتها، إذا تكلّم عن آيات الأحكام من القرآن الكريم ، من غير أن يتأثر بنزغة التعصب المذهبي.

٦ – أنـه شـديـد النقد للإسرائيليات التي تُخَالِفُ الشرعَ ؛ وللأخبار المكذوبة التي لا أصل لها ، وإذا يُوُرِدُ من ذلك شيئاً نبّه على ما فيه من المناكير.

٧ – ويُـكْثِـرُ الـكلامَ على المسائل الكلامية ، و يُنْكِرُ على الفرق الضالة المضلّة، كالمعتزلة ، والرافضة ، والخوارج ، والقدرية ، والجهمية ، وغيرهم ، ويتعقّب عليهم بأدلّةٍ باهرةٍ ، و براهينَ قاطعةٍ ، وأجوبةٍ مُفحِمةٍ.

٨ – أنـه قـد يستطرد إلى الكلام في الأمور الكونية ، ويذكر كلام أهل الهيئة ، والحكمة ، من الفلاسفة والمناطقة . ثم هو قد يُقِرُّ به، ويَقْبِلُ منه ما يرتضيه ؛ و قد ينقد عليه ، و يُنْكِرُ منه ما لا يرتضيه .

٩ – أنّه يَتَكَلَّمُ عن التفسير الإشاري الصوفي بعد الفراغ من الكلام عن كلِّ ما يتعلق بظاهر الآية ، و يحترم في ذلك كلامَ الصوفية الصافية ، قَدَّسَ اللّٰه أسرارَهم .

١٠ – التفسير المظهرى

ألّـفَهُ الشيخ العلامة القاضي محمد ثناء اللّٰه العثماني الفاني فتّي المتوفّٰى سنة ١٢٢٥هـ ، اشتـغـل بـحـفـظ الـقرآن الكريم في طفوليته ، وأكمله وهو ابن سبع

سنين، ثم رشّح العنايةَ لأخذ العلوم الشرعية والعقلية ، لدى علماء مصره "فاني فت" ، فتَبَحَّرَ فيها و تَبَرَّعَ ، وتَفَوَّقَ فيها و تَخَصَّصَ ، ثم ارتحل إلى دهلي ، ولزم العلامة الأوحد المحدّث الناقد الشاه ولي اللّٰه الدهلوي ، فسمع منه الحديث، وتفقّه عليه . وأخذ الطريقة النقشبندية أوّلاً من الشيخ خواجه محمد عابد السنامي ، ثم ارتمٰى في حضن الشهيد الشيخ العلامة ميرزا جان جانان مظهر رحمه اللّٰه تعالى، ثم رجع إلى وطنه ، وتولّٰى القضاءَ ، والإفتاءَ ؛ وأفنٰى أوقاته في نشر و ترويج العلوم الشرعية ، وتاليف الكتب القيمة العديدة في مختلف العلوم و الفنون . وكان عالماً بارعاً ، و فاضلاً مُحقّقاً ، ومفسراً ماهراً ، و محدثاً ناقداً ، و فقيهاً نبيلاً ، وورعاً ، تقياً ، زاهداً ، مُقبِلاً على اللّٰه .

وتفسيره الموسوم باسم "التفسير المظهري" تفسير مبسوط يحتوي على عشرة مجلدات ضخمة ، وسمّاه بـ "التفسير المظهري" يعتزي إلى شيخه العلامة ميرزا مظهر جان جانانؒ . وأما الميزات التي يمتاز بها هذا التفسير فهي على ما يلي:

١ – أنه يهتمُّ صاحبُه أن يُوضِح مرادَ الآية بعبارةٍ واضحةٍ ، وأكثرُ ما يلتزم في هذا الصدد أنه يفسّر الآية بالآية الأخرى .

٢ – أنه يسرد الأحاديث ، والآثار ، التي رُوِيتُ في التفسير معزياً إلى من خرّجها مِن أئمة المحدثين ، و أنه يُورد الأسبابَ التي أُنزلتُ عليها الآيات عن كتب الأحاديث ، والآثار . وأنه يذكر كلامَ الأئمة في تحقيق الأحاديث ، والآثار صحّةً و ضعفاً ، وأنه يتحرّى الصوابَ والصحيحَ من ذلك .

٣ – أنه يَتَجَنَّبُ الإسرائيلياتِ غالباً ، وربما يذكرها إذا لم تخالف أصولَ الإسلام ، وأما إذا خالفتِ الكتابَ والسنةَ ، فهو أشدُّ إنكاراً عليها .

٤ – أنه كثيراً ما يستطرد إلى الكلام على المسائل الفلسفية ، والمنطقية ، مع الرد عليها بأدلّة كافيةٍ شافيةٍ ، وكذا يُكثر الكلامَ على المسائل الكلامية مع الرد على الفِرَق الضالّة المُضلّة ، ومع تائيدِ ماذهب إليه السلفُ الصالح من الحق و الصواب .

٥ – أنّه مُوْلِعٌ بإيراد القرا ءات المختلفة ، والكلام عليها مع التوفيق و التطبيق

بينهما ، إذا دعت الحاجةُ إليه.

٦- أنه يذكر المسائل الفقهية ، ومذاهبَ الأئمة فيها ، مع إيرادالأدلة بكل أمانةٍ، ومع إقامة الحجة على الراجح والصواب من ذلك بكل دقّةٍ .

٧ - أنه لا يتعرض في الغالب للمباحث التي لا صلة لها بعلم التفسير، وإنما يذكر أحياناً ما ظهر له من النكات البديعة ، والأسرار الغامضة ، في هذا الصدد .

١١- بيان القرآن

هو من مؤلّفات حكيم الأمّة مُجَدِّد الملّة الشيخ العلامة أشرف علي التهانوي المتوفّى سنة: ١٣٦٢ هـ ، وُلِد في بيئةٍ دينيةٍ خالصةٍ ، بقرية " تهانه بهون" التابعة لمدينة " مظفر نغر" ، وحَفِظَ القرآنَ الكريمَ ، وتعلّمَ مبادئ الفارسية ، والعربية على أيدي أساتذةٍ مَهَرَةٍ ، ثم رَحَلَ إلى " دار العلوم ديوبند " وهو قد بلغ الخامسَ عشرَ من عمره ، وتلقّى جميع الفنون العربية ، والأدبية ، و العلوم العقلية والشرعية ، وتلمّذ على العلماء الكبار الذين جَدّدُوا ذكرياتِ القدماء في سعة اطلاعهم ، وجودة إتقانهم ، ودقّة فهمهم . منهم الإمام الكبيروالفقيه الجليل والفيلسوف الشهير مولانا محمد قاسم النانوتويّ ، و الإمام الجليل والمجاهد العظيم العلامة محمود حسن الديوبنديّ ، والمحقّق البارع العلامة الشيخ المحدِّث محمد يعقوب النانوتويّ ، وغيرهم . فتَمَهَّرَ في العلوم الشرعية ، وفاقَ في الفنون العقلية ، و دَحَرَ الأقرانَ والأخدانَ . وكان من نعومة أظفاره مُكِبّاً على العلوم ، ومُولعاً بالطاعات ، وبعيداً عن اللهو واللعب ؛ حتى صار أكبرَ مرجعٍ للعلماء والعامة في الهند ، وأعظم مركز للدين والملّة ، و لُقِّبَ بحكيم الأمة و مُجَدِّد الملّة . وقد شهد العلماءُ في ذلك الوقت بأنه وحيد عصره في العلوم والفنون ، وفريد دهره في الزهد والعبادة ، بحيث لا يجارى فيها ولا يبارى.

وكان رحمه اللّٰه تعالى أكثرَ الناس تاليفاً في عصره ؛ حتى ترك خلفَه **نحوَ** ألف كتبٍ مطبوع ، ما بين صغيرٍ وكبيرٍ . ومن ذلك تفسيره الموسوم باسم "

بيــان الـقـرآن" بـالـلـغة الأردية ، التـي هـي لســان أوسـاط المسلمين في الهند وبـاكستـان ، وهـو تفسيرٌ بديعٌ مُوُجَز في أربعة مجلداتٍ ضخمةٍ ، يحوى أبحاثاً علميةً هامّةً ، وأفكاراً دقيقةً نادرةً ، وفوائدَ مُبتكرةً غريبةً ، ومعارفَ بديعةً خلّابةً. وقـد جمع العلامة المرحوم فيه من التفسير، والنحو، والبلاغة ، والفقه ، والكلام ، والتـصـوف ، بـقـدر مـا يحتاج إليه الإنسان لحلّ مباحث القرآن الكريم ، ولأخذ مغزاه ، ومرماه.

وهـو بـالـرغـم مـن أنه يحتوي على هذه العلوم والمعارف يشتمل على عبـارـةٍ مـوجـزـةٍ علميةٍ جامعةٍ ، مع حسن تعبير يستهويك وسلامة تفكير يروعك ، وهو مصداق ما قيل: خيرُ الكلام ما قَلَّ و دَلَّ.

وبـالـحـق أقـول :إنـمـا يعرفُ الرجلُ مقدار هذه البُطُولة ، وفخامة هذه المأثرة إذا رجع إليها بعد ما طلب التفسير من المطولات الضخمة ، التي جمع فيها الغثّ والسمين ، وخلط الحق بالباطل ، ومزج الحابل بالنابل ، حتّى ربما يـصير الطالب والباحث فريسةَ الحيرة ، ولا يقدر على التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والسقيم ، والغثّ والسمين .

وبالإضافة إلى ما قلنا فلهُ من المزايا الأخرى ما نقولُ:

١- هـو تفسيرجامع لصحيح أقوال السلف الصالح في تفسير الآيات. ويكتفي صاحبه في الأغلب على ذكر قول راجح أو صحيح ، و يُغْفِل عن غيره .

٢- وهـو حـاوٍ عـلـى الأحـاديـث والآثـار التـي جـاء ت في تفسير الآيات عن النبيﷺ ، و أصحابه ﷺ ، ومن تبعهم بإحسان ، مسندةً إلى من رواه من المُحَدِّثِين.

٣ - أنّ صـاحبـه مـجانبٌ كُلياً عن التفسير بالرأي ، وعن الإسرائيليات التي لا تُوَافِقُ مع الشرع ؛ بل يُشَدِّدُ الإنكارَ على ذلك.

٤ - أنّـه يهتـمّ كبيـرَ الاهتـمـام بإبداءِ المناسبة بين الآيات بعضها ببعض ، وبين السُـوَر بعضها ببعض، وله رحمه اللّه في مناسبة الآيات والسُوَر كتابٌ لطيفٌ جامعٌ سماه " سبق الغايات في مناسبة الآيات " .

٥ – أنـه يُورد الأسبابَ في تفسير الآيات ، التي نَزَلتْ عليها ، مع القصد والاتّزان في إيرادها .

٦– أنـه يذكر بعدَ ما يتكلّم عن التفسير المأثور، ما ظَهَرَ له ولغيره من الصوفية الصافية من التفسير الإشاري ، و أكثر ما يأخذ من تفسير " روح المعاني " للآلوسي البغدادي .

٧– أنّـه يـأتـي مـن العبـارات الـجـامـعة الـدقيـقة في تفسير الآيات بما يُزيل الإشكـالات ، والاعتـراضـات ، التي أوُرِدَتْ على القرآن والإسلام ؛ و بما يذهبُ بـالطعون والشبهات ، التي أثِيْرَتْ من اليهود ، والنصارىٰ ، وغيرهم من الكفار على تعاليم وأحكام الإسلام .

٨– أنـه التـزم كـلياً أن لا ينحرفَ في التفسير عمّا كان عليه أسلافنا الصالحون من الصحابة، و التابعين ، وجمهور العلماء من لدن عهد النبي إلى يومنا هذا .

١٢– معارف القرآن

هـو تـفسيـر بـالـلغة الأردية ، مـقبولٌ مشهورٌ بين أوساط المسلمين في الهـنـدو بـاكستـان ، وبيـن مَـنُ لسانهم " الأردو" في عالم الإسلام . ألّفَه العلامة الشيـخ الـمُفتي محمد شفيع الديوبنديؒ المتوفى سنة :١٣٩٦ هـ ، وُلِدَ في قرية "ديـوبـنـد"، و نَشَـأَ بهـا فـي بيئةٍ علميةٍ دينيةٍ ، و حَفِظَ القرآنَ الكريمَ ، وقرأ على والـده الشيـخ مـحمد ياسين رحمه اللّٰه أكثرَ الكتب الفارسية والعربية من المقرر الـدراسـي في مدارس الهند، ثم التحق بـ" دار العلوم ديوبند" ، وهو ابن ستة عشر، لتـكـميـل العلوم العالية ، وتلمّذ على جماعةٍ من العلماء الكبار، منهم إمام العصر الـعـلامة المحدث أنور شاه الكشميريؒ ، والشيخ المفتي عزيز الرحمن العثمانيؒ، وشيـخ الإسلام المحدث شبير أحمد العثمانيؒ ، و الشيخ العلامة الكبيرالمحدث الـجـليـل سيـد أصـغـرحسيـن الديوبندي ، والشيخ العلامة الشهير الأديب الكبير الـفـقيـه النبيل محمد إعزاز علي الأمروهي ، و غيرهـم . ثم أَخَذَ الـطريقةَ من شيخ الشيوخ العلامة المجدد أشرف علي التهانوي ونال الخلافةَ منه .

وكان رحمه اللّٰه عالماً، فقيهاً، مفسراً، محدثاً، مصنفاً، ومدرساً، عابداً، زاهداً، تقياً. وصَنَّف كُتباً كثيرةً في مختلف العلوم، لا سيما في الفقه والفتاوىٰ، ومن ذلك تفسيره "معارف القرآن"، وهو يحوي ثمانيةَ مجلداتٍ ضخيمةٍ، وله من الميزات ما نذكر فيما يلي:

١- أنه أولًا يُوضِح المرادَ بالآية بعبارةٍ جامعةٍ واضحةٍ، بحيث يَشْفِي العليلَ، و يُروِي الغليلَ، ويَبلغُ القارئ إلى مَغزَى القرآن الكريم وهَدفِه.

٢- أنّه يُورِد في الغالب ما وَرَدَ في التفسير من الأحاديث، والآثار، عن النبيﷺ، والصحابة ﷺ، والتابعين، عزواً إلى الكتب التي أخذ منها.

٣- أنه يلتزم أن يكون التفسير مُوافقاً لِمَا ذَهَبَ إليه أسلافُنا الصالحون، ولا ينحرف عن ذلك شيئاً، ولا يُجَوِّزُ ذلك قطعاً.

٤- أنّه لا يخلط التفسير بالمباحث والعلوم، التي لا علاقة لها بالتفسير وعلومه، إلا أنه قد يستطرد إلى العلوم الكونية الحديثة، بقدر ما تحتملها ألفاظُ القرآن الكريم، وبقدر ما يحتاج إليها المرء للاهتداء والاعتبار بها.

٥- أنه يهدف في الغالب إلى إخراج المعاني والعلوم، وإلى إبداء الأسرار و المعارف، التي فيها وسائل الهداية والإصلاح لنوع البشر، وهو عين ما يهدف إليه القرآن الكريم.

٦- أنه لا يذكر الإسرائيليات؛ بل يُشَدِّدُ الإنكارَ عليها في الغالب، إذا لم توافق مع الشريعة الإسلامية، وأمّا إذا وافقتْ، أو لم تخالفْ فقد يذكر منها شيئاً، إذا كان فيها من مصلحةٍ دينيةٍ من دفع إشكال، أو اقامة حجةٍ، وغير ذلك.

٧- أنّه جَمَعَ فيه بين ترجمة القرآن الكريم التي ألّفه الشيخ العلامة المحدث المفسر رفيعُ الدين الدهلوي نجلُ الشيخ العلامة الشاه ولي اللّٰه الدهلوي، وخلاصة التفسير عن العلامة الشيخ أشرف علي التهانوي في تفسيره "بيان القرآن"، و إضافةً إلى ذلك جمع فيه آراء السلف الصالحين، و أقوال **الخلف** الراشدين، بكل أمانةٍ و عنايةٍ.

١٣- معارف القرآن الإدريسى

من تصانيف الشيخ الأجلّ الحافظ المحدِّث المفسِّر المتكلم محمد إدريس الكاندهلويّ المتوفى سنةَ :١٣٩٤ هـ ، حفظ القرآن الكريم ، وهو ابن تسع سنين ، ثم ارتحل إلى " تهانه بهون" ، والْتَحَقَ بمدرسة العلامة الشيخ أشرف علي التهانوي ، و تعلَّم النحوَ ، و الصرفَ ، والمنطقَ ، من العلوم الآلية ، ثم لَحِقَ بمدرسة " مظاهر علوم " بمدينة " سهارنفور" للعلوم العالية من التفسير ، و الحديث ، والفقه، والأصول ، و غير ذلك ، واستفاد من فطاحل العلماء مثل العلامة المحدث مولانا خليل أحمد السهارنفوري ، والعلامة الشيخ عبد اللطيف السهارنفوري ، والعلامة ثابت علي وغيرهم . ثم التحق بـ " دار العلوم ديوبند" لإتقان علوم القرآن ، والحديث ، وتلمّذ على المحدث الكبير أنور شاه الكشميري ، والعلامة المحدث شبير أحمد العثماني، والشيخ المفتي عزيز الرحمن العثماني وغيرهم .

فَبَرَعَ و فَاقَ في العلوم ، و تَخَصَّصَ و تَمَهَّرَ في الفنون ، و بعد تخرجه في العلوم اشتغل بالتدريس والتصنيف ، وظهرتُ من قلمه السيّال كتبٌ عديدةٌ في شتى العلوم والفنون ، و من ذلك تفسيره "معارف القرآن" الذي نحن بصدد تعريفه، ومن ذلك " التعليق الصبيح على مشكاة المصابيح" .

وتفسيره هذا تفسير مبسوط يحتوي على ثمانيةِ مجلداتٍ كبيرةٍ ، وأما المزايا التي بها هبَّتُ عليه ريحُ القبول فهي ما يلي:

١- أنه التزم أن يوضح فيه المطالبَ القرآنية ، و يشرح الأهداف الربانية ، بعباراتٍ جامعةٍ واضحةٍ جليةٍ ، بحيث يبلغ إلى مغزى القرآن مَنْ ليس عنده كبيرُ علم ، ودقيقُ فهم.

٢- أنه ذكر فيه ما يُرْشِدُ إلى ربط الآيات بعضها ببعض .

٣- أنّه أورد من الأحاديث ، والآثار ما جاءَ عن النبى ﷺ ، و الصحابة ﷺ، و التابعين مُفَسِّراً للآيات القرآنية ، و شارِحاً للمرادات الربانية ، و اهتمَّ في هذا الخصوص بإيراد الصحيح ، والقوي منها دون الضعيف ، والباطل .

٤- أنه ذكر من اللطائف الغربية ، والفوائد العجيبة ، والنكات النادرة ، استنباطاً من القرآن الكريم ، ما يُثْلِج الفؤادَ ، و ما يَشْرح الصدورَ.

٥- أنه حقّقَ فيه المسائلَ ، والمباحثَ التي كانت مُشكلةً صَعبةً ، وتَحرّٰى الصوابَ والحقَّ من الغلط والباطل .

٦- أنه ردَّ وأنكرَ على الملاحدة ، والزنادقة ، والمتنوّرين هنا وهناك ، و أجاب عن الاعتراضات ، والشبهات التي أوردوها على أحكام الإسلام والقرآن.

٧- أنه التزم كلياً أن لا ينحرفَ عمّا كان عليه السلف الصالح من الصحابة ، و التابعين ، في تفسير القرآن الكريم ، وهو مولعٌ أشدَّ الولوع بأن يعرض على الأمة الإسلامية ما فهمه في هذا الخصوص أسلافناُ الكرام ، وجمهورُ العلماء من لدن عهد النبي ﷺ ، والصحابة ﷺ إلى يومنا هذا من غير انتعاش وانكماش.

خاتمة الكلام

هذا ما أردت إيراده ، ويسّرالله لي تحريره في هذه العجالة ، والحمد لله على ما أنعم به علَيّ من تسويده و تسديده ، ثم من تبييضه ، وقد وقع الفراغ من ذلك كله بعد العصر من يوم الأربعاء لسبع عشرة خلون من ذى الحجة سنة : ١٤٢٦من الهجرة . وأسأل اللّهَ تعالى أن يجعلَه نافعاً للمسلمين ، وأن يُدِيْمَ النفعَ بهذا الكتاب إلى يوم الدين، وأن يختارَه خالصاً لوجهه الكريم ، وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله و صحبه أجمعين .

تمّت

فهرس المحتويات

الموضوعات **الصفحة**

فصل

فصل

الباب الثانى فى المقاصد

فصل

فصل

فصل

فصل
المآخذ المعتبرة في التفسير

المأخذ الاول

الماخذ الثاني

المأخذ الثالث

المأخذ الرابع

تذ ئيل

الأول

الثاني

الثالث

المأخذ الخامس

المأخذ السادس

فصل

المآخذ التي لا عبرة لها في التفسير

الاول

الثاني

الثالث

فصل

الاتّجاهات المُنْحَرِفَة في التفسير وأسبابها

الباب الثالث
فى المباحث المتفرقة
فصل

فصل

فصل

فصل

فصل

فصل

فصل

الباب الرابع

فى شروط المفسر و آدابه ومنهجه

الخاتمة

فصل

فصل
طبقات المفسرين

الطبقة الأولى

الطبقة الثانية

فصل

تعريف وجيز بأشهر و أهمّ كتب التفسير

المآخذ والمراجع

اقتصرت هنا على ذكر الكتب التي جرى العزو إليها استقلالاً، بقيد اجزائها وصفحاتها، وأغفلتُ عن الكتب التي راجعت اليها، ولكني لم أثبت لها العزو أصلاً، وعن الكتب التي لم يجرالعزو إليها استقلالاً.

١— **القرآن الكريم**

٢— **أنوار التنزيل و أسرار التأويل** ، للقاضي ناصر الدين عبد اللّٰه بن عمرالبيضاوي ، المتوفىٰ سنة ٦٨٥ هـ

٣— **الإمام لادلة الأحكام** ، لعزالدين بن عبد السلام السلمي أبى القاسم ، المتوفىٰ سنة ٦٦٠ هـ

٤— **الإتقان في علوم القرآن** ، للإمام جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكرالسيوطي ، المتوفىٰ سنة ٩١١ هـ

٥— **الإصابة في تمييز الصحابة** ، للإمام الحافظ علي بن حجر العسقلاني، المتوفىٰ سنة: ٨٥٢ هـ

٦— **أبجد العلوم** ، للعلامة صديق حسن خان القنوجي ، المتوفىٰ سنة ١٣٠٧هـ

٧— **إرشاد الفحول** ، للعلامة المحقق محمد بن علي بن محمد الشوكاني، المتوفىٰ سنة ٢٥٠ هـ

٨— **الإحكام في الأصول** ، للعلامة أبي الحسن علي بن محمد الآمدي، المتوفىٰ سنة ٥٥١ هـ

٩— **الأحاديث المختار ة** ، للإمام الضيا ء أبوعبد اللّٰه محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي ، المتوفىٰ سنة : ٦٤٣ هـ

١٠— **إرشاد طلاب الحقائق** ، للإمام محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف الدين النووي ، المتوفىٰ سنة ٦٧٩ هـ

١١– **أسباب النزول** ، للإمام عليّ بن أحمد الواحد أبي الحسن الواحدي، المتوفىٰ سنة ٤٦٨ هـ

١٢– **الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف** ، للعلامة أبى الحسن علي بن سليمان للمرداوي

١٣– **إرشاد العقل السليم** ، للإمام المفسرمحمد بن محمد العمادي أبي السعود ، المتوفىٰ سنة ٩٥١ هـ

١٤– **الإرشاد** ، للإمام خليل بن عبد اللّٰه بن أحمد الخليلى أبي يعلى ، المتوفىٰ سنة ٤٤٦ هـ

١٥– **أسرار التكرار** ، للعلامة محمود بن حمزة بن نصرالكرماني

١٦– **إعلاء السنن** ، للعلامة مولانا ظفر أحمد العثماني ، المتوفىٰ سنة ١٣٩٤هـ

١٧– **إعتقاد أهل السنة** ، للإمام هبة اللّٰه بن الحسن بن منصوراللا لكائي أبي القاسم ، المتوفىٰ سنة ٤١٨ هـ

١٨– **أصول البزدوى** ، للإمام فخرالاسلام علي بن محمد البزدوي ، المتوفىٰ سنة ٨٧٩ هـ

١٩– **البرهان في علوم القر آن** ، للامام محمد بن بهادر بن عبدا لله الزركشي أبي عبداللّٰه ، المتوفىٰ سنة ٧٩٤ هـ

٢٠– **البدائع** ، للإمام العلامة مولانا أشرف علي التهانوي ، المتوفىٰ سنة ١٣٦٢ هـ

٢١– **بيان القرآن** ، للإمام العلامة مولانا أشرف علي التهانوي المتوفىٰ سنة ١٣٦٢ هـ

٢٢– **التفسيرات الأحمدية** ، للعلامة الشيخ أحمد المدعو بملا جيون جونفوري ، المتوفىٰ سنة ١١٣٠ هـ

٢٣– **تفسير الطبري** ، للإمام محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري أبي جعفر، المتوفىٰ سنة ٢٢٤ هـ

٢٤— **تفسير القرآن العظيم** ، للإمام الجليل إسماعيل بن كثير الدمشقي القرشي ، المتوفىٰ سنة ٧٧٤ هـ)
٢٥— **تنزيل القرآن** ، للإمام محمد بن الشهاب الزهري ، المتوفىٰ سنة : ١٢٤ هـ
٢٦— **تفسير الصنعاني** ، للمحدث عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، المتوفىٰ سنة ٢١١ هـ
٢٧— **تأويل مشكل القرآن** ، للإمام العلامة ابن قتيبة الدينوري
٢٨— **التبيان في آداب القرآن** ، للإمام محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي ، المتوفىٰ سنة ٦٧٩ هـ
٢٩— **التدوين في أخبار قزوين** ، للإمام عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني
٣٠— **تاريخ الخلفاء** ، للإمام جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، المتوفىٰ سنة ٩١١ هـ
٣١— **تاريخ بغداد** ، للإمام المحدث أحمد بن علي أبيبكرالخطيب البغدادي، المتوفىٰ سنة: ٤٦٣ هـ
٣٢— **تهذيب الأسماء** ، للإمام محي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، المتوفىٰ سنة: ٦٧٩ هـ
٣٣— **التاريخ الكبير** ، للإمام المحدث محمد بن إسماعيل البخاري ، المتوفىٰ سنة: ٢٥٦ هـ
٣٤— **تهذيب الكمال** ، للإمام المحدث يوسف بن ذكي عبد الرحمان المِزّي المتوفىٰ سنة: ٧٤٢ هـ
٣٥— **تذكرة الحفاظ** ، للإمام أبي عبد اللّٰه شمس الدين الذهبي ، المتوفىٰ سنة : ٧٦٥ هـ
٣٦— **تهذيب التهذيب** ، للإمام الحافظ علي بن حجر العسقلاني ، المتوفىٰ: سنة :٨٥٢ هـ

٣٧- **التمهيد** ، للإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمري ، المتوفىٰ سنة: ٤٦٣ هـ

٣٨- **تعليقات على مقدمة اعلاء السنن** ، للعلامة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة

٣٩- التعريفات ، للعلامة علي بن محمد بن علي الجرجاني ، المتوفىٰ سنة ٧٤٠ هـ

٤٠- **التواجه بما يتعلق بالتشابه** ، للإمام العلامة مولانا أشرف علي التهانوي، المتوفىٰ سنة:١٣٦٢ هـ

٤٢- **التفسير والمفسرون** ، للدكتور محمد حسين الذهبي

٤٣- **الجامع لأحكام القرآن** ،للإمام أبي عبد اللّٰه محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، المتوفىٰ سنة: ٦٧١ هـ

٤٤- **جواهر القرآن** ، للعلامة جوهري الطنطاوي

٤٥- **جامع العلم والعلماء** ، للإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمري ، المتوفىٰ سنة : ٤٦٣ هـ

٤٦- **جامع الترمذي** ، للإمام أبي عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سبورة الترمذي ، المتوفىٰ سنة : ٢٦٩ هـ

٤٧- **الجامع الصغير** ، للإمام جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي ، المتوفىٰ سنة: ٩١١ هـ

٤٨- **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع** ، للإمام أحمد بن علي أبي بكر الخطيب البغدادي ، المتوفىٰ سنة : ٤٦٣ هـ

٤٩- **جامع التحصيل** ، للإمام العلامة أبي سعيد بن خليل العلائي ، المتوفىٰ سنة: ٧٦١ هـ

٥٠- **الجرح والتعديل** ، للإمام سليمان بن خلف بن سعد أبي الوليد الباجي، المتوفىٰ سنة: ٤٧٤ هـ

٥١- **الحسامي** ، للعلامة الفقيه أبي عبد الله حسام الدين محمد بن محمد، المتوفىٰ سنة: ٦٤٤ هـ

٥٢- **حلية الأولياء** ، للإمام أبي نعيم أحمد بن عبد اللّه الأصبهاني ، المتوفىٰ سنة : ٤٣٠ هـ

٥٣- **الدر المنثور** ، للإمام جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، المتوفىٰ سنة: ٩١١ هـ

٥٤- **ذيل تذكرة الحفاظ** ، للعلامة الشيخ أبي المحاسن محمد بن على الدمشقي، المتوفىٰ سنة: ٧٦٥ هـ

٥٥- **روح المعاني** ، للعلامة المفسر سيد محمود الآلوسي البغدادي، المتوفىٰ سنة : ١٢٧٠ هـ

٥٦- **الرسالة** ، للإمام محمد بن إدريس الشافعي ، المتوفىٰ سنة :٢٠٤ هـ

٥٧- **الرسالة المستطرفة** ، للإمام محمد بن جعفر الكتاني ، المتوفىٰ سنة : ١٣٤٥ هـ

٥٨- **زاد الميسر** ، للإمام أبي الفرج عبد الرحمان ابن علي الجوزي ، المتوفىٰ سنة: ٥٩٧ هـ

٥٩- **السنن الصغرىٰ** ، للإمام أبي عبد الرحمان أحمد بن شعيب بن علي النسائي ، المتوفىٰ سنة: ٣٠٣ هـ

٦٠- **سنن أبي د اؤد** ، للإمام سليمان بن الأشعث أبي داؤد السجستاني ، المتوفىٰ سنة: ٢٧٥ هـ

٦١- **سنن ابن ماجه** ، للإمام محمد بن يزيد أبي عبد اللّٰه القزويني ، المتوفىٰ سنة: ٢٧٥ هـ

٦٢- **سنن الدارمي** ، للإمام أبي عبد اللّٰه بن عبدا لرحمن التيمي ، السمرقندي الدارمي ، المتوفىٰ سنة : ٢٥٥ هـ

٦٣- **السنن** ، للإمام سعيد بن منصور ، المتوفىٰ سنة : ٢٢٧ هـ

٦٤- **السنن الكبري** ، للإمام أبي عبد الرحمان أحمد بن شعيب بن علي النسائي ، المتوفىٰ سنة: ٣٠٣ هـ

٦٥- **سير أعلام النبلاء** ، للإمام أبي عبد اللّٰه شمس الدين الذهبي ، المتوفىٰ

سنة: ٧٦٥ هـ
٦٦- **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، للدكتورمصطفي السباعي
٦٧- **شعب الإيمان**، للإمام أحمد بن حسين بن علي أبي بكر البيهقي، المتوفىٰ سنة: ٤٥٨ هـ
٦٨- **شرح الفقه الأكبر**، للإمام الشيخ علي بن سلطان الملا علي القاري، المتوفىٰ سنة: ١٠٤١ هـ
٦٩- **شرح العقائد النسفية**، للعلامة سعود بن عمر التفتازاني، المتوفىٰ سنة: ٧٩٢ هـ
٧٠- **الصحيح الجامع**، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، المتوفىٰ سنة: ٢٥٦ هـ
٧١- **الصحيح الجامع**، للإمام أبي الحسين مسلم ابن الحجاج بن مسلم القشيري، المتوفىٰ سنة: ٢٦١ هـ
٧٢- **الصحيح**، للإمام محمد بن حبّان أحمد التميمي البستي، المتوفىٰ سنة: ٣٥٤ هـ
٧٣- **صفوة الصفوة**، للإمام أبي الفرج عبد الرحمان ابن علي الجوزي، المتوفىٰ سنة: ٥٧٩ هـ
٧٤- **الضعفاء**، للإمام المحدث أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، المتوفىٰ سنة: ٤٣٠ هـ
٧٥- **الضعفاء والمتروكين**، للإمام المحدث عبد الرحمان بن علي الجوزي، المتوفىٰ سنة: ٥٧٩ هـ
٧٦- **الطبقات الكبرىٰ**، للإمام محمد بن سعد أبي عبد الله البصري الزهري، المتوفىٰ سنة: ٢٣٠ هـ
٧٧- **طبقات المفسرين**، للإمام أحمد بن محمد الأدنروي
٧٨- **طبقات المفسرين**، للإمام جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، المتوفىٰ سنة: ٩١١ هـ

٧٩– **طبقات الحفاظ** ، للإمام جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي ، المتوفىٰ سنة : ٩١١ هـ
٨٠– **الطبقات** ، للعلامة ابن خياط أبي عمر الليثي ، المتوفىٰ سنة : ٢٤٠ هـ
٨١– **العقائد النسفية** ، للعلامة عمر نجم الدين بن محمد بن أحمد النسفي، المتوفىٰ سنة : ٥٣٧ هـ
٨٢– **علوم الحديث** ، للإمام الحافظ أبي عمر الشهر زوري المعروف بابن الصلاح ، المتوفىٰ سنة : ٦٤٣ هـ
٨٣– **علم أصول الفقه** ، للعلامة عبد الوهاب الخلاف المصري
٨٤– **العلل ومعرفة الرجال** ، للإمام الفقيه المجتهد أحمد ابن حنبل الشيباني، المتوفىٰ سنة : ٢٤١ هـ
٨٥– **فتح القدير** ، للعلامة الشيخ محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، المتوفىٰ سنة : ١٢٥٠هـ
٨٦– **في ظلال القرآن في تفسير القرآن** ، للعلامة سيد قطب شهيد المصري
٨٧– **فتح الباري في شرح البخاري** ، للإمام الحافظ علي بن حجر العسقلاني ، المتوفىٰ سنة : ٨٥٢ هـ
٨٨– **الفوز الكبيرفي أصول التفسير** ، للإمام الشيخ الشاه ولي الله الدهلوي، المتوفىٰ سنة : ١١٧٦هـ
٨٩– **فتح القدير** ، للإمام العلامة كمال الدين محمد بن عبد الواحد ابن الهمام الحنفي ، المتوفىٰ سنة : ٦٨١ هـ
٩٠– **مجموعة الفتاوى** ، للإمام شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبدالسلام بن تيمية ، المتوفىٰ سنة : ٧٢٢ هـ
٩١– **فتح المغيث في شرح ألفية الحديث** ، للإما م شمس ا لدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد السخاوي ، المتوفىٰ: ٩٠٤ هـ
٩٢– **الفتوحات المكية** ، للامام محي الدين ابن عربي الطائي ، المتوفىٰ سنة : ٦٣٨ هـ

٩٣– **قلائد المرجان في الناسخ والمنسوخ** ، للعلامة مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي ، المتوفىٰ سنة :١٠٣٣ هـ

٩٤– **كتاب الزهد** ، للإمام المحدث عبد الله بن المبارك ، المتوفىٰ سنة : ١٨١ هـ

٩٥– **كشف الظنون** ، للشيخ مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي ، المتوفىٰ سنة :١٠٩٨ هـ

٩٦– **الكامل في ضعفاء الرجال** ، للإمام عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد أبي أحمد الجرجاني ، المتوفىٰ سنة : ٣٦٥ هـ

٩٧– **لباب النقول في أسباب النزول** ، للإمام جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي ، المتوفىٰ سنة : ٩١١ هـ

٩٨– **لسان الميزان** ، للإمام الحافظ علي بن حجر العسقلاني ، المتوفىٰ سنة : ٨٥٢ هـ

٩٩– **معالم التنزيل** ، للإمام حسين بن مسعود الفراء البغوي أبي محمد ، المتوفىٰ سنة : ٥١٦ هـ

١٠٠– **معاني القرآن** ، للإمام أبي جعفر النحاس ، المتوفىٰ سنة : ٢٣٨ هـ

١٠١– **مفردات القرآن** ، للإمام أبي القاسم الحسين بن أحمد الراغب الأصفهاني ، المتوفىٰ سنة : ٥٠٢ هـ

١٠٢– **مناهل العرفان** ، للعلامة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني

١٠٣– **مباحث في علوم القرآن** ، للعلامة الشيخ مناع القطان

١٠٤– **الموطّأ** ، للإمام أبي عبدالله مالك بن أنس ، المتوفىٰ سنة : ١٧٩هـ

١٠٥– **مسند اسحاق** ، للإمام إسحاق بن ابراهيم بن مخلد بن راهويه الحنزلي ، المتوفىٰ سنة : ٢٣٦ هـ

١٠٦– **المسند** ، للإمام الفقيه المجتهد أحمد ابن حنبل الشيباني ، المتوفىٰ سنة : ٢٤١ هـ

١٠٧– **مسند الفردوس** ، للإمام أبي شجاع شيرويه الديلمي ، المتوفىٰسنة : ٥٠٩ هـ

١٠٨- **المعجم الأوسط** ، للإمام أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، المتوفىٰ سنة: ٣٦٠ هـ
١٠٩- **المعجم الكبير** ، للإمام أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، المتوفىٰ سنة: ٣٦٠ هـ
١١٠- **المصنف** ، للإمام أبي بكر عبدا للّٰه بن محمد بن أبي شيبة الكوفي ، المتوفىٰ سنة : ٢٣٥ هـ
١١١- **المستدرك** ، للإمام أبي عبد اللّٰه الحاكم النيسابوري ، المتوفىٰ سنة : ٤٠٥ هـ
١١٢- **المصنف** ، للإمام عبدا لرزاق بن همام الصنعاني ، المتوفىٰ سنة: ٢١١ هـ
١١٣- **مجمع الزوائد** ، للإمام علي بن أبي بكر الهيثمي ، المتوفىٰ سنة : ٨٠٧ هـ
١١٤- **مفتاح الجنة** ، للإمام جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي ، المتوفىٰ سنة : ٩١١ هـ
١١٥- **الموسوعة الفقهية** ، وزارة الأوقاف . كويت
١١٦- **الموافقات في أصول الأحكام** ، للحافظ أبي إسحاق إبراهيم الشاطبي، المتوفىٰ سنة : ٧٩٠ هـ
١١٧- **المستصفى من علم الأصول** ، للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ، المتوفىٰ سنة : ٥٠٥ هـ
١١٨- **المصفّٰى من علم الناسخ والمنسوخ** ، للإمام أبي الفرج عبد الرحمان ابن علي الجوزي، المتوفىٰ سنة : ٥٧٩ هـ
١١٩- **معرفة علوم الحديث** ، للإمام أبي عبد اللّٰه الحاكم النيسابوري المتوفىٰ سنة : ٤٠٥ هـ
١٢٠- **المحدث الفاصل** ، للإمام حسن بن عبد الرحمان الرامهرمزي ، المتوفىٰ سنة: ٣٦٠ هـ
١٢١- **معرفة الثقات** ، للإمام أحمد بن عبد اللّٰه بن صالح أبي الحسن

العجلي ، المتوفىٰ سنة : ٢٦١ هـ

١٢٢ــ **المعجم البلدان** ، للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد اللّٰه ياقوت الحموي ، المتوفىٰ سنة:٦٢٦ هـ

١٢٣ــ **المقدمة** ، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون ، المتوفىٰ سنة : ٨٠٨ هـ

١٢٤ــ **الموضوعات** ، للإمام أبي الفرج عبد الرحمان بن الجوزي المتوفىٰ سنة : ٥٧٩ هـ

١٢٥ــ **ميزان الإعتدال** ، للإمام أبي عبد اللّٰه شمس الدين الذهبي ، المتوفىٰ سنة : ٧٦٥ هـ

١٢٦ــ **الناسخ والمنسوخ** ، للإمام هبة اللّٰه بن سلامة بن نصرالمقري ، المتوفىٰ سنة : ٤١٠ هـ

١٢٧ــ **الناسخ والمنسوخ** ، للعلامة علي بن أحمد ابن حزم الظاهرى أبي محمد ، المتوفىٰ سنة : ٤٥٦ هـ

١٢٨ــ **الناسخ والمنسوخ** ، للإمام أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي النحاس ، المتوفىٰ سنة : ٣٣٩ هـ

١٢٩ــ **نور الأنوار** ، للشيخ العلامة أحمد المدعو بملا جيون الجونفوري ، المتوفىٰ سنة :١١٣٠ هـ

١٣٠ــ **نهاية السول في شرح منهاج الوصول** ، للعلامة جمال الدين عبد الرحيم الأسنوي، المتوفىٰ سنة : ٧٧٢ هـ

١٣١ــ **ناسخ القرآن ومنسوخه** ، لهبة اللّٰه بن عبد الرحيم بن إبراهيم المتوفىٰ سنة : ٧٣٨ هـ

١٣٢ــ **النكت على ابن الصلاح** ، للإمام الحافظ علي بن حجر العسقلاني ، المتوفىٰ سنة : ٨٥٢ هـ

١٣٣ــ **يتيمة البيان لمشكلات القرآن** ، للعلامة المحدث محمد يوسف البنوري ، المتوفىٰ سنة : ١٣٩٨هـ

تمّت